١

الإسلام

والتنافس الحضاري

الإسلام

والتنافس الحضارى

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد

منشية الصدر - القاهرة

١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م

الإسلام دين التقدم والحضارة ـ النصوص تتكلم

الإسلام دين حضارى جاء لتيسير حياة البشر وتقليل متاعبها وإزعاجاتها إلى أقل حد ممكن من جهة، ولدفعها إلى الأمام وتطويرها إلى أحسن وضع متاح من جهة أخرى. ومكانه كل أرجاء الحياة: فهو للمسجد وللشارع وللبيت وللحقل وللمصنع وللمدرسة وللجامعة وللسوق وللحمام وللمحكمة ولوسائل المواصلات ووسائل الإعلام وللمكتبات وللورش وللفرد وللجماعة وللشعب وللحكومة وللعلاقات الشخصية وللعلاقات الأسرية وللعلاقات الاجتماعية وللعلاقات الدولية وللملابس وللطعام وللجسد وللجنس وللعواطف وللحب وللصداقة وللزمالة وللجيرة وللإقامة وللسفر وللسياحة وللإجازة وللعقل وللفكر وللإبداع وللفن وللذوق واللياقة وللنظام وللإتقان وللصحة وللضمير وللأخلاق وللظاهر وللباطن وللدنيا وللآخرة وللعزة وللكرامة. إنه لكل شىء، وليس للمسجد والعبادة واللحية والجلباب فقط وما أشبه مما يظن كثير من الناس خطأ وضلالا أن الإسلام مقصور عليه ومنحصر فيه لا يخرج عنه. وكانت النتيجة أن كثيرا جدا من المسلمين تتعايش والزبالة والضوضاء والتخلف والفساد والقبح والتشويه والهوان وغلظ المشاعر وتيبُّس الضمائر وزيغها عن الحق دون أن تحس أن ثم شيئا خطأ، بل الأشياء كلها عندهم معدن وتمام التمام. بل إنهم إذا ما برز من بينهم من يحاول مساعدتهم والأخذ بيدهم لانتشالهم من هذه الوهدة المظلمة العفنة البعيدة القرار التى هم فيها فإنهم يكرهونه ويعادونه، بل ويعتدون عليه يبغون التخلص منه حتى يتجنبوا ما يزعجهم به من تنبيههم إلى تقصيرهم وابتهاجهم بالهوان والجهل والتخلف والاعوجاج والقبح والقذارة والفساد الشامل الطامى. ومن هنا نرى كثيرا من غير المسلمين ينفرون من الإسلام لما يرَوْنَه من حال معتنقيه، ولسان حالهم يقول إن "حالهم يغنى عن سؤالهم". فلو كان الإسلام دينا طيبا لانعكس هذا على حياة أتباعه. هكذا يقولون، غافلين عن أن أتباعه لا يمثلونه للأسف، بل هم أسوأ دعاية له. ويا ليت أولئك القوم يكتفون بالنفور منه بل إنهم ليسخرون به ويعيبونه، ويتطاولون على رسوله وكتابه، ويتهمون هذا الذين العظيم بكراهية الحياة

وعداوة التقدم والنفور من التحضر وظلم المرأة ورفض حرية التفكير والاعتقاد والتعبير وفرض نفسه على الناس بالقوة والحرب.

وهم فى هذا إنما ينطلقون مما يسمونه: "Clash of Civilisations"، أى "صراع الحضارات" أو "صدام الحضارات"، وهو مصطلح يشى برغبة كل طرف فى صرع الطرف الآخر، أى هزيمته وإسقاطه على الأرض وإخراجه من الساحة مع أن الساحة بحمد الله "تسع من الحبايب ألفا". وهم، فى هذا الصراع، يرون من حقهم استخدام كل الوسائل المتاحة خيرا كانت أم شرا، صوابا كانت أم باطلا، مشروعة كانت أم غير مشروعة. فالمهم أن يغلبوا الطرف الثانى الذى يصارعونه ويصرعوه ويقضوا عليه. أما أنا فأرى أنه ينبغى لنا التخلص من هذا المصلطح وأن نستبدل به مصطلح "التنافس الحضارى" حيث يعمل كل طرف على أن يبذل خير ما عنده ويتفوق على الطرف الآخر، الذى يبذل هو أيضا خير ما عنده، وبهذا تُثْرِى الحضارةُ ويستفيد البشر جميعا: المتفوق والمتفوَّق عليه وينعم الطرفان كلاهما بخيرات الدنيا ويتعاونان بدلا من أن يعمل كل منهما على صرع الآخر وإقصائه عن الحياة. وقد أوحى لى بهذا المصطلح قوله تعالى: "وفى ذلك فليتنافس المتنافسون". وهناك أيضا مصطلح "الاستباق" فى قوله عز شأنه: "فاستبقوا الخيرات"، أى فليبذل كل منكم جميع ما عنده من جهد وطاقة بغية سبق الآخرين، الذين عليهم بدورهم بذل جميع ما ليدهم من جهد وطاقة لسبق الطرف الآخر، ومن ثم يستفيد الطرفان والبشر جميعا. وسواء أخذنا بهذا المصطلح أو ذاك فالمعنى واضح، وهو معنى إيجابى عظيم ليس فيه تناحر ولا تصارع ولا تصادم وإقصاء بل تنافس وتسابق وتعاون على البر والخيرات وكل ما من شأنه إفادة الإنسانية فى جميع أرجاء الأرض. أما لو أصر الطرف الآخر على الصراع فليس أمامنا إلا الصمود والمدافعة عن كياننا وشخصيتنا وبلادنا وديننا لا مَعْدَى لنا عن ذلك. ومبدؤنا هو "ولاتعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين"، "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله"، "لا تتمنَّوْا لقاء العدو، ولكن إذا لقيتموهم فاثبتوا". وكانت الدولة المصرية قبل عقود ترفع شعار "نسالم من يسالمنا، ونعادى من يعادينا". ومن هنا رأيت أن أورد عددا كافيا من نصوص القرآن والسنة تبين المبادئ العقلية

والنفسية والاجتماعية والخلقية الإيجابية الخيرة التى يدعو إليها الإسلام والتى لا يمكن أن نجدها فى أى دين آخر، مع التركيز على الجوانب التى يهملها كثير من المسلمين تصورا منهم أنها ليست من الدين، إذ الدين عندهم صلاة وصيام ولحية وجلباب قصير وتمتمات ببعض الأدعية والصيغ، وكان الله بالسر عليما. وها هى ذى المبادئ المذكورة، وقد وضعتُ كل طائفة منها تحت عنوان عام.

الأخلاق:

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)" (سورة البقرة).

"كُلُّ نَفسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)" (سورة آل عمران).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)" (سورة آل عمران).

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)" (سورة الأنفال).

"وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)" (سورة هود).

"وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)" (سورة هود).

"وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)" (سورة الرعد).

"أُولَئِكَ يجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)" (سورة الفرقان).

"وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)" (سورة الشورى).

ويقول الرسول الكريم صلوات الله وسلاماته عليه: "لا تَمَنَّوْا لقاء العدو. فإذا لقيتموهم فاصبروا".

"إن الله قال: إذا ابتليتُ عبدى بحبيبتيه فصبر عوضتُه منهما الجنة". يريد عينيه.

"عن أنس بن مالك: يقول لامرأة من أهله: تعرفين فلانة؟ قالت: نعم. قال: فإن النبى صلى الله عليه وسلم مَرَّ بها وهى تبكى عند قبر، فقال: اتقى الله واصبرى. فقالت: إليك عنى، فإنك خلو من مصيبتى. قال: فجاوزها ومضى، فمر بها رجل فقال: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: ما عرفته. قال: إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بوابا، فقالت: يا رسول الله، والله ما عرفتك. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن الصبر عند أول صدمة".

"لما كان يوم حنين آثر النبى صلى الله عليه وسلم ناسا: أعطى الأقرع مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أريدَ بهذه القسمة وجهُ الله. فقلت: لأخبرن النبى صلى الله عليه وسلم. قال: رحم الله موسى! قد أُوذِى بأكثر من هذا فصبر".

" كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها فى الموت، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "ارجع فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى. فَمُرْها فلْتَصْبِر ولْتَحْتَسِبْ". فأعادت الرسول أنها أقسمتْ لتأتينَّها، فقام النبى صلى الله عليه وسلم، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، فدُفِع الصبى إليه، ونفسه تقعقع كأنها فى

شَنّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء".

"أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة منى، فإن يكُ فى الجنة أَصْبِر وأَحْتَسِب، وإن تكن الأخرى تَرَ: ما أصنع؟ فقال: ويحك... أَوَجَنَّةٌ واحدةٌ هى؟ إنها جِنَانٌ كثيرة، وإنه لفى جنة الفردوس".

"عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سَرّاءُ شكر، فكان خيرا له. وإن أصابته ضَرّاءُ صبر، فكان خيرا له".

"شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حُنَينًا، فقال لرجل ممن يدعى بالإسلام: "هذا من أهل النار". فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالا شديدا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذى قلت له آنفا: "إنه من أهل النار" فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "إلى النار"، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحا شديدة! فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأُخْبِر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: الله أكبر! أشهد أنى عبد الله ورسوله". ثم أمر بلالا فنادى فى الناس: "إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".

"من ابتُلِى بشىء من البنات (أى رزقه الله ببنات لا بأولاد ذكور) فصبر عليهن كن له حجابا من النار".

"سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال: الصبر والسماحة".

"(عن عبد الله بن العباس:) كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى. فقال: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده أمامك. تعرَّفْ إليه فى الرخاء يعرفك فى الشدة. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. قد جف القلم بما هو كائن: فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه. وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه. فاعمل لله بالشكر واليقين، واعلم

أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا".

"إن الله كتب الغيرة على النساء، وكتب الجهاد على الرجال، فمن صبر منهن احتسابا كان له أجر شهيد".

"من تصبَّرَ يصَبِّره الله".

"من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له فى كل شىء يصاب من ثمرها صدقةٌ عند الله عز وجل".

"لأنا لفتنةِ السَّرّاء أَخْوَفُ عليكم من فتنة الضَّرّاء. إنكم ابتُلِيتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإن الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ".

"من وُعِكَ ليلةً فصبر ورضى بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كيومِ ولدته أمه".

"(عن عائشة:) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فقال: كان عذابا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين. ما من عبد يكون فى بلد يكون فيه، ويمكث فيه لا يخرج من البلد صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد".

"يأتى على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر".

"(قال عبد الله بن عمرو بن العاص:) يا رسول الله، أخبرنى عن الجهاد والغزو. فقال: يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا. يا عبد الله بن عمرو، على أى حال قاتلتَ أو قُتِلْتَ بعثك الله على تلك الحال".

"أربعٌ من أُعْطِيهُنَّ فقد أُعْطِى خَيرَى الدنيا والآخرة: قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لا تبغيه حُوبًا فى نفسها وماله".

"عن عائشة رضى الله عنها قالت: من قدَّم من ولده ثلاثة صابرا محتسبا حجبوه بإذن الله تعالى من النار".

"لما كان يومُ أُحُد قُتِل من الأنصار أربعة وستون رجلا، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنُرْبِينَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يعْرَف: لا قريش بعد اليوم. فنادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَمِنَ الأسودُ والأبيضُ إلا فلانا وفلانا (ناسا سماهم)، فأنزل الله تبارك وتعالى: "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نَصْبِر ولا نعاقِب".

ويقول القرآن فى الصدق وسموّ مكانة الصادقين: "إِذْ قَالَ الْحَوَارِيونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ ينَزِّلَ عَلَينَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)" (سورة المائدة).

"قَالَ اللَّهُ هَذَا يوْمُ ينْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)" (سورة المائدة).

"عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يتَبَينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)" (سورة التوبة).

"وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠)" (سورة الإسراء).

"أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يتْرَكُوا أَنْ يقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لا يفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)" (سورة العنكبوت).

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)" (سورة الأحزاب).

"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيجْزِى اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)" (سورة الأحزاب).

"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)" (سورة الأحزاب).

"قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧)" (سورة آل عمران).

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)" (سورة الحجرات).

"مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لا يكُونَ دُولَةً بَينَ الأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَينْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨)" (سورة الحشر).

وفى السنة النبوية المطهرة "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر، فأَوَوْا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصدق، فلْيدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَدَق فيه. فقال واحد منهم: اللّهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجيرٌ عَمِل لى على فِرْقٍ من أرز، فذهب وتركه، وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقرا، وأنه أتانى يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك

البقر فسُقْها. فقال لى: إنما لى عندك فرق من أرز. فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق. فساقها. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. فانساحت عنهم الصخرة. فقال الآخر: اللّهم إن كنت تعلم: كان لى أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلى وعيالى يتضاغَوْن من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما. فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء. فقال الآخر: اللّهم إن كنت تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلى، وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتُها حتى قَدَرْتُ. فأتيت بها فدفعتها إليها فأمكنتنى من نفسها. فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله، ولا تَفُضّ الخاتم إلا بحقه. فقمت وتركت المائة دينار. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. ففرّج الله عنهم فخرجوا".

"عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البِرّ، وإن البِرّ يهدى إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكْتَب عند الله صديقا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكْتَب عند الله كذابا".

"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة".

"(قال أبو بكر الصديق:) إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قام فينا عامَ أَوَّل فقال: ألا إنه لم يقْسَم بين الناس شىء أفضل من المعافاة بعد اليقين. ألا إن الصدق والبِرّ فى الجنة. ألا إن الكذب والفجور فى النار".

"سمع النبى صلى الله عليه وسلم جلبة خصام عند بابه، فخرج عليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتينى الخصم، فلعل بعضًا أن يكون أبلغ من بعض. أقضى له بذلك، وأحسب أنه صادق. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار. فليأخذها أو ليدعها".

"من طلب الشهادة صادقا أُعْطِيها، ولو لم تصبه".

"من مات وهو يشهد أنْ لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، صادقا من قلبه دخل الجنة".

"(عن عبد الله بن عمرو بن العاص:) قلنا: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: ذو القلب المخموم، واللسان الصادق. قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فماذا القلب المخموم؟ قال: هو التقى النقى الذى لا إثم فيه ولا بغى ولا حسد".

"إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللّهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، وأسألك لسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب".

العلم:

وفى القرآن آيات كثيرة تبرز سعة آفاق العلم وعدم انتهائها عند حد، كقوله تعالى: "سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تُنْبِت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" (يس/ ٣٦)، "والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً، ويخلق ما لا تعلمون" (النحل/ ٨)، "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" (الإسراء/ ٨٥)، "وفوق كل ذى علم عليم" (يوسف / ٧٦.)، ثم هذه الآية التى يأمر فيها العليم الحكيم رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام أنْ "قل: رب، زدنى علما" (طه/ ١١٤). إن هذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يأمر فيها الله رسوله أن يستزيد من شىء. ولنلاحظ أن المأمور بذلك هو محمد، الذى كان يتنزل عليه الوحى صباح مساء. وعندنا كذلك هذه الآية التى يسوى فيها القرآن بين الجهاد فى سبيل الله وطلب العلم، إذ يسمى كلا منهما: "نَفْرًا"، والتى يحض فيها المؤمنين أن يبقى من كل فرقة منهم طائفة مع الرسول فى المدينة حين لا يخرج للغزو مع الجيش من أجل أن تتفقه هذه الطائفة فى الدين: "وما كان المؤمنون لينْفِروا كافة. فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحْذَرون" (التوبة/ ١٢٢).

وننتقل الآن إلى الحديث الشريف، ونسوق منه النصوص التالية، وهى كلها نصوص عجيبة فريدة لا نظير لها فى أى دين أو مذهب أو فلسفة:

"ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رِضًا بما يصنع".

"من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع".

"طلب العلم فريضة على كل مسلم".

"منهومان لا يقضى أحدهما نهمته: منهوم فى طلب العلم لا يقضى نهمته، ومنهوم فى طلب المال لا يقضى نهمته".

"اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم".

"طلب العلم فريضة على كل مسلم. وإنّ طالب العلم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر".

"إن الله عز وجل أوحى إلى أنه من سلك مسلكا فى طلب العلم سهلت له طريق الجنة".

"من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما. ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر".

"فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض".

"خيار أمتى علماؤها، وخيار علمائها رحماؤها. ألا وإن الله تعالى ليغفر للعالم أربعين ذنبا قبل أن يغفر للجاهل ذنبا واحدا. ألا وإن العالم الرحيم ليجىء يوم القيامة وإن لنوره ضوءا يمشى فيه ما بين المشرق والمغرب".

"ذُكِر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصَلُّون على معلِّم الناس الخير".

"فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب".

"من كانت له جارية فأحسن أدبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران اثنان".

"العيافة والطَّرْق والطِّيرة من الجِبْت". والعيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يُخَطّ فى الأرض. والجبت: الشيطان.

"من أتى عرّافا فسأله عن شىء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة".

"من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِل على محمد".

"أكبر الكبائر عند الله يومَ القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمْى المحصَنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم".

"جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله عز وجل". قال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله". قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرنى عن العلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل".

"إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسُئِلوا فأَفْتَوْا بغير علم، فضلوا وأضلوا".

العمل:

"وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَينَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)" (سورة التوبة).

"وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيبْلُوَكُمْ أَيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا... (٧)" (سورة هود).

"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيينَّهُ حياةً طَيبَةً وَلَنَجْزِينَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ (٩٧)" (سورة النحل).

"مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يبَدِّلُ اللَّهُ سَيئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)" (سورة الفرقان).

"وَلَمَّا وَرَدَ (أى موسى) مَاءَ مَدْينَ وَجَدَ عَلَيهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأتَينِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِى حَتَّى يصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَى مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْياءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يدْعُوكَ لِيجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِى الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَى هَاتَينِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِى حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَينِى وَبَينَكَ أَيمَا الأَجَلَينِ قَضَيتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَى وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)" (سورة القَصَص).

"وَلَقَدْ آَتَينَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ (أى دروعا سابغة) وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ (أى أَحْكِم النسج) وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)" (سورة سبأ).

"وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يعْمَلُ بَينَ يدَيهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يعْمَلُونَ لَهُ مَا يشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِياتٍ اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِى الشَّكُورُ (١٣)" (سورة سبأ).

"وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)" (سورة الزخرف).

"وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيرٍ يوَفَّ إِلَيكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ لا يسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الأَرْضِ يحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)" (سورة البقرة).

ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أكل أحد طعاما قَطُّ خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده".

"لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس".

"من أمسى كالًا من عمل يده أمسى مغفورا له".

"ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة".

"اِكْلَفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمَلُّ حتى تملُّوا. وإنّ أَحَبّ العمل إلى الله أَدْوَمُه، وإنْ قَلَّ".

"نزل رسول الله على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغّب المسلمين فى العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه. فقال قائل من المسلمين:

لَئِنْ قعدْنا، والنبى يعملُ * لَذَاكَ منّا العمل المضلَّلُ

وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون:

لا عيش إلا عيش الآخـرة * اللّٰهم ارحم الأنصار والمهاجرة

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا عيش إلا عيش الآخرة. اللّٰهم ارحم المهاجرين والأنصار. قال: فيدخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللَّبِن، فقال يا رسول الله: قتلونى! يحملون على ما لا يحملون. قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وَفْرَتَه بيده، وكان رجلًا جَعْدًا، وهو يقول: وَيحَ ابن سمية! ليسوا بالذين يقتلونك. إنما يقتلك الفئة الباغية".

"(عن عائشة:) كان (الرسول) فى مهنة أهله: يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق".

"إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة. قالوا: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: الهموم فى طلب المعيشة".

"ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة".

"مر على النبى صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان خَرَج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على نفسه يعِفّها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو فى سبيل الشيطان".

"لما قدموا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال: أقاسمك مالى، وأنزل لك عن إحدى امرأتى. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. فخرج إلى السوق فباع واشترى فأصاب شيئا من أَقِطٍ وسمن، فتزوج".

"(عن أسماء بنت أبى بكر:) تزوجنى الزبير، وما له فى الأرض من مال ولا مملوك، ولا شى غير ناضح وغير فرسه. فكنت أعلف فرسه وأستقى الماء، وأخرز غَرْبَه وأعجن. ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لى من الأنصار، وكنّ نسوة صدق. وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسى، وهى منى على ثلثى فرسخ".

"(عن على بن أبى طالب:) خرجت فى يومٍ شاتٍ من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أخذتُ إهابا معطونا جوبت وسطه فأدخلته عنقى، وشددت وسطى فحزمته بخُوص النخل، وإنى لشديد الجوع. ولو كان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام لطعمت منه. فخرجت ألتمس شيئا، فمررت بيهودى فى مال له، وهو يسقى ببكرة له، فاطَّلَعْتُ عليه من ثُلْمَة فى الحائط، فقال: ما لك يا أعرابى؟ هل لك فى كل دلوٍ بتمرة؟ قلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل. ففتح فدخلت، فأعطانى دلوه. فكلما نزعتُ دلوا أعطانى تمرة. حتى إذا امتلأت كفى أرسلت دلوه وقلت:

حَسْبِى. فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت المسجد، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه".

"جاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ما لى أرى لونك منكفتا؟ قال: الخَمْص. فانطلق الأنصارى إلى رَحْله فلم يجد فيه شيئا، فخرج يطلب، فإذا هو بيهودى يسقى نخلا له، فقال الأنصارى لليهودى: أسقى نخلك؟ قال: نعم، كل دلو بتمرة. واشترط الأنصارى عليه ألا يأخذ فيه جرزة ولا تارزة ولا حشفة، ولا يأخذ إلا جيدة. فاستقى له بنحو من صاعين، ثم أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من أين لك هذا؟ فأخبره الأنصارى، وكان يسأل عن الشىء إذا أُتِى به، فأرسل إلى نسائه بصاع، وأكل هو وأصحابه صاعا".

"عن عائشة أنها قالت: كان الناس أهل عمل، ولم يكن لهم كُفَاة، فكانوا يكون لهم تَفَلٌ، فقيل لهم: لو اغتسلتم يوم الجمعة؟".

"إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

"إن الله تعالى يحبّ من العامل إذا عمل أن يحْسِن".

"إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد. وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل: "ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات؟"، و"يمحق الله الربا ويرْبِى الصدقات"".

"لما نزلت هذه الآية: "إن تُبْدُوا الصدقات فنِعِمَّا هى... إلى آخر الآية" جاء عمر بنصف ماله يحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحمله على رؤوس الناس، وجاء أبو بكر بماله أجمع يكاد أن يخفيه من نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تركتَ لأهلك؟ فقال: عِدَة الله وعِدَة رسوله. قال: يقول عمر لأبى بكر: بنفسى أنت أو بأهلى أنت. ما استبقْنا إلى خير قَطُّ إلا سبقتنا إليه".

"زكاة الفطر طهرةٌ للصائم من اللَّغْو والرَّفَث وطُعْمَةٌ للمساكين. من أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات".

"(عن جرير بن عبد الله:) كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر النهار، فجاءه أقوام حفاة عراة مجتابى النمار أو العباء، متقلدى السيوف، وليس عليهم أُزُرٌ ولا شىء غيرها، عامّتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر... وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذَّن وصلى الظهر، ثم صعد منبرا صغيرا، ثم خطب فحمد الله وأثنى عليه، فقال: أما بعد، فإن الله أنزل فى كتابه: "يا أيها الناس، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبَثَّ منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تَسَاءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا"، والآية التى فى الحشر: "يا أيها الذين آمنوا، اتقوا لله، ولْتنظر نفسٌ ما قدَّمَتْ لِغَدٍ، واتقوا الله،.إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسَهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة: أصحاب الجنة هم الفائزون". تصدَّقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة. تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من شعيره، من صاع تمره، حتى قال: ولا يحقرنَّ أحدكم شيئا من الصدقة ولو بشق تمرة. فأبطؤوا حتى بان فى وجهه الغضب. قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّةٍ من وَرِق (وفى رواية: من ذهب) كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، فناولها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على منبره، فقال: يا رسول الله، هذه فى سبيل الله. فقبضها رسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم قام أبو بكر فأعطى، ثم قام عمر فأعطى، ثم قام المهاجرون والأنصار فأَعْطَوْا، ثم تتابع الناس فى الصدقات: فمِنْ ذى دينار، ومن ذى درهم، ومن ذى، ومن ذى، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها ومِثْل أجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سن سنة فى الإسلام سيئة كان عليه وزرها ومِثْلُ وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء. ثم تلا هذه الآية: "ونكتب ما قَدَّموا وآثارَهم". قال: فقسَّمه بينهم".

"(عن زياد بن الحارث الصدائى:) أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فبايعته، فبلغنى أنه يريد أن يرسل جيشا إلى قومى، فقلت: يا رسول الله، رُدَّ الجيش، وأنا لك بإسلامهم وطاعتهم. فقال: يا أخا صداء، إنك لمطاع فى قومك؟ قلت: بل هداهم الله وأحسن إليهم. قال: أفلا أؤمِّرك عليهم؟ قلت: بلى. فأمَّرنى عليهم، فكتب لى بذلك كتابا. وسألتُه من صدقاتهم ففعل. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ فى بعض أسفاره، فأعرسنا من أول الليل، فلزمتُه وجعل أصحابى يتقطعون حتى لم يبق معه رجل غيرى. فلما تحين الصباح أمرنى، فأذَّنْتُ. ثم قال: يا أخا صداء، معك ماء؟ قلت: نعم، قليل لا يكفيك.قال: صُبَّه فى الإناء ثم ائتنى به. فأَدْخَل يده فيه، رأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينا تفور. قال: يا أخا صداء، لولا أنى أستحيى من ربى لسقينا واستقينا. نادِ فى الناس من يريد الوضوء. قال: فاغترف من اغترف، وجاء بلال ليقيم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن أخا صداء أذَّنَ، ومن أذّن فهو يقيم. فلما صلى الفجر أتاه أهل المنزل يشكون عاملهم ويقولون: يا رسول الله، أَخَذَنا بما كان بينه وبين قومه فى الجاهلية. فالتفت إلى أصحابه وقال: لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن. فوقعت فى نفسى، وأتاه سائل يسأله، فقال: من سأل الناس عن ظهر غِنًى فهو صداع فى الرأس، وداء فى البطن. فقال: أعطنى من الصدقات. فقال: إن الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبى ولا غيره حتى جعلها ثمانية أجزاء. فإن كنتَ منهم أعطيتُك حقك. فلما أصبحت قلت: يا رسول الله، أَقِلْ إمارتك، فلا حاجة لى فيها. قال: ولم؟ قلت: سمعتك تقول: "لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن"، وقد آمنت. وسمعتك تقول: "من سأل الناس عن ظهر غنى فصداع فى الرأس، وداء فى البطن"، وقد سألتك وأنا غنى. قال: هو ذاك، فإن شئتَ فخُذْ، وإن شئتَ فَدَعْ. قال: قلت: بل أَدَعُ. قال: فدُلَّنى على رجل أُوَلِّيه. فدللته على رجل من الوفد، فولاه. قال: يا رسول الله، إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وَسِعَنا ماؤها فاجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه من حولنا. وإنا لا نستطيع اليوم أن نتفرق. كلّ من حولنا عدو. فادع الله أن يسعنا ماؤها. فدعا بسبع حصيات ففركهن بين كفيه وقال: إذا أتيتموها فألقوا واحدة، واذكروا اسم الله. فما استطاعوا أن ينظروا إلى قَعْرها بَعْد".

الجمال والذوق واللياقة والنظافة والطهارة:

"وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ... (١٤٢)" (سورة الأنعام).

"يا بَنِى آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ... (٣٢)" (سورة الأعراف).

"وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)" (سورة البقرة).

"وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا... (٨٣)" (سورة آل عمران).

"وَإِذَا حُييتُمْ بِتَحِيةٍ فَحَيوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ حَسِيبًا (٨٦)" (سورة النساء).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا... (٦)" (سورة المائدة).

"يا بَنِى آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِى لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يوْمَ الْقِيامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ (٣٢)" (سورة الأعراف).

"لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يحِبُّونَ أَنْ يتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)" (سورة التوبة).

"وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَينَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)" (سورة الحِجْر).

"فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)" (سورة الحِجْر).

"وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ينْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآَيَةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآَياتٍ لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآَيةً لِقَوْمٍ يذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يهْتَدُونَ (١٦)" (سورة النحل).

"أَوَلَمْ يرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىءٍ يتَفَيأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)" (سورة النحل).

"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآَيةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (٦٩)" (سورة النحل).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيوتًا غَيرَ بُيوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)" (سورة النور).

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يؤَلِّفُ بَينَهُ ثُمَّ يجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَينَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيصِيبُ بِهِ مَنْ يشَاءُ وَيصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يشَاءُ يكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)" (سورة النور).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيسَ عَلَيكُمْ وَلا عَلَيهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يبَينُ اللَّهُ لَكُمُ الآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يبَينُ اللَّهُ لَكُمْ آَياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)" (سورة النور).

"فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيبَةً كَذَلِكَ يبَينُ اللَّهُ لَكُمُ الآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يذْهَبُوا حَتَّى يسْتَأْذِنُوهُ... (٦٢)" (سورة النور).

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)" (سورة الفرقان).

"أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يعْدِلُونَ (٦٠)" (سورة النمل).

"وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)" (سورة لقمان).

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)" (سورة فاطر).

"جَنَّاتُ عَدْنٍ يدْخُلُونَهَا يحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)" (سورة فاطر).

"وَزَينَّا السَّمَاءَ الدُّنْيا بِمَصَابِيحَ... (١٢)" (سورة فُصِّلَتْ).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيهِمْ لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)" (سورة الحجرات).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا يسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يكُونُوا خَيرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يكُنَّ خَيرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)" (سورة الحجرات).

"أَفَلَمْ ينْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيفَ بَنَينَاهَا وَزَينَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَينَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)" (سورة ق).

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)" (سورة الطور).

"وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عينَانِ تَجْرِيانِ (٥٠) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَينِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عينَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَي آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيامِ (٧٢) فَبِأَي آَلاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَى آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِى حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَى آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨)" (سورة الرحمن).

"وَأَصْحَابُ الْيمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤)" (سورة الواقعة).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)" (سورة المجادلة).

"وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لا يرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيةً عَلَيهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيطَافُ عَلَيهِمْ بِآَنِيةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَينًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيطُوفُ عَلَيهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيتَ ثَمَّ رَأَيتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)" (سورة الإنسان).

"فَلْينْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)" (سورة عَبَس).

"وُجُوهٌ يوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيهَا رَاضِيةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيةً (١١) فِيهَا عَينٌ جَارِيةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِى مَبْثُوثَةٌ (١٦)" (سورة الغاشية).

وبعد القرآن نقدم إلى القارئ هذه الباقة من نصوص الحديث النبوى الشريف التى توصى المسلم بالنظافة والطهارة والتطيب والأناقة والنظام وعزة النفس والترتيب ومراعاة أصول اللياقة ورقة النفس وتهذيب السلوك والالتفات إلى مظاهر الحسن فى الكون من حوله والتخلص من الأوضاع القبيحة والمشوهة:

"إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود. فنظفوا أفنيتكم، ولا تَشَبَّهوا باليهود".

"(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:) لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكِبْر بَطَر الحق وغَمْط الناس".

"من جر ثوبه خُيلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة".

"لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خَرْدَل من كِبْر".

"إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالى الأخلاق، ويكره سفسافها".

"إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس".

"كانوا (أى بعض الناس) يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستاكوا، فقال: تدخلون على قُلْحًا؟ استاكوا، فلولا أن أشقّ على أمتى لفرضت السواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء".

"استاكوا وتنظفوا وأَوْتِروا، فإن الله وَتْرٌ يحب الوَتْر".

"سَوُّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة".

"أَتِمُّوا الصفَّ المقَدَّم ثم الذى يليه، فما كان من نقصٍ فلْيكُنْ فى الصفّ المؤَخَّر".

"مَنْ سَدَّ فُرْجَةً فى الصفّ غُفِر له".

"لا ينظر الله عز وجل إلى صلاة عبدٍ لا يقيم صُلْبَه فيما بين ركوعها وسجودها".

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أنِ اخْرُج فأَصْلِحْ رأسك ولحيتك، ففعل ثم رجع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟".

"اتقوا الملاعن الثلاثة: البِراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل".

"ثلاث من السعادة: المرأة الصالحة، والمنزل الواسع، والمركب الهنى".

"لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفْضِى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد، ولا تُفْضِى المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد".

"الإيمان بضع وسبعون: أفضلها قول "لا إله إلا الله"، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان".

"(عن أنس:) حَدَّث نبى الله صلى الله عليه وسلم بحديث، فما فرحنا بشىء منذ عرفنا الإسلام أشد من فرحنا به. قال: إن المؤمن ليؤْجَر فى إماطة الأذى عن الطريق، وفى هداية السبيل، وفى تعبيره عن الأرتم، وفى منحة اللبن".

" البذاء من الجفاء، والجفاء فى النار. والحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة".

"من اطَّلَعَ فى بيت رجل بغير إذنه فحذفه بحصاة ففقأت عينه فلا شىء عليه".

"عن عطاء بن يسار أن رجلا سال النبى صلى الله عليه وسلم: أستأذن على أمى؟ قال: نعم".

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت. إن الله يحب الحيى الحليم العفيف، ويبغض الفاحش البذىء السائل الملحف. إن الحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة، والفحش من البذاء، والبذاء فى النار".

"إن الله كتب الإحسان على كل شىء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح. ولْيحِدَّ أحدكم شفرته، ولْيرِحْ ذبيحته".

"جاء قوم بصاحبهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبى الله، إن صاحبنا هذا قد أفسده الحياء. فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم: إن الحياء من شرائع الإسلام، وإن البذاء من لؤم المرء".

"(عن لقيط بن صرة:) قلت: يا رسول الله، إن لى امرأة فى لسانها شىء (يعنى البذاء). قال: طلقها. قلت: إن لى منها ولدا، ولها صحبة. قال: فمُرْها (أى عِظْها)، فإن يك فيها خير فستقبل، ولا تضربنّ ظعينتك ضربك أَمَتك".

"إذا شرب أحدكم فلا يتنفس فى الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسح ذكره بيمينه، وإذا تمسح أحدكم فلا يتمسح بيمينه".

"(عن أبى هريرة:) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نخامة فى قبلة المسجد، فأقبل على الناس فقال: "ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخّع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يسْتَقْبل فيتَنَخَّع فى وجهه؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره، تحت قدمه".

"انطلقت أنا وعمرو بن العاص إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فخرج ومعه درقة، ثم استتر بها، ثم بال".

"كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشىء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟".

"(عن عمرو بن أبى سلمة ربيب رسول الله:) كنت غلاما فى حِجْر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدى تطيش فى الصحفة، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا غلام، سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يلى". فما زالت تلك طعمتى بعد".

"إذا اجتمع الداعيان فأَجِبْ أقربهما بابا، فإن أقربهما بابا أقربهما جوارا. وإنْ سَبَقَ أحدُهما فأجب الذى سبق".

"إذا دُعِىَ أحدكم إلى الوليمة فليجب".

"إذا دُعِى أحدكم إلى طعام فليجب: فإن كان مفطرا فليأكل، وإن كان صائما فلْيدْعُ بالبركة".

"شر الطعام طعام الوليمة يدْعَى لها الأغنياء ويتْرَك الفقراء. ومن ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم".

"أُتِى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِى به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما، فأخذ اللبن. قال جبريل: الحمد لله الذى هداك للفطرة. لو أخذتَ الخمر غَوَتْ أمتك".

"(عن أنس:) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل أو شرب قال: الحمد لله، الذى أطعمنا وسقانا وسَوَّغه وجعل له مخرجا".

"من أكل طعاما ثم قال: "الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة" غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ومن لبس ثوبا فقال: "الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة" غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر".

"كان (الرسول عليه السلام) إذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين".

"(عن عائشة:) كانت فاطمة إذا دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم قام لها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها فى مجلسه. وكان إذا دخل عليها قامت إليه وأجلسته فى مجلسها".

"(عن أبى الطفيل:) رأيت النبى وأنا غلام، فدنت منه امرأة، فبسط لها رداءه، فجلست عليه. فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التى أرضعته".

"(لما جىء بأخت الرسول من الرضاعة فى سبايا هوازن وتعرفتْ إليه بسط لها رداءه وقال لها:) إن أحببتِ أقمتِ عندنا مكرمة مُحَبَّة، أو متَّعْتُكِ ورجعتِ إلى قومك"، فاختارت قومها، فمتَّعها".

"كان إذا أُتِى بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة. إنها كانت تحب خديجة".

"(عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:) إياكم والجلوس فى الطرقات. قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدّ. قال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا:

وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر".

"يسلِّم الراكب على الماشى، وفى رواية: يسلم الصغير على الكبير والماشى على القاعد، والقليل على الكثير".

"لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يقعد فيه، ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا يفْسَح الله لكم".

"إذا انتهى أحدكم إلى مجلسٍ فلْيسَلِّم. فإن بدا له أن يجلس فلْيجلس، ثم إذا قام فلُيسَلِّم، فليست الأولى بأحقَّ من الثانية".

"إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به".

"وَفَدَ وَفْدٌ للنجاشى، فقام رسول الله يخدمهم، فقال له أصحابه: نحن نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مُكْرِمين، وإنى أحب أن أكافئهم".

"إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، فإن ذلك يحزنه".

"تبسُّمك فى وجه أخيك صدقة".

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول: "استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم. لِيلِنِى منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم".

"لما انكفأ المشركون من أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اسْتَوُوا حتى أُثْنِى على ربى"، فصاروا خلفه صفوفا، فقال: اللّهم لك الحمد كله. وفيه: اللّهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك، واجعل عليهم رِجْزَك وعذابك. اللّهم عَذِّب الكَفَرة، إلهَ الحق".

"من زار قوما فلا يؤُمَّهم، ولْيؤُمَّهم رجل منهم".

"إذا حضرتِ الصلاة فلْيؤَذِّن لكم أحدكم، وليؤُمَّكم أقرؤكم".

"إذا سافرتم فليؤمَّكم أقرؤكم، وإن كان أصغركم. وإذا أمَّكم فهو أميركم".

"من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلْنا أو ليعتزلْ مسجدنا، وليقعدْ فى بيته".

"عن المغيرة بن شعبة قال: أكلت ثوما ثم أتيت مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته قد سبقنى بركعة، فلما قمت أقضى وجد ريح الثوم، فقال: من أكل من هذه البقلة فلا يقربنَّ مسجدنا حتى يذهب ريحها".

"ما مسستُ حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبى صلى الله عليه وسلم، ولا شممت ريحا قط أو عَرْفًا قط أطيب من ريحِ أو عَرْفِ النبى صلى الله عليه وسلم".

"حوضى من كذا إلى كذا، فيه من الآنية عدد النجوم، أطيب ريحا من المسك، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأبيض من اللبن، من شرب منه شربة لم يظمأ أبدا، ومن لم يشرب منه لم يرْوَ أبدا".

"إن هذا (أى يوم الجمعة) يوم عيد جعله الله للمسلمين. فمن جاء الجمعة فليغتسل، وإن كان عنده طيب فلْيمَسَّ منه. وعليكم بالسواك".

"من غسل ميتا فليغتسل، ومن حمله فليتوضأ".

"نهى (رسول الله صلى الله عليه وسلم) عن البول فى الماء الدائم ثم الاغتسال منه، ونهى عن اغتسال الجنب فيه، وأمر المستيقظ من نوم الليل ألا يغمس يده فيه، وأمر بإراقة الإناء من ولوغ الكلب فيه".

"إن أمتى يدْعَوْن يوم القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء. فمن استطاع منكم أن يطِيل غُرَّته فليفعل".

"إذا قمتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، واجعل الماء بين أصابع يديك ورجليك".

"لا يبولنّ أحدكم فى الماء الراكد".

"زَينُوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا".

"مر النبى صلى الله عليه وسلم على أبى موسى ذات ليلة وهو يقرأ فقال: إن عبد الله بن قيس (أو الأشعرى) أُعْطِى مزمارا من مزامير داود. فلما أصبح ذكروا ذلك له فقال: لو كنتَ أعلمتَنى لحبَّرْتُ ذلك تحبيرا".

"زَوَّجَتْ عائشةُ ذاتَ قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله فقال: أَهْدَيتُم الفتاة؟ قالوا: نعم. قال: أرسلتم معها من يغنّى؟ قالت: لا. فقال رسول الله: إن الأنصار قوم فيهم غَزَل. فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم".

"دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعَاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه. ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال: مزمارة الشيطان عند النبى صلى الله عليه وسلم؟ فأقبل عليه رسول الله عليه السلام فقال: دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا. وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبى صلى الله عليه وسلم وإما قال: تشتهين تنظرين؟ فقلت: نعم. فأقامنى وراءه، خدى على خده، وهو يقول: دونكم يا بنى أرفدة. حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم، قال: فاذهبى".

"(عن بريدة) أن النبى صلى الله عليه وسلم غزا، فنذرت أَمَةٌ سوداءُ إنْ رده الله سالما أن تضرب عنده بالدف. فرجع سالما غانما، فأخبرتْه، فقال: إن كنتِ فعلتِ فافعلى، وإلا فلا. فقالت: يا رسول الله، قد فعلتُ. فضَرَبَتْ، فدخل أبو بكر وهى تضرب. ودخل عمر وهى تضرب، فألقت الدف وجلست عليه مُقْعِية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا ها هنا، وأبو بكر ها هنا، وهؤلاء ها هنا. إنى لأحسب الشيطان يفْرَق منك يا عمر".

ومع هذا فإن كثيرا من أعداء الإسلام يفترون عليه الافتراءات الكاذبة الضالة ويتهمونه بما ليس فيه بل بما هو عكسه على خط مستقيم. وللأسف لا يقتصر هذا الأمر على غير المسلمين بل يشاركهم فيه بعض من ينتمون إلى خلفية إسلامية. وهو ما سنراه ونرد عليه فى الفصول التالية، ومن خلال الرد سوف يتجلى وجه الإسلام الجميل البديع بعد أن تنزاح غشاوات كثيرة كانت تغطى على هذا الجمال والإبداع.

محمد أسد بك وسيرته النبوية المسيئة

قبيل سفرى إلى الدوحة فى بداية القرن الحالى للعمل أستاذا للأدب العربى فى جامعة قطر وقع فى يدى كتاب فى السيرة النبوية مترجم إلى الفرنسية عنوانه "Mahomet 571- 632" (Mohammed Essad Bey, Mahomet 571- 632, Payot, Paris, 1948) أهدانيه زميل لى قائلا إنه لمحمد أسد (ليوپولد ڤايس سابقا) الصحفى الألمانى الذى اعتنق الإسلام فى السعودية فى منتصف عشرينات القرن البائد، فأخذته شاكرا مبتهجا لحصولى على هذا الكتاب الجديد للكاتب الألمانى الذى بدأتْ معرفتى بمؤلفاته مع سبعينات القرن الماضى ثم نمت مع الزمن، فعلاوة على كتبه المعروفة المترجمة إلى العربية اطلعت فى السعودية قبل ذلك بسنوات على ترجمته الإنجليزية للقرآن الكريم، وكانت أحد مراجعى فيما كتبت من دراسات عن بعض السور القرآنية، كما سعدت بتقليب ترجمته لـ"صحيح البخارى" والقراءة فيها وفى هوامشها التفسيرية من حين إلى حين.

لكنى، مع شدة اهتمامى بذلك المستشرق الذى ترك يهوديته وبلده ولغته ومهنته الصحفية فى منتصف عشرينات القرن المنصرم ليعيش بين ظَهْرانَيِ المسلمين، ومع حرصى على تتبع كل ما كتب، لم أسمع مجرد سماع أن له كتابا فى التأريخ لحياة الرسول وتحليل شخصيته عليه السلام. ومن ثم أحسست، حين أخذت الكتاب المذكور من زميلى فى القاهرة، أننى قد عثرت على كنز. وقد أخذت الكتاب معى إلى الدوحة بنية ترجمته وكتابة دراسة عنه هناك. وفى مطار القاهرة تسللت يدى، أثناء فترة الانتظار للصعود على متن الطائرة، إلى حقيبة اليد التى كانت معى واستخرجت الكتاب، وأخذت ألقى فيه نظرة هنا، ونظرة هناك، إلى أن لفت انتباهى الفصل الخاص بزوجات الرسول حيث توقفت وشرعت أقرأ.

وكنت، كلما أمعنت فى القراءة، اشتد شعورى بغرابة الروح التى كُتِب بها هذا الفصل بما فيه من همز ولمز خفى فى الإسلام ونبيه إلى أن أصبح الغمز واللمز ظاهرا يستعصى على التأويل مهما تذرع القارئ بحسن الظن. ثم حان ميعاد الصعود إلى الطائرة، فطويت الكتاب وأعدته إلى موضعه من الحقيبة. وما إن وصلت إلى الدوحة وتسلمت عملى بالجامعة وتنفست من مشاغل الأيام الأولى

حتى أخرجت الكتاب كَرَّةً أخرى وأخذت أقرؤه بادئا مباشرة من طفولة الرسول تاركا الفصل الخاص ببلاد العرب وتاريخها وجغرافيتها وأهلها وعاداتها وتقاليدها إلى ما بعد الانتهاء من السيرة نفسها. وإذا بى أكتشف أن مؤلف الكتاب، وإنْ أثنى فى بعض الأحيان على الرسول ثناء مستطابا، لا يصْدُر فى ذلك عن حب حقيقى لمحمد ودينه ولا يكاد يغادر شيئا فى حياته صلى الله عليه وسلم أو فى حياة أصحابه دون أن يحاول تشويهه.

وهنا عدت مرة أخرى إلى اسم المؤلف، وهو مكتوب على النحو التالى: " Mohammed Essad Bey". وركبتنى الحيرة والوساوس: ترى أهذا الكتاب هو فعلا لمحمد أسد، الذى نعرفه؟ إن كتابات الرجل الأخرى التى قرأتها قبلا "تُظْهِر" تحمسا للإسلام وتبجيلا للرسول وصحابته، فكيف ينسجم هذا مع ذاك؟ وكيف غاب هذا الكتاب عن أصدقاء محمد أسد من المسلمين فلم يشر إليه أحد، وفيهم الساسة والمفكرون والصحفيون، وكلهم يحبون دينهم ولا يمكن أن يواطئوه على هذا الذى قال؟ أتراه كتبه قبل أن يسلم؟ لكنه، على كثرة ما كتب عن حياته قبل تحوله إلى دين محمد، لم يذكر أى شىء عن مثل ذلك الكتاب. ثم إن تاريخ صدور الترجمة الفرنسية هو ١٩٤٨م. فهل من المعقول أن يتأخر صدور ترجمة كتاب كهذا أكثر من عشرين سنة بعد إسلامه؟ وهل يمكن أن يتغير الاسم الذى كان للمؤلف وقتها ألف الكتاب، وهو ليوپولد ڤايس، ويكتب بدلا منه الاسم الذى اصطنعه بعد إسلامه؟ وفضلا عن ذلك فمؤلف الكتاب ينطلق من أنه شخص مسلم رغم الغمز واللمز الذى أشرت إليه.

ثم تراكمت غيوم الحيرة وتكأكأت الأسئلة والافتراضات: أيمكن أن يكون ثمة محمد أسد آخر غير الذى نعرفه؟ إن وجود لقب "بك" فى آخر الاسم من شأنه أن يقوى طرح هذا السؤال، إذ لم أسمع قط أو أقرأ اسم محمد أسد مقرونا بهذه الكلمة. بل إن هجاء كلمة "محمد أسد" هنا مختلف عن الطريقة التى تُكْتَب بها على كتبه الإنجليزية حيث تظهر هكذا: "Muhammad Asad". بل لقد تساءلت: ألا يمكن أن يكون المؤلف شخصا عربيا؟ والواقع أن بعضهم قد قالها، إذ وجدت د. محمد التونجى السورى (مترجم كتاب كونستانس جورجيو الوزير الرومانى الأسبق عن سيرة

الرسول صلى الله عليه وسلم) يقول فى أحد هوامش ترجمته لذلك الكتاب تعريفا بـ"أسد بك"، إنه المحقق العربى المعروف ناصر الدين الأسد. وبغض النظر عن أن المقصود بـ"أسد بك" هو محمد أسد لا ناصر الدين الأسد، فضلا عن أن المؤلف الأردنى ليست له أية مؤلفات فى السيرة النبوية، فإن مؤلف الكتاب يتحدث عن نفسه بوصفه أوربيا، إذ يقول: "نحن الغربيين" أو "عندنا فى أوربا"... إلخ. وهكذا عدنا إلى المربع الأول من جديد.

ولقد قلبت مكتبة جامعة قطر بقسميها العربى والأجنبى، فلم أترك كتابا أو معجما أو موسوعة مما حسبت أنه يمكن أن يمدنى بشىء عن محمد أسد هذا يجلو عمايتى وينير بصيرتى فى هذه القضية، فلم أجد إلا تلك الإشارة العارضة وأُخْرَيين مثلها فى كتاب جورجيو. وقد أشرتُ آنفا إلى أن المسمى: "محمد أسد بك"، وإن انطلق فى ظاهر كلامه من أنه مسلم، فإن ما قاله لا ينبئ عن أن صاحبه يكِنّ حبا للرسول الكريم ولصحابته الأطهار ودينه العظيم رغم ثنائه المستطاب على الإسلام ونبيه بين الحين والحين. والشواهد على ما نقول كثيرة، وإلى القارئ بعضا منها: فهو مثلا يصف ما جاء فى كتب التاريخ والسيرة عن الطير الأبابيل بأنه أسطورة دينية، مؤكدا أن الجدرى فى الواقع هو الذى قضى على الجيش الحبشى (ص٥٣). والواقع أنْ لو كانت قصة الطير الأبابيل أسطورة غير حقيقية لما ترك المشركون النبى يتلو سورتها دون تهكم وصياح وشماتة، ولَهَبَّ اليهود والمنافقون والنصارى يسخرون منه بدورهم. كما أن هناك أشعارا بقيت لنا من تلك الفترة تتحدث عن الطير الأبابيل وما صنعته بالجيش الحبشى. يقول نفيل بن حبيب الخثعمى:

ألا حُييـــــتِ عنـــــا يــــا رُدَيْنـــــا ... نعمْنـــاكم مـــع الإصـــباح عَيْنـــا

أتانــــا قــــابسٌ مـــــنكم عِـــشَاءً ... فلــــم يقـــدر لقابـــسكم لَـــدَيْنا

ردينـــةُ، لـــو رأيـــتِ، ولا تَرَيْـــهِ، ... لـــدى جنـــب المحـــصَّب مـــا رأينـــا

إذن لعـــذرتنى وحمـــدتِ أمـــرى ... ولم تَأْسَـــىْ عـــلى مـــا فـــات بَيْنـــا

حمـــــدتُ الله إذ أبـــــصرت طيرًا ... وخفـــتُ حجـــارة تُلْقَـــى علينـــا

ويقول ابن الزبعرى، وكان من شعراء قريش الذين يهجون النبى ويهاجمون دينه، ثم صار مسلما فيما بعد:

تنكلــوا عـــن بطـــن مكـــة، إنهـــا — كانـــت قـــديما لا يُـــرَام حريمُهـــا

لم تخلـــق الـــشعرى ليـــالى حُرِّمَـــتْ — إذ لا عزيـــزَ مـــن الأنـــام يرومهـــا

ســـائلْ أميرَ الجيـــش عنهـــا مـــا رأى — ولـــسوف ينبـــى الجـــاهلين عليمُهـــا

ســـتون ألفـــا لم يئُوبُـــوا أرضـــهم — ولم يعـــش بعـــد الإيـــاب ســـقيمها

كانـــت بهـــا عـــادٌ وجُـــرْهُمُ قـــبلهم — والله مـــن فـــوق العبـــاد يقيمهـــا

ويقول أبو قيس بن الأسلت الأنصارى، وقد تنسب الأبيات إلى أمية بن أبى الصلت:

ومـــن صُـــنْعه يـــوم فيـــل الحُبُـــ — ـــوش إذ كلـــما بعثـــوه رَزَمْ

مَحَـــاجِنُهم تحـــت أقرابـــه — وقـــد شَرَمـــوا أنفَـــه فـــانخرمْ

وقـــد جعلـــوا ســـوطه مِغْـــوَلًا — إذا يَمَّمـــوه قفـــاه كلـــم

فـــوَلَّى وأدبـــر أدراجَـــه — وقـــد بـــاء بـــالظلم مَـــنْ كـــان ثَـــمّْ

فأرســـل مـــن فـــوقهم حاصـــبا — فلَفَّهُمـــو مثـــل لـــفِّ القَـــزَمْ

تحـــضّ عـــلى الـــصبر أحبـــارهم — وقـــد ثـــأجوا كثُـــؤَاج الغَـــنَمْ

ويقول أبو قيس بن الأسلت أيضا:

فقومـــوا فـــصَلُّوا ربكـــم وتمـــسَّحوا — بأركـــان هـــذا البيـــت بين الأخاشـــبِ

فعنـــدكمو منـــه بـــلاءٌ مـــصدّق — غـــداة أبـــى يكـــسومَ هـــادى الكتائـــبِ

كتيبتـــه بالـــسهل تمـــسى، ورجلـــه — عـــلى القاذفـــات فى رءوس المناقـــبِ

فلـــما أتـــاكم نـــصر ذى العـــرش رَدَّهُـــم — جنـــود المليـــك بين ســـافٍ وحاصـــبِ

فوَلَّـــوْا سراعـــا هـــاربين ولم يـــؤُبْ — إلى أهلـــه مِ الحُـــبْشِ غير عـــصائبِ

ويقول طفيل الغنوى:

ترعـــى مـــذانبَ وسْـــمِىٍّ أطـــاعَ لـــه — بـــالجزع حيـــث عـــصى أصـــحابَه الفيـــلُ

ويقول المغيرة بن عبد الله المخزومى:

أنــت حبــستَ الفيــل بــالمُغَمَّسْ حبــستَه كأنــه مُكَــرْدَسْ

مُحتَبَسٌ تزهقُ فيه الأنفُسْ

ويقول أبو الصلت بن أبى ربيعة، وتروى أيضا لأمية ابنه:

إن آيـات ربنـا ثاقبـاتٌ لا يـمارى فيهـن إلا الكفـورُ

خلـق الليـل والنهـار، فكُـلٌّ مـستبينٌ حـسابه مقـدورُ

ثـم يجلـو النهـارَ ربٌّ رحيـمٌ بمهـاةٍ شـعاعُها منـشورُ

حُـبِسَ الفيـل بـالمغمَّس حتـى ظـل يحبـو كأنـه معقـورُ

لازمًـا حلقـةَ الجِـرَانِ كـما قُـطِّـر مـن صـخرِ كبكـبٍ محـدورُ

حولـه مـن ملـوك كنـدة أبطـالٌ ملاويـثُ فى الحـروب صـقورُ

خَلَّفـوه ثـم ابْـذَعَرُّوا جميعـا كلهـم عظـم سـاقه مكـسورُ

وعند حديث محمد أسد بك عن زواج الرسول من خديجة لا يورد سوى الرواية الضعيفة التى لا يصدقها العقل والتى يزعم ملفقها أن أباها لم يكن راضيا عن هذه الزيجة مما ألجأها إلى أن تسقيه خمرا حتى تحصل على موافقته وهو سكران (ص٦١). كذلك يدعى أن الرسول فى الجاهلية كان يشارك قومه فى طقوسهم الوثنية ويكن للأصنام احتراما شديدا ويقدم لها القرابين كلما وُلِد له ولد. بل لقد سمى أحد أولاده: "عبد مناف" (ص٦٣- ٦٤). وبالمثل يتقول على الرسول صلى الله عليه وسلم زاعما أنه كان يقرأ مع الحنفاء الكتب القديمة، وأن ورقة هو الذى عرّفه التوراة والإنجيل وأنبياء بنى إسرائيل.

وفى فترة التحنث نشاهد الرسول عليه السلام فى ذلك الكتاب الغريب وقد وصل به الحال أن أخذ يذرع الوديان ويصعّد فى الجبال فى ثياب رثة وشعر أشعث وخطوات مضطربة، وعند سماعه أصوات الصخور وصراخها قرب غار حراء (الذى نقله أسد بك من مكة إلى الطائف) يسقط متشنجا وقد تجمَّع الزَّبَدُ على شفتيه، وطفت من أعماق وعيه الذكريات القديمة بما فيها من رهبان

بيض وأحاديث سمعها من الصابئين (ص٦٧– ٦٨). ويتجاوز المؤلف هنا حدود الصدق واللياقة حين يفترى على خديجة رضى الله عنها الأقاويل، فينسب إليها كذبا وزورا أنها، لكى تتأكد من أن الذى رآه النبى عند الغار ملاك، قد نَضَتْ عنها ملابسها وتعرت تماما والتصقت به فى هيام (ص٧٠).

وعندما كان يتلو صلى الله عليه وسلم سورة "النجم" عقب نزولها عليه نرى محمد أسد بك يضيف الجملتين التاليتين اللتين تمدحان الأصنام: "إنهن الغرانيق العُلَا * وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى". ولكى تكون تلك الدعوى مقبولة فإن محمد أسد بك يعزو ذلك الصنيع من الرسول إلى أنه بشر، والله يريد له أن يرتكب خطيئة من كل نوع من أنواع الخطايا التى يجترحها البشر (ص١١٤). ومن تخاريفه المضحكة أيضا قوله إن الصلاة تسقط عن المسلم أثناء سفره أو إقامته فى بلد غريب، وإن الفروض الظاهرية فى الإسلام لا تشكل شرطا أساسيا للنجاة، بل يمكن إهمالها والحصول مع ذلك على الغفران الإلهى. وهو يتخذ من هذا دليلا على ما يتميز به الإسلام من واقعية. ويجرى فى هذا المضمار زعمه أن الإسلام لا يغلق باب الخلاص فى وجه أتباع الديانات الأخرى. ألا يقول القرآن: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون"؟ ومن أجل تمرير هذه الفرية يسارع إلى التظاهر بالثناء على الإسلام قائلا إنه الدين الوحيد الذى يبدى هذا الضرب من التسامح (ص١٣٥).

كذلك يفترى أسد بك الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا فى جرأة يحسد عليها إن نفسيته لم تكن تعرف التواضع والتسامح البتة، إذ كان هدفه بسط سلطانه على الدنيا كلها دون منازع (ص١٣٧). كما وصف نظام الحكم الذى طبقه عليه السلام فى المدينة بأنه الديمقراطية الصحراوية، التى عرفها لدن مروره بالقبائل المختلفة فى طريقه من مكة إلى المدينة أثناء الهجرة. ثم يفسر الأمر بعد ذلك قائلا إن أساس هذه الديمقراطية هو أن البشر جميعا عبيد لله، وهم بهذه الصفة يخضعون خضوعا مطلقا لِنِير الشريعة الحديدى الذى لا مجال معه للحرية. وهكذا فإن يثرب، التى عاشت طول عمرها قبل هجرته إليها متمتعة بالحرية، قد رضيت عن طيب خاطر بالخضوع فجأة

ودون قيد أو شرط لإرادة المستبد القادم عليهم (ص٣٣١- ١٤٠، ١٤٣). وقد وصف المؤلف فى أكثر من موضع من كتابه سلطة النبى بأنها سلطة أوتوقراطية (ص١٥٥، ١٩٢، ١٩٣).

كما زعم أنه، بدخول النبى المدينة، قد صار القرآن والسيف هما اللذين يحكمان العالم (ص١٣٣)، وأنه عليه السلام قد جعل الحرب سبيلا إلى إقامة الدولة الإلهية، وأن خضوع اليهود والمنافقين لسلطانه إنما تم تحت تهديد السلاح (ص١٥٩)، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف جيدا أن أيا من الشعوب الأخرى لن يصغى طوعا إلى كلامه. ومن ثم كان لا بد من اصطناع القوة والخوض فى أوحال مستنقع السياسة بغية هداية الناس وحماية بيوت الله من بِيعٍ وصلوات ومساجد، وهو مستنقع يعج بالاغتيالات والجرائم ونقض العهود، وأنه صلى الله عليه وسلم قد اقترف كثيرا من الآثام، فأراق الدماء واستخدم الوحشية والدهاء، وإن كان (كعادته فى تلطيف دعاواه بالكلام المعسول الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع) قد عقّب قائلا إن أحدا من البشر لم يخرج من ذلك المستنقع بقلب أنقى من قلب محمد (ص١٥٩- ١٦٠). وهى كلمة تحتمل تأويلين، فإلى جانب المعنى الظاهرى هناك معنى آخر بعيد أرجح أن يكون هو المقصود. ومُفَادُه أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى قلبه ندم ولا أسف على شىء مما اقترفه فى دنيا الحكم والسياسة!

ويشطح أسد شطحة أخرى فيزعم أن الإسلام تحول على أيدى المهاجرين إلى مهنة، إذ لم يكن أمامهم من مورد رزق سوى الحرب والعدوان على الآخرين (ص١٦١). وهو ينظر إلى الجهاد فى سبيل الله على أنه مجرد مساومة تجارية بين الرسول والصحابة فى المدينة، فهم يصرون على الحصول على أجورهم ناجزة فى الدنيا قبل الآخرة، فلا يجد النبى مناصا من النزول على ما يبتغون (ص١٦٣). وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم قوله بعد ذلك إن سكان المدينة الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد ما إن رَأَوْا غنائم بدر حتى جَثَوْا على رُكَبِهم واعتنقوا الإسلام فى الحال. وهو زعم كاذب لكل من يعرف طرفا من مغازى رسول الله وأصحابه. بل إنه ليزعم أيضا أن الرسول قد حول المدينة، عقب انتصاره فى هذه الغزوة، إلى دولة بوليسية يؤْخَذ فيها الناس بالظِّنَّة ويجرى التنصت على كل ما يتفوهون به فى الشوارع ويعاقَبون دون هوادة (ص١٧٧).

ومع هذا فقد وصف أيضا رسول الله بأنه كان متسامحا إلى أبعد مدى مع من يخطئون فى حقه، أما مع الذين يعتدون على عمله من قرآن وإسلام فإنه لم يكن يعرف سوى التنكيل والوحشية والخداع والانتقام والاستبداد وسفك الدماء حتى لو كان الأمر مجرد تهكم خفيف لا ضرر منه، إذ لم يكن يتذوق الدعابة، ومن ثم لم يكن مستعدا لأى تفاهم مع الشعراء الذين يسخرون منه (ص١٧٩). وهو يصوره صلى الله عليه وسلم فى صورة المعتدى دائما، فهو يبعث بالسرايا والغزوات هنا وهناك للحصول على الغنائم من جهة ولكيلا يخلد المسلمون إلى الراحة من جهة أخرى فينْسَوْا القتال. ثم يضيف أنه صلى الله عليه وسلم كان خبيرا فى فن إغراء الناس وسحبهم خلفه وأن الغنائم كانت تكفل له إخلاص المهاجرين والأنصار على الدوام (ص١٩٢- ١٩٣). وهو فى أثناء ذلك كله يتكلم عن النبى بوصفه صاحب الإسلام، فهو الذى يحلل ويحرم، وهو الذى يفكر فى هذه المشكلة أو تلك ويصدر فيها التشريع المطلوب (ص١٩٥). وفى موضع آخر من الكتاب يقول إن الفقه الإسلامى فى دولة المدينة قد تشكّل من أحكام الرسول وفتاواه وقوانينه ومراسيمه (ص٢٧١).

وعن النساء فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام يقول مؤلف الكتاب إن العدد الذى كان صلى الله عليه وسلم متزوجا به (وهو عنده أربع عشرة زوجة) لم يكن يجيزه الإسلام. ثم يمضى مفتريا الأكاذيب قائلا إن النساء اللاتى كن يحْظَين بحب الرسول أو يميل إليهن كن أكثر من ذلك كثيرا. بل إنه ليزعم أن الآية الأولى من سورة "التحريم" تعطيه الحق فى أن يستمتع، إذا أراد، بأى عدد آخر من الزوجات فوق أولئك الأربع عشرة، وأنه ظل إلى آخر حياته يحب النساء ويعجب بالجميلات منهن ويكرمهن ويداعبهن ويأخذهن بالأحضان، ودافعه إلى ذلك رغبته الحارقة فى أن ينجب ولدا يرثه فى عمله ورئاسته للدولة الإلهية ويكمل ما بدأه هو (ص٢١١- ٢١٢)، وإن كان قد عاد فقال إن زيجاته عليه السلام لم تكن كلها زيجات حب بل كان بعضها لأغراض سياسية بغية الحفاظ على الدولة وتماسكها، وإنه كان يلتزم العدل الصارم بين زوجاته، وكذلك تجاه رعيته (ص٢١٦- ٢١٧). ومن سفاهة الكاتب ادعاؤه أن الرسول، بعدما كبرت سنه، كان بسبب ما يتمتع

به من حكمة وبعد نظر يعرف أن زوجاته الشوابّ لا يستطعن أن يظْلَلْنَ على حبهن لشيخ فى الستين حتى لو كان نبيا، وأنه لذلك قد عرض عليهن الطلاق، فآثرن جميعا البقاء معه ما عدا فاطمة الكلبية، وأنه فى أخريات حياته قد بنى فى ركن من أركان بيته مرحاضا، إذ كان يشك فى دوافع نسائه إذا ما طلبن الذهاب ليلا إلى الخلاء (ص٢١٨- ٢١٩).

وفى حادثة الإفك نراه يجترئ على الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق زاعما أن الرسول عليه السلام قد انشغل فى غزوة بنى المصطلق بشغب المنافقين عليه وبالمرأة الجديدة التى غنمها من غزوة المريسيع مما جعله يهمل عائشة، وأنها رضى الله عنها وأرضاها قد طلعت على الجيش مع الصباح برفقة صفوان الشاب الوسيم وعلى وجهها علائم الحبور، وأن جميع أفراد الجيش أخذوا يتغامزون تهكما بروايتها عن تخلفها بسبب عِقْدها الذى فقدته وعثور صفوان عليها بالمصادفة وحيدة فى الصحراء، نابزا إياها بـ"بنت أبى بكر التى أفسدها التدليل" (ص٢٢١). وكان قد وصفها قبلا بأنها أستاذة فى فن المؤامرات (ص٢١٤). أما حفصة رضى الله عنها فقد ادعى أنها قبيحة كبيرة السن، ولهذا لم يستطع عمر أن يعثر لها على زوج، إلا أن الرسول طلب يدها وتزوجها (ص٢١٥).

وبالنسبة لزينب بنت جحش يردد المؤلف المغرم بالإساءة إلى الرسول والإسلام أنه صلى الله عليه وسلم كان يكن لها عاطفة رومانسية عميقة، وأنه عندما رآها قد وقع مفتونا بجمالها ووقارها وتقواها، فكان يحب الاختلاف إلى بيتها والحديث معها، وأن زيدا زوجها حين لحظ ذلك قد صارحه بأنه سوف يطلقها حتى يمكنه الاقتران بها ما دام يحبها كل هذا الحب. ثم يختم كلامه عنها بقوله إنها كانت بارّة بالفقراء وإنها عاشت بعده صلى الله عليه وسلم فقيرة على عكس زوجاته الأخريات، اللاتى يدَّعى أن خلفاءه عليه السلام قد أغرقوهن بالذهب (ص٢١٥).

وعلى نفس الشاكلة يسىء المؤلف إلى الصحابة رضوان الله عليهم إساءات بالغة منها مثلا أن عمر كان يشتغل بتهريب البضائع فى الجاهلية. ولا ندرى لماذا كان يفعل ذلك، إذ مبلغ علمنا أنه لم تكن هناك جمارك فى مكة! كما يعزو إسلامه إلى رغبته فى إحداث دوى لنفسه فى مكة بعد فشله فى مشروعاته السابقة كلها وعدم إحرازه أى مجد أو ثروة. ولا يكتفى بذلك بل يدعى عليه أنه كان

يضرب زوجات الرسول بالعصا. وجَرْيا على وتيرة المستشرقين والمبشرين يشبّه دوره فى تاريخ الإسلام بما صنعه بولس فى النصرانية (ص٢١١– ٢١٢). كذلك تكررت إشارته إلى أن أم عمرو بن العاص رضى الله عنه كانت عاهرة (ص٢٠، ٩٢). ويجعل أبا بكر ينادى النبى عليه السلام بـ"يا محمد" بدلا من "يا رسول الله" (ص١٣٢). كما يجعل من أمِّ هانئٍ أختِ على بن أبى طالب عمةً للرسول لا ابنةَ عمه، ويصورها طاعنة فى السن (ص١٢٢) رغم أن الرسول عليه السلام قد فكر يوما فى الزواج منها.

ومن إساءاته الشنيعة للصحابة أيضا دعواه الحمقاء بأن الرسول عليه السلام كان يكِنّ لعمه العباس احتقارا هائلا لتأخره فى اعتناق الإسلام (ص١٥٩)، وكذلك تحاملُه الوقح على حسان بن ثابت، إذ يصفه بالقبح وفتور الموهبة الشعرية، زاعما أن شعره يقوم على سب الناس جميعا وأن النبى صلى الله عليه وسلم ضربه بالعصا ذات يوم لطول لسانه فحقدها عليه. ولأنه كان جبانا رعديدا، كما يصفه، لم يستطع أن يواجهه صلى الله عليه وسلم صراحة، فنظم قصيدة فى السر يهجوه بها، ثم لما علم أنها بلغت مسامع الرسول فر إلى بلد آخر، لكن بعض أصحاب النبى استطاع أن يلحق به وضربه بالسيف، فأخذ ينظم القصائد يشكو فيها حاله إلى أهل المدينة طالبا منهم القِصَاص. ثم انتهى به الأمر إلى التحقق من شدة سطوة الرسول ونفوذ سلطانه ورسوخه، فشرع يتردد عليه بصحبة بعض أقاربه من ذوى المكانة فى يثرب بغية السماح له بمقابلته صلى الله عليه وسلم. بيد أن النبى لم يأذن له، إذ كان عليه السلام يكره الشعراء لأنهم يقولون ما لا يفعلون. لكن حين أخذ شعراء مكة يهجونه صلى الله عليه وسلم عَدَل عن موقفه، وقرر السماح لحسان بالمثول بين يديه لإنشاد شعره. ومع هذا فقد وجده أضعف من شعر القرشيين وأقل موهبة، فما كان منه إلا أن لمس لسان الشاعر اليثربى بطَرَف عصاه، وعلى الفور تغير الحال وصار هجاؤه مرا أليما (ص٢٣٠– ٢٣١).

وكأن هذا وغيره ليس كافيا فى نظر المؤلف لتشويه صورة الصحابة الكرام، فنراه يكتب فى موضع آخر أن المهاجرين والأنصار قد أصبحوا بعد قليل طبقة أرستقراطية طفيلية فارغة ذات

مطالب مسرفة تثقل كاهن الخزانة العامة، وأن النبى عليه السلام كان يتفهم هذا كله، إذ رأى من حقهم التعويض عن سنوات الحرمان العصيبة التى قاسَوْها معه ومن أجله (ص٢٧٠– ٢٧١).

فإذا انتقلنا إلى موقف ذلك المدعو: "محمد أسد بك" من اليهود المساكنين للنبى عليه السلام فى المدينة وكلامه عنهم ورأيه فيهم رَاعَنَا أنه، فى الوقت الذى أطلق قلمه بالغمز واللمز الدنس تارة، وبصريح القول النجس تارة أخرى فى حق الرسول وصحابته، قد اتخذ جانب اليهود على طول الخط مثنيا عليهم وعلى ذكائهم وعلمهم وتقواهم وشجاعتهم... إلخ. وهذا من الأشياء التى عضدت عندى أنه يهودى.

وأول ما نبدأ به هو تلك القصة الفكاهية التى لا أدرى من أين استقاها، وملخصها أن النبى عليه الصلاة والسلام قد عَطِش أثناء هجرته إلى يثرب عطشا قاسيا لم يطفئه إلا يهودى اسمه نوروز مما كان من نتيجته أن أصبح المسلمون يحتفلون بعيد النوروز تخليدا لذكرى ذلك اليهودى النبيل (ص١٣٣). وهى، كما يرى القارئ، بداية لها مغزاها فى الدلالة على ما سوف يقوله المؤلف فى حق أولئك القوم، الذين بدا لى، فى ذلك الوقت قبل أن أعرف حقيقته، أنه واحد منهم، وإن اصطنع لنفسه اسما من أسماء المسلمين بل من أسماء النبى ذاته صلى الله عليه وسلم، وهو "محمد".

فهو يزعم أن اليهود كانوا متعاطفين مع النبى قبل الهجرة، إذ كانوا يسمعون أنه يقول مثلهم بإله واحد، فضلا عن أن القرآن الكريم قد رفع أهل الكتاب مكانة عالية. ولهذا رحبوا به عند مقدمه إلى يثرب (ص١٤٧). أى أنه يجعل من اليهود الأساس الذى يقاس عليه الرسول فى صحة الإيمان والتوحيد. ثم يخطو خطوة أخرى قائلا إن اليهود، بما لهم من براعة فى الحجاج التلمودى، كانوا يفنِّدون الحجج التى يأتيهم بها محمد دون أية صعوبة، وإن دينهم متفوق على دينه، وإنه عليه السلام كان يخشى أن يبزغ من بين ظَهْرَانَيهم نبى ينافسه كابن صياد، الذى كان بمستطاعه، حسبما يزعم الكاتب، أن يتنبأ بكل دقة بما فى عقل محمد، فما كان منه صلى الله عليه وسلم سوى أن اتهمه بتلبس الشيطان له. وهذا ما دعاه صلى الله عليه وسلم إلى إشهار الحرب عليهم واتهامهم بأنهم كانوا طوال تاريخهم دائمى التمرد على أنبيائهم (ص١٨١– ١٨٢).

وكان الرسول، كما يقول الكاتب الممالئ لليهود، يعرف أنهم غير متحابين، فبدأ بأضعف قبائلهم، وهم بنو قينقاع، مطمئنا إلى أن القبائل اليهودية الأخرى لن تهبّ لنصرتهم. وكان من السهل عليه اتخاذ أية ذريعة لضربهم بُغْيَةَ الحصول على الذهب والسلاح اللذين كانوا يمتلكونهما. وقد أبدى المؤلف أشد الأسف على مصير هؤلاء الأرجاس المناكيد (ص١٨٣- ١٨٤). ثم يمضى فى مزاعمه الوَقَاح قائلا إن اليهود عرضوا على الرسول مشاركته فى قتال المشركين فى أُحُد، لكنه رفض هذا العرض (ص١٨٧). ثم نجده بعد عدة صفحات يبدأ فاصلا من العزف على أوتار المديح لهم بالنبل والشجاعة باسطا أمرهم مع الرسول من وجهة نظر باطلة دون أن يشفع ذلك بأية تخطئة لهم مهما تفهت.

ويضيف قائلا إنهم هم الذين وفروا للرسول الحماية والوطن بعد مغادرته مكة. ولا يفوته أن يخلع على حُييّ بن أَخْطَب عدو الله ورسوله صفات الإيمان والتقوى (ص١٩٨- ١٩٩). ومما له دلالته أنه قد بدأ الفصل الذى عقده لهذا الموضوع بعبارة من العهد القديم مؤداها أن الله إذا أحب قوما عاقبهم. وهو ما يعنى بكل جلاء أن ما نال اليهود على يد النبى صلى الله عليه وسلم إنما هو مظهر من مظاهر حب الله لهم لا غضبه عليهم.

وحين يأتى الكلام إلى بنى قريظة ينبرى أسد بك فيسوق العذر لهم فى نقضهم العهد الذى كان بينهم وبين الرسول، مؤكدا أنه هو الذى بدأ بالنقض حين صنع ما صنع مع بنى قينقاع وبنى النضير. ثم يقول إن بنى قريظة رفضوا أن يشتركوا فى هجوم الأحزاب على المسلمين احتراما للسبت، الذى تصادف أن كان هو بداية هجوم المشركين على المدينة. ثم يصف سعد بن معاذ، الصحابى الجليل الذى أصدر حكمه على بنى قريظة جَرَّاءَ خيانتِهم وغدرِهم واشتراكِهم مع الأحزاب فى التآمر على ضرب الرسول والمسلمين فى مقتل، بسرعة الغضب والرغبة فى سفك الدماء. كما يسِم الحكم الذى أصدره بالبربرية والدموية قائلا إن اليهود كانوا يظنون أنه، رضى الله عنه، سوف يكون عادلا فى حكمه عليهم. وهى عبارة وراءها ما وراءها. أما الذين نُفِّذ فيهم حكم

الإعدام ممن ظاهروا المشركين وخانوا عهدهم مع رسول الله والمسلمين فقد مدحهم بأنهم ماتوا ميتة بطولية شريفة، إذ رفضوا أن يخونوا دينهم ويتحولوا إلى الإسلام.

ونراه هنا يزيد فى كلام الزبير بن باطا، اليهودى الذى قبل النبى شفاعة بعض الأنصار فيه فعفا عنه، العبارة التالية التى لم يوردها أى من كتب السيرة أو التاريخ: "إننى لا أقبل أن أكون مدينا بحياتى لرجل متعطش للدماء". وعند المؤلف الموالس مع اليهود الغادرين أن مأساتهم إنما تعود إلى كثرة مجادلتهم للرسول وإيثارهم لحرية الفكر على الطاعة العمياء التى كان يريدها منهم، فضلا عن كراهيته عليه السلام لوجودهم فى المدينة حيث لا ينبغى فى نظره أن يسْمَع فيها أى صوت آخر غير صوت الله ورسوله (ص٢٠٤– ٢٠٧).

وفى نهاية المطاف من حديثه عن اليهود وعلاقتهم بالنبى صلى الله عليه وسلم يسخر مما يزعم أنه تصور الرسول للشياطين. فالشيطان، فى نظر الرسول حسب كذب الكاتب، إنسان يمشى متلصصا دون أن يبدو عليه أنه يبغضك، لكنه إذا ألقى عليك نظرته الفجائية لدى مرورك به أصابك بالمرض. والشياطين، بناء على هذا التصور المزعوم، تسكن الكهوف المظلمة وقمم التلال الملتهبة فى الصحراء، وتعاديه عليه السلام عداء رهيبا. وفى هذه الكهوف والتلال تعيش منذ عهد سليمان ساحراتٌ يهودياتٌ شمطاواتٌ يسيطرن على مملكة الشياطين ويسَيرْنَها على هواهن. وهذه هى "القبالة" التى عرفها النبى فى ابن صياد، وكان يخافها لدى النساء الغريبات متوقعا على الدوام أن يتعرض لعملية سحر على أيديهن.

ثم يمضى مؤكدا أن اللعنة (يقصد لعنة السحر) قد أصابت الرسول فى أعز شىء لديه، وهو الجماع، الذى أُوتِىَ فيه قوة ثلاثين رجلا، فكان يرى فى نظرات زوجاته الشهوة والغيظ. كما غار خَدَّاه، واتسعت عيناه، واصفرّ لونه، وازدادت زوجاته حزنا وكمدا، وشرع الصحابة (حسبما يقول ذلك الأفاك) يتساءلون: أية خطيئة يا ترى اقترفها الرسول ليعاقبه الله هذا العقاب؟ (ص٢٠٨– ٢٠٩). وهى، كما نرى، أكاذيب استولدها أسد بك من خياله الكاذب الآثم الشرير. وكل هذا قد غلَّب عندى آنذاك أن يكون اسم "محمد أسد بك" اسما وهميا انتحله أحد اليهود الحاقدين على

العظمة المحمدية لفتنة المسلمين والتشويش على عقيدتهم وعقولهم، إذ يرَوْن شخصا مسلما مثلهم يعيب الرسول ويكشف عورات شخصيته، فيكون هذا أدعى إلى أن يصدّقوه ويسلّموا له بما يقول.

ومما يتهم به هذا المنافقُ المتظاهرُ بالإسلام الرسولَ الكريمَ أنه كان يقرأ مع الحنفاء الكتب القديمة، وأنه قد تعرف إلى التوراة والإنجيل وأنبياء بنى إسرائيل على يد ورقة بن نوفل. ولو كان المؤلف مسلما ما ردد هذه الفرية الآثمة التى يصدّع بها كثير من أهل الاستشراق والتبشير أدمغتنا، إذ قد نفى عنه القرآن المجيد أن يكون قد عرف تلك الكتب بأى حال أو أن يكون قد علَّمه بشر. ومع ذلك فسننسى دفاع القرآن عنه ما دام الكاتب غير مسلم ونعرض الملاحظات التالية: ترى لو كان هذا الزعم صحيحا فلماذا لم ينبر أحد من هؤلاء الحنفاء أو من أقربائهم ويقول هذا الذى يردده ذلك المؤلف وأمثاله؟ لقد تتبعت فى كتابى: "مصدر القرآن" أخبار هؤلاء الحنفاء، فألفيتهم إما أسلموا كورقة بن نَوْفَل أو ماتوا قبل البعثة وأسلم مِنْ بَعْدِهم أبناؤهم كزيد بن عمرو بن نُفَيل أو كادوا أن يسلموا لكن العصبية القبلية قد حالت دون ذلك كأُمَية بن أبى الصَّلْت أو احتمَوْا بقوة أجنبية كعثمان بن الحويرث، الذى انحاز إلى الروم وطلب إليهم أن يولّوه مكة، لكن أهلها ردوه عن بلدهم ردا قبيحا. فمَنْ مِنْ هؤلاء يا ترى هو الذى قرأ مع رسولنا الكريم الكتب القديمة المزعومة؟ ومتى؟ وأين؟ وأمام مَنْ مِنَ الشهود؟ ولماذا لم يفتح أى منهم أو من أقربائهم أو معارفهم فمه بكلمة فى هذا السبيل؟ بل لماذا لم يحاول أى من هؤلاء الأساتذة أن يدَّعِيَ هو النبوةَ ما دام ادعاؤها سهلا إلى هذا الحد؟

وكعادة هذا الشيطان فى افتراء الباطل ثم عدم احتياطه لهذا الافتراء نراه يكرر وصف الرسول بأنه كان رجلا ساذج الكفر عاريا عن الثقافة عُرْيا تامًّا (ص٦٨_ ٦٩، ٧٤، ٨٩). فكيف بالله يتسق هذا مع دعواه أنه عليه السلام قد قرأ الكتب القديمة وتعرف إلى التوراة والإنجيل وتاريخ أنبيائهما؟ نعم كيف يتسق جهل وعلم، وسذاجة وثقافة على هذا النحو؟ ثم كيف يتهم الرسول بالسذاجة والجهل مع ما فى القرآن الكريم، الذى يتهمه هذا الأفاك بأنه هو مؤلفه، وما فى الأحاديث الشريفة أيضا من ثقافة وفكر غاية فى الرقى والحكمة والتنوير؟ ثم ما من مرة اختلف فيها القرآن مع الكتاب

المقدس إلا كان الحق والمنطق فى جانب القرآن، والتخبط والتناقض فى صف الكتاب المقدس. فهل مما يقبله العقل أن يكون الآخذ هو المصيب دائما، والمأخوذ منه هو المخطئ أبدا؟ ومَنْ يرِدْ أن يرى مصداق ذلك فباستطاعته الرجوع إلى كتبى عن سورة "المائدة" وسورة "يوسف" وسورة "طه" وغيرها من الدراسات حيث يجد فى كل منها فصلا فى المقارنة بين القرآن وكتاب اليهود والنصارى يبين بالتفصيل ما انكشفت عنه تلك المقارنة من فضح عورات الكتاب الأخير.

أما قول الكاتب المتخفى إنه صلى الله عليه وسلم قد وصل به الحال فى الفترة السابقة على البعثة أن أخذ يذرع الوديان ويصعّد فى الجبال فى ثياب رثة وشعر أشعث وخطوات مضطربة بعدما كان يعيش فى جو أرستقراطى وملابس حريرية أنيقة، وإنه حين سمع أصوات الصخور وصراخها عند غار حراء سقط متشنجا وقد تجمع الزَّبَد على شفتيه، فليس إلا من بُنَيات الأوهام والخيالات الإبليسية، إذ لم يرِدْ شىء من ذلك فى أى من المصادر التى تحدثت عن الرسول. والتاريخ لا يجوز أبدا أن يصاغ من لَبِنات الأوهام والخيالات الإبليسية بل من لبنات الواقع الصُّلْبة التى نقلها إلينا من شاهدوها واستوثقنا من شهودهم إياها وصدقهم فى روايتها.

ومن الواضح أن الكاتب الكذاب يرمى إلى اتهام الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه قد خُولِطَ فى عقله، إذ لا يفعل هذا إلا شخص مضطرب العقل والنفس قد وقع فريسة للهلاوس والجنون، وإلا فما معنى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع صراخ الصخور؟ ثم ماذا يقصد الكاتب من أنه عليه الصلاة والسلام قد سقط متشنجا وقد تجمع الزبد على شفتيه سوى القول بأنه كان مصابا بالصَّرْع، تلك التهمة القديمة التى ترجع إلى أيام الرومان والتى ما زال أوغاد المستشرقين يرددونها رغم ما هو معروف لكل من كلف نفسه استفتاء كتب الطب وعلم النفس من أن مظاهر الوحى لا وشيجةَ البَتَّةَ بينها وبين أعراض الصَّرْع من قريب أو من بعيد؟

ونسأل: كيف يا ترى من الممكن أن يصاب الرسول بالتشنج آنذاك وتُزْبِد شفتاه؟ لقد كان الرسول يعيش بمفرده فى الغار. ومعنى هذا أن أحدا لم يشاهده عندما حدث له ذلك. وهو نفسه لم يكن ليستطيع أن يعرف ماذا حدث له لأنه كان فاقد الوعى. ثم أليس عجيبا أن يقع له ذلك دون أن

يصيب نفسه بضررٍ جَرَّاءَ اصطدامِ رأسه بالصخور مثلا أو عَضِّهِ لسانَه أو ما إلى هذا؟ أرأيت، أيها القارئ الكريم، كيف يرمى الواحد من صعاليك المستشرقين بالتهمة السخيفة المتهافتة والمناقضة للمنطق والتاريخ فى مثل هذه القضية الخطيرة باستخفاف ورقاعة تامين؟ وعلى من؟ على سيد البشر والأنبياء والمرسلين!

ومن خيالات المؤلف الملتاثة ما يحاول أن يبثه فى رُوع القارئ من أنه صلى الله عليه وسلم، بعد سماعه الأصوات والصرخات ورؤية الأشباح لدى غار حراء، ظل فوق الجبل أياما بل أسابيع بل شهورا وهو فى رعب شديد ودوخان مستمر، فضلا عن أن نزوله من فوق الجبل وعودته إلى خديجة بعد ذلك قد استغرق عند مؤلفنا الليل بطوله ونصف اليوم التالى رغم أنه قطع المسافة عَدْوًا لا مشيا، وذلك بسبب تشوش عقله وفقدانه الوعى والتمييز لما حوله. وهو كلام سخيف لا يستحق الوقوف إزاءه لأنه مجرد أوهام وأباطيل، إذ من أخبر المؤلفَ بهذا كله؟ إن كتب السيرة والتاريخ والحديث والتفسير متاحة لمن يريد التحقق من بطلان هذه المزاعم الشيطانية. ولولا أنى أردت أن يلمس القارئ بيده هذا السخف المتنطع ما أحدثت له منه ذكرا.

أما ادعاء هذا اليهودى المتخفى تحت اسم "محمد أسد بك" على خديجة أنها نَضَتْ عنها ملابسها وتعرت تماما لتتأكد من أن الذى رآه النبى ملاك لا شيطان فليس سوى قلة أدب. لقد كانت خديجة سيدة عربية فاضلة كريمة من أسرة نبيلة وزوجة لرجل ذى مروءة وفضل واحترام، فكيف يمكن أن تفكر على هذا النحو الذى لا يمكن أن يفكر فيه سوى عاهرات السينما فى بلاد الغرب موطن ذلك الشيطان وأشباهه؟ ثم من يا ترى أخبره بذلك، وهذه كتب الحديث والسيرة والتاريخ لا تقول شيئا من هذا بتاتا؟ أهذا كل ما فى جَعْبَة الاستشراق لمحاربة محمد ودين محمد؟ ألا شاهت الوجوه والنفوس! لقد لطخ اليهود فى العهد القديم، الذى زوروه بأيديهم وأقلامهم، صُوَرَ أنبيائهم جميعا، فجعلوا منهم زناة وقتلة وخونة وكذابين وسكيرين ودَيايثَةً ومُضَاجِعين للمحارم. وقد مَرَدُوا على هذا حتى أضحى دِينًا لهم. وها هم أولاء يظنون أنهم يستطيعون تكراره مع رسولنا الكريم، لعنهم الله! أَوَمَنْ تقول لزوجها فى هذا الموقفِ الكلامَ النبيلَ الراقىَ التالى: "والله لا يخزيك اله ابدا.

إنك لَتَصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتعين على نوائب الحق" يمكن أن تتصرف على هذا النحو فى نفس الموقف؟

وبالنسبة لدعوى الكاتب بأن النبى عليه السلام خالف التشريع القرآنى القاضى بعدم الزواج بأكثر من أربع فمن اللازم لَفْتُ النظر إلى أن هذا التحديد لم ينزل به الوحى إلا فى السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بَنَى بزوجاته جميعا، فلم يتخذ بعد ذلك أية زوجة أخرى. أى أنه عليه السلام لم يخرج على التشريع القرآنى فى هذا المجال على عكس ما يزعم هذا المستشرق السفيه، إذ التشريع المذكور لاحق لا سابق. وزيادة على ذلك لم يؤْثَر عنه كلمة أو نظرة يشْتَمّ منها رائحة الطمع فى امرأة ليست له. ولست أعرف أىّ شيطانٍ لَعِينٍ وَسْوَسَ لذلك الكاتب ما وسوس حين قال إن رسول الله كان لا يكف عن مداعبة النساء وأخذهن بالأحضان. إن الكاتب الأحمق لا يستطيع أن يميز بين ما ينبغى أن يلتزمه من يتحدث عن سيد الأنبياء من تبجيل وتعظيم وبين ما يثرثر به أى وغد لئيم عن المواخير ومرتاديها وعن الطريقة التى يتعامل بها الرجال والنساء فى المجتمعات الغربية التى لا تعرف حلالا ولاحراما ولا عيبا.

ترى لو كان عليه السلام على هذا النحو فى التدله فى حب النساء فلم حددهن أصلا بأربع؟ لقد نسبتُ إليه هذا التشريع لأن الذين يتهمونه بهذا إنما يتهمونه فى ذات الوقت بأنه هو صاحب القرآن ومخترع الإسلام. لو كان الرسولُ مؤلفَ القرآن لما أصدر هذا التشريع البتة، إذ كان التعدد بلا ضابط عرفا متبعا عند العرب. فلم يا ترى يضع نفسه فى هذا الموقف الحرج ما دام لا ينوى أن يطلق أيا من نسائه بعد صدور ذلك التشريع؟ وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو أنه عليه السلام لم يخفض عدد زوجاته بعد نزول تشريع التحديد. لكن السر فى هذا مفهوم لمن يريد بلوغ الحقيقة لا التشنيع على نبى الله، إذ أين ستذهب الزوجات اللاتى سيطلقهن، وقد حرَّم الله أن ينكحهن أحد بعده أبدا؟

ويتصل بهذا كذب المدعو: "محمد أسد بك" على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر زينب بنت جحش حين زعم أنه كان يكن لها عاطفة رومانسية عميقة كما لو أنها كانت غريبة عليه

فلم يرها إلا فى بيت زوجها ففُتِن بجمالها وصار يتردد عليها فى غياب زوجها مع أنها بنت عمته وليست غريبة عليه بحال، وهو الذى زوّجها بزيدٍ رغم أنها وأهلها لم يكونوا موافقين على الزيجة بينما أصرت السماء على إتمام هذا الزواج. فلم بالله يتخذ محمد هذا المسار المعقد الملتوى ما دام يحبها ويفتتن بها ويحب التردد على بيتها فى غياب زوجها؟ بل لقد كان الرسول عليه السلام يكره تطليق زيد لها. أفلو كان متيما بها على هذا النحو أكان يزين له الإبقاء عليها فى ذمته؟ ثم من أين للإبليس مؤلف الكتاب بتردد الرسول على زينب فى غير وجود زوجها؟ إن هذا اتهام باطل لأنه لا سند له لا من رواية تاريخية ولا من شهادة شهود أخبروا الكاتب بما حصل. ولو أقررنا هذا الأسلوب فى الحكم على الناس ما بقى فوق ظهر الأرض برىء!

إن ما يقوله أسد بك وَغَادَةٌ ما بعدها وَغَادَةٌ، فقد كانت رضى الله عنها، كما أكد هو بعظمة لسانه، تقية نقية تحب الفقراء والمساكين وتعطف عليهم. فكيف يمكن التقول عليها بمثل هذا الشكل الحقير؟ ثم إنها ابنة عم محمد كما قلنا، أى كانت معروفة له تماما منذ الصغر. فلو كانت عنده تجاهها هذه العاطفة فلماذا لم يتزوجها إذن وزوَّجها بدلا من ذلك زيدا، وكان زيد عبدا عتيقا، أما هى فمن أعز البيوتات القرشية؟ ومتى كان الرسول يتردد عليها أثناء مغيب زوجها عن البيت؟ إن كل ما ترويه الروايات أنه صلى الله عليه وسلم ذهب لزيد، الذى كان ابنه بالتبنى، فى أمر من الأمور فعلم من زينب أنه غير موجود، فاستدار من فوره راجعا. أما تصور أخلاق النبى على غرار أخلاق الرقعاء والمتبطلين وأزيار النساء الذين لا يتمتعون برجولة ولا شهامة ولا نخوة فينتهزون أول فرصة لغياب معارفهم أو جيرانهم عن المنزل ويترددون على الزوجة فأمرٌ لا يقْدِم عليه سوى حاقد لئيم يظن بجهلٍ وحِطَّةٍ أنه يستطيع تلطيخ سيد البشر بجرة قلم نجسة مثل أخلاقه. وهذا دليل على الحماقة التى تجاوزت كل الحدود لأن صورة النبى عليه السلام لا يمكن تلطيخها فعلا ولو أجمع على ذلك شياطين الأرض وأبالستها. ترى هل يمكن أن يسقط القمر من عليائه إن نبحه كلب؟

ومقطع الحق فى هذا أن الرسول قد تعرض لحرج اجتماعى شديد بزواجه بأمر القرآن من زينب. أى أن عقده عليها كان عبئا لا سببا للسرور، إذ كان يعلم مدى الصدمة التى سيسببها هذا

الزواج للمجتمع العربى، الذى كان ينظر إلى الابن بالتبنى نظرته إلى الابن الحقيقى. فزواجه من زينب كان يعنى عند العرب زواجه بامرأة ابنه، فهو إذن أمر يبعث على الاستغراب والاستنكار. ومن هنا نفهم سر تباطئه، الذى أخذه عليه القرآن، إذ كان كتاب الله يريد وضع حد لتلك النظرة التى كانوا ينظرونها إلى ابن التبنى. وهذا معنى قوله تعالى له: "وتخشى الناسَ، واللهُ أحقُّ أن تخشاه". فذلك الزواج إذن كان تضحية من جانبه صلى الله عليه وسلم لا وطرا يشتهيه أو عاطفة رومانسية يشبعها. لكن متى كان أصحاب القلوب الغُلْف يفقهون؟

ولو كان الرسول كما يفترى عليه الكاتب السافل فلم كان يعْدِل بين زينب وغيرها من نسائه اللاتى لم يكن يحمل لهن مثل تلك العاطفة الرومانسية التى يفتريها عليه هذا السفيه؟ ولقد شهد الكذوب رغم هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان يراعى فى معاملتهن العدل الصارم الذى لا يعرف الحيف. وقديما قيل: إذا كنتَ كَذُوبًا فكن ذَكُورًا! إلا أن كاتبنا الشرير يكذب كثيرا لكنه ليس من الذاكرين، فلهذا يقع فى المعاطب. وهذا من إخزاء الله له ولأشباهه، إذ من يتطاول على الرسول لا يوفقه الله للفلاح أبدا.

ولعل من المفيد أن نسوق النص التالى من كتاب " Muhammad Prophet And Statesman" للمستشرق البريطانى وليم مونتجمرى وات عن هذه المسألة:

"The story of Muhammad's meeting with Zaynab in Zayd's absence and being swept off his feet by her physical attractiveness must be taken with a grain of salt. It does not occur in the earliest source. Moreover, Zaynab was thirty-five or thirty-eight at the time of the marriage, and for an Arab woman of those days that was getting on'. All Muhammad's other wives except Khadijah were younger when he married them, and most of them very much younger. Zaynab may have made the most of such beauty as she still had, but, evenif there is a basis of fact underlying the story, one must suspect that it has been touched up in the course of transmission. Later Muslims liked to maintain that there was no monkery in Islam, and their asceticism usually did not include celibacy. It would be in keeping with this to magnify the extent and romantic character of Muhammad's relation with the fair sex. It is even boasted that his virility was such that he could satisfy all his wives in a single night. The theme of love at first sight seems to belong to this imaginative elaboration of Muhammad's life-story. It is most unlikely that at the age of fifty-six such a man as he should have been carried away by a 'passion for a woman of thirty-five or more".

ثم نأتى إلى حادثة الإفك، وما أدراك ما حادثة الإفك؟ إن الكاتب، كما قلت، ينطلق فى ظاهر كلامه من كونه مسلما، كما أن اسمه يدل فى الأقل على أنه يريد الاشتهار بين المسلمين بأنه على دينهم. ولو كان مسلما لكفاه تبرئة القرآن الكريم لعائشة رضى الله عنها، إذ من يتهمها فى شرفها بعد ذلك حتى ولو بأسلوب الهمز والغمز لا يمكن أن يكون بالوحى الذى ينزل على محمد من المؤمنين. ولكن ما دام قد فعلها فلمز أم المؤمنين وغمزها وتهكم بها وبرواياتها عن الواقعة فلننهج نهجا آخر ونقول: ترى لو أن عائشة كانت كما يقول أكانت تفعلها مرة ثم لا تكررها بعد ذلك أبدا؟ لكننا ننظر فى سيرتها فلا نرى إلا طهرا، ولا نشم إلا عطرا. ثم لو كانت فَعَلَتْها وزوجُها حىٌّ وينزل عليه الوحى فكيف لم تفعلها ثانية بعد أن مات وخلا لها الجو ولم يعد هناك وحى تخشاه؟ بل إن نزول الوحى بتبرئتها وهى غير بريئة لَحَرِىٌّ أن يشجعها على الانحراف لأنه سوف يكون دليلا ما بعده دليل على أن زوجها ليس بنبى، إذ الله لا يجهل ولا يكذب. ولكننا ننظر فنجد أنها عاشت بعده صلى الله عليه وسلم عشرات السنين دون أن تَعْلَقَ بها ولو همسة ريبة رغم أنها كانت تتمتع لدن وفاته بالشباب والجمال والذكاء والحيوية، نزولا منها على حكم القرآن بألا زواج لأحد من زوجاته صلى الله عليه وسلم من بعده أبدا. فكيف تلزم نفسها بهذا الحرمان الخطير إن كانت قد ارتكبت خطأ بما يعنى أن تبرئة القرآن لها تبرئة كاذبة أو على الأقل: خاطئة، ومن ثم فنبوة زوجها نبوة زائفة؟ ولا ننس أنها كانت شديدة الغيرة على النبى الكريم صلى الله عليه وسلم. فهل هذا صنيع امرأة يمكن أن تفكر مجرد تفكير فى خيانة الزوج؟

وكيف ظل صفوان، الذى اتهمها به المنافقون وتابَعَهم فى ذلك سَفَلَةُ المستشرقين والمبشرين، يؤمن بمحمد ويخلص له ويحبه ويجاهد فى سبيل الله بعد ذلك، وبخاصة بعد أن نزل الوحى بتبرئته هو وعائشة بما يعنى، لو كان الخطأ قد وقع منهما، أن محمدا يكذب ويخترع من عنده ما يريد من أوحاء؟

ولقد ربأ بعض المستشرقين بأنفسهم عن ترديد هذا الاتهام السافل واستعفّوا أن يخوضوا مع الخائضين فى عِرْض عائشة سليلة البيت البكرى الشريف، ومنهم على سبيل المثال وليام موير كاتب

سيرة النبى العظيم. إن مصيبة المفترين من المستشرقين والمبشرين أنهم، حين يكتبون عن عائشة وأمثالها من ذوات الفضل السامى، لا يستطيعون التمييز بينها وبين أمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم. وهو خطأ منهجى فادح قبل أن يكون سقطة أخلاقية، إذ كيف نقيس سيدة كريمة تربت على تقديس العرض والشرف أكثر من تقديسها للحياة ذاتها إلى المرأة الغربية التى لا يزيد أمر العرض فى معظم الأحيان لديها عن قطعة من اللادن تمضغها برهة ثم تبصقها على الأرض دون أية مبالاة؟

ومن أكاذيب أسد بك وافتراءاته أيضا قوله إن محمدا كان يشارك قومه طقوسهم الدينية فى الجاهلية، وإن لم يكِنّ للأوثان مع هذا احتراما كبيرا، وإنه كلما رُزِق بولد قدَّم للأوثان قربانا. بل إنه سمى أحد أولاده باسم "عبد مناف". وهو كلام عجيب، فكتب السيرة والتاريخ والحديث لا تذكر أنه صنع شيئا من ذلك، اللّهم إلا خبرا شاذا أورده ابن الكلبى سنتناوله بعد قليل. ولو كان هذا صحيحا فهل كان المشركون وأهل الكتاب والمنافقون ليسكتوا فلا يتخذوا منه سلاحا لمحاربته والصد عن دعوته والتعجيب من شأنه إذ ينكر على قومه اليوم ما كان يشاركهم فعله بالأمس؟

وإذا كنا نعرف أنه عليه الصلاة والسلام قد رغب مرة، وهو شاب يرعى الغنم، أن يشهد لهو القرشيين فى أحد أعراسهم، فألقى الله عليه النوم، فلم يستيقظ إلا وقد طلع الصباح، أفكان سبحانه وتعالى تاركه يتلطخ بحمأة الوثنية، وهو الذى يعِدّه ليكون رسوله إلى العالمين؟ لقد كان الحنفاء، وهم بكل تأكيد أقل منه صلى الله عليه وسلم فى نبل النفس والغيرة على الحق والاستعداد الفطرى للكمال العقيدى والخلقى، يزدرون الأوثان ويزورّون عنها ويعيبون على قومهم عبادتها والتقرب لها، فما بالنا بمحمد صلى الله عليه وسلم؟

وليس هناك من يجهل أن محمدا كان يتحنث فى غار حراءٍ الليالىَ ذواتِ العدد من كل عام معتزلا قومه وما هم فيه من ضلال فى العقيدة والسلوك، فكيف بالله يجرؤ إنسان على أن يتقول عليه خلاف ذلك؟ والطريف أن الكاتب الكذاب المفترى قد عاد فقال إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يكن للأوثان كبير احترام. وإننا لنتساءل: ترى كيف لم يكن يكنّ للاوثان احتراما كبيرا، وفى ذات

الوقت يحرص كل الحرص على مشاركة قومه طقوسهم وتقديم القرابين لها كلما رزق بطفل؟ ثم إن المسمى بـ"محمد أسد بك" لا يفعل هنا أكثر من ترديد رقاعات نفر من المستشرقين والمبشرين إذ يقولون إن هذا هو معنى قوله تعالى: "ووجدك ضالًّا فهدى" مع أن هذه الآية إنما تشير إلى فترة التحنث، التى طال فيها بحثه عن الحقيقة، ولم يصل فيها إلى شىء قاطع تطمئن له نفسه تماما. والضلال هنا هو مثل الضلال فى قول موسى عن نفسه، حين قتل المصرىَّ خطًأ قبل أن يختاره الله نبيا، بأنه كان "من الضالين". ولقد وضح القرآن "الضلال" الذى وجد الله محمدا عليه قبل البعثة فهداه، إذ قال مخاطبا إياه: "ما كنتَ تدرى ما الكتابُ ولاالإيمانُ". فلم تكن نظراته فى الكون والحياة سوى تأملات حائرة رغم إخلاصها وانبعاثها من قلب كريم.

أما ابن الكلبى فتقابلنا فى كتابه: "الأصنام" العبارة التالية: "وقد بلغَنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَكَرَها (أى العُزَّى) بقوله: لقد أهديتُ للعُزَّى شاةً عفراءَ وأنا على دين قومى". لكنه، غفر الله له، لم يذكر من الذى قال له هذا الكلام ولا فى أى ظرف أو لأى سبب تم تقديم القربان ولا من كان مع الرسول حينذاك من أبناء قومه. ثم لماذا لم يرو ذلك أحد آخر غير ابن الكلبى؟ إن مثل ذلك الخبر الغريب الذى يصادم ما نعرفه عن رسول الله ونبذه الأوثان وكل ما يتعلق بها لا يمكن قبوله أبدا، فضلا عما قلته آنفا من أنه عليه السلام لو كان قد مارس طقوس الوثنية فى يوم من الأيام لاحتج عليه المشركون واليهود والمنافقون وجعلوها مطعنا فى دعوته الجديدة أىّ مطعن. وعلى أية حال هذا، فيما نعرف، هو الخبر اليتيم بل الشاذ فى هذا الموضوع. أما قول محمد أسد بك إنه عليه السلام قد سمى ابنا من أبنائه بـ"عبد مناف" فهو كذب شنيع كما نعرف جميعا، إذ نحن نعلم أسماء أبنائه كلها، وليس فيها هذا الاسم، بل ليس فيها أى اسم يبدأ بكلمة "عبد" بتاتا.

وعلى نفس المنوال يردد الكاتب ما يقوله أمثاله من حقدة المستشرقين والمبشرين من أنه صلى الله عليه وسلم قد مدح اللات والعزى ومناة أثناء قراءته سورة "النجم" عند إعلانها على الكفار لأول مرة. ولقد أفاض علماء الإسلام قديما وحديثا فى تفنيد الرواية السخيفة التى أوردت ذلك، وبينوا تهافت سندها وما إلى هذا، وانتهَوْا إلى أنها من صنع بعض الزنادقة. والواقع أنه يكفى أن يقرأ

المسلم فى أول تلك السورة قوله تعالى عن رسوله الكريم: "وما ينْطِق عن الهوى * إنْ هو إلا وَحْىٌ يوحَى" كى يرمى هذه الرواية دُبْرَ أذنه بل تحت قدمه، إذ لو كان الرسول قد نطق فعلا جملتَىْ "إنهن الغرانيقُ العُلَا * وإنّ شفاعتَهنّ لتُرْتَجَى" لكان قد نطق عن الهوى، إذ تقول تلك الرواية المزعومة إنه صلى الله عليه وسلم كان يهوَى أن يقارب قومَه حتى لا ينفروا منه ومن دعوته. كذلك لو نطق الرسول بهاتين الجملتين فكيف تركه ربه عز وجل فلم يأخذ منه باليمين ولم يقطع منه الوتين حسبما جاء فى سورة "الحاقة": "ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذْنا منه باليمين * ثم لقطَعْنا منه الوَتِين"؟ هذا بالنسبة للمسلم، أما من فى قلوبهم مرض من نفاق أو كفر فإننا نقول لهم إن السورة كلها من أولها إلى آخرها هجوم صاعق على الأوثان وعابديها. فبالله كيف يتَصَوَّر أن يكون هناك مدح للأوثان فى غمرة هذا الهجوم المدمدم عليها والتسفيه العنيف لعابديها؟

ثم إن الجملتين المذكورتين تثبتان الشفاعة لهذه الأوثان دون تعليق ذلك على مشيئة الله سبحانه، وهو ما لم تفعله الآيات القرآنية مع أى كائن آخر بما فى ذلك الرسل والملائكة أنفسهم. فكيف يصح قبول هذا، وبخاصة إذا عرفنا أنه قد جاء فى تضاعيف السورة قوله تعالى عن تلك الأوثان: "إِنْ هى إلا أسماءٌ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان"؟ وهل يظن أحد أن المشركين، لو كان الرسول قد نطق فعلا هاتين الجملتين، كانوا ليفلتوا هذه الفرصة من أيديهم دون أن يقيموا الدنيا ويقعدوها، وهم الذين لم يكونوا يعِفّون عن أية وسيلة لمحاربته والتشنيع عليه وعلى دينه مهما حَقُرَتْ وأمعنتْ فى الضلال؟ ثم لقد كان الرسول طَوَالَ سنوات الدعوة نموذجا فذا فى صلابة الاستمساك بالوحدانية، فكيف يصح أن يدور فى خاطر أحد أن هذه الصلابة قد لانت فى تلك الواقعة؟

وزيادة على ذلك فإن التحليل الأسلوبى لهاتين الجملتين ينفى نفيا قاطعا أن تكونا من نسيج القرآن الكريم. لقد بدأت الآيات التى تتحدث عن الأوثان الثلاثة فى سورة "النجم" هكذا: "أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى". ومَنْ ينظرْ فى السياق الذى ورد فيه تركيب "أفرأيتم" فى المواضع الإحدى والعشرين من القرآن، وكلها فى خطاب الكفار، سوف يجد أن هذا

التركيب لم يسْتَعْمَل فى أى منها فى ملاينة أو تلطف، بل أتى فيها جميعا فى مواقف الخصومة والتهكم والتقريع والتهديد وما أشبه. فكيف يمكن أن يشذّ هذا التركيب فى سورة "النجم" ويجىء فى سياق مراضاة الكفار ومدح آلهتهم؟ ثم إن كلمة "ترتجى" غريبة عن الأسلوب القرآنى، إذ ليس فيه فِعْلُ رجاءٍ على صيغة "افتعل". أما على الرواية الأخرى التى استعملت كلمة "تُرْتَضَى" بدلا من "ترتجى" فالرد على ذلك هو أن هذا الفعل لم يستعمل فى القرآن قط واقعا على الشفاعة، وإنما يستخدم مع الشفاعة الأفعال التالية: "تنفع، تُغْنِى، تَمْلِك". كذلك لم يرد ضمير الشفاعة فى القرآن نائب فاعل قط كما هو الحال فى الجملة المذكورة. وبهذا نغلق هذا الباب نهائيا أمام كل جهول يحسب أنه يستطيع أن يجد مغمزا فى كتاب الله أو فى رسول الله.

وبالنسبة لليهود فإن ما قاله الكاتب من أنه صلى الله عليه وسلم كان، وهو فى مكة لا يزال، يعرف أن اليهود موحدون مثله (ص١٢٥) هو كلام عارٍ عن الصحة جملة وتفصيلا. وحسبنا أن نقرأ قصة موسى وبنى إسرائيل فى الوحى المكى لنعرف أن القرآن قد دمغهم منذ ذلك الوقت المبكر بالارتداد عن الوحدانية وعبادة الأوثان والعصيان وانتهاك حرمة السبت كلما سنحت لهم فرصة. نقرأ ذلك فى سورة "الأنعام" و"الأعراف" و"الإسراء" و"طه". إن المستشرق الكذاب يريد أن يقول إن الرسول، بعدما كان يثنى على اليهود لما هم عليه من توحيد ودين صحيح، عاد فانقلب عليهم لا لشىء إلا لأنهم لم يؤمنوا به، وهم لم يؤمنوا به لأنهم أَلْفَوْا دينهم أفضل من دينه، فلم يشاؤوا أن يفرّطوا فيها بأيديهم. هذا هو حل الشفرة الخبيثة!

أما قوله بعد ذلك إن اليهود هم الذين كانوا يحمون النبى عليه السلام فتأتأة أطفال لا قيمة لها. إن التاريخ لا يُخْتَرَع اختراعا كما يحاول أن يفعل المؤلف استهزاء منه بعقول قرائه. ثم متى بالله كان اليهود يعرفون معنى الإنسانية على هذا النحو؟ وإذا كانوا لم يحموا نبيهم موسى بل تركوه يواجه الجبارين وحدهم قائلين له: "اذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون"، أما هم فأعلنوا أنهم لن يدخلوا الأرض المقدسة ما دام أولئك الجبارون فيها، فمن أين يا ترى واتت اليهودَ الشجاعةُ والمروءةُ والشهامةُ مع نبى غير نبيهم، نبى يؤكد قرآنه أنهم انحرفوا وضلوا عن سواء السبيل وكفروا

بما نزل على موسى نفسه؟ ثم ممن حمى اليهود محمدا؟ لقد هاجر عليه السلام بناء على اتفاق العَقَبة مع الأنصار، الذى ينص على أن يؤمنوا به ويحموه هو ودينه من أى خطر. فما دخل اليهود فى ذلك؟

كذلك فإن اليهود قد عالنوه صلى الله عليه وسلم بالعداوة منذ اللحظات الأولى. وفوق ذلك بان غدرهم سريعا لم يتلكأ، إذ لما طالبهم الرسول عليه السلام بالاشتراك فى دفع إحدى الديات حسبما تنص معاهدة الصحيفة بين طوائف مواطنى المدينة تمثلت استجابتهم فى محاولة قتله وهو جالس إلى سور حصن من حصونهم بالتخطيط لرَمْيِ رَحًى من فوق السور على رأسه. ثم مرة أخرى تعرضوا لامرأة مسلمة كانت تشترى شيئا من سوقهم، فكشفوا سوأتها وفضحوها وأخذوا يتصايحون استهزاء بها، وثارت معركة بينهم وبين بعض المسلمين الغيارى الذين لم يعجبهم هذا الإجرام الفاحش وسقط قتلى. فمن أين للمؤلف الكذاب بأن اليهود قد حَمَوُا النبىَّ عليه السلام؟ إنه يريد تصويره صلى الله عليه وسلم بصورة الجاحد للجميل. فانظر إلى هذا الخبث الإبليسى والتدليس المنحط!

ومثل ذلك زعمه أنهم أرادوا مشاركة المسلمين الحرب فى غزوة أحد. وهو زعم كاذب تمام الكذب. لقد انقلبوا عليه صلى الله عليه وسلم عقب انتصار الإسلام فى غزوة بدر، وأخذوا يحقرون من شأن ذلك النصر ويهددون الرسول قائلين: "لايغُرَّنَّك أنك قابلت قوما لا علم لهم بالحرب. فإنك إن لَقِيتَنا لتعلَمَنَّ أننا نحن الناس"! وقد انتهى أمرهم معه قبل أُحُد إلى أن اعتدى بعض بنى قينقاع على عِرْض سيدة مسلمة كما قدّمنا قبل قليل، وقتلوا المسلم الذى هب لحمايتها والانتقام لشرفها، فما كان منه صلى الله عليه وسلم سوى أن أجلاهم عن المدينة تخليصا لها من شرهم وتآمرهم ونكرانهم جميل أهلها الطيبين الذين آوَوْهم عندما نزلوا عليهم قديما. فكيف، بعد ذلك كله، يمكن أن نصدق زعم الكاتب المتخفى أنهم كانوا يريدون الوقوف معه فى أُحُدٍ ضد المشركين؟ لقد بلغت بهم الوقاحة والكفر بدينهم نفسه أن قالوا يوما لهؤلاء المشركين إن وثنيتهم التى هم عليها خير من التوحيد الذى أتى به الرسول عليه السلام. ثم من من المؤرخين يا ترى قال إنهم عرضوا عليه معاونته فى غزوة أحد؟ وأين؟ أم ترى المسألة مجرد كلام، والسلام؟

هذا، ولا أظن أحدا يمكن أن يصْغُوَ بأذن التصديق إلى قصة نوروز، التى لا أدرى من أى واد من أودية الوهم والضلال قد أتى بها الكاتب. ترى هل كان هناك أصلا شخص من يهود المدينة اسمه نوروز؟ بل هل كان هذا اسما من أسماء الأشخاص فى بلاد العرب كلها حينذاك؟ ثم إن عيد النوروز لم يعرف إلا فى العصر العباسى، وهو عيد فارسى. وليست هناك من وشيجة تربطه باليهود البتة. أإلى هذا المدى تبلغ أحقاد اليهود وأكاذيبهم على محمد ودينه؟

ويبلغ بالكاتب التدليس أقصى مداه حين يتهم الرسول عليه السلام بأنه نقض الصحيفة التى كانت تنظم العلاقات بين طوائف السكان فى المدينة عقب هجرته صلى الله عليه وسلم إليها، وتنص على وجوب التناصر بينهم متى وقع اعتداء على أى منها. إن تاريخ اليهود معه عليه الصلاة والسلام وتآمرهم عليه ومسارعتهم فى كل مناسبة إلى نقض الصحيفة المذكورة معروف للقاصى والدانى. وقد اعترف بذلك واحد كالدكتور إسرائيل ولفنسون نفسه، وهو باحث يهودى معاصر ألف كتابا عن بنى دينه فى جزيرة العرب. لكن المدعو: أسد بك يظن أنه يكفى أن يخال ويتوهم حتى تكون أخيلته وتوهماته وقائع تاريخية صحيحة!

ولقد ظل اليهود يكررون بغباء منقطع النظير أخطاءهم القاتلة ذاتها حتى كانت خيانتهم العظمى فى غزوة الخندق، فلم يكن بد من التنكيل بهم وإذاقتهم، عدلا وحقا، من نفس الكأس التى كانوا يريدون إذاقة المسلمين منها غدرا وخيانة. وغريب أن يلمز محمد أسد بك الصحابىَّ الجليلَ سعدَ بن معاذ يريد أن يوهم القراء الغربيين الذين لا علم لهم بحقيقة تاريخ اليهود مع سيد الرسل أن حكمه بإعدام المقاتلين الخونة الذين ظاهروا المشركين فى تلك الغزوة وسبى الذرية والنساء هو حكم ظالم. ترى ماذا كان الكاتب يريد سعدا أن يفعل؟ هل كان يريده أن يربت على أكتاف الخونة ويأمر بخلع الأوسمة والنياشين عليهم؟ لقد كان أولئك الأرجاس يعملون على القضاء على الإسلام وإبادة المسلمين على بكرة أبيهم. ولا بد أن يكون الجزاء من نفس جنس العمل.

ومع هذا فقدكان حكم سعد رضى الله عنه أخف كثيرا من حكم العهد القديم فيما هو دون ذلك، فقد جاء فيه: "حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَى تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، [١١]فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى

الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيسْتَعْبَدُ لَكَ. ١٢وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. ١٣وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيفِ. ١٤وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِى أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. ١٥هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِى لَيسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا. ١٦وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِى يعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، ١٧بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيينَ وَالأَمُورِيينَ وَالْكَنْعَانِيينَ وَالْفِرِزِّيينَ وَالْحِوِّيينَ وَالْيبُوسِيينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ".

وحالة بنى قريظة هى الحالة الثانية لأن القرظيين كانوا من الأمم التى يساكنون المسلمين فى المدينة، فيحقّ عليهم بنص العهد القديم الإبادةُ التامة التى لا تبقى على رجل أو امرأة أو ولد أو بنت أو حيوان أيا كان نوعه، مع التنبيه إلى أن العهد القديم يتحدث عن معركة عادية بين الطرفين، أما هنا فنحن أمام حالة سافرة وقحة مجرمة من الخيانة العظمى. أفرأيت، أيها القارئ، كيف أن حكم سعد على خونة بنى قريظة الذين وضعوا أيديهم فى أيدى المشركين واتفقوا معهم على مهاجمة المسلمين من الأمام بينما يطعنون هم المسلمين من الخلف فى ظهرهم بخنجر مسموم هو حكم رحيم جدا؟ ولولا ستر الله وتدخل نُعَيم بن مسعود الغطفانى فى الوقت الحرج، وكان قد أسلم سرا وقام بالوقيعة بين الأحزاب والقُرَظِيين وأوقع فى قلب كل طرفٍ الشكَّ المربكَ تجاه الطرف الآخر مما أفشل التآمر وكف يد قريظة عن الطعن المسموم فى ظهور المسلمين، لبادوا وصاروا فى خبر كان، ولَفَرَكَ أسد وأشباهه أيديهم حبورا وسرورا. ألا لعنة الله على كل خوان كفور ومن يعضده من المدلسين الكذابين! ومع هذا فما سكن اليهود بلدا إلا وأثاروا عليهم كراهية الناس من حولهم جراء أنانيتهم وحقدهم وشرهم وغدرهم وتطاولهم وصلابة رقابهم، وانتهى أمرهم إلى نيل جزائهم ومغادرة البلد والتشرد فى الآفاق. فما حدث لهم فى المدينة هو الأمر الطبيعى بالنسبة إليهم.

أما ما سطره المستشرق الحاقد عما يزعم أنه تصور النبى للجن والشياطين فهو كلام مغموس فى مداد الحقد المُسْتَعِرِ الأرعن. فالنبى عليه السلام كان أرجح البشر عقلا، وأكثرهم سكينة نفس،

وأضبطهم أعصابا، وأربطهم جأشا، وأدهاهم تصرفا، وأبعدهم نظرا، وأدقهم تخطيطا، وأعمقهم رؤية، وأقواهم تحملا للمشاقّ والصدمات. ولو كان كما يصوره الكاتب الكذوب أكان يستطيع أن ينشئ دينا كالإسلام يكتسح معظم أرجاء المسكونة عقيب وفاته فى وقت قياسى محطما الأديان الباطلة الأخرى بجيوشها الجرارة وإمبراطورياتها العريقة رغم افتقاره لمقومات النجاح المعتادة؟ ثم من أخبره بأن النبى كان يسمع صراخ الصخور عند غار حراء، وأنه ظل أسابيع تائها بين الجبال لا يستطيع أن يبصر طريقه إلى مكة، وأنه كان أشعث أغبر ممزق الملابس؟ إن محمدا لم يقل ذلك عن نفسه ولا رآه أحد وقتئذ ولا كتبه أحد من مؤلفى السيرة أو التاريخ أو رواة الأحاديث؟ الواقع أن الكاتب يكذب ويخترع فى وقاحة لا شبيه لها.

ونبلغ قصة سحر النبى عليه الصلاة والسلام التى كان يتوهم فيها إتيان نسائه رغم أنه لم يكن يأتيهن، مما جعلهن ينظرن إليه فى شبق وغيظ. وبادئ ذى بدء أسوق الحديث الذى عض عليه الكاتب كأنه كلب وقع على قطعة من العظم. يقول الحديث، وهو من رواية البخارى: "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُحِرَ حتى كان يرَى أنه يأتى النساءَ ولايأتيهِنَّ. قال سفيانُ: وهذا أشدُّ ما يكونُ من السِّحْرِ إذا كان كذا. فقال: يا عائشةُ، أعَلِمْتِ أن اللهَ قد أفتانى فيما استفتَيْتُه فيه؟ أتانى رجلانِ، فقعَد أحدُهما عند رأسى، والآخَرُ عند رِجْلى، فقال الذى عند رأسى للآخَرِ: ما بالُ الرجلِ؟ قال: مَطْبوبٌ. قال: ومَنْ طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بن أعْصَمَ (رجلٌ من بنى زُرَيقٍ حَلِيفٌ ليهُودَ كان منافقًا). قال: وفيمَ؟ قال: فى مُشْطٍ ومُشَاقَةٍ. قال: وأينَ؟ قال: فى جُفِّ طلعةٍ ذكَرٍ تحت رَعُوفَةٍ فى بئرِ ذَرْوانَ. قالتْ: فأتى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم البئرَ حتى استخرجه، فقال: هذه البئرُ التى أُرِيتُها، وكأن ماءَها نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وكأن نخلَها رُؤوسُ الشياطين. قال: فاستُخْرِجَ. قالتْ: فقلتُ: أفَلا (أى تنَشَّرَتْ)؟ فقال: أمَا واللهِ فقد شفانى اللهُ، وأكرَهُ أن أُثِيرَ على أحدٍ من الناسِ شَرًّا ".

وهناك، كما هو معروف، من ينكر وقوع السحر للنبى لأنه يناقض رد القرآن على متهميه بالسحر. وأنا معهم فى هذا، وأرى أيضا أنه لا يليق بنبوته أن يكون أعداؤه قد تسلطوا عليه بالسحر حتى وصل إلى تلك الحالة التى تثير الشفقة والرثاء من جانب محبيه، والشماتة والابتهاج من جانب

شانئيه، ويظهر فيها عاجزا لا يمكنه هو أو غيره أن يصنع إزاءها شيئا. بل إنه ليبدو وكأنه غير واع بالأمر أصلا. وهذه معضلة أخرى أنكى وأشد. وفوق هذا ففى النص أشياء جديرة بالملاحظة: فمثلا تقول القصة إن عليه السلام بعد أن سُحِرَ كان يرى أنه يأتى نساءه ولا يأتيهن. ولا أدرى كيف يكون ذلك. لو قيل إنه كان يريد إتيانهن لكنه لا يستطيع لكان الكلام مفهوما بغض النظر عن موافقتنا على صحته أو لا. أما القول بأنه كان يرى أنه يأتيهن لكنه لا يأتيهن فأمر لا يقبل التصور أساسا.

ثم تمضى القصة قائلة إن مَلَكَين قد أتياه وهو نائم، فسأل أحدهما الآخر: ما بال الرجل؟ وكأن ملكين قد أرسلهما الله لمعالجة رسوله يمكن أن يجهلاه إلى هذا الحد فلا يعرفا أنه رسول الله بل مجرد رجل من ملايين نكرات الرجال. إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا تخيلنا أن الملكين كانا مدلجين ذات ليلة على غير هدى فصادفا رجلا مجهولا نائما تحت شجرة، فقالا ما قالا. كذلك نفهم من القصة أن أحدهما لم يكن يعرف ماذا أصاب الرسول، إذ يسأل زميله: ما بال الرجل؟ فلماذا إذن كان مجيئهما إليه صلى الله عليه وسلم؟

كذلك لم وضع الساحر سحره فى بئر ولم يضعه فى بيته مثلا حتى يطمئن إلى أن أحدا لن يمكنه الوصول إليه، فضلا عن أنه سوف يكون أسهل عليه من تكلف الذهاب إلى البئر المذكورة والنزول فى الماء والطين لإخفاء العمل السحرى الذى جهزه واحتمال رؤية أحد من الناس له وهو يفعل ذلك؟ ولماذا لم تشف السماء النبى مباشرة بدلا من هذا السبيل المعقد الذى قرأناه؟ وتقول القصة إن النبى، بعد استخراجه السحر، لم يشأ أن يثير على أحد من الناس شرا. وهى عبارة غامضة: فهل المقصود بالناس هنا هم المسلمون؟ لكن أى شر يمكن أن يصيبهم جراء ذلك؟ هل هو الخوف من الفتنة؟ لكن الفتنة وقعت وانتهى الأمر، إذ علم المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم مسحور وعاجز عن فعل أى شىء ينقذه من الحالة السيئة التى كان عليها. بل إن الروايات الأخرى فى البخارى ومسلم وابن حبان تقول إنه صلى الله عليه وسلم، حين قصد البئر ليستخرج منها السحر، قصدها فى جماعة من أصحابه، بالإضافة إلى أنهم لا بد أن يكون قد ثار فى أذهانهم السؤال التالى: كيف ينفى

القرآن عن الرسول السحر، وهو ذا أمامنا مسحور بلا أى جدال؟ أم هل المقصود بأحد من الناس هو الساحر؟ لكن ألـم يأت فى الأحاديث أن الساحر يجب أن يقْتَل؟ فلماذا لم يطبَّق هذا الحكم عليه؟ ثم من استخرج السحر من الماء؟ أهو الرسول؟ فهل يليق به صلى الله عليه وسلم، وهو النبى والحاكم والقائد والمشرع والقاضى، أن ينزل بئرا ليبحث فيها عن عمل من أعمال السحر؟ أم هو واحد من الصحابة؟ فمن هو يا ترى؟ ولماذا لم يقدم لنا تقريرا عما رأى وسمع؟ وهل اكتفى الساحر بسحره مرة واحدة فقط؟ وأين تفاصيل معاناة الرسول عليه السلام؟

وفى الرواية الموجودة فى "لباب النقول" للسيوطى يأمر الرسول صحابته بأن يذهبوا إلى البئر المذكورة فينزحوا ماءها حتى تظهر الصخرة التى وُضِع السحر تحتها فيستخرجوه ويحرقوه. وهو عمل مرهق يأخذ وقتا ويلفت الأنظار، ولا يتسق مع قول الرسول إنه لا يريد أن يثير بين الناس فتنة، إذ لا بد أن يعلم به القاصى والدانى من أهل المدينة على الأقل. وهذا نص رواية "لباب النقول: "مَرِض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضا شديدا، فأتاه ملَكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: ما ترى؟ قال: طُبَّ. قال : وما طُبّ؟ قال: سُحِر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودى. قال: أين هو؟ قال: فى بئر آل فلان تحت صخرة فى كرية. فأْتُوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكرية واحرقوها. فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمار بن ياسر فى نفر، فأَتَوُا الركية فإذا ماؤها مثل ماء الحناء، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الكرية وأحرقوها، فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة. وأنزلت عليه هاتان السورتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة: قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس". ولنلاحظ أن أحد الرجلين اللذين أتيا النبى فى الرؤيا، والمفروض أنهما ملكان، لا يعرف معنى "طُبّ" كما هو واضح. فهل يعقل هذا؟ ثم إن هذه الرواية تتحدث عن إحراق السحر، بينما فى رواية أخرى للبخارى غير الرواية السابقة لا إحراق للسحر ولا حتى استخراج له، علاوة على أن لبيد بن الأعصم فيها يهودى وليس من الموالسين معهم.

وفى رواية أخرى فى "فتح البارى" لابن حجر نقرأ ما يلى: "فقالت أختُ لبيدِ بنِ الأعصمِ: إن يكن نبيا فسيخْبَرُ، وإلا فسيذْهِلُهُ هذا السِّحْرُ حتَّى يذْهِبَ عقلَه". وها هو ذا قد أخبر الله نبيه بالسحر وشفاه منه وأبطل كيد ابن الأعصم، فماذا فعلت أخته؟ ولماذا لم يحاجّها المسلمون بشفاء رسول الله ويطالبوها هى وأخاها باعتناق الإسلام؟ لكننا ننظر فنجد أن الأمر قد أُكْفِئَ عليه ماجور وأُهْمِل تماما بعد ذلك، وكأنه لم يكن. بل إن لبيد بن الأعصم، فيما لاحظتُ، لا يأتى له ذكر فى غير هذا الحديث. أفلم يكن للرجل أى دور فى الحياة غير سحر النبى عليه السلام؟ لكأنه ممثل من من ممثلى الكومبارس ممن يظهرون فى المسرحية أو الفلم فى لقطة خاطفة يقولون فيها جملة سريعة ثم يختفون تماما حتى نهاية القصة، وهم مع ذلك سعداء أن قُدِّر لهم الظهور فى عمل فنى جماهيرى مع الممثلين الكبار. كذلك من الصعب جدا أن نتصور نازحى البئر من الصحابة الكرام وقد سكتوا تماما بعد الحادثة فلم يتعرضوا هم ولا غيرهم من المسلمين للبيد بن الأعصم هذا ولو بتقريع.

إن أمرا كهذا لا يمكن أن يكون قد مر مرور الكرام على النحو الذى رأينا وكأننا قبالة موضوع نظرى مجرد بارد لا موضوع حياة يومية فيها معاناة وحيرة وألم ومؤامرات وصراعات؟ ألم يكن للصحابة رد فعل على ما يرَوْنَه فى رسولهم الكريم؟ أين عمر مثلا فلم يهم بتمحيص المسألة حتى يضع يده على الفاعل الشرير ويعاقبه العقاب اللازم؟ لقد رأينا فى حادثة الإفك وغيرها عالما موارا من الوقائع والمشاعر والاتهامات والردود والتقصى والتمحيص، أما هنا فكلمتان سريعتان أقرب إلى عالم التنظير والتجريد البارد لا تشفيان غليل الباحث. هل يعقل أن يحدث هذا لزعيم دولة وحاكمها وقائدها العسكرى وقاضيها وموجهها، وقبل ذلك كله رسولها، ثم لا نسمع شيئا عن موقف أهل المدينة تجاه هذا الأمر سواء من المسلمين المؤمنين، أو خصومه من اليهود والمنافقين والكافرين؟ وقبل ذلك كله كيف يرضى الله سبحانه وتعالى تعريض نبيه لهذا الاضطراب القبيح المُذْهِب للوعى فى مثل هذا الأمر الحساس على يد واحد من أعدائه؟ ثم إن الرواية تتحدث عن نسائه جميعا رضوان الله عليهن، فلماذا لم نر فى الصورة ونسمع غير عائشة؟ أين رد فعل حفصة؟ أين رد فعل زينب؟ أين رد فعل أم سلمة؟ أين رد فعل ميمونة؟ وأين رد فعل بقية أمهات المؤمنين؟ بل

أين رد فعل صفية بالذات، وهى يهودية، وكان ينبغى أن يكون لها تعليق على ما صنعه الساحر الموالس لقومها أو الذى هو منهم؟

ويطنطن الكاتب بذكاء اليهود ومهارتهم فى الجدال زاعما أنهم كانوا يتفوقون على محمد كلما دخلوا معه فى مناقشة دينية. لكن هذه تخرصات وأحاديث خرافة، فقد سجل القرآن الكريم تلك المناقشات، فلم نجد إلا قولهم مثلا عن رب العزة: "إن الله فقير ونحن أغنياء"، أو قولهم لرسول الله: "راعِنَا"، يتظاهرون بأنهم يلتمسون منه النظر إليهم، بينما هم فى الواقع يقصدون وصفه بلغتهم بالرعونة، أو قولهم لمشركى قريش إنهم "أَهْدَى من الذين آمنوا سبيلا" بمعنى أن وثنيتهم هى الحق، ودين محمد التوحيدى هو الباطل. فهل هذه هى المهارة فى الجدال التلمودى؟ ألا بئست المناقشات إذا كانت على هذا النحو من الانحطاط العقيدى والأخلاقى والذوقى!

وعلى الجانب الآخر كان القرآن يفضحهم ويخطئهم ويتهمهم بالكذب والعبث بكتابهم ويتحداهم أن يأتوا بدليل على ما يدَّعونه من أباطيل، فيعجزون ويبوؤون بالخزى والهوان، لكنهم أبدا لا يرعوون. وهذه بعض الشواهد القرآنية على ما نقول: "وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يفْسُقُونَ" (البقرة/ ٥٨– ٥٩). "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَينَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" (البقرة/ ٦٣– ٦٥). "أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيكُمْ لِيحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يعْلَمُ مَا يسِرُّونَ وَمَا يعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيونَ لَا يعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يظُنُّونَ * فَوَيلٌ لِلَّذِينَ يكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيدِيهِمْ

ثُمَّ يقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يكْسِبُونَ" (البقرة/ ٧٥– ٧٩).

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْى فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَيوْمَ الْقِيامَةِ يرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآَخِرَةِ فَلَا يخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ ينْصَرُونَ * وَلَقَدْ آَتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّينَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآَتَينَا عِيسَى ابْنَ مَرْيمَ الْبَينَاتِ وَأَيدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ" (البقرة/ ٨٤– ٨٩).

"وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيدِ اللَّهِ يؤْتِيهِ مَنْ يشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (آل عمران/ ٧٢– ٧٤). "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (آل عمران/ ٩٣– ٩٤). "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيةً يحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (المائدة/ ١٣).

"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْياهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَينَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ" (المائدة/ ٣٢).

"وَكَيفَ يحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يحْكُمُ بِهَا النَّبِيونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَياتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَينَ بِالْعَينِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (المائدة/ ٤٣– ٤٥). "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يفْعَلُونَ" (المائدة/ ٧٨– ٧٩).

"وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَينَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (الأنعام/ ١٤٦). "وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" (الأعراف/ ١٣٨– ١٤٠). "وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يرَوْا أَنَّهُ لَا يكَلِّمُهُمْ وَلَا يهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يجُرُّهُ إِلَيهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِى الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَينَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ" (الأعراف/ ١٤٨– ١٥٢). "وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ

الْبَحْرِ إِذْ يعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيوْمَ لَا يسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يفْسُقُونَ" (الأعراف/ ١٦٣). "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يا أَيهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَينَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (الجمعة/ ٥ – ٨)...

ولقد كانوا، قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، يقولون لأهلها إنه سوف يأتيهم عما قريب رسول سوف ينضمون إليه ويحاربونهم تحت رايته، فيستأصلونهم. لكن ما إن جاءهم الرسول فعلاحتى انقلبوا عليه وكانوا أول كافر به. ولقد فضح التواءَهم وخبثَ طويتهم أحدُ علمائهم الكبار، وهو عبد الله بن سلام، فى قصة مشهورة عن دخوله الإسلام، ولكنهم لم يستحوا. كما أن صفية أم المؤمنين قد أخبرت النبى بما كانت قد سمعته فى صباها الباكر من حوار بين أبيها حُيىّ بن أَخْطَب وعمها يعترفان فيه بأنه عليه السلام هو النبى الموعود، لكنهما يتعاهدان رغم ذلك على الكفر به وبغضه وحربه إلى آخر الدهر. وقد كان ما سمعته فى هذا الحوار سببا فى دخولها الإسلام لدى أول سانحة، وفى حبها للرسول وإخلاصها الشديد له وتحملها احتكاك بعض زوجاته الأخريات جراء غيرتهن من هذا الحب الذى كانت تبديه له. فأين الذكاء والبراعة هنا؟ إنهم لأغبى خلق الله فى أمور الخير والتخطيط للمستقبل البعيد، أما فى أمور الخبث والشر القصير النظر فهم أساتذة لا مشاحَّة فى هذا. وإلا فلم يبوؤون بالخسران فى النهاية أمام كل الأمم؟ ولماذا يلعنهم ربهم وأنبياؤهم فى كل سِفْرٍ من أسفار كتابهم المقدس ذاته؟

ومما ينبغى التريث إزاءه من دعاوى الكاتب وتبيين عواره وتهافته ما مَدَح به الإسلامَ من أنه هو الدين الوحيد الذى يفتح باب الخلاص والنجاة يوم القيامة أمام أهل الأديان الأخرى دون أن يعتنقوه. وهو يستند فى هذا إلى قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يحْزَنُونَ".

وهذا فهم خاطئ تمام الخطإ. وللأسف انجر إليه بعض المسلمين. ووجه الخطإ فيه هو التسرع فى ولوج تفسير الآية من غير بابها، إذ هى تشترط لنجاة غير المسلمين الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فيظن المتسرعون أن اليهود والنصارى والصابئين والمجوس يؤمنون كما يؤمن المسلمون بالله واليوم الآخر. فإذا عمل أى منهم صالحا فقد ضمن الجنة. لكن لو كان الأمر كذلك فلم اشترطت الآية الشريفة فى غير المسلم الإيمان بالله واليوم الآخر إذا كان ذلك أمرا مفروغا منه كما يظن هؤلاء؟

لقد ذكرت الآيتان ١٥٠ – ١٥١ من سورة "النساء" أن "الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون: نؤمن ببعضٍ، ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا. وأعتدْنا للكافرين عذابًا مُهِينًا". ولا ريب أن معناهما واضح وضوحا يخزق العين، إذ تؤكدان أن الإيمان لا يتحقق إلا إذا شمل جميع الرسل والأنبياء، فكيف يقال مثلا فى المجوسى الذى لا يؤمن بموسى ولا بعيسى ولا بمحمد أو اليهودى الذى لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد أو النصرانى الذى لا يؤمن بمحمد أنه مؤمنٌ ناجٍ يوم القيامة مع أن الآيتين تتوعدانهم بالعذاب المهين؟

كذلك تأمر الآية ٢٨ من سورة "التوبة" المسلمين أن يقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من الذين أوتوا الكتاب... إلى آخر الآية. أى أنهم، رغم كونهم من أهل الكتاب، لا يدخلون فى عداد المؤمنين بالله واليوم الآخر. وفى "الأنعام" أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بمحمد ودينه. ومعنى هذا أن من لا يؤمن به وبدينه لا يؤمن بالآخرة. ولدينا كذلك الآيات الكثيرة المبثوثة فى سورة "البقرة" و"آل عمران" و"النساء" و"المائدة" و"الأنعام" و"الأعراف" و"التوبة" وغيرها وتحاجّ اليهود والنصارى وتدمغهم بعدم الإيمان وتتوعدهم بالعذاب المهين. وإذا كان باب الجنة بعد مجيء الإسلام مفتوحا لغير المسلمين فما فائدة نبوة محمد إذن؟ وما معنى عالمية رسالته إذا قلنا إنه إنما بُعِث للعرب، ومن ثم سوف يدخل الجنة من يبْقَوْن على دينهم ممن ليسوا عربا؟

ولا تتوقف إساءات الكاتب المستخفى وراء اسم "محمد أسد بك" عند هذا المدى، بل رأيناه يتهمه صلى الله عليه وسلم بالاستبداد ونشر الرعب فى المدينة واللجوء إلى السيف فى سبيل إخضاع الناس له ولدينه، وإِنْ غَلَّفَ هذا كله (على طريقته فى تحلية السم) بالقول بأنه عليه السلام إنما فعل ذلك من أجل إقامة الدولة الإلهية (أو "دولة الله" كما سماها مرارا)، وأن هذا هو الذى سَوَّغ له الاستعانةَ بالتآمر والغدر وسفك الدماء والسلب والنهب. ومقطع الحق فى هذه المزاعم أنها تقلب الأمور رأسا على عقب. فالرسول هو الذى وقع عليه الاضطهاد والأذى من قِبَل المشركين، الذين لم يكتفوا بذلك كله بل خططوا لقتله عشية الهجرة كما هو معلوم لولا أَنّ الله لَطُفَ به فنجاه من كيدهم.

ولما كُتِبَت الصحيفة بين المسلمين واليهود وغيرهم من مواطنى يثرب كان اليهود هم الذين نقضوها مرة بعد مرة بعد مرة، واكتفى عليه السلام فى المرتين الأُولَيين بإجلاء بنى قينقاع وبنى النضير، لكن عندما طف الصاع فى المرة الثالثة كان لا بد من عقابهم العقاب الصحيح: عقاب الخيانة العظمى، الذى كان مع هذا أخف كثيرا مما يأمرهم به كتابهم فى التنكيل بالأمم القريبة منهم دون أن تكون قد ارتكبت فى حقهم شيئا من الخيانة. ثم لا ننس المنافقين، الذين كانوا يشكلون عاملا من أخطر عوامل القلق، ورغم هذا اتسع لهم صدره الشريف وصبر عليهم حتى النهاية بل صلى على زعيمهم رأس الكفر والضلال ابن أبى سلول حين هلك وراح فى ستين داهية! أما المؤمنون فكانوا يلتفون حول رسولهم فى حب وتعظيم دون خوف أو توجس. وكانوا فى تعاملهم معه يتمتعون بأقصى قدر من الحرية فى إبداء الرأى والمشاروة والمراجعة والاعتراض، ولم يحدث أنْ نَهَرَ صلى الله عليه وسلم أيا منهم أو هدده أو شتمه أو حتى صاح به مجرد صياح. فعجيب إذن أن يتحدث الكاتب الشيطانى عن الدولة البوليسية التى أقامها الرسول فى المدينة حيث كان الناس يؤخَذون بأتفه قدر من الظِّنَّة! ترى لماذا لم يورد لنا أسماء الرجال الذين كانوا يتجسسون على أهل المدينة ويقبضون عليهم ويسوقونهم إلى الرسول؟ ولماذا لم يورد ولو واقعة واحدة من وقائع القبض والتنكيل؟ لقد بلغ من تواضعه صلى الله عليه وسلم لرعيته وإلانة جانبه لهم وخَلْطه نفسه بنفوسهم

فى بساطة متناهية أن كان الأعرابى الفَدْم يأتى إلى بيته عليه السلام فيصيح به مناديا: "يا محمد" كى يخرج لهم، أو يمسك به من طوق جلبابه ويشده حتى يؤثر الشدّ فى رقبته الشريفة، أو يغْلِظ فى حديثه إليه فى جلافة صائحا: "اعدل يا محمد"... إلخ، ولم يحدث مع ذلك أن عاقب أحدا منهم أو حتى أَنَّبَه.

وحينما فتح مكة وصار أعداء الأمس الذين لم يراعوا فيه ولا فى أتباعه إِلًّا ولا ذمةً فى قبضة يده بل تحت قدميه ورهن إشارة منه لم يزد على أن قال: "اذهبوا، فأنتم الطلقاء"، وقد كانوا يتوقعون أن يذوقوا على يديه أبشع ألوان العقاب. أفمن يصنع ذلك مع أعدائه الألداء من كفار مكة يمكن أن يفكر فى نشر الرعب فى قلوب أحبائه وخلصائه من المؤمنين فى المدينة؟ إن المستبدين الذين يخنقون أنفاس رعيتهم إذا ما ماتوا انقلبت الرعية عليهم وقالت فيهم ما قال مالك فى الخمر، لكننا ننظر فى موقف المسلمين من بعد موته صلى الله عليه وسلم حتى اليوم فنجد حبهم له وإجلالهم إياه وتفانيهم فى طاعته وتمسكهم بالدين الذى جاءهم به ثابتا كالجبال الشوامخ الرواسخ. فما دلالة ذلك يا ترى؟

وكعادة مستشرقنا المتخبط نسمعه يقول فى موضع آخر إن الأمر بين الرسول والمسلمين فى المدينة كان أمر مساومة صريحة، إذ كانوا يشترطون عليه بمنتهى الوضوح والبجاحة الحصول على ما يريدون من الغنائم إذا أراد أن يخرجوا معه للقتال. فبالله لو كان الرسول ذلك الحاكم المستبد الذى يعتمد التنكيل منهجا فى سياسة رعيته أكان أحد منهم يجرؤ على أن يقف فى وجهه ويشترط مثل هذا الشرط؟ ثم إن أسد بك قد وصف حكومة الرسول بأنها ديمقراطية. ومثل ذلك فى التخبط وصفه، فى أحد مواضع كتابه، الدولة التى أسسها الرسول بأنها دولة اشتراكية (ص٢٦٨)، وقوله فى موضع آخر إن المهاجرين والأنصار قد أضحَوْا بعد قليل يشكلون، برضا الرسول ومباركته، طبقة أرستقراطية طفيلية فارغة ذات وطأة شديدة على كاهل الخزانة العامة (ص٢٧٠– ٢٧١). وإذا كان المهاجرون والأنصار، وهم كل سكان المدينة ما عدا اليهود الذين كانوا أقلية قليلة جدا، يشكلون

طبقة أرستقراطية فهل يمكن أن تكون هناك طبقات أخرى غيرهم؟ بالطبع لا. ومعنى هذا أن الكاتب قد أعطى عقله إجازة من المنطق والحكمة.

وقد لجأ الكاتب إلى حيلة خبيثة للتعمية على عقول المسلمين ظنا منه أنه بهذا مستطيع أن يقنعهم بما قاله فى حق الرسول الأعظم. ألا وهى قوله إن الله قد أراد لنبيه، بوصفه بشرا، أن يقترف كل الخطايا التى يمكن أن يقع فيها البشر. والواقع أن هذه الفكرة قمينة أن تنسف النبوة نسفا لأن النبى إنما هو شخص يتفوق على سائر البشر بالمستوى السامق الذى تبلغه أخلاقه الطاهرة وسلوكه الزاكى وعقله الكبير. أما المؤلف الماكر فيريد منا أن نقتنع بعكس ذلك. ولو صح ما يقول فما الفرق حينئذ بين الرسل وأهل الإجرام؟

ذلك أن المجرمين إذا كانوا يقتلون أو يزنون أو يسرقون أو يغدرون أو يكذبون فالرسل أيضا يقتلون ويسرقون ويزنون ويغدرون ويكذبون مثلهم. وعلى هذا فالمسلم العادى الذى لا يقتل ولا يزنى ولا يسرق ولا يكذب ولا يغدر ولا يشرب الخمر، وكثيرٌ ما هؤلاء الذين يصدق عليهم من المسلمين ذلك، هو أسمى خلقا وأنقى سلوكا من الأنبياء. وعندئذ يحق لكل إنسان أن يسأل: وما فائدة إرسال الرسل إذن إذا كانوا هم أول من يخرج على ما ينادون به أو يعجزون عن تحقيقه؟ وعندئذ أيضا لا يكون لقوله تعالى: "اللهُ أَعْلمُ حيث يجعل رسالتَه"، وقوله سبحانه يخاطب نبيه موسى: "ولِتُصْنَع على عينى" أو قوله يصف نبيه محمدا: "وإنك لعلى خلق عظيم" أى معنى. فهل هذا معقول؟ أيكون الله قد قال ذلك كله كذبًا ومَينًا؟ أستغفر الله مما يرمى إليه هذا اليهودى الحقير!

لكن لا بد أن نعرف أن الكاتب، حين قال فى حق الرسول ما قال، كان فى ذهنه ما يمتلئ به العهد القديم من حكايات عن الأنبياء تشيب لهولها الولدان من بشاعة الجرائم التى يقول مؤلفو العهد القديم إنهم عليهم السلام قد اقترفوها: فنوحٌ يظل يعبّ من الخمر حتى يسكر وينطرح على الأرض عارى السوأة. وإبراهيم لا يجد حرجا فى أن يقدم زوجته للملك حين يشعر أنه يريدها لمتعته، وينصرف من حضرته فرحا بما حصل عليه من المواشى تعويضا عن "الهدية" التى تركها له ومضى. ولوط تسقيه ابنتاه خمرا ثم تنامان معه الواحدة بعد الأخرى وتحبلان منه. وداود يطّلع من

فوق سطح قصره على امرأة قائده وهى تستحم فى فناء البيت المجاور، ثم يتآمر على قتل الزوج المسكين المتفانى فى طاعته وحماية دولته كى يخلو له وجه المرأة التى تزوجها بعد ذلك وأنجب منها سليمان. وسليمان لا يجد غضاضة فى أن تعبد زوجاتُه الوثنياتُ الأصنامَ فى بيته... إلى آخر هذه العفونات والنتانات التى نسبها هؤلاء الأفاكون إلى صفوة خلق الله بكل بجاحة ووقاحة، فجاء كاتبنا وأراد أن يزيد الطينَ بِلَّةً بل بِلَّاتٍ زاعما أن محمدا إذا كان قد سفك الدماء وغَدَرَ وأضاف إلى القرآن ما ليس منه فى مدح اللات والعزى ومناة وغلبته شهوته إلى النساء فهى تصرفات طبيعية جدا لأنه بشر، وما دام بشرا فلا بد أن يرتكب كل خطيئة يمكن أن يقترفها بشر. ترى بالله ماذا يتبقى إذن من النبوة؟ وكم تساوى حينئذ؟ إنها تصبح كحزمة الفُجْل أيام كانت العَشَرَةُ منها بقِرْش!

كذلك لم يدَعْ أسد بك فرصة تمرّ دون أن يهتبلها ليشوه شخصيات الصحابة الكرام. وقد رأيناه يغمز مرتين على الأقل عَمْرَ بن العاص بأن أمه كانت عاهرة. لقد كانت أمه رضى الله عنه من سبابا الجاهلية وانتقلت من يد إلى يد حتى استقرت عند العاصى أبيه، وكانت تحترف الغناء كأمثالها من القيان فى ذلك الزمان. ولتكن أم عمرو بعد ذلك ما تكون فما الذى يضير عمرا فى هذا؟ أهو الذى صنعها وسواها وزين لها طريق الخطإ والانحراف؟ إن الفتى ليس هو الذى يقول: "كان أبى أو كانت أمى"، ولكن الفتى من يقول: "هأنذا". ولقد قالها عمرو فى مسمع التاريخ، فصغا التاريخ له منصتا بجمع انتباهه وملء وعيه وكيانه، وحفظ بطولاته وإنجازاته وفتحه البلاد وتدويخه إمبراطورية الرومان وامتلاكه درة تاجها أرض الكنانة، التى تدين له بتحررها من الاستعمار الرومانى ودخولها الإسلام الحنيف وتعرُّب لسانها.

والغرب لا يستطيع أن ينسى لعمرو ما فعله بالإمبراطورية الرومانية، فلذلك يحاول النيل منه بلسان ذلك المستشرق وأمثاله بالإيماء إلى ما كانته أمه فى الجاهلية. وعجيب أن يلجأ أسد بك إلى هذا، وهو الغربى الذى تؤمن حضارته بالفردية وتعرف للشخص قيمته فى ذاته. كما أن الانحراف الجنسى لا يشكل عندهم أية مشكلة، فكل إنسان حر فيما يفعل بجسده، والجنس عندهم كالطعام

والشراب والهواء، لا حرج فيه بأى حال من الأحوال. ولكن لا عجب فى الحقيقة، فكله فى سبيل الرغبة فى إهانة الإسلام ورجالاته يهون.

أما أم المؤمنين حفصة بنت الفاروق العظيم فقد عابها بأنها كانت قبيحة، ولذلك لم يجد عمر بين الصحابة من يريد الزواج منها لولا أن الرسول قد سارع فطلب يدها تطييبا لخاطره. والذى يقرأ هذا الكلام، وهو لا يعرف من الأمر شيئا، قد يصدق هذا الهماز اللماز، ويظن أن السيدة حفصة لم تتزوج حتى ذلك الحين. وهذا خطأ أبلق، فقد كانت رضى الله عنها متزوجة من قبل بخنيس بن حذافة، الذى توفى من جراحة أصابته فى أحد، وكانت سنها آنذاك عشرين عاما. وكانت، كما يقول جورجيو، جميلة وعالمة ومحبة للأدب والشعر وشديدة الحزن على زوجها رضى الله عنه. ولقد خطبها عثمان، لكن عمر رده كما جاء فى بعض الروايات، التى أوردها رفاعة الطهطاوى فى سيرته النبوية. فعندئذ تقدم النبى إلى الفاروق بأن يتزوجها هو، ويتزوج عثمان ابنته أم كلثوم. فهذه هى المسألة على حقيقتها. وحتى لو افترضنا أنها رضى الله عنها كانت قبيحة كما يزعم الكذاب فما ذنبها فى ذلك، وليست هى التى اختارت لنفسها أن تكون قبيحة؟

إن الجمال والقبح من الأمور المقدورة على الإنسان قدرا، ولا مدخل له فى ذلك ولا مؤونة عليه، فإنما يحاسَب أحدنا على ما يفعله أو يدعه بمطلق إرادته واختياره. فماذا نقول سوى أن الغرض مرض؟ لا شفى الله القلوب المريضة بالحقد من أدوائها. على أن هناك نقطة أخرى هامة تردّ عليه تقولاته على الرسول صلى الله عليه وسلم، ألا وهى اعترافه أن الرسول قد تزوج حفصة جبرا لخاطر أبيها. وهو ما فعله عليه السلام، على نحو أو على آخر، مع عدد آخر من زوجاته. أى أن الرسول، أيها اليهودى الأفاك، لم يكن يتزوج من أجل فرط الشهوة والانشغال بالجنس، وكأنه عليه الصلاة والسلام لم تكن له شغلة ولا مشغلة إلا النساء، فليس ثمة دعوة ولا حكم ولا سياسة ولا حروب ولا قضاء ولا معيشة ولا عبادة ولا أبوة ولا صداقة.

أما دعواه باحتقار النبى عليه السلام لعمه العباس فأمر غير وارد البتة، فقد كان محمد من نبل النفس واحترام الكبير، فضلا عن أن يكون هذا الكبير هو عمه، بحيث لا يتَصَوَّر أن يخطر هذا

الشعور بنفسه نحو العباس، إذ ما الذى فعله العباس حتى ينطوى قلبه له على الاحتقار؟ إننا لم نسمع أنه صلى الله عليه وسلم قد احتقر عمه أبا لهب رغم كل ما صنعه أبو لهب وزوجته به وموته على الكفر، فكيف يحتقر عمه العباس، الذى آمن به ووقف معه ليلة العقبة الثانية، وكذلك يوم فتح مكة، وهما من أهم المناسبات فى حياته المباركة العظيمة؟ وكان العباس من القلائل الذين بَقُوا حوله عليه الصلاة والسلام يوم حُنَين حين تفرق عنه معظم الصحابة بسبب ما أخذهم من مباغتة هوازن، التى انصبت عليهم من فوق الجبال والتلال، وهم مطمئنون إلى أنهم لن يغْلَبوا من قلة.

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أكبر وأعظم وأنبل من أن يمر بقلبه الكبير الرحيم شعور الاحتقار تجاه أحد، فكيف يواتى أىَّ إنسان عنده مسكة من عقل القولُ بأنه كان يحتقر عمه العباس لأنه تأخر فى دخول الإسلام، فضلا عن أن يكون أعظم الناس نصيبا من احتقاره كما قال المؤلف الحاقد المنحط فى موضع آخر من الكتاب؟ لقد كان الرسول يكاد يبخع نفسه حزنا وألما على من لا يصغون لدعوة الحق التى أتى بها بسبب حبه للبشر ورغبته الجارفة فى أن يجنبهم عذاب الجحيم. فهو إذن لا يعرف الاحتقار بل الإشفاق والعطف. وما بالنا بمن آمن كالعباس؟ ثم أليس الرسول هو القائل: "لَأَنْ يهْدِىَ الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس"؟ فكيف، بعدما نجح فى هداية العباس إلى الإسلام، يحتقره؟ ولا ننس أن العباس كان عديل رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يزيدهما قرابة ويجعل الرحم التى تربطهما أوثق وأمتن.

وإن للكلمة التى قالها عمر للعباس عشية فتح مكة دلالتها التى لا تخفى على أحد، إذ قال: والله لَإِسْلامُك يوم أسلمتَ كان أحبّ إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم! ترى أكان عمر يقول هذا لو كان رسول الله يكن الاحتقار لعمه؟ ثم كيف ننسى أن العباس هو الذى حمل ابنتى رسول الله: فاطمة وأم كلثوم لدن هجرتهما إلى المدينة وأنه فرح فرحا عظيما حين بلغه انتصار الرسول فى خيبر وتزوُّجه من بنت زعيمهم حيى بن أخطب، فلبس أحسن ملابسه وتطيب وخرج لقريش، وأعلمها بذلك؟ ولقد كان الرسول يدعو إلى بر الأقارب واحترام الكبير وتبجيله، فكيف يخرج على هذا المبدإ الأخلاقى الكريم الذى أرساه بنفسه، وهو الذى لم يخالف فعلُه قولَه فى يوم من الأيام؟

على أن أخطاء أسد بك لا تقف لدن هذا الحد بل وقع، أثناء حديثه عن الرسول وبلاد العرب، فى أخطاء جغرافية وتاريخية لا تليق رغم حرصه على إيهام القارئ أنه يعرف شبه الجزيرة العربية معرفة وثيقة. لقد جعل غار حراء بالطائف، وهذا مضحك جدا. ومثل ذلك قوله إن أطفال مكة كانوا يطاردون الرسول ويرمونه بالحجارة (ص٩٥) رغم أن هذا إنما وقع بالطائف حين ذهب صلى الله عليه وسلم إليها يدعو أهلها إلى الإسلام بعدما ضاق صدره بعناد أهل مكة وصلابة رقابهم.

ومن أخطائه فى هذا المجال أيضا ادعاؤه أن الرسول هو الذى كَنَّى عمه عبد العزى بـ"أبى لهب" (ص٧٩). يريد أن يقول إن القرآن (الذى هو من صنع محمد حسب إيماءاته الماكرة) هو مُطْلِق هذه الكُنْية عليه حين قال إنه سيصْلَى نارا ذات لهب. ووجه الخطإ هنا أن عمه كان يكْنَى بهذا قبل البعثة المحمدية بوقت طويل، ولا علاقة لذلك البتة بدخوله النار ذات اللهب. ذلك أن سبب إطلاقها عليه هو شدة إشراق وجهه. فهى إذن كُنْية مدح لا ذم. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر أحب أن أشير إلى أن د. محمود على مراد، فى الرسالة التى حصل بها على الدكتورية من باريس أواخر القرن الماضى فى سيرة ابن إسحاق، قد زعم أن تسمية أبى لهب بهذه الكنية سببُها حَفْرُه الأخدودَ للمسلمين وحرقه إياهم باللهب فيه كما ذكرتْ ذلك سورة "البروج"، وهو ما رددت عليه فى كتابى: "إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية"، الذى فَنَّدْتُ فيه كل دعاواه المتهافتة فى السيرة النبوية. وما هذا إلا مثال واحد من تلك الدعاوى المفككة التى لا تصمد لُحَيظَةً للنقد الجاد.

ومن الواضح أيضا أن الكاتب ينكر أن يكون إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد ذهبا إلى مكة أو بنيا الكعبة هناك، إذ يعقب قائلا إن هذا هو ما تقوله الأساطير القديمة (ص٣٩) مع أن الذى قال ذلك هو القرآن الكريم، الذى من المفترض أنه يؤمن به ما دام قد تسمى باسم إسلامى هو اسم النبى عليه السلام، وكان عليه أن يتبناه لا أن يهاجمه ويتهمه بالخرافة. ثم لو كان هذا صحيحا فلماذا لم يعترض عليه اليهود فى المدينة ويجادلوه، وهم أهل جدال وحجاج ولا يقف أمامهم أحد كما يقول الكاتب؟ وقد لاحظت كذلك أنه كثيرا ما يشير إلى بلاد العرب على أنها أراضى إستبس (ص٥٤،

٥٦، ٦٦، ٩٥، ١٣٩، ١٦٠، ٢٤٧). والذى أعرفه أن عروضها الشمالية الملاصقة للشام هى وحدها التى قد تصنف هذا التصنيف الجغرافى، أما سائرها فصحراء جافة قاحلة.

وثمة خطأ من نوع آخر وقع فيه كثيرا، ألا وهو كتابة أسماء الأعلام العربية خطًا: فسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل يكتب: سعيد بن عمر بن زيد. وعبد العزى: عبد العرسى. وأبو الحكم بن هشام: أبو الحكم بن هاشم. ومناة: مناخ. وحليمة: حلينة. ومعاذ: موناس. ومناف: مراف. وخديجة: هديجة. وقصى: قريسى. والأرقم: أرثم. وسورة "الضحى": أبضحى. وغير ذلك كثير.

ومن طيشه وخُرْقه ودَسّ أنفه فيما لا يحسنه فتواه بأن الصلاة تسقط أحيانا عن المسلم عندما يسافر أو يعيش فى بلاد أجنبية، واتخاذه ذلك دليلا على واقعية الإسلام (ص١٣٥). وهذا كلام طائش، فالمسافر إنما يجوز له قصر الصلاة الرباعية وجمع الظهر والعصر معا فى وقت أى منهما، ومثلهما المغرب والعشاء. أما سقوط الصلاة تماما عن المسلم فكلام لا يتفوه به مسلم بل ولا كافر أيضا. وبالمثل نراه، حين يعدد فئات المستحقين للزكاة، لا يذكر سوى الفقراء والمساكين والرقاب والغارمين، مضيفا إليهم المسافرين والأجانب المقيمين فى المدينة (ص٨٧). وبطبيعة الحال فإن هذه الفئة الأخيرة ليست هى بالضبط فئة أبناء السبيل. كما أنه أسقط المؤلفة قلوبهم والقائمين على جمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها، وكذلك بند الإنفاق فى سبيل الله.

ولا يقلّ عن هذه الأخطاء شناعة ما تورط فيه من ترجمة بعض الآيات القرآنية، إذ لاحظت أنه أحيانا ما يخلط الحديث بالآية، أو يعمل توليفة من عدة آيات قرآنية متتابعة أو يسقط جزءا من النص الذى يترجمه أو يبتعد عن معناه. ومثال واحد يغنى عن أمثلة، وهذا هو: "أتريد أن تتسلق طريق الإيمان المنحدر؟ إذن فعليك بالسجناء وطعام ذوى المسغبة، وكن رحيما معينا. ويل للرجال الذين لا يخرجون الزكاة والمتصدقين الذين يؤذون سرا من يأخذون عطاياهم. ويل للذين يخرجون المال ويوزعون الصدقات رياء وسمعة. مثلهم كمثل صفوان لا ينبت عليه شىء" (ص٨٦). وواضح أن هذه السطور تحاول ترجمة الآيات التالية من سورة "البلد" و"الماعون" و"البقرة": "فلا اقتحم العقبة* وما أدراك ما العقبة؟ * فَكُّ رقبة * أو إطعام فى يومٍ ذى مسغبة"، "فويل للمصلين

... * الذين هم يراؤون *ويمنعون الماعون"، "لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاءَ الناس ... فمَثَلُه كمَثَلِ صَفْوانٍ عليه تراب فأصابه وابِلٌ فترَكَه صَلْدًا لا يقْدِرون على شىء مما كسبوا". ومن الجلى الذى لا يحتاج تعليقا المدى الرهيب الذى وصل إليه عبث الكاتب بنصوص القرآن وخطؤه فى ترجمتها.

ولكن لا مناص رغم ذلك من القول بأن المؤلف قد أشاد كثيرا بجمال الأسلوب القرآنى وإعجازه. وإليك، أيها القارئ، بعض ما قاله فى هذا الصدد: "يا للإبداع الأدبى والجمالى الذى انبثقت عنه شفاه ذلك الرجل الذى لم ينْظِم قبل ذلك ولا بيتا من الشعر. ومن وجهة النظر الخارجية وحدها لا يزال القرآن يمثِّل حتى اليوم أعلى نقطة يمكن الارتقاء إليها فى لسان العرب. وبالنسبة للعرب جميعا مثلما هو الحال بالنسبة لمحمد فإن الجمال الشعرى الساحر للقرآن هو البرهان الجلىّ على مصدره الإلهى" (ص٨٣). وقد أورد فى هذا الصدد قصة لم أسمع بها من قبل، إذ يقول إن شعراء قريش فى الفترة المكية قد تجمعوا فى فناء الكعبة محاولين نظم شعر يضارع جمال القرآن ردا على تحديه لهم، لكن أشدهم ضراوة قد أقروا على أنفسهم بألا شىء مما نظموه يستطيع مساماة القرآن. وكان هذا العجز سببا فى دخول كثير منهم الإسلام (ص٩٨- ٩٩).

ويقتضينى الإنصاف كذلك أن أُشِيد ببراعة ذلك المستشرق فى كثير من المواضيع فى تجسيد أحداث السيرة النبوية ومواقفها تجسيدا يتنفس ويذْهِل. لقد قرأت السيرة النبوية لدى مؤلفين مسلمين من عرب وغير عرب ولدى عدد من المستشرقين والمبشرين بالإنجليزية والفرنسية، لكنى لم أجد عند أى منهم هذه المقدرة الفنية العجيبة حتى لقد كنت أشعر أنى فى حضرة المصطفى أشاهده بعينى وأسمعه بأذنى وأنى لو أردت لمددت يدى وتشرفت بلسمه. إلا أن المؤلف للأسف قد استغل هذه الموهبة فى الإساءة لشخصه صلى الله عليه وسلم ولدينه. منه لله!

بقيت نقطة أخيرة فى هذه الدراسة العجلى: لقد سلف القول بأن الكاتب قد انطلق ظاهريا فى كتابه هذا من أنه شخص مسلم، فضلا عن أنه قد اصطنع اسما إسلاميا. صحيح أن كلامه مملوء بالغمز واللمز واتخاذ المواقف الممالئة لليهود وما إلى ذلك مما فضحْنا كثيرا منه فيما كتبناه هنا. لكنى

أريد أن أقف عند شيء آخر أَدَلَّ على حقيقة قلبه، ألا وهو فلتات اللسان أو بالحرى: فلتات القلم. من ذلك أنه كثيرا ما يقول: "نحن الأوربيين..." أو "نحن الغربيين..." على نحو لا يدع مجالا للشك فى أنه حريص على إقامة حاجز بينه وبين العرب والمسلمين (الذين يسميهم بـ"الشرقيين") لا يمكن تخطيه. ولو كان مسلما حقا ما فعل هذا ولعد نفسه رغم أوربيته واحدا منا. بل إنه ليحقر الشرقيين ويجعل بلادهم مهد المكر والمؤامرات والكذب والخيانة والاغتيال بالسموم (ص١٢- ١٣، ١٧، ٢٠، ٣٣). ومن هذا الوادى وصفه للتاريخ الميلادى بأنه "تقويمنا"، أى تقويم الغربيين من يهود ونصارى (ص٣٢). وعند كلامه عن إبراهيم عليه السلام نجده يسميه: "le Patriarche: البطريارك" (ص٣٨). وهى تسمية كتابية لا إسلامية، إذ هو عندنا نبى رسول لا بطريارك. وبالمثل يعتمد رواية العهد القديم لدن كلامه عن إبراهيم وإسحاق وهاجر وإسماعيل(ص١٥)... وهكذا. إن فلتات اللسان والقلم لمن الأهمية بمكان. ومن الواضح أنه يبغض الإسلام ونبيه بغضا ملتهبا، وقد رجحت أنه يهودى اصطنع اسما إسلاميا ليكون للفتنة أشد إضراما، وغَلَّف حبات السم بقشرة سكرية بدا فيها أنه يمدح الإسلام وتعاليمه فى بعض الأحيان لتتم الحبكة المسرحية. لكن لا يمكن أن يفلح أبدا من يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخيرا فقد اتضح أن محمد أسد بك هو يهودى بولندى اسمه الأصلى ليف نوسيمباوْم، وُلِد عام ١٩٠٥م، ومات عام ١٩٤١ أو ٤٣ على خلاف فى ذلك، وأعلن تحوله إلى الإسلام فى شبابه. وله، إلى جانب كتابه الذى نحن صدده، "نيقولا الثانى، وسجين اللون القرمزى، واثنا عشر أسيرا قوقازيا، وعلىّ ونينو، والله أكبر". وهو ابن أميرة بولندية وتاجر يهودى كبير. وقد ظهر لنا فى المشباك، ونحن نبحث عن الرجل، شخص اسمه قربان سعيد بوصفه مؤلف أو مترجم رواية "على ونينو"، فأفضيت إلى صديقى د. لطفى جمعة الأستاذ بهندسة بنها، الذى كان يساعدنى فى التوصل إلى حقيقة محمد أسد بك مشكورا، بأن لدىّ اشتباها قويا فى أن يكون قربان سعيد هو نفسه محمد أسد بك متخفيا فى رداء قوقازى، فوعدنى أن يتابع البحث فى الموضوع، ليعود بعد يومين قائلا إن شكوكى فى محلها لأن هناك فعلا من يقول نفس ما قلت، وإن كان هناك أيضا كاتب يهودى يحاول

التعمية على أن أسد بك وقربان سعيد شخص واحد. كما ذكر لى أنه وجد مقالا لكاتب يدعى: توم رايس يحاول أن يثبت أن رواية "على ونينو" ليست لأسد بك ولا لقربان سعيد بل لبارونة نمساوية كانت عشيقة لهذا الأخير. وهذا كله مما يؤكد أن هناك سرا خطيرا وراء محمد أسد بك، الذى كان يدعى أن النازيين يطاردونه فى كل مكان. ثم هل يعقل أن شخصا يتحول من اليهودية إلى الإسلام تحولا صادقا ثم يكتب مهاجما دينه الجديد ورسوله وصحابته مهما كانت الذريعة التى يستند إليها؟ لكن ما يحيرنى أن محمد أسد الآخر لم يفكر قط، فى حدود ما أعلم، أن يحذر المسلمين من محمد أسد بك ويخبرهم أنه ليس إياه رغم تشابه الأسماء!

والآن بعد أن انفضحت حقيقة محمد أسد بك لا نجد خيرا من الاستشهاد بقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم يفضح أسلوب يهود فى الكيد للإسلام: "وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يضِلُّونَكُمْ وَمَا يضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يشْعُرُونَ * يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يرْجِعُونَ" (آل عمران/ ٦٩- ٧٢). فهو من الذين آمنوا بالذى أُنْزِل على محمد وجهَ النهار وكَفَرَ آخرَه ليشكك المسلمين فى دينهم قائلا لهم: لقد أردت الحق، ولكنى أخطأته، واتضح لى أن محمدا نبى كاذب وأن الإسلام دين إرهابى. فنيتى كانت سليمة وطيبة، لكن حقيقة الإسلام صدتنى وردتنى، فتركتُه لِمَا وجدته فيه من عيوب قاتلة. والطريف أنه، حسبما قرأت، قد أوصى بوضع المصحف تحت رأسه عند دفنه. وقد مات ودُفِن بإيطاليا فى قَبْرٍ رُسِمَتْ على شاهده صورة عمامة.

كِتَاب "الهاجَرِيّة" لباتريشيا كرونه ومايكل كوك

حين كنت فى أكسفورد أدرس للحصول على الدكتورية فى النقد الأدبى الحديث فى الفترة ٧٦- ١٩٨٢م صدر كتاب "Hagarism" لباتريشيا كرونه ومايكل كوك، وهما أستاذان جامعيان يهوديان، وقرأت عنه القليل، وحضرت محاضرة أو محاضرتين للدكتورة كرونة، وكانت فيها حلاوة، كما كان لها ضرس مغطى بطربوش معدنى، وكانت حركات يديها وهى تحاضر تفتقر إلى الرقة. ولعلها كانت تستعمل فى الإشارة يدها اليسرى. ولم أجد فى محاضرتها ما يشدنى. وأذكر أن زميلا لنا سوريا كان يدرس معنا فى نفس الجامعة كتب عَرْضًا لذلك الكتاب فى إحدى المجلات العربية، وأرانيه فقرأته على الطائر لصغر حجمه. وأتصور أنه كان يعارض ما جاء فى الكتاب، الذى لم أقرأه فى حينه رغم أنى قرأت آنئذ كتبا استشراقية كثيرة عن الأدب العربى والإسلام. ثم مرت الأحوال والعقود، وعرفت الكاتوب والمشباك ونزَّلتُ كتبا كثيرة منها هذا الكتاب فى أصله الإنجليزى وفى ترجمته العربية بقلم نبيل فياض على السواء منذ عدة سنين، بيد أن الفرصة لم تسنح لى كى أفكر فى قراءته إلا الأيام القليلة الماضية. وفى البحث التالى سوف أقف فقط أمام الجزء الأول منه، موضحا ما فى منهج مُؤَلفَيه من تنطع وتغشمر وبعد عن العلمية بكل سبيل.

لقد لاحظتُ أن الكاتبين ينتهجان نهجا غريبا ما أنزل الله به من سطان انتشر بآخرة فى كتابات عدد من الأوربيين، نهجا يتنكر لكل ما كتب عن الإسلام والمسلمين وتاريخهم بأيد إسلامية وافتراع طرق وأساليب جديدة تعطينا نتائج شاذة سخيفة لا يمكن أن تدخل عقل عاقل البتة، وذلك تحت ذرائع تافهة متنطعة لا أدرى كيف تواتى أولئك الباحثين أنفسُهم لقبولها. ولو أن الشيطان نفسه عصر مخه وسهر الليالى الطوال المتتابعة وكرّس نفسه تماما للإفساد والتدمير وإشاعة الفوضى والاضطراب ما استطاع أن يبلغ عشر معشار أولئك الباحثين. وقد أعلن مؤلفانا، جَرْيا على التقليعة الجديدة التى نجمت فى الفترة الأخيرة، أنهما لن يعتمدا على المصادر والمراجع الإسلامية بل على نظائرها من مؤلفات غير المسلمين. ويا ليتهما اعتمدا على مراجع ومصادر محترمة معروفة، بل أتيا إلى مواد مجهولة لا يشعر بها أحد ولا تستأهل الثقة وأصرا على الاستناد إليها، ومنها ما يسمى

بـ"الرؤى"، وهى أحلام مصطنعة كدعاوى أهل التصوف الكاذبة المنفلتة العيار عندنا بخيالاتها وأوهامها المجنحة، فضلا عن أنها لا تزيد على سطور قلائل. ونتيجةً لهذا نراهما ينفيان أن يكون "المسلمون" قد عُرِفوا بهذا الاسم قبل بناء قبة قبةبيت المقدس أو أن يكون للإسلام شخصية مستقلة، بل هو مجرد دين مسيحانى جاء ليبشر بقرب قدوم المسيح، ولذلك رحب به اليهود، الذين ينكر كاتبانا وجود أية خصومات أو عداوات بينهم وبين المسلمين فى المدينة قبل ذلك. كما يؤكدان أن المسيح الذى أتى النبى عليه السلام للتبشير به هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه... إلى آخر هذه الهلوسات المسعورة التى مكانها الوحيد هو مستشفى المجاذيب خبط لزق دون تردد أو انتظار.

ويفْهَم من كلامهما أن من أسباب عزوفهما عن المصادر الإسلامية عدم وجود شىء منها مكتوب يرجع إلى التاريخ الذى ظهر فيه الإسلام. وهذا التنطع معناه أن كل شىء لا يوجد بشأنه نص مكتوب فى حينه لا ينبغى تصديقه ولا الأخذ به. وهذا معناه أننا سوف ننكر التاريخ البشرى كله إلا فيما ندر لأنه غير مسجل أو غير مسجل فى حينه. ولكن لِمَ يقول المتساخفون المتنطعون هذا، وتسجيلُه كتابةً عملٌ بشرىٌّ كحفظه فى الذاكرة سواء بسواء؟ هل البشرية تصير صادقة تلقائيا بمجرد أن تمسك بالقلم، وتصبح كاذبة أو على أقل تقدير: غير حقيقة بالتصديق إذا نطقت ولم تكتب؟ لكنها هى البشرية فى الحالتين، وأخلاقها هى هى!

إن وجود شىء مكتوب لا يعنى بالضرورة أنه صحيح، فقد يكون مختلَقا أو كُتِب تحت تأثير الخوف والقلق والرعب من العقاب أو اعتراه السهو أو النسيان أو الاضطراب وغير ذلك مما يصيب الذهن البشرى ونعرفه جيدا ونتعرض له كلنا. ثم إن معظم ما سُجِّل من حوادث التاريخ فى وقته إنما أُخِذ من أفواه الرواة الذين رأَوْا وسمعوا، إذ المؤلفون بوجه عام لا يحضرون الحوادث ولا يشاهدونها أو يسمعون ما دار فيها بأنفسهم، بل ينقلون ما حُكِىَ لهم. والمهم فى الحالتين أن نحكّم عقولنا فيما نقرأ أو نسمع ونعرضه على حاستنا النقدية ونقلبه ونتحقق من صدقه بكل طريقة ممكنة، وما أكثر الطرق التى نستطيع سلوكها من أجل التحقق من صحة المادة التى تصلنا. على أن نعرف

رغم ذلك كله أننا قد نتعرض للخطإ والتضليل فى نتائجنا، فنحن فى نهاية المطاف بشر. لكن يكفينا شرفا أننا اجتهدنا وُسْعَنا ولم نَأْلُ جهدا فى سبيل دَرْك الحقيقة.

ولنأخذ، على سبيل التمثيل، وقائع الحملة الفرنسية على مصر، التى وصلت إلينا بقلم الجبرتى. فهى روايات سمعها الرجل ودوّنها، ولم يحضر أو يشاهد منها إلا النادر. وحتى الكتب والوثائق التى وضعها فرنسيون مشاركون فى الحملة ليست كلها شهادات عيانية، إذ لا يمكن أن يكون المؤلف من هؤلاء موجودا فى جميع الأماكن التى يتحرك فيها رجال مجموعته من أرجاء مصر. هذا أمر مستحيل. وكذلك لا بد أن نعمل حساب التعصب والهوى والنسيان وسوء الفهم وخطإ التفسير والحساسية القومية والدينية التى لا يمكن أن يفلت منها المؤلفون الفرنسيون فى تلك الحالة. وأمامنا مثلا إعلان بونابرت أنه مسلم جاء لمساعدة الخلافة العثمانية ضد المماليك. فهذا كلام مكتوب وموثق ومسجل فى لحظتها، وهو دجل وقح.

كذلك اعتمد مؤلفا كتاب "الهاجريون" على شهادات بعض اليهود فى موضوع بدايات الإسلام، وكأن اليهود قوم صدق وأمانة ووفاء للحقيقة! ترى لو كانوا كذلك فكيف نفسر الصور الشائهة فى كتابهم المقدس، التى رسموها للأنبياء فحولوهم إلى جماعة من الكذبة والسكيرين والزناة ومضاجعى المحارم والقتلة والديايثة والحقدة الحاسدين، ومسهِّلى عبادة الأصنام، والخاضعين خضوعا مذلا لزوجاتهم الوثنيات، والذين يسيل لعابهم من شهوات الجسد؟ بل لقد رسموا لله سبحانه صورا لا تليق حتى بالبشر: فمِنْ استراحة من عناء الخلق فى اليوم السابع، إلى تَمَشٍّ فى طرقات الجنة يبحث دون جدوى عن مكان اختفاء آدم منه، إلى اشتباكه فى مصارعة مع يعقوب طوال الليل لم يستطع أن يتفلفص من تطويقه له إلا باللتيا والتى، إلى حقده على بنى آدم، الذين خلقهم بنفسه ثم غاظه أن يتكلموا كلهم بلغة واحدة فبلبل ألسنتهم تكديرا لهم وتعذيبا، إلى ندمه على أنه قد خلقهم أصلا، إلى شتائمه لبنى إسرائيل، الذين يحولهم كاتب العهد القديم إلى زوجة له يفضحها ويصف عورتها بالتفصيل كأنه رجل شعبى يعيش فى منطقة عشوائية لا تعرف الحياء ولا

التستر ويتهمها فى شرفها ويرميها بالزنا قائلا إنها فتحت ساقيها لكل عابر ومارست معه الخيانة بثمن بخس زهيد... إلخ!

نعم منذ متى يصح الاعتماد على اليهود فى رواياتهم عن الإسلام، وهم الذين أثبتوا أنهم آخر من يجوز الاعتماد عليه فى كتابة تاريخهم وأسفارهم المقدسة ذاتها؟ هل يصح الوثوق بصدق من يقول فى كتابه المقدس إن الابن أكبر من أبيه بعامين؟ وهل يصح أن نثق بكلام من يخطئون فى كثير من الأرقام والمقارنات الحسابية وأسماء الأشخاص والوقائع فى ذلك الكتاب؟ وليس على من يريد التحقق مما نقول إلا أن يرجع فقط إلى ما كتبه ابن حزم فى "الفِصَل فى الأهواء والملل والنِّحَل" عن الأسفار الخمسة الأولى وحدها من العهد القديم، ولسوف يذهل ذهولا لم يذهله قبلا ولن يذهله بعدا. إنها مخزاة بل مأساة بل مخزاة ومأساة معا! ثم ما الدليل على أن تلك الوثائق التى اعتمد عليها اليهود هى وثائق صحيحة أصلا أو أنها تنتمى فعلا إلى الزمن الذى تُنْسَب إليه، وبخاصة أن العلماء كثيرا ما يختلفون فى تحديد زمنها؟ ولماذا لم ينتهزها اليهود قبل اليوم لِتَسْوِىءِ صورة الإسلام ونبيه ما دامت صحيحة ولها هذا الثقل الذى يضفيه هذان المؤلفان عليها؟ إنها كتابات بعض رجال الدين اليهودى، أى من نوعية كتبة العهد القديم بل أسوأ منهم بكثير، إذ كتبة العهد القديم هم من كبار رجال يهود وعلمائهم، أما هؤلاء فلا يصلون إلى أولئك قيمة ومكانة.

كذلك فنحن نعرف معنى الحرب المعنوية، وهى جزء من الحرب الباردة التى لا يسْتَخْدَم فيها الرَّصاص ولا السيف، ولكن يستخدم ما هو أنجع من الرصاص والسيف فى هزيمة العدو، ألا وهو نشر الأكاذيب والشائعات ولَىُّ الحقائق والافتراء على التاريخ والإلحاح على ذلك حتى يصير جزءا من عقل القراء والسامعين لا يمكنهم تصور خلافه. ولن نذهب بعيدا، فقد شنت أمريكا حملة على العراق فى عهد صدام كانت تؤكد فيها بيقين قاطع أن العراق يملك أسلحة نووية وبيولوجية تهدد العالم كله لا أمريكا وحدها. وفى ظل تلك الحملة شنت أمريكا، ومعها دول أخرى، الحرب على ذلك البلد الشقيق أكثر من مرة، ونشرت الدمار والأمراض السرطانية فيه، وقتلت نحو مليون مواطن، وسرقت جانبا كبيرا من آثاره، ونزحت كثيرا من ثروته، وأفشت الخصومات والمعارك

المبيدة بين طوائفه... ثم ظهر بعد "خراب بصرة" (وبعد خراب بغداد وخراب الكوفة وخراب غيرها من مدن العراق) أن ذلك كله لا أساس له من الصحة. وفى مصر نجد من يكتب أن خالد بن الوليد ألقى متمم بن نويرة فى ماء مغلى وسلقه والتهمه هَمّ يا مَمّ. وهناك من يقول إن جبل "المقطم" سمى كذلك لأنه قد تقطم بمعجزة نصرانية، مع أن اسمه كان كذلك قبل حدوث تلك المعجزة المفتراة. وهذا كله مسجل فى الكتب، وليس كلاما شفويا.

وظل المصريون فى معركة الأيام الستة يظنون لعدة أيام أنهم طحنوا الجيش الإسرائيلى وحطموا طائراته كالذباب ودخلوا تل أبيب بينما كنا قد انتهينا تماما قبل بدء الاشتباكات كما اتضح فيما بعد. وكان السياسيون والصحفيون يكذبون على الشعب بدون أية ذرة من حياء. وقبل ذلك كان المصريون يعتقدون أن بلادهم قد صنعت صواريخ القاهر والظافر استعدادا لتأديب إسرائيل، بل رَأَوْها عند تجربتها وانطلاقها فى الجو، ورئيس البلاد ينظر إليها بكل ثقة وفخار وهى ترتفع بسرعة هائلة فى الأعالى مما أسعدهم سعادة لا توصف. لكن لما وقعت الفاس فى الراس وقامت الحرب اتضح لنا أنها مجرد "فنكوش" لخداع الناس وزيادة شعبية الحاكم وتصويره بصورة البطل الصنديد الذى يسحق أعداءه بالضربة القاضية من أول جولة. وهذا كله مسجل كتابة، وصوتا وصورة، ومع هذا قد بللناه وشربنا ماءه فلم يغن عنا شيئا، ومن يومها ونحن ضائعون!

إن مَثَلَ تلك الوثائق التى يعتمد عليها المؤلفان مَثَلُ سيرة "عنتر بن شداد"، تلك التى تجعل من عنترة شاعرا وفارسا جاهليا وإسلاميا ويمتد عمره حتى عصر الحروب الصليبية، فيشترك فيها ويبلى بلاء فروسيا رائعا، ثم يموت بعد أن يكون قد عاش عدة قرون رحل فيها إلى بلاد فارس وبلاد الروم وبلاد اليمن وبلاد الحبشة وبلادنا المحروسة وتحدى الملوك والقادة والفرسان من كل ملة وصقع، وهزمهم شر هزيمة، وقال فى كل شىء من ذلك شعرا، فضلا عن الحروب القبلية والفردية التى دخلها وانتصر فيها كلها انتصارا مذهلا، وكذلك الغزوات الغرامية التى لم يكن فوزه فيها بأقل من فوزه فى حروب السيف والرمح والحصان. فإذا جاز لنا أن نأخذ بسيرة عنترة فى

التأريخ للعرب والمسلمين جاز لنا الاعتماد على تلك الوثائق التى يصدعنا بها المؤلفان فى كتابهما. ثم هل يمكن أن يعرفنا الآخرون خيرا مما نعرف أنفسنا؟

يقول المؤلفان إن الكتابات الإسلامية تعانى من التناقض. فهل هناك تراث واحد فى الدنيا لا يعانى من وجود أشياء متناقضة فيه؟ ثم ما الغرابة فى أن يكتب اثنان مثلا فى موضوع واحد فتختلف رواياتهما؟ من الممكن أن يكون كل منهما قد نظر إلى الأمر من زاوية مختلفة أو ركز على شىء فيه يختلف عن الشىء الذى ركز عليه نظيره أو وصلته معلومات أقل أو أكثر أو تم تضليله أو نسى أو سها فلم يذكر كل ما من شأنه أن يزيل أو يخفف ذلك التناقض. ثم إن المسلمين لا يقبلون كل ما فى تراثهم على علاته بل يعْمِلون فيه مِبْضَع التشريح والنقد، فيقبلون ويرفضون ويستدركون ويخطّئون ويصوّبون. وهذا كله أمر طبيعى لا جدال ولا عيب فيه. أما أن ننبذ كل ما لم يأت مكتوبا أو فيه شىء من التناقض فمعناه أن نرفض معظم التاريخ البشرى لأن التاريخ البشرى لم يأتنا كله مكتوبا بل القليل الضئيل منه فقط، كما أنه لا يمكن أن يخلو من تناقض. فهل هذا مما يقوله عاقل؟ ثم هل تخلو كتابات غير المسلمين من التناقض؟ أم هل تخلو كتاباتهم عن المسلمين بالذات من ذلك التناقض؟ لسوف يرى القارئ بعد قليل أن تلك الكتابات التى قرر المؤلفان الاعتماد عليها تتناقض عند حديثها عن تاريخنا: فبعضها يقول إن الناس تذكر أن بعضهم رأى النبى محمدا يقود جيوش الفتح فى الشام، وبعضها يقول إن تلك الفتوح قد تمت فى عهد عمر... وهكذا. أفلم يكن ينبغى، بمقتضى منطق المؤلفين، أن يرميا تلك الروايات جملة خلف ظهريهما ويقولا للقارئ إنه لم تكن هناك فتوح إسلامية أصلا فى الشام بل لم يكن هناك إسلام ولا يحزنون ما دام فيها ذلك التناقض؟

ودعنا الآن من أن بعض تلك الوثائق تكذب وتقول إن المسلمين يعبدون الأصنام أو إن محمدا كان يدعو أتباعه إلى عبادته ولا يبجل التوراة أو الإنجيل، مع أن دينه عليه السلام أقوى الأديان بغضا للأوثان وإدانة لعُبّادها، كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يدْعُ يوما إلى عبادة نفسه، بل كان ينهى أتباعه عن تفضيله على غيره من الأنبياء تواضعا منه وخشوعا، وكان يخشى الله ويتقيه تقوى خالصة مخلصة حتى إنه ليستغفر فى اليوم مائة مرة رغم أنه لم يكن ممن يجترحون أخطاء

أخلاقية، كما أُمِر فى القرآن بأن يقول إنه لا يدرى ما يفْعَل به ولا بخصومه من المشركين. وقد سبق أن قلت قبل قليل إن ابن حزم مثلا قد استخرج عشرات التناقضات الحسابية والتاريخية من الأسفار الخمسة الأوائل فى العهد القديم وحدها، وهى تناقضات لا يمكن جبرها بأى حال. والعهد القديم هو كتاب يهود المقدس، فما بالنا بما ليس كتابا مقدسا؟ بل ما بالنا برؤيا رآها صاحبها فى المنام لا ندرى كيف كانت حاله ساعتئذ؟ وهى رؤيا تشبه رؤيا يوحنا اللاهوتى بما فيها من تعقيدات واشتباكات وغموض ومبالغات، فضلا عن أن الرؤيا تتناول تواريخ مضت، ويحتار صاحبها نفسه فى تفسير بعض كلماتها الأساسية، ويربطها تعسفا بنصوص من العهد القديم غامضة بدورها، علاوة على اختلاف العلماء المحققين فى تحديد زمنها الذى سجلت فيه. ثم منذ متى كانت مثل تلك الرؤى مراجع تاريخية؟ ألا إن ذلك لعجيب!

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل لدينا كذلك العقلية المنحرفة العنادية التى يتسم بها الكاتبان، والتى تترك الطرق الواضحة اللاحبة الممهدة المأمونة المنيرة، وتلجأ إلى السبل المظلمة الملتوية. إنهما يشبهان صحفيا غير طبيعى تسكنه الهواجس والخيالات أرسلته جريدته ليقدم تقريرا عن الحالة فى إحدى المدن، فيترك المدينة التى كان ينبغى أن يعد فيها تقريره فى وضح النهار، ويلوذ ليلا بحقل ذرة متكاثف قاتم السواد يرهف السمع إلى كل ما يصوّت حوله جاعلا من الحبة قبة بل قبابا. فإذا سمع خشخشة عود حوله قال: جيش عرمرم فى طريقه إلى الهجوم على المدينة. وإذا صافح سمعَه قفزةُ ضفدعة فى قناة قريبة قال إن رقاب أهل المدينة شرعت تتساقط بسيوف المهاجمين. وإذا التقطت أذناه صرصرة جندب من جنادب الغيط قال إنه صراخ النساء على قتلاهن بأيدى الجيش المغير... وهكذا دواليك. ثم يروح ينسج من تلك الأوهام قصة طويلة عريضة مملوءة بالتفاصيل الخرافية، زاعما أن حربا عالمية فى سبيلها إلى الانفجار فى غضون ساعات! وعلى هذا النحو يتغاشم المؤلفان فيكتبان تاريخا بأكمله من خلال بعض الكلمات المعتوهة التى تركها هذا الشخص المجهول أو ذاك المخلوق النكرة حول نقطة لا ندرى مدى إلمامه بها أو مدى صدقه فى الحديث عنها. وذلك هو الجنون بعينه! ولقد قرأتُ رؤيا إيليا التى يعتمدان عليها فيما يعتمدان على كتابة بداية التاريخ

الإسلامى فلم أجد فيها شيئا عن الإسلام أو النبى محمد صلى الله عليه وسلم. أما عقيدة يعقوب، وهى نص آخر يعتمدان عليه فى التأريخ لبدايات ديننا، فيعزو صاحبها ما فيها من حديث عن الرسول وقيادته لجيش المسلمين ودعوته بعقيدة المسيح المنتظر إلى "كلام الناس"، على طريقة العوام فى تعبيرهم المشهور: "الناس بيقولوا".

وقد عَقَّب كاتب مادة "عقيدة يعقوب" فى "الويكيبيديا" الإنجليزية بأن النص مضطرب ومركب من هنا ومن هناك. كما يعزو ما يختلف منه مع كتابات المسلمين، كالقول بأن النبى عليه السلام كان يقود المسلمين فى حروبهم ضد البيزنطيين فى الشام، إلى أنه من الطبيعى فى مثل تلك الفترة المضطربة المملوءة بالحروب والقلاقل ألا نجد كتاباتٍ بيزنطيةً تصف ما جرى وصفا سليما دقيقا. بل إن النصوص البيزنطية، بعد أن استتبت الأوضاع، ظلت تقع فى الخلط الشنيع لدن حديثها عن الإسلام كما يقول. وعلى أية حال فحتى لو أخذنا هذا النص مأخذ الجد وعددناه مصدرا تاريخيا معتبرا فإنّ ظن الكاتب بأن النبى كان لا يزال حيا آنذاك ويقود جيوش المسلمين فى حروبهم ضد الروم قد يمكن تفسيره بأن النبى لم يمت قبل ذلك بأكثر من سنتين بحيث من الطبيعى أن يظن الناس فى الشام أنه لا يزال حيا، إذ لم تكن هناك صحف ولا إذاعات ولا فضائيات ولا هواتف ولا مشباك (إنترنت) ولا وكالات أنباء. كما أن الفتوح الإسلامية كانت لا تزال تخطو خطواتها الأولى، فكان الظن أنه عليه الصلاة والسلام كان يقود الجيش الإسلامى كما فعل منذ سنوات قليلة حين قاد المسلمين إلى تبوك لملاقاة الروم عند انتشار الخبر بأنهم تجمعوا على الحدود مع بلاد العرب بغية انقضاضهم على دولة الإسلام.

أما بعد بضعة عشر عاما، وبعدما اتضحت الأمور، فقد ألفينا الأسقف الأرمنى سيبيوس يورد كثيرا من أخبار المسلمين على نحو أدق، ومنها هذا الخبر الذى نحن بصدده، فيجعل تمام فتوح الشام والعراق فى عهد عمر، وإن كان فى كلامه عن الفتنة التى ثارت بين على ومعاوية قد خلط خلطا شديدا، إذ زعم مثلا أن الجنود المسلمين الموجودين فى مصر قد اتحدوا مع الإمبراطور البيزنطى وتعمدوا وصاروا نصارى. لقد كان يوحنا النقيوسيى المصرى، الذى عاصر فتح مصر،

حريا أن يسجل فى كتابه هذا الكلام لو أنه صحيح أَوْ له بعض أساس من الصحة. أما سكوته عن ذلك فمعناه أنه مجرد حلم من الأحلام. ثم هل هذا ممكن أصلا، بله أن يكون على ذلك النطاق الواسع فى تلك الأيام الأولى من تاريخ الإسلام؟

ونعود إلى الدعوى الخاطئة بأن النبى كان لا يزال على قيد الحياة عند فتح الشام ويقود الجيوس الإسلامية بنفسه، فنقول إن فى عدد من الوثائق التى تتحدث عن هذه الفترة وأوردها روبرت هيلاند فى كتابه المذكور إشارات متكررة إلى أن فتح بيت المقدس كان فى عهد عمر. ثم إن النص اليعقوبى الذى ورد فيه هذا السخف عبارة عن رسالة حجاجية بين اليهود والنصارى تمت فى قرطاجة فى منتصف ثلاثينات القرن السابع الميلادى، وإن كانت قد سُجِّلَتْ كتابةً فى فلسطين. وهذا من شأنه ألا يجعلنا نعطيها ثقتنا. أما قول محاور يعقوب إن محمدا نبى مزيف لأن الأنبياء الحقيقيين لا يأتون بسيوف فى أيديهم فهو يناقض حَمْل يشوع بن نون وصمويل وداود وسليمان بن داود مثلا السيف وقتلهم الناس به. ثم إن العبرة بالغاية التى يحمل من أجلها الإنسان السيف، وإلا ففيم العيب فى أن يحمل النبى السيف دفاعا عن أمته ودينه ورَدًّا للعدوان عليهما، مع الالتزام بشريعة الله فى الحرب فلا يعتدى على أحد بدون وجه حق ولا يقتل طفلا أو امرأة أو راهبا غير مشترك فى القتال...؟ وهنا نسأل ذلك المعترض: من يا ترى ذبح نحو ألف نبى من أنبياء البعل بالسيف لا لشىء سوى أن عقيدتهم تختلف عن عقيدته؟ أليس هو إيلياء النبى فى العهد القديم؟ ومن يا ترى قائل الكلام التالى الذى يعلن بملء فمه أنه قد أتى بالسيف لا بالسلام: "لاَ تَظُنُّوا أَنِّى جِئْتُ لأُلْقِى سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِى سَلاَمًا بَلْ سَيفًا. فَإِنِّى جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ"؟ أليس هو المسيح؟ فلم التنطع إذن؟

والغريب الشديد الغرابة أن طرفَىِ الحِجَاج يهوديان تم تنصيرهما قسرا، وإن قرأتُ أنهما اقتنعا بعد التنصير القسرى بصواب دينهما الجديد، وليس فى الحجاج شدة ولا حرارة كالتى تُتَوَقَّع من حجاج كهذا، بل هدوء وتفاهم تامان وكأننا إزاء شخص واحد يحاور نفسه حوارا عقليا افتراضيا باردا لا واقعا حيا. ثم إذا كان أحد من أولئك الكذابين قد رأى النبى وهو يحارب فكيف لم يفكر أى

منهم فى تقديم وصف له ولتصرفاته وسلوكه، وبخاصة وهو يحمل السيف ويأتى هذا الأمر الشاذ المنكَر كما يزعمون؟ كذلك فبطلا القصة شخصان نكرتان لا يعرف أحد عنهما شيئا ذا قيمة، بل ليسا فى أنفسهما ذَوَىْ قيمة. الحق أنه لا يصح أبدا أن نعول على مثل تلك النصوص التى يحمِّلها المؤلفان ما لا تطيق، ويريدان أن يستخرجا منها وقائع التاريخ زورا وبهتانا.

ومن هنا ألفينا روبرت هُويلاند (Robert Hoyland) مؤلف كتاب " Seeing Islam As Others Saw It. A Survey And Evaluation Of Christian Jewish And Zoroastrian Writings On Early Islam"، وهو بالمناسبة من تلامذة باتريشيا كرونه، يفسر أخطاء المؤرخين غير المسلمين فى تقديم تاريخ بعض الحوادث أو تأخيرها عن وقتها الصحيح مثلا بعدم اتخاذهم المصادر الإسلامية أصلا ومعيارا. وهذا هو الموقف السليم على عكس مؤلفَينا الملتاثَين. ولا ننس أننا فى عصرنا هذا، عصر الاتصالات اللحظية، كثيرا ما نسمع فى هذه الدولة أو تلك أخبارا رسمية عن وَفَيات أو هزائم أو جرائم، ثم يتضح أنها تلفيقات كاذبة صنعت خصيصا لغرض من الأغراض السياسية.

وهذه وثيقة أخرى من الوثائق المضطربة التى تشبه ما يعتمد عليه المؤلفان فى كتابة تاريخ الإسلام وحضارته، ويرجع تاريخها إلى سنة ٧٠٥م. وفيها أن محمدا كان مَلِكًا لسبع سنين تلاه أبو بكر لمدة سنتين، ثم عمر لمدة اثنى عشر عاما، ثم عثمان لمدة ١٢ عاما آخر ظل المسلمون بعدها بدون قائد خلال حرب صِيفِى خمسة أعوام ونصفا، وبعد ذلك معاوية لمدة عشرين عاما، فابنه إيزيد لمدة ٣ أعوام... إلخ. وهذه هى الوثيقة المذكورة، وهى موجودة ص٣٩٤ من كتاب روبرت هويلاند: " Seeing Islam As Others Saw It. A Survey And Evaluation Of Christian Jewish And Zoroastrian Writings On Early Islam".

"AD ANNUM 705: A report giving information about the kingdom of the Arabs, and how many kings there were from them, and how much territory each of them held after his predecessor before he died. Ml).mt came upon the earth in 932 of Alexander, son of Philip the Macedonian (620-21); then he reigned 7 years. Then there reigned after him Abu Bakr for 2 years. And there reigned after him 'Umur for 12 years. And there reigned after him 'Uthman for 12 years, and they were without a leader during the war of $iffin ($efe) for 5 years. Thereafter Ma'wiya reigned for 20 years. And after him Izîd the son of Ma'wiya reigned for 3

years. (In margin: and after lzîd for one year they were without a leader) And after him 'Abdiilmalik reigned for 21 years. And after him his son Walid took power in AG 1017, at the beginning of first Tishrin (October 705)"

أما يوحنا النقيوسى المصرى الذى كان يكتب ما عاصره من أحداث الفتح الإسلامى لمصر فكل ما كتبه فى "تاريخ العالم القديم" عن عمرو بن العاص فى وادى النيل يؤكد أن حاكم المسلمين وقت أن كانت معارك الفتح الإسلامى للشام ماضية فى طريقها هو عمر بن الخطاب لا الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. ومن ذلك قوله: "وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، الذى كان حينئذ فى فلسطين، خطابا يقول له فيه: "إذا لم ترسل لى إمدادات إسلامية فلن يمكننى الاستيلاء على مصر"، فأرسل إليه عُمَرُ أربعة آلاف محارب إسلامى بقيادة ابن العوام" (طبعة القمص بيشوى عبد المسيح، وترجمة ليزة عزيز إسكندر من الفرنسية/ ٢٠٧). وها هو ذا النص فى أصله الفرنسى (ص٤٣٧ من ترجمة زوتنبرج) ثم فى نسخته الإنجليزية بترجمة ر. هـ. تشارلز على التوالى:

"'Amr, fils d'Al-'Âs, écrivit à cOmar, fils d'Al-Khattâb qui était en Palestine, une lettre dans laquelle il lui disait: Si tu n'envoies pas des renforts musulmans, je ne pourrai pas me rendre maître de Misr. 'Omar lui envoya quatre mille guerriers musulmans, commandés par un général nommé Walwâryâ,qui était de race barbare".

- "And 'Amr the son of Al-As sent a letter to Omar the son of Al-Khattab in the province of Palestine to this effect: 'If thou dost not send Moslem reinforcements, I shall not be able to take Misr.' 6. And he sent him 4,000 Moslem warriors. And their general's name was Walwarja".

وهو نفسه ما نجده عند ساويرس بن المقفع فى "تاريخ البطاركة"، وعند ابن العبرى فى "تاريخ مختصر الدول"، وهما من كبار رجال الدين النصارى، وكذلك فى كتاب إديث لويزا بتشر (Edith Louisa Butcher) عن تاريخ الأمة المصرية والكنيسة الأرثوذكسية بمصر:

"History of the Church of Egypt Being an Outline of the History of the Egyptians under their Successive Masters from the Roman Conquest untill Now"

حيث لا تذكر أبدا سوى ما نعرفه من أن حاكم المسلمين آنذاك هو عمر بن الخطاب. وهى، حين تقول ذلك، لا تفعله اتباعا للمؤرخين المسلمين، إذ هى دائبة الهجوم على المسلمين والتقليل من شأنهم، ودائما ما تعزو إليهم كل سوء وشر، ولا تكاد تجد لهم ميزة أو حسنة. كذلك فإن ألفرد بتلر فى كتابه: "The Arab Conquest of Egypt" يوافق المؤرخين المسلمين فى هذا الموضوع تمام

الموافقة رغم أن له مصادره ومراجعه الأخرى غير الإسلامية من قبطية وسريانية وأرمنية ولاتينية... إلخ.

على أنْ ليس هؤلاء وحدهم هم الذين يقولون بما يقول به المؤرخون المسلمون فى تلك النقطة بل يشْرَكُهم فيه جميع المستشرقين والمبشرين وغير المستشرقين والمبشرين والدنيا كلها طوال هاتيك القرون رغم عدم تقصيرهم بوجه عام فى بغض الإسلام ونبيه وكتابه وتاريخه. بيد أن بغضهم كان يبْقِى على شىء من التعقل بخلاف كاتبَينا وأمثالهما ممن "يسوقون الهبالة على الشيطنة" ويتعمدون التشكيك فى كل شىء يذكره المسلمون حتى تفاصيل التفاصيل مما لم يفكر أحد قبلا على مدار كل هاتيك القرون فى التشكيك فيه، متظاهرين أن بإمكان المؤرخ إهمال كل ذلك التراث التاريخى الهائل والأخذ عوضا عن ذلك بكلمة تائهة هنا أو ههنا لا قيمة لها ولا يجوز الالتفات إليها أو التوقف لديها. إن المستشرقين والمبشرين بوجه عام ينكرون نبوة سيدنا محمد وإلهية القرآن مثلا، أما هؤلاء فلا مانع عندهم أن ينكروا أن يكون هناك محمد أصلا أو أن يكون قد وُلِد فى التاريخ الذى وُلِد فيه، أو مات فى التاريخ الذى نعرف جميعا أنه مات عنده، أو كانت أمه هى السيدة التى أنجبته... وهكذا بحيث ينسفون كل شىء ولا يتركون شيئا على حاله. إنها عملية تدمير شاملة لا تبقى ولا تذر. وبالمثل فإن الدنيا كلها تعرف أن لغة القرآن هى اللغة العربية، لكن هؤلاء يقولون: لا لم يكن القرآن عربيا بل هو عربى سريانى. ولا أستبعد يوما أن يقال: بل هو سريانى فقط مع بعض الكلمات العربية القليلة. ثم فى الخطوة التالية يدعون أنه سريانى خالص السريانية، فيكونون قد بلغوا القاع الأسفل من الوقاحة والخبث.

وفى رأى المستشرق البريطانى مونتجمرى وات أن الكاتبين قد ضيعا وقتهما فيما لا طائل تحته، وأن نظريتهما مجرد تخمينات وافتراضات لا تتسق مع الأسلوب العلمى السليم، علاوة على أن المراجع التى استخدماها غير جديرة بالاطمئنان. وقد تمنى لو أنهما استخدما جهدهما فى شىء مفيد بدلا من الثرثرة والتصايح وتلفيق العناصر المتنافرة من هنا وههنا والظن بأن ذلك الأسلوب كفيل

بأن يوصلها إلى غايتها. كما قرأت فى المقالة المخصصة للكتاب فى نسخة "ويكبيديا" الإنجليزية أن المؤلفَين قد عادا بعد بضعة عشر عاما فتنصلا مما قالاه فيه. ولكن بعد ماذا؟ بعد خراب بصرة؟:

"In 1991, Patricia Crone and Michael Cook disavowed the views that they presented in this book".

والآن إلى ما قاله المؤلفان عن نَصّ يعقوب المارّ ذكره: "إذا اخترنا أن نبدأ من جديد فسوف نبدأ بنص "عقيدة يعقوب" (Doctrina Jacobi)، وهو عبارة عن رسالة يونانية معادية لليهود سببها الاضطهاد الهراقلى. إنها موجودة على شكل حوار بين اليهود الموجودين فى قرطاجة عام ٦٣٤، لكن من المحتمل أيضا أنها كُتِبت فى فلسطين قُبَيْل ذلك التاريخ أو بُعَيْدَه بسنوات قليلة. وفى إحدى نقاط الجدل يشَار إلى حوادث تجرى آنئذ فى فلسطين، وذلك على شكل رسالة من يهودى فلسطينى، اسمه إبراهيم: لقد ظهر نبى كاذب بين السَرَسِنِيِّين... إنهم يقولون إن النبى الذى ظهر مقبل مع السرسنيين، وهو يعلن عن قدوم الممسوح الذى سيأتى، فذهبت أنا إبراهيم إلى رجل عجوز مطلع للغاية على الأسفار المقدسة وأحلت إليه المسألة، وسألته: "ما رأيك، أيها السيد والمعلم، بالنبى الذى ظهر بين السرسنيين؟". أجاب، وهو يتأوه للغاية: "إنه دجال. وهل يأتى الأنبياء بسيف ومركبة حربية؟ إن هذه الأحداث اليوم هى حقا أعمال فوضى... لكن اذهب، يا سيد إبراهيم، واستعلم عن النبى الذى ظهر". وهكذا قمت أنا إبراهيم بتحرياتى، وأخبرنى أولئك الذين التقَوْه: "ليس ثمة من حقيقة يمكن أن توجد عند النبى المزعوم سوى إراقة الدماء. أما ما تقوله حول امتلاكه لمفاتيح الجنة، فهو أمر غير قابل للتصديق".

وقد جاء تعليق الكاتبَين على النص كالآتى: "ثمة نقاط هامة عديدة فى هذه الرواية. إحدى هذه النقاط هى عقيدة المفاتيح. إنها بالطبع غير إسلامية، لكن ثمة مؤشرات خفيفة تفيد أنها كانت عقيدةً بَذَل التقليدُ الإسلامى جهدًا كبيرًا كى يقمعها: هنالك مجموعة تقاليد تسامت فيها مفاتيح الجنة إلى استعارة غير مؤذية. كذلك فإن قَسَمًا بيزنطيا بالتنكّر للإسلام يذكر الاعتقادَ القائل إن النبى كان سيأخذ مفاتيح الجنة، وذلك باعتباره، أى الاعتقاد، جزءا من العقيدة السرّية للسرسنيين". ولا أدرى ماذا يقصدان بأن التقليد الإسلامى قد بذل جهدا كبيرا كى يقمع عقيدة "مفاتيح الجنة". فهذا

كلام غريب جدا علينا نحن المسلمين، إذ كان النبى عليه الصلاة والسلام متواضعا تمام التواضع لم يقل يوما إنه يملك مفاتيح الجنة لا حقيقة ولا مجازا، ولم يدَّع قط أنه سيكون مثلا جالسا بجوار الله يوم القيامة ليحاسب الناس معه، بل يأمره ربه فى القرآن بأن يقول: "ما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وما أدرى ما يفْعَل بى ولا بكم"، كما أخبرنا صلى الله عليه وسلم أنه يستغفر ربه فى اليوم مائة مرة. وطبعا لم يكن يرتكب ذنوبا، فقد كان المثل الأعلى للبشر فى الخلق الكريم، بل المقصود أنه يعرف حدوده مع ربه وأنه ليس سوى عبد له ونبى أرسله لدعوة الناس إلى الصراط المستقيم. وهذا كل ما هنالك. ومن ثم ليس هناك أدنى مبرر للقول بأن المسلمين اجتهدوا بشدة كى يقمعوا تلك العقيدة حسبما يزعم الكاتبان. ذلك أنها لم تكن موجودة عندهم أصلا حتى يفكروا فى قمعها. أما إذا كان المقصود أنهم أرادوا قمعها عند غيرهم فمن هم أولئك الذين كانوا يعتقدون فى "مفاتيح الجنة" أولا؟ وكيف كان باستطاعة المسلمين قمعها عندهم ثانيا؟ ومتى كان المسلمون يتدخلون فى عقائد غيرهم أو يعقدون مجامع ليقرروا كل حين كيف تكون العقيدة عند هذه الفرقة أو تلك من هذا الدين أو ذاك فى المرحلة المقبلة ثالثا؟ فمن الواضح أن الكاتبين يهلوسان، وأنهما يشغلان أنفسهما ويريدان أن يشغلانا معهما ببعض أقاويل العوام التافهين، ويبنيا تاريخ الإسلام من شائعات اليهود السخيفة. ترى هل يظن الكاتبان أن الإسلام يمكن أن يتدهدى إلى هذا الدرك الأسفل من التهافت؟ أية مفاتيح تلك التى يجعلان منها محورا لبحثهما هذا؟ ترى هل هذان باحثان؟ أم هل هما دجالان؟ أم هل هما بهلوانان؟ أيصح أن تُتَناوَل الأديان والعقائد بهذه الخفة الطائشة؟ إنها خطة مرسومة ومقصودة لإشاعة الفوضى والاضطراب فى كل ما يتعلق بديننا وحضارتنا وتاريخنا واعتقاداتنا، فيصير كل شىء متميعا لا يبعث على الثقة والاطمئنان.

ثم يمضى المؤلفان قائلين: "لكن الشىء المذهل فعلا فى "عقيدة يعقوب" هو قوله إن النبى كان يبشر بقدوم "الممسوح الذى سيأتى". هذا يعنى أن جوهر رسالة النبى، فى أقدم شهادة متاحة لنا خارج التقليد الإسلامى، يظهر باعتباره مسيانية يهودية. يعزّ على المرء التآلف مع هذه الفكرة، لكننا نكرر أنها موثقة بدليل مستقل على نحو ملفت للنظر. فى الموضع الأول لدينا سِفْرٌ رُؤْيوِى

يهودى يرجع إلى منتصف القرن الميلادى الثامن يدْعَى: "أسرار الحبر شمعون بن يوحاى"، والذى يحتفظ بتفسير مسيانى للغزو العربى. وبما أن المسيا ينتمى إلى نهاية النص الرؤيوى، وليس إلى منتصفه، فهذا التفسير مأخوذ على الأرجح من سفر رؤيوى أقدم منه كُتِب مباشرة بعد الحوادث التى يشير إليها. أما ما يهمنا فى بحثنا الحالى فهو المقطع التالى:

حين رأى أن مملكة إسماعيل كانت آتيةً شَرَع يقول: ألم يكف ما فعلته بنا مملكة أدوم الشريرة حتى تأتينا مملكة إسماعيل أيضا؟ وللفور أجابه مِتَاتْرُون أمير التشجيع بقوله: لا تخف يا ابن الإنسان، فالقدوس المبارك لا يأتى بمملكة إسماعيل إلا لتخلّصكم من هذا الشر. إنه بحسب إرادته يقيم عليهم نبيا. وسوف يفتح لهم الأرض، وسوف يأتون ويحيونها بعظمة، وسيكون هنالك خوف مريع بينهم وبين أبناء عيسو. أجاب الحبر شمعون قائلا: كيف نعرف أنهم خلاصنا؟ أجاب: ألم يقل النبى إشعيا: "فيرى ركبًا أزواج فرسان... إلخ؟"... إضافة إلى ما سبق تحتوى "الأسرار" بعض الإشارات إلى القينيين المذكورين فى سفر العدد ٢٤:٢١ والتى لا يمكن فهمها إلا كتفسير مسيانى بديل لمسألة الغزو".

وأحب أن أضيف كلمة سريعة هى أن نبيل فياض نفسه يذكر فى موضع آخر أن ثمة اختلافات حادة بين العلماء المحققين حول تاريخ نص أسرار الحبر شمعون هذا ما بين فترة الحروب الصليبية على اتساعها وبين زمن الخلافة الراشدة والدولة الأموية على اتساع مساحة ذلك الزمن أيضا، وكذلك حول تفسير ما جاء فى ذلك النص، وغير هذا من الاختلافات مما يدل على أن هذه النصوص التى يراد لها أن تحل محل المصادر والمراجع الإسلامية هى نصوص مشكوك فيها ولا تحظى بالإجماع على تاريخها ولا معناها. وقد جاء كلام فياض هذا فى تقديمه لرسالة بعنوان "نصان يهوديان حول بدايات الإسلام" على النحو التالى:

"نُشِرَت "صلاة الحاخام شمعون بن يوحاى" للمرّة الأولى على يد أدولف يلنك Adolph Jellinek عام ١٨٥٥ من مخطوطة نادرة كان يمتلكها ماركو مورتارا Marco Mortara كبير الحاخامين فى مانتوا Mantua. وبدا وكأنها تعتمد جزئيا على عمل أقدم من نمط مشابه يحمل عنوان

"أسرار الحاخام شمعون بن يوحاى". كان "الأسرار" قد نُشِر للمرة الأولى ضمن مختارات سالونيك عام ١٧٤٣، ثم أعاد يلنك طباعته بعد ذلك. لقد عزا يلنك العمل إلى الحقبة الصليبية، لكن المؤرخ هاينريش غريتس Heinrich Graetz، عن طريق فحص دقيق، كان قادرا على أن يظْهِر أن الأحداث والحكّام المُشَار إليهم فى النص إنما يرجعون إلى الخلافة الراشدية وخلافة بنى أمية، وأنّ العمل، باستثناء مقطع مضاف من تاريخ أكثر تأخرا، كُتِب أثناء الصراع الذى أنهى الخلافة الأموية. ورغم اعتراضات شتاينشنايدر Steinschneider، الذى ما يزال يفضّل الهوية الصليبية، قُبِلَ هذا الرأى عموما.

يمكن أن نجد نسخة أخرى من "الأسرار" أيضا فى المدراش الذى يدْعَى: "الملوك العشرة"، الذى نشره هورفيتس Horovitz. و"الملوك العشرة" هذا يتضمّن مقطعا يبدأ كما يلى: "هذه هى الأمور المستقبلية التى كُشِفَت للحاخام شمعون بن يوحاى"، ويتوافق على نحو واسع، رغم بعض الفروقات الهامّة، مع محتويات "الأسرار". أما زعم هورفيتس بأنّ نسخته أقدم من نسخة "الأسرار" فيصعب القبول به حيث أنّها تتضمن إشارات إلى أحداث بعد التاريخ المرجّح لذلك العمل. من ناحية أخرى فـ"الملوك العشرة" يتضمّن تفاصيل هامّة غير موجودة فى نص "الأسرار". وربما أنه يعتمد على نسخة أخرى أكثر قدما لم تعد موجودة. وربما أن نسخة كهذه هى التى شكّلت نقطة الانطلاق لمؤلّف "الصلاة".

حتى الآن لم يثَرْ أى جدل جدى بشأن تاريخ "الصلاة". يلنك يعزوه إلى الحقبة الصليبية، ويجد فيه "إشارات واضحة وصريحة إلى الحروب الصليبية". أمّا غريتس فبناءً على مقطع يزعم أنّه يجد فيه دلائل على المغول ينسبه بالتالى إلى القرن الثالث عشر. وهو يفسّر وجود هذا المقطع فى "الأسرار" الأكثر قدما على أنه إقحام من النص اللاحق، أى من "الصلاة" ذاته. ورغم أنّ هذا التفسير لم يقْبَل من قِبَل الكتاب اللاحقين فقد سلّم معظمهم بأن المقطعَ موضعَ التساؤل كان قد أُضِيف فعلا. يعتبر بوتنفيسر Buttenwieser أن إرجاع تاريخ النص إلى الحقبة الصليبية هو فوق التساؤل. أما باير

Baer، والذى لحقه كاوفمان، فيعيد الأبوكاليبس على نحو أكثر تحديدا إلى زمن الحملة الصليبية الثالثة، ويحاول أن يصل إلى تحديد تفصيلى للأحداث التى يشير إليها.

كلّ وجهات النظر هذه تعتمد على افتراضٍ مُفَادُه أنّ المادة التاريخية فى "الصلاة" برُمَّتِها التى تعقب المقاطع الموجودة أيضا فى "الأسرار" إنما تعود إلى مؤلف واحد، وتشير إلى أحداث زمنه. وقد عزا بعضهم، كما رأينا، جزءا من "الأسرار" إلى مؤلّف "الصلاة"... إلخ". ونزيد نحن بدورنا أن حوادث التاريخ قد أثبتت أن تلك الرؤيا هى هلس فى هلس، إذ لم يثبت أو يتحقق أى حرف فيها. فكيف يأتى الباحثان بعد ذلك كله ويعتمدان عليها ويستنتجان منها النتائج الخطيرة ويدعوان إلى نبذ المصادر والمراجع الإسلامية لصالحها؟ أليس ذلك هو العته بل الجنون بعينه؟

وعودةً إلى كلام شمعون فى "الأسرار" نقول إنه يتصل بالنص التالى، وهو موجود فى ص ٥٢٦ - ٥٢٧ من "Non-Muslim Conceptions of Islam" تحت عنوان "Deliverance from the Wicked Kingdom":

"If among the Christians the Persian and Arab victories provoked doubts about the durability of their empire and its favoured status with God, for the Jews it inspired hopes that their unhappy period of clientage might soon be at an end. And their excitement is understandable, for historical reality indeed seemed to conform very closely to eschatological expectations in the early seventh century. The Persian-Byzantine clash was on the scale of the predicted war of Gog and Magog, and it concluded with Roman dominance "over the whole world" for a short time, which, it was said in the Talmud, was required before the Messiah son of David would come. When the emperor Heraclius decreed compulsory baptism of Jews, it was patent that the final showdown between the enemies of God's kingdom and the nation of Israel was at hand. So whereas Christians regarded the invading Arabs as God's rod for their chastisement, many Jews saw them rather as God's instrument for their deliverance. The possibly contemporary poet Yohlannan ha-Kohen called upon God to unleash the rod of his anger (Isaiah x.5), namely "the kingdom of the wild man" (malkhiit pere), who is Ishmael (Genesis xvi.l2), and to let him destroy the "sinful kingdom," which is Ed om (the Romans/Byzantines). And these sentiments are captured in a contemporary apocalypse which was attributed to the second-century rabbi Simon ben Yohai: Since he (Simon) saw the kingdom of Ishmael that was coming, he began to say: "Was it not enough what the wicked kingdom of Edom has done to us, but [we deserve] the kingdom of Ishmael too?" At once Meta.tron, the foremost angel, answered him and said: "Do not fear, son of man, for the Almighty only brings

the kingdom of Ishmael in order to deliver you from this wicked one (Edom). He raises up over them (Ishmaelites) a prophet according to His will and He will conquer the land for them, and they will come and restore it to greatness, and a great dread will come between them and the sons of Esau".

ومن الواضح الجلىّ أن ثم تناغما قويا بين هذا وبين النص التالى من العهد القديم (تثنية/ ١٨):

"١٥يقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي. لَهُ تَسْمَعُونَ. ١٦حَسَبَ كُلِّ مَا طَلَبْتَ مِنَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي حُورِيبَ يوْمَ الاجْتِمَاعِ قَائِلًا: لاَ أَعُودُ أَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلهِي وَلاَ أَرَى هذِهِ النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيضًا لِئَلاَّ أَمُوتَ. ١٧قَالَ لِي الرَّبُّ: قَدْ أَحْسَنُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا. ١٨أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. ١٩وَيكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. ٢٠وَأَمَّا النَّبِي الَّذِي يطْغِي، فَيتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيمُوتُ ذلِكَ النَّبِي. ٢١وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيفَ نَعْرِفُ الْكَلاَمَ الَّذِي لَمْ يتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟ ٢٢فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِي بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يحْدُثْ وَلَمْ يصِرْ، فَهُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِي، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُ". بيد أن اليهود لم يصغوا إلى صوت كتابهم فلم يحترموا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، بل أرادوا استغلال الفتح الإسلامى لمصلحتهم الضيقة مع البقاء على ما هم عليه بما يعنى عصيانهم لأوامر ربهم. ويأبى الله إلا أن يظْهِر الحق على أيدى أهل الباطل.

ثم يستمر الكاتبان فى سَوْق الهبالة على الشيطنة فيقولان: "التأكيد المباشر الآخر على مسيانية "عقيدة يعقوب" يمكن أن نجده متحجرا فى التراث الإسلامى حيث يكشف لنا عرضيا عن هوية المسيا ذاته: إنه عمر الخليفة الثانى وفق الترتيب الإسلامى والذى يحتفظ حتى التقليدُ الإسلامى بلقبٍ مسيانى له هو "الفاروق"، والذى يعنى "المخلِّص". فى الوقت ذاته فإن دخوله القدس هو أداء مناسب لهذا الدور فى حين يبدو أن "الأسرار" يجعله ينهمك فى مهمة مسيانية موازية، ألا وهى إعادة بناء الهيكل. وجود عمر بالاسم لم يتْرَك بالطبع غير مصقول فى التقليد الإسلامى. وبعدما نُسِى المعنى الآرامى الأصلى للمصطلح بنجاح أخيرا أحرز إيتمولوجيا عربية مأمونة الجانب. كما اعتُقِد أن هذا المصطلح أكّده النبى ذاته. لقد حاول رأى أكثر قِدَمًا أن يجد تملّصا تاريخيا أكثر منه

إيتمولوجيا: فإن أهل الكتاب هم الذين سَمَّوْا عمر بـ"الفاروق"، ثم انزلقت التسمية إلى حد ما على ألسنة المسلمين. إن الروايات التاريخية التفصيلية حول الطريقة التى كان يَحَيا بها عمر الفضولى ببراءة فى سوريا، وذلك بوصفه الفاروق، تُوَازَن من ثم بما يعْزَى إليه من أفعال تنكر على نحو مؤكّد دوره كمخلّص يهودى. لكن من المثير للسخرية أن عَزْوَ كل شىء للنبى بشكل حتمى قد يكون صحيحا فى هذا المثال لأنه إذا كان ثمة دليل معاصر يفيد أن النبى كان يبشّر بقدوم المسيا يصعب أن يكون أمرا تصادفيا أن الرجل الذى جاء بعده يحمل لقبًا مسيانيا صريحًا حتى فى التقليد الإسلامى".

ونحن المسلمين لا يهمنا ما كان يعتقده اليهود فى ذلك الوقت عن الفتح الإسلامى للشام وفلسطين، فهم أحرار فيما يعتقدون رغم أنهم، كما رأينا، يزيغون دائما عن الحق ولا تلين له أبدا أدمغتهم الصلبة، بل يهمنا أن نبين ضلال الكاتبين ونحبط عملهما الشيطانى الذى يتغيا نشر الاضطراب والالتباس فى كل شىء. ولكن قبل ذلك أود أن أنبه القارئ إلى ما قالاه عن عمر بن الخطاب فى الهامش رقم ١٨ من الفصل الذى نحن بصدده من كتابهما. قالا: "وجوده التاريخى ليس موضع شك: إنه بوضوح ملك الإسماعيليين الذى تزعّم غزو مصر والأقطار الأخرى، وذلك كما يقول "تاريخ سيبوس" (Sebeos) الأرمنى القديم. لكنه اسمه هنا هو عمرو (Amr). فإما أن سيبيوس (ومصادر مسيحية أخرى) دمج بين عمر وعمرو (بن العاص) أو، وفق حدود تصوّرنا، أنهما فُصِلا ضمن التقليد الإسلامى".

والحمد لله أنهما تعطفا وقبلا أن يكون لعمر بن الخطاب وجود تاريخى. فهما يتصرفان وكأنهما سجل مدنى يصدر الشهاداتِ التى تثبت وجود الناس أو موتهم، ويذكّراننا بالروتين المصرى الشهير إذ يقف الشخص أمام موظف السجل المدنى ومعه بطاقته، فيصرّ الموظف العبقرى على أنه ميت لأن الأوراق التى أمامه تقول بوفاته. وعبثا يحاول الشخص المعنىّ أن يقنع الموظف العبقرى بخطإ ما فى الأوراق. فالحمد لله أن موظفَينا هذين لم يصِرَّا على أن عمر ليس له وجود، وتركا الأمر هذه المرة يمضى دون ملاحاة. هذه واحدة، أما الثانية فهى أنهما قد رجعا عما قالاه آنفا من أن الرسول كان حيا خلال فتح الشام وفلسطين وكان يقود الجيوش الإسلامية بنفسه طبقا لكلمات

طائشة وردت فى كلام أحد النكرات، فقبضا هما على تلك الكلمة بأسنانهما وأظافرهما. لقد رجعا وقالا، كما رأينا، إن عمر هو الذى تمت تلك الفتوح فى عهده. أى أنهما قد لحسا ما كانا قد تمسكا به مراغمة لحقائق التاريخ، التى تقول إن النبى قد مات فى المدينة قبل فتوح الشام بسنوات.

لكن كيف فهم الكاتبان أن عمر الموجود فى النص هو عمر بن الخطاب؟ النص لم يذكر سوى اسم "عمر"، بل لم يذكر سوى عمرو، فمن أين أتى كاتبانا بأنه "ابن الخطاب"؟ ومن أين لهما كل ما قالاه عن دولة الإسلام، التى لم يرد ذكرها فى النص، ومع هذا انطلقا يتحدثان عنها كأن الكلام فى النص يدور حولها؟ الواقع أنهما إنما ملآ الفراغات المعلوماتية فى النص بما يعرفانه من أقوال المؤرخين المسلمين، تلك التى أعلنا أنهما سوف ينبذانها وراء ظهريهما لأنها لا مصداقية لها لمجيئها متأخرة عن الأحداث، ويستندان فقط إلى كلام غير المسلمين لكونه مكتوبا فى إبانه. وهو ما يدل على تخبطهما وركوبهما رأسيهما عنادا وتصلبا ليس إلا. فهما إذن من الذين يحِلُّونه عاما، ويحرّمونه عاما تبعا لأهوائهما: فإذا ما كان كلام المؤرخين المسلمين يتمشى مع ما يريدان تقريره فى العقول والنفوس أخذا به وباركاه. أما إذا خالف ما فى ضميريهما الميتين فإنهما يتنكران له ويتظاهران بالصرامة المنهجية! وهذا مجرد مثال واحد، وإلا فهو أسلوبهما الدائم.

ثم كيف يكون الإسلام دنيا مسيحانيا كل وظيفته هى التبشير بمجىء مسيح جديد مع أنه دين عالمى، ومجىء المسيح دين محلى؟ وكيف يكون دينا مسيحانيا، وقد أتى لينظم الحياة من كل نواحيها ويرتقى بالحضارة الإنسانية؟ وكيف يكون دينا مسيحانيا، وقد أكد الرسول أنه آخر الأنبياء، وأنه لو كان موسى حيا لما وسعه سوى اتباعه، وأن المسيح حين يأتى فى آخر العالم سوف يسير على خطاه صلى الله عليه وسلم ويطبق شريعته فيكسر الصليب ويقتل الخنزير؟ وكيف يكون دينا مسيحانيا، وقد أعلن الرسول أن دينه يجبّ ما قبله من الأديان بما فيها دين موسى ودين عيسى؟ ثم أين فى نصوص القرآن أو فى كلامه صلى الله عليه وسلم أو فى أقوال أصحابه ما يشير إلى ذلك من قريب أو من بعيد؟ وكيف يكون دينا مسيحانيا، وقد دعا النبى محمد عليه السلام أهل الكتاب وغير أهل الكتاب إلى اعتناق الإسلام بما فيهم الملوك والعلماء ورجال الدين، واستجاب له واعتنق دعوته

الكثيرون منهم؟ وكيف يكون دينا مسيحانيا، وقد تنبأ القرآن والرسول بأنه منتصر على الدين كله وأن كل ما يفعله خصومه وأعداؤه وينفقونه لن ينفعهم شيئا وأنهم فى نهاية المطاف سوف يغْلَبون؟ ثم ما دام الإسلام دينا مسيحانيا، وفسره بعض اليهود فى ضوء ما جاء فى سفر "التثنية" من أنه سبحانه وتعالى سوف يبعث من ذرية إسماعيل رسولا يجب على بنى إسرائيل اتباعه، فلم يا ترى لم يدخل بنو إسرائيل الإسلام طاعة لأوامر دينهم ووصايا ربهم؟ ثم أخيرا وليس آخرا فإن المسلمين يؤمنون بأن المسيح قد جاء، وانتهى الموضوع، فكيف يكون دينهم إذن دينا مسيحانيا؟ وكيف يرافئ اليهودَ على كفرهم بالمسيح وانتظارهم مسيحا جديدا لن يأتى أبدا لأنه قد أتى وطُوِيتْ بمجيئه تلك الصفحة؟ ترى هل يمكن أن يتنكر الإسلام لعقيدته ولحقائق التاريخ فيتراجع عما كان قاله من قبل فى السيد المسيح وأنه قد أتى فعلا وانتهى الأمر؟

ثم ها هو ذا يوحنا الدمشقى من أهل القرن السابع الهجرى، وكان هو وأبوه وجده من قبله يشتغلون فى البلاط الأموى بدمشق، وكتب عن القرآن مخطئا ذاكرا أسماء عدد من سوره ومحتوياتها، بما يعنى أنه كان على اتصال وثيق بالمسلمين ومعرفة لصيقة بكتابهم ودينهم، يتناول فى كتابه: " De Haeresbius" بعض وقائع حياة النبى عليه الصلاة والسلام، وإن كان، فيما يخص تقويم الإسلام ونبيه، لا يتفق معنا، وهو ما رددت عليه ردا صاعقا فى مقال لى على المشباك بعنوان "الكذاب الجاهل يوحنا الدمشقى رائد الكتابات التشنيعية ضد الإسلام". قال فى كتابه المذكور عن المسلمين: "هم منحدرون من إسماعيل بن إبراهيم من هاجر، ولهذا يقال عنهم: الإسماعيليون أو الهاجريون. كما يطلق عليهم كذلك: السراسينيون، وهى مشتقة من "Sarras kenoi" أو "فقراء سارة" لأن هاجر قالت للملاك: لقد أبعدتْنى سارةُ فقيرة"... ظهر بينهم نبى مزيف يدعى: محمدا. وهذا الرجل، بعد أن اطلع على العهد القديم والعهد الجديد، وبعد أن تحدث مع راهب أريوسى قام باختراع هرطقته الخاصة. وحين تسلل إلى قلوب الناس الطيبين بالتظاهر بالتقوى زعم أن كتابا نزل عليه من السماء. وقد وضع بعض المؤلفات السخيفه فى ذلك الكتاب، وقدمه إليهم بوصفه شيئا مقدسا. وهو يقول إن هناك إلها واحدا خالقا لكل الأشياء لم يلد ولم يولد، وإن المسيح كلمة الله وروحه، لكنه عبد

مخلوق، وهو مولود بدون بذر من مريم أخت موسى وهارون، وإن اليهود أرادوا صلبه لكنهم قبضوا على شبيه له وصلبوه لأن الله، من محبته له، أخذه إليه فى السماء، وعندما صعد إليه قال له: يا يسوع، هل قلت للناس إنك ابن الله أو إنك الله؟ فأجاب يسوع: كن رحيما بى يا إلهى. أنت تعلم أننى لم أقل هذا وأننى لم أرفض أن أكون عبدك، ولكن رجالا مخطئين كتبوا أننى قلت هذا، وقد كذبوا على ووقعوا فى الخطيئة... ثم راح يوحنا الدمشقى يهاجم عقائد الإسلام هجوما شديدا، وهى نفس العقائد التى نعرفها اليوم ولا نعرف غيرها. ولو أن ما قاله المؤلفان عن مسيحانية الدين المحمدى أو خطإ تسمية أتباعه بـ"المسلمين" أو لم يكن هناك أصلا قرآن منذ التاريخ الذى يؤمن المسلمون بنزوله فيه على رسول الله لما سكت الدمشقى عن ذلك ولأقام مناحة عليه.

وهناك أيضا ثيوفانيس المؤرخ البيزنطى الشهير من أهل القرن الثامن الميلادى، وقد كتب عن الوقائع الكبرى فى حياة الرسول الكريم بما يتفق مع كلام المسلمين بغض النظر عن تفسيره الخاطئ لبعض تلك الوقائع وتكذيبه لنبوته صلى الله عليه وسلم وتجاوزه حدود الأدب معه ورميه إياه بالصَّرْع، تلك التهمة التى فَنَّدْتُها تفصيلا فى كتابى: "مصدر القرآن" من واقع وصف الأطباء لأعراض ذلك المرض. ولو كان ما يريد الكاتبان الضلاليان إيهام القراء به صحيحا من أن دعوته هى مجرد التمهيد للمسيح المنتظر أو أن تسمية القرآن لهم بـ"المسلمين" تسمية خاطئة لأشار ثيوفانيس إلى ذلك. قال فى كتابه: "The Chronicles of Theophanes" عن أحداث سنة ٦٣٠م: "فى هذه السنة تُوُفِّى محمد زعيم العرب ونبيهم الكاذب. وقبل موته قام باختيار قريبه أبى بكر ليخلفه فى الزعامة. وعند انتشار أخباره خارج بلاد العرب انتاب الجميع الرعب. وفى البداية صَدَّقه اليهود المغرَّر بهم ظنا منهم أنه المسيح المنتظر، وانضم عدد من زعمائهم إلى دينه، تاركين موسى، الذى رأى الإله. وكان عدد هؤلاء عشرة بَقُوا إلى جانبه إلى أن اغتيل. ولكن حينما رَأَوْه يأكل لحم الإبل عرفوا أنه ليس المسيح المنتظر. ومع هذا كانوا فى حيرة من أمرهم لأنهم كانوا يَخْشَوْن ترك دينِه، فبَقُوا معه وعلموه أشياء غير مشروعة ضدنا نحن النصارى.

ومن الضرورى، فيما أتصور، الحديث عن أصل ذلك الرجل. فهو ينحدر من قبيلة كبيرة ترجع بدورها إلى إسماعيل بن إبراهيم، ومن إسماعيل ينحدرُ نزار، الذى يعْتَقَد أنه أبو العرب أجمعين. وكان لدى نزار ابنان هما مضر وربيعة، وأبناء مضر هم قريش وقيس وتميم وأسد وآخرون غير معروفين. وكانوا يعيشون بصحراء مدين فى الخيام ويرعون الماشية، وكان هناك قبائل أخرى بعيدون عنهم وغير منتسبين إليهم هم قبائل قحطان، أى الحميريون. ولكون محمد مُعْدِمًا يتيما فقد عَمِل لدى سيدة غنية من أقربائه اسمها خديجة فى التجارة بأموالها مع القوافل فى أسواق مصر وفلسطين. ثم أحبته وتزوجته، وكانت أرملة، وصارت له أموالها وإبلها.

وعندما كان يذهب إلى فلسطين كان يختلط باليهود والنصارى ساعيا إلى الحصول منهم على المعارف الكتابية. وكان يعانى أيضا من الصَّرْع. وعندما لاحظت زوجته ذلك اعتراها الحزن لأنها، وهى الشريفة، قد ارتبطت برجل يتيم مريض بالصرع، فعمل على خداعها قائلا إنه يشاهد دائما رؤيا فيها ملاك يدعى: جبريل، وكلما رآه سقط مغشيا عليه. فأخبرت خديجة بتلك الرؤيا صديقا لها راهبا كان قد طُرِدَ جراء عقيدته المنحرفة، فعمل على طمأنتها قائلا لها إن محمدا صادق، وإنّ الملاك المذكور هو الملاك الذى يرسله الله إلى جميع الأنبياء.

وقد أصبحت خديجة، جراء كلام ذلك الراهب المزيف، أول المؤمنين بمحمد، وقامت بتبليغ الدين الجديد إلى جميع نساءِ قبيلتها، اللاتى بلغنه بدورهن إلى رجالهن. وأول من صدق به هو أبو بكر، الذى أصبح خليفته. وقد غزت بدعة هذا الرجل يثربَ عن طريق الحرب كحل أخير بعدما ظل يدعو إليها سرا عشر سنوات، ثم تسعا أخرى من خلال القتال. وقد علّم أتباعه أن من قُتِل على يد الأعداء يدخل الجنةحيث يستمتع بالطعام والشراب ومعاشرة النساء وأنهار الخمر والعسل واللبن وغير ذلك من ضروب التهتك والغباء، وأن المسلمين ينبغى أن يتراحموا ويتعاونوا ويقيلوا من يخطئ منهم من عثاره".

وها هو ذا الأصل الإنجليزى لتلك السطور من طبعة سيريل مانجو وروچر سكوت (Cyril Mango and Roger Scott):

"In this year died Mouamed, the leader and false prophet of the Saracens, after appointing his kinsman Aboubacharos (to his chieftainship). At the same time his repute spread abroad and everyone was frightened. At the beginning of his advent the misguided Jews thought he was the Messiah who is awaited by them, so that some of their leaders joined him and accepted his religion while forsaking that of Moses, who saw God. Those who did so were ten in number, and they remained with him until his murder. But when they saw him eating camel meat, they realized that he was not the one they thought him to be, and were at a loss what to do; being afraid to abjure his religion, those wretched men taught him illicit things directed against us, Christians, and remained with him.

I consider it necessary to give an account of this man's origin. He was descended from a very widespread tribe, that of Ishmael, son of Abraham; for Nizaros, descendant of Ishmael, is recognized as the father of them all. He begot two sons, Moudaros and Rabias. Moudaros begot Kourasos, Kaisos, Themimes, Asados, and others unknown. All of them dwelt in the Midianite desert and kept cattle, themselves living in tents. There are also those farther away who are not of their tribe, but of that of lektan, the so-called Amanites, that is Homerites. And some of them traded on their camels. Being destitute and an orphan, the aforesaid Mouamed decided to enter the service of a rich woman who was a relative of his, called Chadiga, as a hired worker with a view to trading by camel in Egypt and Palestine. Little by little he became bolder and ingratiated himself with that woman, who was a widow, took her as a wife, and gained possession of her camels and her substance.

Whenever he came to Palestine he consorted with Jews and Christians and sought from them certain scriptural matters. He was also afflicted with epilepsy. When his wife became aware of this, she was greatly distressed, inasmuch as she, a noblewoman, had married a man such as he, who was not only poor, but also an epileptic. He tried deceitfully to placate her by saying, 'I keep seeing a vision of a certain angel called Gabriel, and being unable to bear his sight, I faint and fall down.' Now, she had a certain monk living there, a friend of hers (who had been exiled for his depraved doctrine), and she related everything to him, including the angel's name. Wishing to satisfy her, he said to her, 'He has spoken the truth, for this is the angel who is sent to all the prophets.'

When she had heard the words of the false monk, she was the first to believe in Mouamed and proclaimed to other women of her tribe that he was a prophet. Thus, the report spread from women to men, and first to Aboubacharos, whom he left as his successor. This heresy prevailed in the region of Ethribos, in the last resort by war: at first secretly, for ten years, and by war another ten, and openly nine. He taught his subjects that he who kills an enemy or is killed by an enemy goes to Paradise; and he said that this paradise was one of carnal eating and drinking and intercourse with women, and had a river of wine, honey, and milk, and that the women were not like the ones down here, but different ones, and that the intercourse was long-lasting and the pleasure continuous; and other things full

of profligacy and stupidity; also that men should feel sympathy for one another and help those who are wronged".

ليس ذلك فحسب، بل كتب ثيوفانيس عن معركة خاضها المسلمون أغلب الظن أنها معركة مؤتة:

"The Muslim army intended to attack the local Arabs on a feast day. However, the vicarius Theodorus learnt about their plans and gathered a force from the garrisons of local fortresses. He determined from the Saracen the day and hour on which the emirs intended to attack, and attacked them at a place called Mothous. He killed three of them and most of their army, but one emir, Khalid (whom they call the sword of God), got away".

ومعنى ذلك أنه كان هناك نبى بشهادة هذا المؤرخ البيزنطى اسمه محمد فى نفس التاريخ الذى حدده المسلمون وأنه كان ينزل عليه جبريل. وفى هذا الوحى، كما نعرف، تتكرر الإشارة إلى أتباعه بكلمة "مسلمون". ونصل إلى ما قاله هذان المهلوسان عن عمر بن الخطاب وأنه المسيح المنتظر وما إلى ذلك من الكلام الجنونى، وهذا نصه الأصلى فى صورته الإنجليزية كما كتباه:

"The other direct confirmation of the messianism of the Doctrina is to be found fossilised in the Islamic tradition, and incidentally reveals to us the identity of the messiah himself: 'Umar, the second caliph of the Islamic schema retains even there the messianic designation al-farûq, the Redeemer." At the same time his entry into Jerusalem is anappropriate performance in this role, while the 'Secrets' would seem to have him engage in the equally messianic task of restoring the Temple. 'Umar's embarrassing byname was not of course left unglossed in the Islamic tradition. When eventually the original Aramaic sense of the term had been successfully forgotten, it acquired a harmless Arabic etymology and was held to have been conferred by the Prophet himself. An earlier view attempted a historical rather than an etymological evasion: it was the people of the book who called 'Umar the faruq, and the appellation somehow slipped onto the tongues of the Muslims. Detailed historical accounts of the way in which an innocently curious 'Umar was hailed in Syria as the faruq are accordingly balanced by the attribution to him of acts which emphatically deny his role as a Judaic redeemer. It is ironic that the inevitable attribution of everything to the Prophet is in this instance probably right. For if there is contemporary evidence that the Prophet was preaching the coming of the messiah, it can hardly be fortuitous that the man who subsequendy came bears even in the Islamic tradition a transparently messianic title".

والغريب أن يتنكر الباحثان للقرآن الكريم، الذى تكررت فيه الإشارة إلى أتباع النبى محمد باسم "المسلمين". والقرآن، وإن لم تصلنا عن عصر النبى والصحابة نسخ منه مكتوبة، هو دليل

قاطع لأن المسلمين يحفظونه عن ظهر قلب ليصلّوا به وليستنبطوا منه تشريعاتهم وليتقربوا بتلاوته إلى الله سبحانه، وهو ما لم يتوقف يوما. ولو كان قد غُير شىء فيه لهاج المسلمون على بكرة أبيهم وهاجت الدنيا بهياجهم. لكن ماذا نفعل أمام التنطع السمج الذى يتنطعه الكاتبان؟ وهناك أيضا أشعار المخضرمين الذين عاصروا النبى والدعوة، وقد ترددت فيها هى أيضا كلمة "مسلم". وكان ينبغى أن يأخذ بها الكاتبان برهانا على أن الجماعة التى آمنت بالنبى واتبعته والتصقت به كانت تسمى منذ عهد النبى: "مسلمين". ومن تلك الأشعار قول حسان بن ثابت:

فَلَيسَ مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ بَصَرٌ ... ينْكِرُ مِن فَضْلِهِم إذا ذُكِروا

وقول بُجَير بن زهير:

لدى يومٍ لا ينجُو وليس بِمُفْلِتٍ ... من النارِ إلا طاهرُ القلب مُسْلِمُ

وقول الحطيئة:

يقولونَ: هل يبكى من الشوقِ مُسْلِمٌ ... تَخَلّى إلى وَجْهِ الإِلَهِ حَنيفُ؟

... إلخ. وسبب دعوتى إلى اعتماد الشعر رغم ما يمكن الرد به عليه بأنه لم يصلنا عن تلك الفترة شعر مكتوب هو أنه يُحْفَظ فى الصدور ويرَدَّد فى المجامع ويعتز به الشعراء لأنهم عليه يتدربون ومنه يمتحون، فضلاعن أن كل قبيلة تفاخر بشعر شعرائها وتتمسك به ولا تفرط فيه.

وإن الإنسان ليأخذه العجب من طريقة المؤلفَين فى التحليل والاستنتاج. إنها تشبه لعبة الـ" jig saw"، التى تقوم على وضع الطفل فى ذهنه منذ البداية تجميع قطعة من هنا وأخرى من هناك ووضعها فى موضعها المرسوم من الأصل بحيث لا يتم شىء غير متوقع، بل كل شىء تحت السيطرة. أى أنك تدخل اللعبة بخطة مسبقة هى ملء الفراغات فى الشكل الجاهز سلفا لا الذى تجهزه أنت حسبما توجهك الأمور المستكشفة. لقد وضع الكاتبان فى ذهنيهما منذ البداية أن ما يقوله المسلمون عن تاريخهم ودينهم غير صحيح، وعليهما إذن أن يبحثا فى كل ما يقابلهما من مصادر ومراجع عما ينصر هذه الفكرة ويعضا عليه بالنواجذ متى وجداه، فإذا لم يجداه أتيا إلى بشىء يلويانه حتى يدل بالقوة على ما يريدان... وهكذا دواليك. ومن هنا نلاحظ بسهولة شديدة كيف أن

الصورة التى يركبها الكاتبان تتكون من كلمة طائرة من هنا، وعبارة عامة من هناك، ونصف سطر من رسالة لا علاقة لها بالموضوع، وجملة من نص لا يتصل بما نحن فيه، وحاجة من الشرق وأخرى من الغرب، وشيء من عصر المبعث وشيء ثان من عصرنا... حتى تكتمل الصورة التى كانا قد رسماها فى ذهنهما مسبقا ولم يتركا نفسيهما تقودهما الحقائق المستكشفة كما قلنا. وقد تكون الكلمة أو العبارة جزءا من حلم أو رسالة كتبها أعجمى لا صلة بينه وبين الإسلام والمسلمين أو قد تكون كلاما طائرا يتناقله العوام دون تحقق أو تدقيق. وهكذا يكتب هذان المستشرقان التاريخ الإسلامى.

لنأخذ أولا قولهما إن التراث الإسلامى يؤكد أن وظيفة محمد هى التبشير بقدوم المسيح المنتظر. وهو ما يعنى أن رؤيا يعقوب المار ذكرها هى الأساس، وما وظيفة التراث الإسلامى سوى تأكيد صحتها. أى أن الكاتبين يتركان كل ما كتبه المؤرخون والعلماء والمفسرون، وقبل ذلك كله القرآن والحديث، فلا يأخذان بشيء من هذا كله ويجعلان نقطة انطلاقهما بدلا من ذلك هى رؤيا يعقوب المذكور. وفى رأيهما أن محمدا لم يكن سوى مبشر بالمسيح المتوقع. ثم إن هذا المسيح المنتظر هو عمر. كيف؟ لقد نظر اليهود إليه فى الشام فترة من الوقت أثناء فتح تلك البلاد على أنه هو ذلك المسيح، وبالتالى فلا ينبغى أن يكون لنا أى مفر سوى القول بأنه فعلا هو المسيح المرجوّ. ولكن هل هناك دليل على هذا السخف؟

- نعم. أليس كان يلقب بـ"الفاروق"؟
- لكن ما وجه الصلة بين هذا اللقب وبين المسيح المنتظر؟
- الصلة واضحة، وهى أن "الفاروق" معناها "المخلِّص".
- لكن الكلمة لا تعنى هذا، بل تعنى الذى يفرق بين الحق والباطل.
- لا، بل هى تعنى "المخلِّص" فى الآرامية.
- نعم، لكننا لسنا آراميين، ومن ثم لا تعنى عندنا هذا. ولا أحد فى بلاد العرب يعرف أو يتذكر هذا المدلول الآرامى.

– لا يهم أن يتذكر العرب أو لا يتذكروا معناها بالآرامية، بل المهم أنها تدل فى الآرامية على ما نقول. فنحن مستشرقان، والمستشرق كلمته لا تنزل الأرض أبدا.... إلخ.

إننى، كما يرى القارئ، إنما أصور الأمر تصويرا كاريكاتوريا مضحكا، لكن الأمر لا يخرج فى حقيقته عن هذا، فضلا عن أنه لا يصلح للنقاش مع مثل تلك العقليات سوى ذلك الأسلوب. إن عمر، طبقا لكلام المؤلفين، هو المسيح المنتظر، ومحمد ليس سوى مبشرٍ بعُمَر. لكن إن كان الأمر كذلك فلِمَ لَمْ يترك محمد الأمر لعمر حين ظهر عمر على مسرح الأحداث وينصرف لحال سبيله فيجلس فى كِسْر بيته يربى أولاده مع خديجة فى هدوء وأمان واستقرار بعيدا عن وجع الدماغ الذى جرّته عليه الدعوة الجديدة من خصومات وعداوات وإهانات وشتائم وقذف بالحجارة واتهامات تنال من الكرامة... إلخ. أليس كذلك؟

هذا هو ما ينبغى أن تكون عليه الأحداث والأحاديث لو أخذنا بالنظرية الغبية التى قدمها لنا المؤلفان فى كتابهما هذا السخيف. ولسوف ينقلب حينئذ كل شىء نعرفه فى تاريخنا رأسا على عقب، ويتداخل كل شىء فى كل شىء آخر، ويفقد كل شىء معناه. لكن كيف يكون عمر هو المسيح المنتظر، وقد كان معاديا للدعوة الجديدة، التى تتلخص، عند كاتبينا، فى التبشير به؟ نعم كيف يكذّب المسيحُ المنتظرُ مَنْ أتى ليعلن أنه هو المسيح المنتظر؟ وبهذه الطريقة تؤلَّف الكتب وتعالَج البحوث وتُسْتَخْلَص النتائج. والمضحك أن لهؤلاء المستشرقين حواريين مخلصين من بيننا يخرون على ما يقولون من سخف عميا بكما وصما. ومن هؤلاء نبيل فياض كاره الإسلام ومصعّد التنهدات والتأوهات والزفرات تدلهًا فى هوى المستشرقين، ومطلق الصيحات تأكيدا بأنهم قوم عباقرة لا نظير لهم فى إجراء الدراسات والبحوث العلمية لا من قبل ولا من بعد، وقبل ذلك كله مترجم كتابنا الحالى.

ثم عقب هذا يقول المؤلفان: "تقدّم لنا المصادر التاريخية دلائل على حميمية أكبر فى العلاقات بين العرب واليهود فى ذلك الوقت... لكن الأكثر وضوحا هو غياب هذه الحرارة بالكامل من رَدَّات فعل المسيحيين المعاصرين، سواء أكانوا أرثوذكسا أم هراطقة". وهو سخف متهافت ما بعده

سخف. فاليهود لم يحبوا المسلمين يوما ولم يوادّوهم بل كان كل همهم استغلال تلك الفتوح للانتقام من النصارى، وهو ما لم يحظَوْا به من المسلمين لأن الإسلام دين قائد، وليس أمام اليهود طريق للنجاة فى الآخرة إلا فى الدخول تحت ظله والإيمان بنبيه وكتابه، بينما هم بوجه عام شعب صلب الرقبة متخشب القفا لا يلين للحق، اللّهم إلا أفذاذا منهم لا يقاس عليهم. أما النصارى فكيف يزعم الكاتبان أنهم لم يكونوا أودّاء تجاه الدين المحمدى الكريم، وقد اعتنقوه بالملايين؟ وإلا فكيف صارت المنطقة كلها إسلامية الصبغة على هذا النطاق الواسع؟ إن الكاتبين لا يفرقان، أو بالأحرى: لا يريدان أن يفرّقا، بين القاعدة العامة من النصارى، وهؤلاء قد وادُّوا الإسلام وأحبوه واتخذوه دينًا لهم وفاخروا بأَنْ أنقذهم الله مما كانوا مرتكِسين فيه، وبين القِلَّة الذين بَقُوا على دينهم، فمن الطبيعى ألا يحبّوا الإسلام ولا المسلمين لأن عقيدته تختلف اختلافا جذريا عن عقيدتهم فى المسيح وفى الصليب وفى الفداء.

كما أن قوله: "ليس ثمة شىء هنا يثبت صحّة الصورة الإسلامية كحركة تخاصمت مع اليهود قبل الغزو"، بما يفيد أنه ينكر التاريخ الإسلامى فى المدينة، ذلك التاريخ الذى وقعت فيه عدة صدامات بين المسلمين وبين اليهود كما هو معروف، هو قول لا معنى له، إذ ما مصلحة المسلمين فى أن يخترعوا تلك الصدامات إذا لم تكن قد حدثت، وبخاصة صدامهم الدامى مع بنى قريظة وقتلهم بعض رجالهم؟ ثم لماذا لم يقم اليهود بعد اختراع المؤرخين المسلمين لها فيكذبوها، وهم فى تكذيبهم لها سوف يحظَوْن من جموع المسلمين بالرضا لأنهم ينفون عن الإسلام قتله بعضهم حتى لو كان هذا القتل مستحَقا مشروعا؟ إنهما يهدفان إلى القول بأن القرآن صناعة بشرية متأخرة. أليس القرآن قد ذكر الصراع الإسلامى اليهودى فى المدينة، وها هما ذان ينكران ذلك؟ ليس معنى هذا إذن سوى أن القرآن من صنع البشر. ولكن إن كان الأمر كذلك فكيف سكت المسلمون جميعا على بكرة أبيهم فلم يعترض أحد على هذا، وكأنهم كلهم كانوا أمة من الكذابين أو المغيبين فانقادوا لجماعة من المزيفين اخترعت القرآن كله أو أضافت إليه ما لم يكن فيه؟ ثم أين ذهب النصارى واليهود والزرادشتيون والملاحدة الذين كانوا يخضعون للسيادة الإسلامية فلم يشنعوا على المسلمين وعلى

القرآن، وهم الذين دخلوا مع المسلمين فى جدالات متعددة على طول التاريخ الإسلامى؟ لقد اتهموا المسلمين ونبيهم اتهامات ما أنزل الله بها من سلطان، لكن أحدا منهم لم يفتح فمه بنأمة واحدة عن حدوث شىء كهذا قط.

أما اتخاذ المؤلفَين من تقارب اليهود مع المسلمين عن فتح الشام برهانا على أنه لم تكن هناك عداوة قط بين الفريقين فى المدينة فبرهان متهافت، إذ اليهود يغيرون جلدهم دائما حسب اتجاه الريح، علاوة على أن السياسة بحرٌ قُلَّبٌ حُوَّلٌ لا قرار ولا استقرار له. وها هم أولاء اليهود يتحدثون فى بعض تلك النصوص عن رسول عربى أرسله الله بالمعتقدات السليمة والتشريعات القويمة والفضائل الأخلاقية الكريمة، ويشيرون فى هذا الصدد إلى نص سفر "التثنية" الذى يشتمل على تلك النبوءة، فلماذا لم يؤمنوا به إذن أو على الأقل: لماذا لم يقفوا منه موقفا شريفا يليق بقوم كرام؟ وإذا كان هذا التقارب برهانا على أن العداوات القديمة بين الفريقين ليست صحيحة فيمكننا بالتالى أن نتخذ من العداوة التى قامت بين الفريقين بعد ذلك، وبخاصة فى عصرنا هذا بسبب إسرائيل، برهانا على أنه لم يكن هناك تقارب بينهما عند فتح الشام وفلسطين. ثم ألم تكن أوربا كلها تضطهد اليهود اضطهادا وحشيا وتحيل حياتهم دائما إلى جحيم، وتراهم مصدر كل شر وفساد ومصيبة؟ فكيف بالله نصدق هذا، ونحن نراهم جميعا سمنا على عسل منذ عقود بسبب فلسطين أيضا، ويدا واحدة على المسلمين، الذين يقول الكاتبان إنهم لم يدخلوا فى عداوة مع اليهود فى المدينة بدليل أنهم كانوا عسلا على سمن فى الشام وفلسطين؟ واضح أن مصالح اليهود فى فلسطين هى التى تملى عليهم فى تلك المناسبات المختلفة مواقفهم المتغيرة. ولا داعى لكل تلك الحذلقات الماسخات! ومعروف أن المستشرقين والمبشرين يتهمون نبينا عليه السلام زورا وبهتانا بأنه كان يود اليهود والنصارى فى الوحى المكى، ثم انقلب عليهم وعاداهم واضطهدهم حين اتصل بهم فى المدينة وتحقق أنهم لن يؤمنوا به. فإذا كان هذا جائزا طبقا لكلامهم فكيف لا يجوز أن يكون اليهود والمسلمون خصوما قبل الفتوح الإسلامية الخارجية وأصدقاء عند وقوع تلك الفتوح؟ ومن جهتنا نحن المسلمين نقول

إن اليهود قد رحبوا بالرسول أول مقدمه إلى يثرب ثم انقلبوا عليه بعد ذلك. فكيف نفسر هذا الأمر؟ فليحل الكاتبان لنا تلك المشكلة بدلا من ذلك التنطع السمج!

ولكى ندرك أن تلك النصوص التى يطنطن بها الكاتبان لا يصحّ اتخاذها معيارا نحاكم إليه الكتابات الإسلامية نسوق ما أورده الكاتبان من كلام المطران سيبيوس، الذى كتب فى العقد السادس من القرن السابع الميلادى يقول: "كان هنالك فى ذلك الوقت إسماعيلى اسمه مهميت، وكان يعمل تاجرا. لقد قدّم لهم نفسه كما لو أن الله أمره بذلك، كبشير، كطريق إلى الحقيقة، وعلّمهم كيف يعرفون إله إبراهيم لأنه كان مطلعًا على قصة موسى وملمًّا بها للغاية. ولأن الأمر جاء من العَلِيّ فقد توحدوا كلهم تحت سلطة رجل واحد فى ظل شرع واحد، وعادوا إلى الإله الحى الذى كشف ذاته لأبيهم إبراهيم بعد أن هجروا عباداتهم. حرّم عليهم مهميت أكل أى حيوان ميت، شُرْب الخمر، الكذب أو الزنى. لكنه أضاف: "لقد وعد الله بهذه الأرض لإبراهيم ونسله من بعده إلى الأبد. لقد عمل بحسب وعده (الله) حين أحب إسرائيل. والآن أنتم أنتم أبناء ابراهيم، وعَبْرَكم ينجز الله الوعد الذى أعطاه لابراهيم ونسله. أحبوا فقط إله إبراهيم. اذهبوا وخذوا بلدكم التى أعطاها الرب لأبيكم ابراهيم. فما من أحد سيقدر على مقاومتكم لأن الله معكم". ثم اجتمعوا كلّهم من حويلة إلى شور التى تجاه مصر (سفر التكوين ٢٥:١٨).

لقد خرجوا من صحراء فاران مقسّمين إلى اثنى عشر سبطا وفق سلالات آبائهم. وبين قبائلهم الاثنتى عشرة قسّموا الاثنى عشر ألف إسرائيلى: ألف ألف لكل قبيلة، وذلك لهدايتهم إلى أرض إسرائيل. وانطلقوا، مخيمًا بعد مخيم، وفق نظام آبائهم: نبايوت، قيدار، أدبئيل، مبسام، مشماع، دومة، مسّا، حدار، تيما، يطور، نافيش وقدمة (سفر التكوين ٢٥: ١٥-١٨). هؤلاء هم أسباط اسماعيل... وجاء كل من بقى من شعوب بنى إسرائيل لينضم إليهم حتى شكّلوا جيشا عظيما. ثم أرسلوا بسفير إلى إمبراطور اليونان ليقول له: "لقد أعطى الله هذه الأرض إرثا لأبينا ابراهيم ونسله من بعده. ونحن أبناء ابراهيم، وأنت أخذت بلدنا بما فيه الكفاية. تخلَّ عنها بسلام، وسوف لن نغزو بلادك، وإلا فسوف نسترد ما أخذت ونزيد عليه".

هذا ما قال المطران سيبيوس، الذى يعتمد عليه هو وأمثاله كاتبانا وكأنهما قد أمسكا بالذئب من ذيله. ونلاحظ على وجه السرعة أن هناك خطأً فى المكان الذى انطلق منه المسلمون. إنه ليس صحراء فاران بل المدينة المنورة. كما أنه من المضحك أن يحتاج المسلمون إلى أدلاء للطريق كى يعرّفوهم خط السير الذى يوصلهم إلى أرض فلسطين، وكأن فلسطين كانت مجهولة للعرب حتى يحتاجوا إلى يهود ليرشدوهم إلى موضعها، وليست ملتصقة بحدود بلادهم. كما أن كلام الرسول والمسلمين عن فلسطين يوحى بأن خروج المسلمين من بلادهم لم يكن إلا لاسترداد بيت المقدس وما حوله، وليس لأن الدين الجديد دين عالمى قُصِد به الناس جميعا. ثم أليس من المضحك أن يتحدث المطران عن العرب وكأنهم كلهم أبناء إسماعيل، فليس هناك عرب آخرون لم ينحدروا من صلبه، وكما لو أن أسماء قبائل العرب لا تزال هى هى كما كانت تسمى طبقا لأولاد إسماعيل: نبايوت وقيدار ومشماع ومبسام... وهى أسماء لم يكن فى عرب المبعث من يتفق اسمه مع أى منها؟ ثم إذا ما كان المسلمون بهذا النقاء العقيدى والخلقى الذى لا ينكره المطران فلماذا لم يدخل فى دينهم؟ أما القول المنسوب للنبى: "اذهبوا وخذوا بلدكم" فهو كلام مضحك فى وقت عز فيه الضحك، إذ يبدو الأمر وكأن فلسطين كيس فاكهة مثلا كل ما على المسلمين أن يفعلوه هو أن يذهبوا ويحضروه ويأكلوا ما فيه!

وبالإضافة إلى ذلك نسوق هنا انتقادات الكاتبين بدورهما للقصة السيبيوسية: "تبدو هذه الرواية المتعلقة بأصول الإسلام وكأنها رواية غير مألوفة. إنها أيضا واضحة فى لاتاريخيتها، وذلك فى مزجها لعلم نشوء الأعراق التوراتى. كما أنها مخطئة حتما فى الدور الذى تعزوه لليهود اللاجئين من الرها. هذا الدور، بغض النظر تماما عن استحالته جغرافيا، مستحيل تاريخيا فعلا: فهو يعنى أن دولة محمد لا يمكن أن تكون قد أسست قبل عام ٦٢٨ بكثير فى حين أن لدينا دليلا وثائقيا منذ عام ٦٤٣ يفيد أن العرب كانوا يستخدمون تقويما يبدأ بعام ٦٢٢. وكانت فلسطين المحتلة آنذاك من قِبَل الفرس ستبدو نقطة بداية أكثر معقولية بكثير بالنسبة لليهود اللاجئين من الرها". ومن هذا وذاك يتضح أن تلك الروايات المكتوبة التى يستند إليها الكاتبان لا تصلح للاعتماد عليها فى كتابة التاريخ.

على أن الكاتبين المتنطعين لا يكتفيان بهذا كله، بل يمضيان فى تنطعهما فيرفضان أن يكون "المسلمون" معروفين بهذا الاسم قبل خروجهم من بلاد العرب للفتح، وأن الهجرة التى تعرف الدنيا كلها أنها تمت من مكة إلى المدينة لم يكن لها وجود، بل المقصود الهجرة من الجزيرة العربية إلى الأرض الموعودة. قال المتنطعان السخيفان: "لا يوجد سبب معقول يدفعنا إلى الافتراض أن حاملى الهوية البدئية هذه دَعَوْا أنفسهم: "مسلمين". وأول ذكر لهذا المصطلح على نحو مبين كان فى قبة الصخرة عام ٦٩١ وما بعد. ولا نجده من ناحية أخرى خارج التقليد الأدبى الإسلامى حتى القرن الثامن. لكن مصادرنا تكشف عن تسمية للجماعة أكثر قِدَمًا من السابقة، تسمية تتناسب جيدا مع سياق الأفكار التى قدمها سيبيوس. تظهر هذه التسمية فى اليونانية بصيغة "ماغاريتاى" Magarita، وذلك فى بردية تعود للعام ٦٤٢. أما فى السريانية فهى "ماهغرى" Mahgre أو "ماهغرايه" Mahgraye والتى تظهر منذ البدايات، أى من أربعينيات القرن السابع. والمصطلح العربى المقابل هو "مهاجرون". ثمة فكرتان متضمنتان هنا: الأولى، وهى شبه مفقودة فى التقليد الإسلامى، لها علاقة بعلم الأنساب. "المهغرايه"، كما يخبرنا مرجع سريانى قديم، هم المنحدرون من إبراهيم عبر هاجر. لكن بجانب هذه المكانة المعزوة إليهم هنالك أيضا مكانة محرزة والتى يحتفظ بها التقليد الإسلامى بالكامل. المهاجرون هم أولئك الذين يشاركون فى هجرة، أى نَفْى.

فى التقليد الإسلامى نجد أن الخروج الذى نحن بصدده هو من مكة إلى المدينة، والذى يتطابق موعده مع بداية التقويم العربى عام ٦٢٢. لكن ما من مصدر تاريخى قديم يشهد على صحة تاريخية هذا الخروج. والمصادر التى تم فحصها فى هذا الفصل تقدّم بديلا معقولا، ألا وهو هجرة الإسماعيليين من الجزيرة العربية إلى الأرض الموعودة. هنالك نقطتان تعملان لصالح هذا البديل تستحقان أن تورَدا هنا. ففى الموضع الأول مهاجرو التقليد الإسلامى هم العنصر القائد للجماعة الدينية الغازية ليس إلا. ومع ذلك فالمصادر اليونانية والسريانية تستخدم مصطلحى "ماغاريتاى" و"مهغرايه" مع كل ظهور للإشارة إلى الجماعة ككل. ثانيا يحفظ لنا التقليد الإسلامى نماذج من استخدام "الهجرة" والمصطلحات المرتبطة بها فى سياقات حيث لا تكون الهجرة ضمن الجزيرة

العربية بل من الجزيرة العربية إلى الأقطار المغزوة. بل هنالك تقليد يحصر التسمية بفلسطين ضمنا: "سوف تكون هنالك هجرة بعد هجرة، لكن أفضل الناس هم الذين سيتبعون هجرة إبراهيم". يمكن النظر إلى "المهغرايه" إذن باعتبارهم المشاركين الهاجَريين فى هجرة إلى الأرض الموعودة. وفى هذه التورية تكمن أقدم هوية للدين الذى كان عند تمام الزمن سيصبح الإسلام".

وأول شىء نقوله هو أن رسائل الرسول عليه السلام إلى حكام عصره من حوله كانت تتضمن كلمات "أَسْلِمْ" و"الإسلام" و"المسلمون". وتجرى رسالة المقوقس مثلا على النحو التالى: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن تَوَلَّيتَ فعليك إثم القبط. يا أهل الكتاب، تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم: ألا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذَ بعضُنا بعضًا أربابا من دون الله. فإن تَوَلَّوْا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون". وقد عُثِرَ فى العصر الحديث على رسالة المقوقس فى أحد الأديرة بمصر، وهى بطبيعة الحال مكتوبة، وهذا يحقق شرط الكاتبين. وثانيا كيف قبل الكاتبان تسمية المسلمين بـ"الإسماعيليين"، وليس هناك وثيقة بهذا مكتوبة. بل كيف نقبل بوجود إسماعيل التاريخى أصلا طبقا لتنطع كاتبينا، وليست هناك وثيقة مكتوبة بذلك؟ وعلى نفس الشاكلة كيف يقبل المتنطعان تسمية العرب بـ"الهاجريين" نسبة إلى هاجر، التى لا نملك وثيقة مكتوبة تدل على أنها شخصية حقيقية وأنها زوجة إبراهيم، وإبراهيم أيضا يحتاج إلى دليل مكتوب يدل على أنه إنسان ذو وجود تاريخى إذ لا شهادة ميلاد له فى أيدينا، ولا أنها بعد ذلك أم إسماعيل، الذى رأينا أنه لا يتوافر أى دليل مكتوب على وجوده التاريخى. فانظر كيف يؤدى بنا تنطع الكاتبين إلى تلك النتائج المزعجة التى لا يمكننا تخطى أى منها لا بالتى ولا باللتيا.

ثم إن هناك تسميات أخرى للمسلمين استعملها أصحاب تلك الوثائق المكتوبة منها العرب وعرب محمد والسراسنة والإسماعيليون والكفار والأتراك والبرابرة والوثنيون، والتسميتان الأخيرتان تسميتان خاطئتان ومسيئتان، فلا العرب برابرة ولا كانوا يعبدون الأوثان، إذ أين العرب من البرابرة، والبرابرة من العرب؟ كما أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يتشدد فى رفض عبادة

الأوثان تشددا رهيبا. فلماذا ترك المؤلفان كل تلك الأسماء وتمسكا بـ"الهاجريين" رغم سرعة اختفاء تلك التسمية من الاستعمال حتى خارج ديار الإسلام لدرجة أن يخلو منها قاموس أكسفورد التاريخى ذاته بما يعنى أن اللغة الإنجليزية لا تعرفها، فى الوقت الذى بقيت فيه تسمية "السراسنة" و"الإسماعيليين" مثلا؟ ثم لماذا يقبل المؤلفان كلام خصوم المسلمين فى تسميتهم ولا يقبلان كلامهم هم فى أنفسهم، وهم بكل تأكيد أعرف بأنفسهم من غيرهم؟ إن اتهمهم الكاتبان بالكذب فهذا الكذب يسرى على الكتابة كما يسرى على الكلام الشفوى، وكذلك ينطبق على خصومهم انطباقه عليهم هم أنفسهم. وهكذا سنظل طوال العمر فى ملاحاة كما هو الأمر فى فزورة "أيتهما أقدم: البيضة أم الدجاجة؟".

ثم إن الكاتبين لم ولن يقدما أية وثيقة إسلامية تقول بأن المسلمين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم "الهاجريين" نظرا لعدم وجود تلك الوثيقة، فلماذا يتمسكان بتلك التسمية إذن، وهى قد انكمشت وتوارت عن الأسماع؟ طبعا أنا أحاول ألا أستشهد بالقرآن والحديث وكلام المسلمين جريا فى طلق الكاتبين السخيفين لا لشىء إلا لكى أهزمهما بمنطقهما. وقد لاحظت، فى الترجمات الثلاث (الفرنسية والإنجليزية والعربية) لكتاب يوحنا النقيوسى المصرى، الذى كان معاصرا للفتح الإسلامى لمصر، استعمال كلمة "مسلمون" أكثر من ستين مرة فى الجزء الصغير الأخير من الكتاب، وهو الجزء الذى تعرض لهم فيه، إلى جانب عدة مرات ضئيلة استعمل كلمة "الإسماعيليون"، ومرات أضال: كلمة "العرب". ولم يحدث أن قابلنى فى الترجمات الثلاث اسم "الهاجريون"؟ ذلك أن مترجمى كتب غيره إلى الإنجليزية أو الفرنسية حين يأتون إلى كلمة "الهاجريين" يترجمونها بـ"المسلمين" مع إثبات كلمة "mhaggre" عقب ذلك بين قوسين، بخلاف الحال فى ترجمة كتابه إلى الفرنسية والإنجليزية والعربية، إذ لم يورد المترجمون الثلاثة إلا كلمة "المسلمين" ليس غير. وهو ما وجدته أيضا فى الترجمة العربية الثانية للدكتور عمر صابر عبد الجليل، التى لم تكن فى يدى حين كتبت هذا البحث، ثم تيقنت من هذا بعد أن حصلت على نسخة من ذلك الكتاب. بل ألفيت المترجم يقول، فى بحثه التعقيبى على الترجمة فى آخر الكتاب، إن النص الأصلى الذى ترجم عنه

يستعمل كلمتى "إسلام" و"مسلمين" حرفيا. فحمدت الله على صحة ما قلت بخصوص هذه النقطة.

كذلك قرأت فى "ويكيبيديا" الإنجليزية، وكذلك تحت عنوان "mhaggre" بموقع "mhaggre"، أن كلمة "Hagarenes" (و"mhaggre") كانت تستعمل فى الكتابات اليهودية والنصرانية والبيزنطية والسريانية فى القرن السابع الميلادى فى الأصل للحنفاء العرب. أى أن ذلك الاسم لم يكن يطلَق على المسلمين فى الأصل بل على الحنفاء. أما إذا كان هناك نص ثنائى بالعربية ولغة أخرى فى ذلك الزمان فقد كانت تُسْتَعْمل فيه، مقابل هذا اللفظ، كلمة "الجيوش". أى أن كلمة "mhaggre"، بعد هذا التطور، لم تكن تعنى "المسلمين" بل الجيوش الإسلامية، ثم تُوُسِّع فى استعمالها مرة أخرى، فيما يبدو، لتطلق على المسلمين بوجه عام. ومعنى هذا أن الكاتبَين قد ملآ الدنيا صراخا على الفاضى. من الواضح أن غير المسلمين كانوا يبغضون استعمال كلمة "المسلمين" لأتباع النبى الكريم خشية أن يكون فى ذلك إقرار بأنهم على دين يسلمون أنفسهم فيه إلى الله سبحانه، وفضلوا أن يشيروا إليهم بما يدل على جنسهم أو نسبهم مثلا، متجاهلين السؤال المنطقى التالى: إذ كان أتباع محمد العرب يسمَّوْن: "عربا وإسماعيليين وهاجريين" فماذا يا ترى كانت تسمية من دخلوا الإسلام من غير العرب كأهل الشام والعراق وفارس وفلسطين ومصر والشمال الأفريقى وأواسط آسية؟

قرآنٌ أم قِرْيَانة؟ مع المستشرق الفرنسى كلود جيليو

للمستشرق الفرنسى كلود جيليو (Claude Gilliot) مقال منشور فى " Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, n° 129, 2011-1, p. 31-56" عنوانه:

"Le Coran, production littéraire de l'Antiquité tardive ou Mahomet interprète dans le « lectionnaire arbe» de la Mecque"

ترجمه إلى العربية ناصر بن رجب ونشره فى موقع "الحوار المتمدن" تحت عنوان "محمّد تُرْجُمان- القِرْيانَة العربية- المكّية". وفى هذا المقال يزعم المستشرق الفرنسى أن القرآن الكريم ليس فى الحقيقة سوى تجميع عدد من النصوص النصرانية وغير النصرانية يهدف إلى إنشاء كتاب ليتورجى عربى يستخدم فى الصلوات والعبادات. صحيح أن الكلام فى بداية بحثه يدور حول القرآن المكى، لكن الحكم فى الواقع يشمل القرآن كله. وهو يسمى القرآن الكريم بـ"قرآن المصبّ" فى مقابل "قرآن المنبع". يقصد المصادر التى استمد منها محمد ذلك القرآن.

ويزعم جيليو فى دراسته أن القرآن ما هو إلا قِرْيانة تشبه القريانات التى كان السريان يجمعون فى كل منها نصوصا مختلفة من كتابهم المقدس لاستخدامها فى الصلوات. وهذه القريانة العربية قد سميت خطأً بـ"القرآن"، الذى كوّنه محمد والفريق المعاون له من نصوص منتقاة من أسفار الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى وغيرهما لاستخدامها أيضا فى العبادات حسب زعمه. كما حكم على كلمة "قرآن" بالخطإ قائلا إنها ليست عربية، إذ العربية لا تعرف فعلا للقراءة يشْتَقّ منه هذا اللفظ. والصواب عنده هو "القريانة"، التى أخذها محمد شكلا ومضمونا ووظيفة من السريانية هو والفريق المعاون له.

ونبدأ بالدعوى التى تزعم أن "القرآن" ليست كلمة عربية، بل تحريفا لكلمة "قريانة". وقائل هذا السخف جاهل كبير. فالقرآن مشتق من "القراءة" لأنه يقْرَأ. وليس أدل على ذلك من النصوص القرآنية التالية التى ورد فيها فعل القراءة واقعا على القرآن ذاته: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الأعراف/ ٢٠٤)، "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ" (النحل/ ٩٨)، "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتَابًا يلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ

كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيكَ حَسِيبًا" (الإسراء/ ١٣- ١٤)، "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَينَكَ وَبَينَ الَّذِينَ لَا يؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا" (الإسراء/ ٤٥)، "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا" (الإسراء/ ١٠٦)، "وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ" (الشعراء/ ١٩٨- ١٩٩)، "إِنَّ رَبَّكَ يعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَى اللَّيلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يقَدِّرُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (المزمل/ ٢٠)، "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَينَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ" (القيامة/ ١٦- ١٨)، "وَإِذَا قُرِئَ عَلَيهِمُ الْقُرْآنُ لَا يسْجُدُونَ" (الانشقاق/ ٢١).

بل إن الوحى حين نزل على محمد لأول مرة، ولمّا تكن لفظة "القرآن" قد جرى لها ذكر فيه، وجدناه يوقِع على نفسه فعل القراءة بما يعضد أن لفظة "قرآن" مأخوذة من القراءة: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يعْلَمْ" (العلق/ ١- ٥)، إذ المطلوب أن يقرأ محمد ما يتلوه عليه جبريل من كلام الوحى. ثم إن صيغة الكلمة هى صيغة "فُعْلان"، والكلمات التى على وزانها كثيرة فى لغة العرب، مثل "ربّان، فرقان، فقدان، نعمان، جردان، بطنان، سبحان، برهان، بطلان، طغيان، غفران، عنوان، رجحان، شكران، كفران، تكلان، لقمان، بنيان، بحران، لقيان، قربان، خسران، حسبان، سلطان، نقصان...". ثم لو كانت كلمة "قرآن" غير عربية أو غير مفهومة أكان المشركون يسكتون على استعمال محمد لها فى تسمية الكتاب الذى يقول لهم إنه نول عليه من السماء فلا يستغربوها ساخرين من استعماله لها على هذا النحو المباغت؟ وفى أصل كلمة "قرآن" يقول معجم "تاج العروس" للزبيدى فى مادة "ق ر أ": "القُرْآن هو التنزيل العزيزُ، أَى المقروءُ المكتوب فى المصاحف... قَرَأَه وقرأَ به بزيادة الباء... قَرْءًا (عن اللّحيانى) وقِراءةً (ككِتابةٍ) وقُرآنًا (كعُثْمان)، فهو قارِئٌ (اسم

فاعل) من قومٍ قَرَأَةٍ". ولنفترض أن كلام جيليو اللامنطقى صحيح، وهو لا يمكن أن يكون صحيحا إلا إذا ألقينا بعقولنا جانبا، فلماذا لم ينبه محمدا معاونوه السريان والعبريون والآراميون المزعومون؟ نعم كيف يتركونه يرتكب هذا الخطأ الفاحش ولا يأخذون على يده؟ ألا إن ذلك لأمر فى غاية الشذوذ!

بل إن أول ما سمعه محمد من جبريل فى لقائه به عند الغار أيام التحنث هو كلمة "اقرأ"، أى اقرأ ما أتلوه عليك، وهى الكلمة التى بدأ بها أول نص من نصوص الوحى فى أشهر الروايات المتصلة بذلك الموضوع: "أولُ مَا بُدِئَ به رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الوَحْى الرؤيا الصادِقَةُ فى النَّوْمِ، فكان لا يرَى رؤيا إلا جاءتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فكان يأتِى حِرَاءً فيتَحَنَّثُ فيه (وهو التَّعَبُّدُ) الليالِىَ ذواتِ العَدَدِ، ويتَزَوَّدُ لذلك، ثم يرْجِعُ إلى خديجَةَ فتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِها، حتى فَجِئَهُ الحقُّ وهو فى غارِ حِرَاءٍ، فجاءه المَلَكُ فيه، فقال: اقْرَأْ. فقال النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فقُلْتُ: ما أنا بِقَارِئٍ. فأخَذَنى فَغَطَّنى حتى بَلَغَ مِنِّى الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنى فقال: اقْرَأْ. فقُلْتُ: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغَطَّنى الثانيةَ حتى بَلَغَ مِنِّى الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنى فقال: اقْرَأْ. فقُلْتُ: ما أنا بِقَارِئٍ. فأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثالثةَ حتى بَلَغَ مِنِّى الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنِى فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ... حتى بَلَغَ: عَلَّم الإِنْسَانَ مَا لَمْ يعْلَم".

ومن شواهد شعر تلك الفترة على هذه الكلمة البيتان التاليان لشاعرين: أحدهما لم يسلم قط، وهو أمية بن أبى الصلت. والثانى لم يكن أسلم بعد، وهو كعب بن زهير. يقول أمية:

كِتابًا مِنَ الله نَقْرا بِهِ ... فَمَنْ يعْتَرِيهِ فَقِدْمًا أَثِمْ

ويقول كعب:

يسْقِينَ طُلْسًا خَفِياتٍ تَراطُنُها ... كَما تَراطَنُ عُجْمٌ تَقرَأُ الصُّحُفا

ومن استعمال العرب آنذاك لكلمة "قرآن" بمعنى الكلام المقروء ما جاء فى "اتفاق المبانى وافتراق المعانى" للدقيقى من أن أبا بكر سأل عن "قرآن" مسيلمة، أى الكلام الذى كان يزعم أنه ينزل عليه من السماء ويقرؤه على أتباعه. وفى "البداية والنهاية" لابن كثير خبر آخر عن هذا الموضوع

وردت فيه لفظة "قرآن" بنفس المعنى. وفى "المثل السائر" لابن الأثير وصف لكتاب "الشاهنامة" بأنها "قرآن القوم".

وبالمناسبة فدعوى المستشرق الفرنسى بسريانية الكلمة مسبوقة منذ وقت طويل، إذ قال بذلك لويس شيخو اليسوعى فى كتابه: "النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية": "وعندنا أنّ أصل الكلمة من السريانية (كلمة سريانية)، وهى مصدر، ومعناها القراءة وقطعة من الكتاب لا سيما الكتاب المقدّس. ويقال بهذا المعنى: "رأس القِرْيان" (كلمة سريانية)". ثم لم يكتف شيخو بهذا، فقال عن كلمة "فرقان" إنها سريانية أيضا: "وقد استعملوا "الفرقان" بمعنى "القرآن". قالوا: دُعِى بذلك لأنه يفرق الحق من الباطل. وجاءت الكلمة فى القرآن فى سورة "البقرة" بمعنى التوراة حيث قال: "وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ" (راجع "تاج العروس" فى مادة "ف ر ق". وأصل هذه الكلمة، على ما نرى، من السريانية. وهى كلمة سريانية بمعنى النجاة والخلاص مع الإشارة إلى الفصل والتفريق".

وفى مادة "قرآن" من "The Encyclopaedia of Islam" أن معظم الباحثين الغربيين الآن يقبلون رأى شڤالى وغيره من أن كلمة "قرآن" مأخوذة من الكلمة السريانية: "قريانا"، ومعناها قراءة الكتاب المقدس أو أحد دروسه. أما فى ذات المادة بـ"Encyclopaedia of the Qur'an" فيكتفى كاتبها بقوله إن ثم صلة بين هذه الكلمة وبين كلمتى "قريانا" السريانية و"مقراء" العبرانية، دون أن يقول إنها ترجع فى أصلها إلى أى منهما، واضعا بذلك اللغات الثلاث على مستوى واحد بوصفها كلها لغات سامية ترجع جميعا إلى أم واحدة، وإن كان هناك من يعطى للعربية السبق والصدارة:

"Etymologically, the term is linked to the Syriac word qeryana (scripture reading, lection) and to the Hebrew miqra' (recitation, scripture)".

ومن اللافت للنظر قول كاتب البحث الذى بين أيدينا عقب هذا: "لقد وُلِد القرآن فى وسط معين، وفى فضاء ثقافى معين، وفى زمن معين، شأنه فى ذلك شأن كلّ إنتاج ثقافى أو أدبى آخر. لا شىءَ يأتى من لاشىء، عدا ما يخلقه الله من العدم. غير أنّ هذا الامر المُعْتَرَف به عامّة بخصوص الكتاب المقدّس، سواء أسفار العهد القديم أو الأناجيل، ما زال يثير إشكالا للبعض حَالمًا تتعلّق

المسألة بالقرآن. وهذا الرّفض يباغتنا. فالتراث الإسلامى من تفاسير وتاريخ وشبه تاريخ، وحتّى الخرافى منه، وهو إذ يقِرُّ بالمصدر الإلهى المحض لـ"القِرْيانة العربية" التى تحمل اسم "قرآن"، فهو يسمح فى العديد من رواياته وأحاديثه، المتضاربة غالبا تضاربات تشغل الباحثين وما تزال، لعناصر تاريخ "قرآن المنبع" و"قرآن ما قبل القرآن" أن تبرز وتطفو على السّطح. فى دراسات سابقة كنّا قد اعتبرنا أنّ التَّعبيرَين: "قرآن المنبع" و"قرآن ما قبل القرآن" تعبيران مُتكافِئان، أى القرآن ما قبل ما يسمّى بالقرآن "العثمانى"، وخصّصنا التعبير: "قرآن المُصبّ" لما يسمّى: القرآن العثمانى". وهو ما نحب بل ينبغى أن نقف إزاءه".

هذا ما قاله الكاتب. وسوف أقف منه عند العبارة التالية: "لقد وُلِد القرآن فى وسط مُعَين، وفى فضاء ثقافى معين، وفى زمن مُعين، شأنه فى ذلك شأن كلّ إنتاج ثقافى أو أدبى آخر"، وأحاكمه إليها. فإذا كان القرآن، كما يقول، ابن زمانه ومكانه وبيئته وثقافتها، فكيف يكون مستمدا من نصارى السريان وكتبهم التى يعدونها للصلوات والعبادات؟ هل كان هناك سريان فى مكة؟ فمن هم يا ترى؟ وكيف كان يجتمع بهم محمد؟ وأين؟ ومتى؟ ومن ذا الذى شاهدهم وهم مجتمعون؟ إن أصحاب محمد معروفون بالاسم منذ أول لحظة من لحظات الوحى بل من قبل ذلك. إنهم خديجة وعلى وأبو بكر وزيد بن ثابت وسعد بن أبى وقاص وجعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء وأم أيمن وعثمان... إلخ. فهل كان هؤلاء هم معاونى محمد فى الأخذ من السريان والنسج على منوالهم؟ هل كان أى من هؤلاء يعرف السريانية؟ فأين تعلمها؟ ومتى كان يتكلمها أو يقرأ بها؟ وإذا كان هناك قساوسة نصارى أو حاخامات يهود فمن هم يا ترى؟ ولماذا لم يظهروا طوال كل هاتيك العصور؟ بل لماذا لم يفكر أى منهم فى القيام بدور محمد، الذى عاونوه وعلموه، فطفا هو على السطح وحاز الشهرة، وبَقُوا هم فى القاع دون أن يلتفت إليهم أحد أو يهتم بهم أحد؟ أم تراهم تخلصوا من الطبيعة البشرية بما فيها من تنافس وغيرة وتحاسد ورغبة فى الاستئثار بالخير أو على أقل تقدير: فى المشاركة فيه؟ بل لماذا خرس سائر سريان الشام كلهم طوال تلك القرون فلم يحاولوا فضح هذه اللعبة المحمدية؟ واضح أن كلام المستشرق لا يساوى خردلة!

على أن الكاتب رغم ذلك لا يكتفى بالقول بأن محمدا كان له من يعاونه فى تأليف القريانة العربية، بل يدعى أن لغات بعض هؤلاء المعاونين يحتمل أن تكون العبرية أو السريانية أو الآرامية، وكأننا إزاء معهد عال لتعليم اللغات الشرقية فى مكة. إن الكاتب يتناول الموضوع بخفة وطيش ويصور الأمر وكأن هناك عصابة تتآمر وتجتمع سرا وتضع الخطط وتترجم وتنقل من كتب السريان وتراجع ما تنقله حتى يأتى مستويا سلسا محكما كما هو الحال فى القرآن ليس عليه عجمة الترجمة فى وقت لم يكن العرب يعرفون الترجمة بعد ولا مارسوها. ولقد رأينا ترجمات حنين بن إسحاق بعد ذلك بتاريخ طويل وعليها آثار العجمة وصعوبة الفهم ووعورة التعبير، فما بالكم بترجمة مثل تلك النصوص الدينية فى ذلك الوقت المبكر حين لم تكن ترجمة ولا تعريب بل لم تكن كتابة ولا قراءة ولا كتب أصلا إلا فى أضيق نطاق؟

وقبل ذلك كيف تنصر محمد أو على أقل تقدير: كيف نشأ اهتمامه بالنصرانية بحيث يشكل الاعتقاد فى المسيح مشكلة تشغله وتؤرقه؟ لقد كان محمد فى مكة يعمل بالرعى صبيا ثم بالتجارة عند خديجة بعدما كبر وعرضت عليه أن يقوم على تثمير أموالها فى الأسواق يعاونه غلامها ميسرة. وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب. ولم يكن فى مكة مبشرون يلتقطون الصبيان أو الشبان أو الرجال يغرونهم باعتناق النصرانية، وإلا فمن أولئك المبشرون يا ترى؟ ومن أين أَتَوْا؟ وأين كانوا يمارسون نشاطهم؟ ومن شاهدهم؟ وماذا كانوا يقولون لمن يريدون تنصيره؟ ومن أولئك الذين كانوا يحضرون خطبهم ومناقشاتهم؟ المعروف لجميع الناس أنه لم يظهر فى حياة محمد أى قساوسة أو رهبان قط، اللّهم إلا فى الخبر الذى يدور حول لقائه ببحيرا فى طريقه أثناء صباه إلى الشام. وهو خبر كيفما قلبتَه لن تجد فيه تبشيرا ولا كلاما عن النصرانية على أى وضع.

يقول الخبر: "خرجَ أبو طالبٍ إلى الشامِ ومعه النبى صلى الله عليه وسلم فى أشْياخٍ من قريشٍ، فلما أشرفُوا على الراهبِ (يعنى بحيرا) هبطُوا فحلُّوا رِحالَهم، فخرج إليهم الراهبُ، وكانوا قبلَ ذلك يمرون به، فلا يَخرُج إليهم ولا يلتفت. قال: فنزل وهم يحلون رِحَالَهم فجعل يتخللهم حتى جاء وأخذ بيدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقال: هذا سيدُ العالمين (زاد البيهقى: ورسولُ ربِّ

العالمينَ ابتعثهُ اللهُ رحمةً للعالمينَ). فقال له أشْياخُ قريشٍ: وما علمكَ؟ فقال: إنكم حينَ أشرفتُم من الثنيةِ لم يبقَ شجرٌ ولا حجرٌ إلا خرّ ساجِدا، ولا يسجدونَ إلا لنبى. وإنى أعرفهُ بخاتمِ النبوةِ أسفلَ من غضروفِ كتفهِ. ثم رجعَ فصنعَ لهم طعاما. فلما أتاهم به، وكان هو فى رعيةِ الإبلِ فقال: أرسلوا إليه. فأقبلَ وغمامةٌ تُظِلُّهُ. فلما دنا من القومِ وجدهم قد سبقوه إلى الشجرةِ. فلما جلسَ صلى الله عليه وسلم مالَ فَئُ الشجرةِ عليهِ، فقال: انظروا إلى فَىء الشجرةِ مالَ عليهِ!". وهناك رواية أخرى عن الْتِقَائه بذلك الرَّاهِبِ تقول إنه "تَفَرَّسَ فيه ورأى مَعَالِمَ النُّبُوَّةِ فى وجهِه وبينَ كَتِفَيهِ. فلما سأل أبا طالبٍ: ما هذا الغلامُ منكَ؟ قال: ابْنِى. قال: ما ينْبَغِى أن يكونَ أَبُوهُ حَيا! قال: فإنه ابنُ أَخِى. مات أَبُوهُ وأُمُّهُ حُبْلَى به. قال صَدَقْتَ. ارْجِعْ به إلى بَلَدِكَ واحْذَرْ عليه يهُود".

ويمكنك أن تقبل الخبر أو ترفضه، لكنك لن تُلْفِىَ فيه أية مناقشة حول النصرانية أو أى دين آخر. وبالنسبة لى فإنى لا أطمئن إلى الخبر كثيرا، وإلا لقد كان ينبغى أن يتخذه النبى حجة على صحة نبوته، ويجعل منه الصحابة تكأة لإعلان إيمانهم به وتسويغه. وعلى أية حال لقد كان محمد أوانذاك مجرد صبى يتيم لا تشغله تلك الموضوعات. وقد هب كارلايل، فى كتابه: " On Heroes, Hero Worship, and the Heroic in History" ، يسخّف مزاعم الأوربيين حين رآهم يعضّون بنواجذهم على تلك الرواية متخذين منها دليلا على أن محمدا قد تعلم النصرانية من بحيرا آنذاك واختزن ما تعلمه منه وظل محتفظا به إلى أن حان الوقت المناسب فشكّل منه دينا يدعو الناس إليه. وفى رأيه أن محمدا كان صبيا صغيرا، وأن اللقاء بينه وبين بحيرا تم فى حضور المكيين، ولا يمكن أن يحدث شىء فى مثل تلك الظروف ولا كانت الظروف مواتية لأية مناقشة فى الدين. بل لم يكن محمد يعرف لغة أجنبية:

"I know not what to make of that "Sergius, the Nestorian Monk," whom Abu Thaleb and he are said to have lodged with; or how much any monk could have taught one still so young. Probably enough it is greatly exaggerated, this of the Nestorian Monk. Mahomet was only fourteen; had no language but his own".

وعلى الوجه الآخر لو كان بحيرا قد لقنه شيئا من النصرانية أو من غيرها، كما يدعى بعض المستشرقين والمبشرين الأوربيين، لاتخذ مَنْ كَفَرُوا بنبوة محمد وكذبوه وحاربوه من ذلك اللقاء

ذريعة إلى تكذيبهم له وكفرهم به. لكنهم قد سكتوا فلم يقولوا شيئا. ومعنى هذا أن بحيرا لم يفده قليلا ولا كثيرا. أما إذا لم يكن هناك بحيرا أصلا فلا تعدو المسألة كلها حينئذ أن تكون زوبعة فى فنجان.

وقد اتهم محمدًا أيضا بعضُ المستشرقين والمبشرين بأخذ دينه عن الحنفاء. وفات هؤلاء المتهِمين أن الحنفاء قد أسلموا أو أسلم أبناء من كانوا قد ماتوا منهم بل أسلمت أسرهم كاملة. فكيف يمكن أن يقع ذلك إذا كان محمد هو التلميذ، والحنفاء هم الأساتذة؟ كما اتُّهِم كذلك بأنه أخذ عن الرهبان والقساوسة الذين كان يقابلهم فى أسفاره أيام متاجرته بمال خديجة، وكأنه كان يترك التجارة ويذهب للتباحث مع رجال اليهودية والنصرانية؟ إن محمدا لم يكن يسافر فى تلك الرحلات وحيدا بل كان معه التجار المكيون جميعا، ومنهم معاونه فى تجارة خديجة: ميسرة غلامها. وهو ما لا يسمح له بأن يغيب عن عيون من معه طرفة عين دون أن يلحظوا ذلك. ثم من أولئك القساوسة يا ترى؟ وفى أية موضوعات كانوا يتحدثون إليه؟ وبم كان يجيبهم؟

ولماذا سكت أولئك القساوسة والرهبان والحنفاء فلم ينبس واحد منهم، واحد فقط، واحد ليس غير، واحد ابن حلال يريد ألا تندثر الحقيقة، فيقول إننى أنا الذى علمت محمدا وأمددته بدينه هذا، أو إننى رأيت محمدا وهو جالس بين يدى فلان أو علان أو ترتان يتلقى عنه معارف النصارى أو يتعلم ما عند الحنفاء؟ صحيح أنه كانت هناك اتهامات مرسلة من بعض مشركى قريش لمحمد بأنه يتعلم من بعض الحرفيين بمكة أشياء مما عند أهل الكتاب. لكن حقيقة الأمر أنهم كانوا من الرقيق الأعاجم ذوى المعارف الساذجة الذين لا يستطيعون الحديث بالعربية، فضلا عن أن يشرحوا ما فى أديانهم من عقائد وقصص ومواعظ. ثم إن أولئك الذين اتهموه بذلك قد انقلبوا على أنفسهم فأسلموا أو أسلمت أسر من مات منهم، بل أسلم أيضا أولئك الحرفيون، وصار الجميع كلهم على بكرة أبيهم أتباعا لمحمد: يؤمنون بكتابه ويدافعون عن دينه ويسْتَشْهَدون فى سبيله ويبدون من ضروب التحمس لهذا الدين والتضحية من أجله ما يبعث على الدهشة والانشداه.

ومعنى ذلك أنهم قد لحسوا كل اتهاماتهم لمحمد وكذبوا أنفسهم بأنفسهم، وبينوا بأجلى بيان أنهم إنما كانوا يفترون ويكذبون ويتخرصون. وإلا فهل هناك معنى آخر لهذا الذى حدث؟

ثم يقول جيليو فى هذا الصدد: "جلب أخصّائى الأدبيات المسيحية الأولى ج. بومان (J. Bowman) الإنتباه إلى وجود مونوفيزيين (القائلين بطبيعة إلهية واحدة للمسيح) فى نجران شمال اليمن وبين القبائل العربية الكبرى مثل الغساسنة، ولكن أيضا اللّخميين التى كانت الحيرة عاصمة لمملكتهم. فهو يعتبر أنّ نُبُوَّة القرآن ومحتواها الكتابى يمكن أن يفَسَّرا بحقيقة أن محمّد كان على اتّصال بالمونوفزيين (اليعاقبة) الذين كانوا يستعملون إنجيل تاتيان الرُّبَاعِى (دياتسارون) Tatian's Diatessaron ويعتبرونه بمثابة النّص القانونى للأناجيل. لنُذَكِّر أن المقصود بالدياتسارون هو "الإنجيل الذى جُمِّع من الأناجيل الاربعة"، ويسمّى أيضا: "التجميع التوفيقى للأناجيل" (لقد وُجِدت عدّة تجميعات توفيقية أخرى للأناجيل غير تجميع تاتيان) أو "الإنجيل المتكامل". وهو نصّ من المحتمل أن يكون قد كُتِب فى الأصل بالسريانية، الشىء الذى يفترض التطابق والإنسجام بين الاناجيل الأربعة. لقد ظلّ لفترة طويلة نصَّ الأناجيل الوحيد المستعمَل فى طقوس الكنائس التى تستخدم اللّغة السريانية. هناك العديد من هذه الكنائس لا تزال تستخدمه فى أيامنا هذه خلال الأسبوع المقدَّس (الأسبوع الذى يسبق يوم الفِصْح).

باستعمالهم هذه المصادر بما فيها مقاطع من الأناجيل المنحولة يمكن هكذا أن يكون محمّد ومن أعانه قد أنشأوا قريانتهم الخاصّة بهم (قرآن، كلمة غير عربية مأخوذة من السريانية "قريانة" qeryânâ)، لتلبية حاجياتهم الخاصّة بهم. نقول: "محمّد ومن أعانه" لأنّه لا يجب "إقصاء إحتمال أنّ القرآن كان قد نشأ داخل مجموعة يمكن أن يكون محمّد قد كان قدوتها".

والحق أننا إذا ما نظرنا إلى هذا الكلام راعنا ما فيه من تساخف شديد: فالقبائل التى يقول إنها كانت تؤمن بطبيعة واحدة للسيد المسيح كانت موجودة فى اليمن وشمال بلاد العرب فى دولتى الغساسنة واللخميين، أى بعيدا عن مكة وعن محمد تمام البعد. فكيف كان محمد يتصل ببعض أبناء تلك القبائل وهو فى مكة على ذلك البعد السحيق من تلك البلاد، وفى تلك الأزمان التى كانت

وسائل المواصلات بدائية شديدة البطء؟ وإنى لأتساءل: كيف لم يظهر واحد فقط ممن عاون محمدا على صوغ قريانته العربية فيهتك أستار الصمت والظلام عن ذلك الموضوع ويفضحه فى العالمين بعد أن خرج عن الاتفاق وهاجم النصرانية واتهم أتباعها بأنهم يشركون مع الله آلهة أخرى، قالبا لهم بذلك ظهر المِجَنّ ومتمردا عليهم بعد أن علَّموه وهذّبوه ولقنوه وأمدوه بكل احتياجات القريانة، بل بعد أن صاغ قريانته وأضحت له قريانة كما لهم ولغيرهم قريانة؟ لقد خان بذلك العيش والملح، وصار لا بد من الانتقام منه، ولا أحسن ولا أروع من كشف حقيقته وأنه مجرد سارقٍ مُغِيرٍ.

ولعل القارئ يتساءل عن الحكمة فى اهتمام الكاتب بالكلام عن مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح وقوله إن بعض القبائل فى اليمن وغسان وعند اللخميين على حدود العراق كانوا يتمذهبون بتلك العقيدة. الواقع أنه يريد إلى القول بأن محمدا قد أخذ عن هؤلاء المونوفيزيين ما قاله فى السيد المسيح. وهذا كيد رخيص من الكاتب، فالمونوفيزيون يعتقدون بأن ليسوع طبيعة واحدة إلهية، وأن طبيعته البشرية امتزجت بهذه الطبيعة. ويمكن اختصار هذه الطبيعة فى أن يسوع المسيح، الابن، هو شخص وأقنوم واحد بطبيعة واحدة: الإنسان الإله. ومن ثم فلا فرق فى موقف الإسلام من القائلين بطبيعتين أو بطبيعة واحدة للسيد المسيح، ألا وهو موقف الرفض والإنكار. ومن ناحية الفريقين فإنهما يكنان لمحمد ودينه كراهية شديدة. إن كلا من الفريقين يؤله المسيح على نحو أو على آخر. وهذا مرفوض فى الإسلام قولا واحدا. ومعنى هذا أن كل ما قاله الكاتب أيضا فى هذا الموضع متهافت لا قيمة له ولا قوام.

وفى تعريفه لـ"الدياتسارون" يقول الكاتب إنه "الإنجيل الذى جُمِّع من الأناجيل الأربعة"، وهو نصّ من المحتمل أن يكون قد كُتِب فى الأصل بالسريانية، الشىء الذى يفترض التطابق والإنسجام بين الاناجيل الأربعة". فانظر كيف أن الأمر كله قائم لديه على الاحتمال والافتراض، فضلا عن أن هذه النتيجة التى يصل إليها هى نتيجة تعادى المنطق والتاريخ والوثائق. ذلك أن الأناجيل الأربعة لا تتطابق بأى حال. كما أنها ليست منسجمة فيما بينها، بل تعج بتناقضات وتغايرات كثيرة طبقا لما يعرفه كل من له بها أدنى اتصال، فضلا عن تناقض كل إنجيل مع نفسه. أما

إذا كان ما يقوله الكاتب صحيحا لا ريب فيه فما الحاجة يا ترى إلى تجميع نصوص من الأناجيل الأربعة ما دام الموجود فى كل من هذه الأناجيل هو نفسه الموجود فى سائرها؟ لقد كان ينبغى إذن الاكتفاء بإنجيل واحد، ولا داعى إذن لتضييع الوقت فيما لا يقدم أو يؤخر. أليس هذا هو ما يقضى به المنطق والعقل السليم المستقيم؟

ويقول الكاتب أيضا: "إضافة إلى ملاحظات غ. لولينغ (G. Lüling) عن "المصطلحات الإسلامية العالِمَة لمختلف طبقات القرآن"، التى شحذت همّتنا للمضى فى هذ المسعى، تجدر الإشارة إلى تشجيع آخر جاء من عند كريستوف لوكسنبيرغ عندما يكتب: "إذا كان القرآن يعنى حقيقةً "قريانة" (lectionnaire) باستطاعتنا أن نفترض أنّ القرآن كان قد أراد لنفسه أن يفْهَم على أنّه لا شىء آخر غير كتابِ طقوس (ليتورجى) يحتوى على نصوص مختارة من الكتابات المقدّسة (العهد القديم والعهد الجديد، أو كتابات أخرى يهودية- مسيحية قديمة)، وليس على الإطلاق كبديلٍ عن الكتابات المقدّسة نفسها، أى ككتابٍ مقدّس مستقلٍّ بذاته. ومن هنا جاءت التلميحات العديدة للكتابات المقدّسة السابقة التى بدون معرفتها يمكن للقرآن أن يبدو للقارئ كتابا خُتِم بسبعة أختام" (أختام تحول دون فهمه). أخيرا لقد مارست أيضا تحليلات الباحث Jan Van Reeth الدقيقة تأثيرها على تدرّج تفكيرنا وتطوّره.

إذا أضفنا إلى المصطلحات التى ذكرناها آنفًا وإلى الفلك الليتورجى الذى يدور فيه القرآن فحقيقة أنّ هذه القريانة المكّية، باعتبار فنّها الأدبى والأسلوبى والليتورجى، تُذكِّر بدون أى شكّ بفنّ المزامير مثلما لاحظ ذلك سابقا هيرشفيلد (Hirschfeld)، وحديثًا نوڤيرث (Neuwirth)، فسيفْهَم لماذا نتوجّه نحو هذه القريانة لمعرفة ماذا تقول عن نفسها. إنّها يمكن أن تكون فى موقع كتاب "المزامير" لو لم يكن عندنا أسفار موسى الخمسة Pentateuque (التوراة) وأسفار العهد القديم التاريخية: ففى المزامير تلميحات إلى قصص وإلى مواضيع لا يمكن فهمها بدون أسفار موسى وبدون الأسفار التاريخية، ولكن أيضا التغييرات الفُجْئية للمواضيع داخل نفس المزمور

("السورة" بالنّسبة للقرآن)، والتكرارات لنفس الموضوع ونفس الفكرة، "ابتهالات"، تذكيرات بما فعله أو عاناه الآباء وما صنعت العناية الإلهية بخصوصهم ("الذِّكْر" واشتقاقاته فى القرآن)... إلخ.

ليس من الغريب أن تكون "المزامير" قد حازت اعتراف محمّد، قُدْوة الفريق الذى كان يساعده، أكثر من أى شىء آخر، مع التوراة، وهما سفرا العهد القديم الوحيدان اللّذان يسمّيهما القرآن، "باعتبار أنّهما كانا باستمرار فى أفواه اليهود على شكل صلوات". بصورة مّا فإنّ محمّد "يضع التوراة والمزامير فى نفس المستوى": "وَآتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ" (سورة ١٧، آية ٢)، "وَآتَينَا دَاوُودَ زَبُورًا" (سورة ١٧، آية ٥٥). الشىء الذى يمكن على الأرجح أن نربطه بما جاء فى سورة الشعراء (١٩٥، ١٩٦): "بِلِسَانٍ عَرَبِى مُّبِينٍ، وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ" (لم يقل: "كُتُب" بل قال: "زُبُر" كما لاحظ ذلك جيدا الباحث مُنْذِر صفَر). نفهم جيدا أن تكون "المزامير" قد مارست "انجذابا قويا" على روح محمّد، مزامير "لا يذكرها فقط، ولكنّه أيضا يقلّدها". ويظهر ذلك منذ أوّل سورة، فاتحة القرآن: فهى تشبه بجُمَلها القصيرة مزمورًا، وآيتها السادسة: "اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" يبدو أنّها تُذكِّر بما جاء فى المزمور ٢٧، ١١: "طَرِيقَكَ يا رَبُّ عَلِّمْنِى، وَسَبِيلَ الإِسْتِقَامَةِ آهْدِنِى". إنّ معرفة محمّد بالمزامير تبدو كرونولوجيا قديمة فى القرآن، فالآية: "لَيلَةُ القَدْرِ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ" (سورة القدر، آية ٣) تُذَكِّر بالآية: "إِنَّ يوْمًا فِى دِيارِكَ خَيرٌ مِنْ أَلْفٍ" (مزمور ٨٤، آية ١١) أو أيضا: "وَإِنَّ يوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ" (الحجّ، آية ٤٧)".

هذا ما قاله الكاتب. وردا على دعواه بأن "القرآن كان قد أراد لنفسه أن يفْهَم على أنّه لا شىء آخر غير كتابِ طقوس (ليتورجى) يحتوى على نصوص مختارة من الكتابات المقدّسة (العهد القديم والعهد الجديد، أو كتابات أخرى يهودية- مسيحية قديمة)، وليس على الإطلاق كبديلٍ عن الكتابات المقدّسة نفسها، أى ككتابٍ مقدّس مستقلٍّ بذاته" نقول: هل كان الأمر، والحالة هذه، يؤدى إلى كل هذا الصدام بين محمد وبين قومه؟ الواقع أن القساوسة والحنفاء كانوا معروفين فى بلاد العرب، فهل سمع أحد أنه قام صدام بينهم وبين قبائلهم؟ فلِمَ يختلف الأمر مع محمد إذا كان نشاطه مقصورا على تشكيل كتاب للصلوات؟ ثم لمن كان يعد محمد هذا الكتاب النصرانى؟ أليس غريبا

حين نعلم أن القوم فى مكة كانوا وثنيين؟ ترى كيف يجهز لهم إذن كتابا نصرانيا؟ بل هل كان هو نصرانيا فى يوم من الأيام؟ فمن نصَّره يا ترى؟ ومتى؟ وكيف تم التنصير؟

ثم أين هذا التشابه بين القرآن، فى المرحلة المكية أو المدنية، وبين الأناجيل؟ أين مثلا الكلام عن عيسى عليه السلام كابن لله سبحانه؟ لا يوجد، بل يوجد الإلحاح على عبوديته لله وتبرؤه من تأليه النصارى له ومهاجمة عقيدة التثليث والصَّلْب والفداء. ثم أين سيرة السيد المسيح منذ ولادته حتى انتهاء حياته على الأرض مرتبة ومفصلة كأى كتاب تاريخى كما هو الوضع فى الأناجيل؟ لا يوجد، بل لا يوجد شىء كهذا بالنسبة لسيرة محمد عليه السلام. وهل يبدأ كل سفر من أسفار الأناجيل بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" أو حتى بـ"باسم الآب والابن والروح القدس"؟ كلا. وهل صلاة النصارى: "أبانا الذى فى السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما هى فى السماء كذلك على الأرض. خبزَنا كفافَنا أعطنا اليوم" تشبه "الفاتحة" رغم كل ما يقوله كثير من المستشرقين والمبشرين عن التشابه بين هذين النصين ووظيفتيهما ومكانتيهما؟ أبدا. أم هل هناك فى الأناجيل وصف مفصل للفردوس والجحيم مثلما هو الأمر فى القرآن المجيد، وبخاصة فى السور المكية؟ لا ثم لا. إنما هى إشارة عارضة عن شرب عصير الكرمة فى السماوات. وهل يعتمد القرآن الأسلوب المترسل فى سوره كما هو أسلوب الأناجيل بل أسلوب العهد الجديد كله بل الكتاب المقدس جميعه؟ أبدا، إذ تسود الفواصل النص القرآنى من مفتتحه إلى مختتمه. فهل التشريعات إذن واحدة أو حتى متقاربة بين قرآننا وأناجيل النصارى؟ لا ثم لا ثم لا.

ترى هل هناك فى الأناجيل مثلا تحريم للخمر أو الخنزير أو الربا؟ لا. هل فى كتب القوم حديث عن أحكام الحرب وتنظيم الزكوات والحج والصيام؟ أم هل فى القرآن دعوة إلى إدارة الخد الأيسر لمن يصفع المسلم على خده الأيمن؟ أبدا أبدا. هل فى القرآن تصوير لعيسى على النحو الذى تصوره الأناجيل عصبيا لا يوقر أحدا ولا حتى أمه وحوارييه بل يتطاول على الجميع ويتهم تلاميذه المقربين فى إيمانهم؟ لا بل الصورة التى يصورها له القرآن تشير إلى حنانه ووده ورحمته واحترامه لأمه ومن حوله. وأخيرا وليس آخرا هل تتعرض الأناجيل للأنبياء القدماء كنوح وإبراهيم ولوط؟

لا. هل تتعرض للحديث عن الأنبياء العرب: شعيب وهود وصالح وما جرى لهم مع أقوامهم؟ هل فى الأناجيل حديث عن العلم وأهميته ومكانة العلماء، وعن العمل الصالح الذى لا يصلح إيمان بدونه؟ الواقع أنه لا يوجد. هل كلام الأناجيل عن عيسى يشبه ما يقوله القرآن عن محمد من أنه مجرد بشر ليس له مع ربه من الأمر شىء ولا يعلم الغيب ولا يقول إنه سوف يشترك مع الله فى حساب الناس يوم القيامة جالسا على يمين أبيه سبحانه؟ لا بل الكلامان مختلفان. هل فى الأناجيل ما يشبه حديث القرآن عن انتصار الإسلام الحتمى مهما جَيش المشركون لحربه من رجال وعتاد وأموال ووضعوا من خطط ومشاريع؟ لا طبعا.

كذلك فالقرآن يذكر لعيسى بعض المعجزات التى لا تعرفها الأناجيل الأربعة كخلقه للطير ونفخه فيه فيكون طيرا بإذن الله، وتنبيئه قومه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم. وعلى الناحية الأخرى يخلو من هبوط الحمامة عليه وهو يتلقى العماد على يد يحيى فى نهر الأردن حيث سمع هاتفا من السماء يناديه بـ"ابنى الحبيب" ومن تجربة الشيطان إياه ومحاولته إسجاده له ومن هجومه هو وأتباعه على أحد الحقول والتهامهم ما فيه من ثمار دون إذن صاحبه وغير ذلك. وفوق هذا يعْرَى القرآن فى كلامه حول عيسى عن التناقضات التى فى الأناجيل كما هو الحال مثلا عند الكلام عن نسب يسوع، حيث نجد عدد آبائه وترتيبهم وأسماءهم مختلفا فى متى عنه فى لوقا على نحو لا يقبل علاجا ولا توفيقا. ومثله قول يسوع إنه ما جاء لينقص الناموس بل ليكمله ثم ينهال فى الحال نقضا للناموس ومحوا له. ومثله أيضا قوله عن حوارييه إن ما يحلونه أو يربطونه فى الأرض يَحَلّ ويرْبَط فى السماء، ورغم هذا نسمعه يصف أكبرهم بقلة الإيمان بل يقول له: يا شيطان! هذا هو الكلام الذى ينبغى أن يطرح بدل السخافات التى ينتهجها الكاتب الكذاب الذى يعلم تمام العلم أنه كذاب، وخطط منذ البداية لاختلاق تلك الأكاذيب ونشرها أملا فى إشاعة الفوضى عند المسلمين من ورائها، ثم قام بعضهم بهمة مريبة لترجمتها ونشرها بأسلوب ركيك وأخطاء لغوية بدائية ليكمل الخطة.

هذا عن المقارنة بين القرآن والأناجيل الأربعة، فماذا عن المقارنة بين القرآن والمزامير؟ لقد ذكر الكاتب أن محمدا يبدى تعلقا شديدا وانشغالا قويا بالمزامير وتوراة موسى دون بقية كتب الأنبياء. لكن كلام القرآن لا يقتصر على توراة موسى ومزامير داود، بل هناك أيضا إنجيل عيسى، وهو شيء يختلف عن الأناجيل الأربعة. فهذه الأناجيل هى سِيَرٌ عيسويةٌ مختلفةٌ كتبها بعض البشر بعد انتهاء حياة المسيح على الأرض. أما الإنجيل الذى يتحدث عنه القرآن فهو وحى نزل من السماء على عيسى عليه السلام وأمره الله بتبليغه وليس هو البشارة بمجيئه. كذلك يشير القرآن إلى صُحُف إبراهيم، وإلى كُتُب الأَوَّلين (أو زُبُر الأولين)، وإلى أهم ما قاله الأنبياء القدماء لأقوامهم كنوح وإبراهيم ولوط ويونس واليسع، فضلا عن حديثه عن بعض أنبياء العرب: هود وصالح وشعيب وقصصهم مع أممهم، وهو ما لا وجود له فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. وقد تكرر هذا كله مرارا. وإذن فما قاله الكاتب عن اعتزاز محمد بالتوراة والمزامير وحدهما هو كلام لا قيمة له.

أما عن وجه الموازنة بين القرآن والمزامير فالمعروف أن كل مزمور من المزامير لا يبتدئ ببسملة كما تبتدئ كل سورة من سور القرآن المجيد. وكثيرا ما تتعدد موضوعات السورة الواحدة ما بين كلام عن اليوم الآخر، وحديث عن الرسل السابقين وما أصاب أقوامهم من العذاب والتدمير جراء عنادهم وتمردهم وكفرهم، ووصف لعناصر الطبيعة، وتحميد لله،وتهديد للمشركين المكيين بوبال شنيع إن لم يرعووا ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم وإنكارهم الحياة الآخرة ويقلعوا عن سبل الغى والعصيان مع تبشير المؤمنين بجنات النعيم وما ينتظرهم فيها من مباهج ولذات، ومحاورات بين الرسول وأهل مكة، وتشريعات مختلفة من صلاة وصيام وزكاة وحج وقتال وزواج وطلاق وعِدّة وحلف وبيع وشراء وربا ورهان ودَين وتعليم وسفر وطعام وشراب ونظافة وطهارة وغير ذلك، فضلا عن طول كثير من السور طولا شديدا لا يتناسب وقصر المزامير، التى يدور كل منها على التسبيح والتهليل لا يخرج عنه. ولا ننس أن داود فى العهد القديم زان ظالم قاتل، أما فى القرآن فهو قريب من ربه. بل هناك من ينفى عنه النبوة ويجعله مجرد حاكم ليس إلا، لكنه فى القرآن حاكم ونبى كريم.

ويتوقف الكاتب أيضا أمام قوله تعالى على لسان المؤمنين فى سورة "الفاتحة": "اهدنا الصراط المستقيم" قائلا إن هذا دليل على أن محمدا كان على صلة قديمة بمزامير داود، إذ نجد داود يدعو ربه قائلا فى واحد منها: "طَرِيقَكَ يا رَبُّ عَلِّمْنِى، وَسَبِيلَ الإِسْتِقَامَةِ اهْدِنِى"، وهو ما يدل لديه على أن محمدا قد استمد هذه العبارة من داود. لكن هل مثل هذه العبارة من الصعوبة والتعقيد بحيث لا يمكن أن تخطر فى عقل إنسان آخر إلى جانب داود؟ إن كل واحد من البشر يتمنى دائما لنفسه الهداية والتزام الصراط المستقيم؟ فما المشكلة فى ذلك؟ ثم أين الدليل على أن محمدا كان على صلة بالمزامير: يقرؤها ويستعير منها لغته وأسلوبه؟ وعلى كل حال فإننا نؤمن بأن كل ما نزل على داود ومحمد وغيرهما من النبيين والمرسلين فمصدره الله سبحانه وتعالى. على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، إذ ثمة فارق هام وحاسم بين الدعوتين: فداود يطلب من ربه أن يهديه الصراط المستقيم حتى لا يقع فى أيدى أعدائه المتربصين به بينما يطلب المؤمنون فى "الفاتحة" أن يهديهم الله الصراط الذى اختص به من أنعم عليهم بنعمة الإيمان والرضا ممن لم يتعرض لغضبه سبحانه ولم يضل عنه ضلالا.

وهذا نص ما قاله المؤمنون فى سورة "الفاتحة": "اهدنا الصراطَ المستقيم * صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين"، بينما نص كلام داود فى طبعة فانديك كاملا هو: "[١١]عَلِّمْنِى يا رَبُّ طَرِيقَكَ، وَاهْدِنِى فِى سَبِيل مُسْتَقِيمٍ بِسَبَبِ أَعْدَائِى. [١٢]لاَ تُسَلِّمْنِى إِلَى مَرَامِ مُضَايِقِى، لأَنَّهُ قَدْ قَامَ عَلَى شُهُودُ زُورٍ وَنَافِثُ ظُلْمٍ". فالسياق، كما هو واضح، غير السياق، وأبعاد الدعوة هنا غير الأبعاد هناك. ويكفى أن دعاء داود هو دعاء شخصى يختص بموقف معين بخلاف دعاء المؤمنين فى "الفاتحة"، فهو دعاء عام لا يختص بموقف محدد بل ينفتح على كل المواقف والأشخاص.

وعلى نفس المنوال يتوقف الكاتب عند قوله عز شأنه فى سورة "القَدْر": "ليلة القدر خير من ألف شهر"، الذى يراه اقتباسا من قول داود فى المزامير: "إِنَّ يوْمًا فِى دِيارِكَ خَيرٌ مِنْ أَلْف"، متجاهلا أن المبالغات العددية موجودة فى كل اللغات. ومن ناحية أخرى فإن المقارنة القرآنية هى بين ليلة القدر وبين ألف شهر، بينما هى فى المزمور بين يوم فى ديار الله، التى لا نعرف ما هى ولا أين تقع،

وبين لاشىء، إذ لم يذكر المزمور طرف المقارنة الثانى. كذلك لدينا فى النص القرآنى ليلة القدر، وهى شىء لا وجود له فى أى دين آخر غير الإسلام بما فى ذلك الدين الذى جاء به داود عليه السلام. وعلى هذا فلا معنى لما أثاره المؤلف من مشكلة.

ولكى تتضح الصورة أكثر سوف أورد نَصَّىْ سورة "الفاتحة" والمزمور السابع والعشرين الذى وردت فيه العبارة محل المقارنة بتمامهما حتى يرى القارئ بنفسه بما لا يدع مكانا لأى ارتياب أن كلام المؤلف فارغ من المضمون والصدق تماما. قال تعالى: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيلَةُ الْقَدْرِ * لَيلَةُ الْقَدْرِ خيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِى حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ". وقال داود فى مزموره: "١الرَّبُّ نُورِى وَخلاَصِى. مِمَّنْ أَخَافُ؟ الرَّبُّ حِصْنُ حَياتِى. مِمَّنْ أَرْتَعِبُ؟ ٢عِنْدَ مَا اقْتَرَبَ إِلَى الأَشْرَارُ لِيأْكُلُوا لَحْمِى مُضَايقِى وَأَعْدَائِى عَثَرُوا وَسَقَطُوا. ٣إِنْ نَزَلَ عَلَى جَيشٌ لاَ يخَافُ قَلْبِى. إِنْ قَامَتْ عَلَى حَرْبٌ فَفِى ذلِكَ أَنَا مُطْمَئِنٌّ. ٤وَاحِدَةً سَأَلْتُ مِنَ الرَّبِّ، وَإِياهَا أَلْتَمِسُ: أَنْ أَسْكُنَ فِى بَيتِ الرَّبِّ كُلَّ أَيامِ حَياتِى لِكَى أَنْظُرَ إِلَى جَمَالِ الرَّبِّ وَأَتَفَرَّسَ فِى هَيكَلِهِ. ٥لأَنَّهُ يخَبِّئُنِى فِى مَظَلَّتِهِ فِى يوْمِ الشَّرِّ. يسْتُرُنِى بِسِتْرِ خَيمَتِهِ. عَلَى صَخْرَةٍ يرْفَعُنِى. ٦وَالآنَ يرْتَفِعُ رَأْسِى عَلَى أَعْدَائِى حَوْلِى، فَأَذْبَحُ فِى خَيمَتِهِ ذَبَائِحَ الْهُتَافِ. أُغَنِّى وَأُرَنِّمُ لِلرَّبِّ.

٧اِسْتَمِعْ يا رَبُّ. بِصَوْتِى أَدْعُو فَارْحَمْنِى وَاسْتَجِبْ لِى. ٨لَكَ قَالَ قَلْبِى: «قلتَ: اطْلُبُوا وَجْهِى». وَجْهَكَ يا رَبُّ أَطْلُبُ. ٩لاَ تَحْجُبْ وَجْهَكَ عَنِّى. لاَ تُخَيبْ بِسُخْطٍ عَبْدَكَ. قَدْ كُنْتَ عَوْنِى فَلاَ تَرْفُضْنِى وَلاَ تَتْرُكْنِى يا إِلهَ خَلاَصِى. ١٠إِنَّ أَبِى وَأُمِّى قَدْ تَرَكَانِى، وَالرَّبُّ يضُمُّنِى. ١١عَلِّمْنِى يا رَبُّ طَرِيقَكَ، وَاهْدِنِى فِى سَبِيلٍ مُسْتَقِيمٍ بِسَبَبِ أَعْدَائِى. ١٢لاَ تُسَلِّمْنِى إِلَى مَرَامِ مُضَايقِى لأَنَّهُ قَدْ قَامَ عَلَى شُهُودُ زُورٍ وَنَافِثُ ظُلْمٍ. ١٣لَوْلاَ أَنَّنِى آمَنْتُ بِأَنْ أَرَى جُودَ الرَّبِّ فِى أَرْضِ الأَحْياءِ. ١٤انْتَظِرِ الرَّبَّ. لِيتَشَدَّدْ وَلْيتَشَجَّعْ قَلْبُكَ، وَانْتَظِرِ الرَّبَّ". وواضح تماما الآن أن النصين مختلفان موضوعا وجوا نفسيا وأسلوبا وأبعادا.

كذلك يتخذ المؤلف من استعمال القرآن كلمة "زبور" وجمعها: "زُبُر" برهانا على أن محمدا كان يعكف على مزامير داود متعلما ومستفيدا منها وناقلا عنها وحاذيا قريانته حذوها. وفاته أن كلمة "زَبُور" إنما تعنى "الكتاب" أيا كان، وليس كتاب المزامير بالذات، وأن القرآن يستعمل، إلى جانب كلمة "الزبور والزبر" كلمة "الكتاب والكتب". بل إن كلمة "كتاب" ومشتقاتها لتتردد فيه مئات المرات بينما لم ترد كلمتا "زبور" و"زُبُر" سوى تسع مرات ليس إلا. وعلى أية حال ها هم أولاء الشعراء الجاهليون يستخدمون "الزبور والزُّبُر" والفعل المشتق منهما قبل مجىء محمد بدعوته مما يدل على أن استعمال القرآن لهذه الكلمة لا يعنى انشغال محمد بالعكوف على مزامير داود والنقل عنها كما يزعم الكاتب، بل على استعمال القرآن للغة القوم الذين أرسل إليهم محمد: "وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبين لهم".

وهذه شواهد إتيان كلمة "زَبُور وزُبُر" فى الشعر الجاهلى وشعر المُخَضْرَمِين. قال امرؤ القيس:

أَتَتْ حِجَجٌ بَعْدِى عَلَيها فَأَصْبَحَت ... كَخَطِّ زَبُورٍ فى مَصاحِفِ رُهْبانِ

وقال الملك الضِّلِّيل ايضا:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجانى ... كَخَطِّ زَبُورٍ فى عَسِيبِ يمانِ؟

وقال عبد الله بن العجلان النهدى:

أَمِ الدار أَمْسَت قَد تَعَفَّت كأَنَّها ... زَبُورُ يمانٍ نَقَّشَهُ سُطُورُهَا؟

وقال المرقِّش الأكبر:

قد خُطّ ذلك فى الزُّبُو ... رِ الأَوَّلِياتِ القَدائِمْ

وقال لبيد بن ربيعة العامرى:

وَجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلولِ كَأَنَّها ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أَقْلامُها

وقال أبو ذُؤَيب الهُذَلى:

عَرَفْتُ الدِّيارَ كَرَقْمِ الدَّوا ... ةِ يزْبِرُها الكاتِبُ الحِمْيرِى

فالكلمة موجودة فى لغة العرب قبل محمد واتصاله المزعوم بالقِرْيانَات السُّرْيانية. ومن ثم فاستعمال القرآن لها أمر طبيعى، إذ هى اللغة التى يستعملها العرب ويفهمها العرب، ومن الطبيعى أن يخاطَب بها العرب، مع العلم بأن كلمة "كتاب" ومشتقاتها قد تكررت فى القرآن الكريم مئات المرات، وبكل مشتقاتها، فى حين لم يستعمل من مادة "ز ب ر" سوى "الزبور" فقط مفردا وجمعا، وفى تسعة مواضع فقط كما سلف القول. ليس ذلك فحسب، إذ لا وجود لكلمة "زبور" بل لا وجود بتاتا لأية كلمة مشتقة من مادة "زب ر" فى الكتاب المقدس من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله.

وقد ادعى المؤلف زورا أن محمدا كان هدفه وضع قريانة عربية تجمع نصوصا من الأناجيل كى يستعملها هو ومن؟ (لا أدرى والله) فى الصلاة والعبادة. والمعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجتمع بأتباعه فى بيت الأرقم عند الصفا والمروة مثلا أو بين شعاب بعض الجبال، فيصلون هناك. فهل سمعه أحد يصلى بشىء من الأناجيل؟ إن حياته صفحة مفتوحة بيضاء ليس فيها أى غبش، وهى متاحة فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والسِّير النبوية وكتب التاريخ، وليس فى شىء منها أى كلام عن الصلاة بنصوص من غير القرآن. لا مانع أن يكفر أحد بالله وبالإسلام، ولكن ليس بهذه الطريقة.

لقد كان الرسول منذ اللحظة الأولى يعرف أن الأمر هو أمر اتصال بالسماء. ولقد رجَّته التجربة فى بدايتها الأولى رجًّا عنيفًا زلزل كيانه حتى لقد عاد من الغار إثر اللقاء الأول له مع ملاك الوحى ترجف بوادره طالبا من خديجة أن تغطيه وتدفئه، وإن لم يدَعْه الوحى يهنأ بالتلفف فى الأغطية، فأهاب به أن يقوم ويترك الإخلاد إلى الراحة. ترى هل هذا رد فعل رجل كل همه أن يجمع نصوصا من هنا وها هنا من الأناجيل وغيرها مما عند أهل الكتاب لكى يصلى بها هو ومن يسايره فى خطته؟

يقول "صحيح البخارى": "كانَ أَوَّلَ ما بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم الرؤيا الصادقةُ فى النومِ، فكانَ لا يرَى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثم حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، فكانَ يلْحَقُ بغارِ حِرَاءٍ فيتَحَنَّثُ فيهِ الليالِي ذواتِ العددِ قبلَ أن يرْجِعَ إلى أهلِهِ ويتَزَوَّدُ لذَلِكَ، ثمَّ يرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ

فيتَزَوَّدُ بمثْلِهَا، حتى فَجِئَهُ الحقُّ وهو فى غَارِ حِرَاءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقرأْ. فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ما أنَا بِقَارِئٍ. قالَ: فأَخَذَنِى فَغَطَّنِى حتى بلغَ منى الجَهدَ، ثم أرسلنِى فقالَ: اقرأْ. قلتُ: ما أنَا بقارِئٍ. فأخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّانيةَ حتى بلَغَ منى الجَهدَ، ثم أرسلَنى فقالَ: اقرأْ. قلتُ: ما أنَا بقَارِئٍ. فأخذَنِى فَغَطَّنِى الثَالِثَةَ حتى بلَغَ منى الجَهْدَ، ثمَّ أرسلَنِى فقالَ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ... الآياتِ إلى قَوْلِهِ: عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يعْلَم". فرجَعَ بهَا رسولُ اللهِ صلَى اللهُ عليهِ وسلمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حتى دَخَلَ على خَدِيجَةَ فقالَ: زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى. فَزَمَّلوهُ حتَّى ذهَبَ عنهُ الروعُ. قالَ لخَدِيجَةَ: أى خَدِيجَةُ، مَا لِى؟ لقدْ خَشِيتُ على نفسِى. فأخبرَهَا الخَبَرَ. قالتْ خَدِيجَةُ: كلَّا. أَبْشِرْ، فواللهِ لا يخْزِيكَ اللهُ أبدًا. فواللهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرحِمَ، وتصدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِى الضَّيفَ، وتُعِينُ على نَوَائِبِ الحَقِّ. فانْطَلَقَتْ بهِ خديجةُ حتَّى أَتَتْ بهِ وَرَقَةَ بنَ نَوْفَلٍ، وهوَ ابنُ عمِّ خديجَةَ أَخِى أَبِيهَا، وكانَ امرًا تَنَصَّرَ فى الجاهِلَيةِ، وكانَ يكْتُبُ الكتابَ العربى، ويكتُبُ من الإنجيلِ بالعربيةِ ما شاءَ اللهُ أن يكتُبَ، وكانَ شيخًا كبيرًا قد عَمِى، فقالتْ خديجةُ: يا ابنَ عَمِّ، اسمَعْ من ابْنِ أخِيكَ. قالَ ورَقَةُ: يا ابنَ أخِى، ماذا تَرَى؟ فأَخْبَرَهُ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم خَبَرَ ما رأَى، فقالَ ورَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الذى أُنزَل على موسَى. لَيتَنِى فيهَا جَذَعًا، ليتَنِى أكُونُ حيا. قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: أوَمُخْرِجِى هُمْ؟ قالَ وَرَقَةُ: نَعمْ، لم يأتِ رجلٌ بمَا جِئْتَ بهِ إلا أُوذِى. وإنْ يدْرِكْنِى يومُكَ حيا أنْصُركَ نصرًا مُؤَزَّرًا. ثمَّ لم ينْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّى. وَفَتَرَ الوحْى فَتْرَةً حتى حَزِنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم".

ويقول أول نص نزل من القرآن: "اقرأ باسم ربِّك الذى خَلَق * خَلَقَ الإنسانَ من عَلَق * اقرأ وربُّك الأكرم * الذى علَّم بالقلم * عَلَّم الإنسان ما لم يعْلَم". فأين الدياتاصرون هنا؟ إن طريق الوحى الذى نزل على محمد لهو طريق جديد يباين الطرق التى كانت موجودة آنذاك تمام المباينة. إنه طريق العلم والفكر والقلم والثقافة والإبداع. إنه طريق الحضارة. ثم يأتى متسافه فيقترف كذبا بشعا ويقول إنه عليه السلام إنما كان يريد وضع قريانة عربية!

على أن نبوة محمد ليست نبوة محلية بل تتعداها إلى النبوة العالمية التى تتغيا هداية البشر جميعا على اختلاف أديانهم وأقطارهم وأزمنتهم. وهذا مثبت فى نصوص الوحى المبكرة والمتأخرة: "وماأرسلناك إلا كافَّةً للناس بشيرا ونذيرا"، "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، "قل: يا أيها الناس، إنى رسول الله إليكم جميعا"، "إن الذين آمنوا، والذين هادوا والصابئين والنصارى: من آمن بالله واليوم الآخر، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"، "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين". كما تكرر فى القرآن القول بأن موسى وعيسى قد بشرا بنبوة محمد ودَعَوَا أتباعهما إلى المسارعة للإيمان به. ومصداقا لهذا دعا محمد اليهود والنصارى فى بلاد العرب إلى اعتناق دينه، كما بعث برسائل إلى ملوك الأرض من حوله يدعوهم إلى الإسلام. فهل هذا صنيع رجل كان منتهى أمله وجُمَّاع همه أن يجمع بعض نصوص الأناجيل كى يصلى بها هو ومن معه؟ ثم لماذا لم يرد عليه هرقل مثلا قائلا له: اربع على ظلعك! أتراك تظن أننا لا نعرف حقيقتك وأنك واحد من أتباع ديننا كل غايتك تصنيف دياتصرون تصلى به وتعبد ربك وتدعوه؟ لكنهم كلهم سكتوا فلم ينبسوا ببنت شفة. فعلام يدل ذلك؟

بل لقد كان القرآن يتحدى أعداءه على الدوام مؤكدا لهم فى كل مرة أنهم منهزمون منهزمون مهما أنفقوا من أموال وحشدوا من رجال وحاكُوا المؤامرات وحبكوها. وهذا التحدى قد بدأ مبكرا فى مكة ومحمد ضعيف يتعرض صباح مساء إلى الأذى والأخطار التى تتهدد حياته، ولم ينتظر حتى ينتقل مع أتباعه إلى المدينة وتصير له دولة وقوة، وظل القرآن ينتهج ذات النهج إلى آخر عمره عليه السلام: "قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يفْلِحُ الظَّالِمُونَ" (الأنعام/ ١٣٥)، "وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ" (هود/ ١٢١– ١٢٢)، "قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يأْتِيهِ عَذَابٌ يخْزِيهِ وَيحِلُّ عَلَيهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ" (الزُّمَر/ ٣٩– ٤٠)، "قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِى وَمَنِ اهْتَدَى" (طه/ ١٣٥)، "أَمْ يقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ" (الطور/ ٣٠– ٣١)، "قُلْ هَلْ

تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ" (التوبة/ ٥٢)، "أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ" (الطور/ ٤٢)، "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ" (الأنفال/ ٣٦)، "هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" (التوبة/ ٣٣)، "هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا" (الفتح/ ٢٨)، "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" (الصفّ/ ٧- ٩)، "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا" (النصر/ ١- ٣)... فما السر يا ترى؟ السر، ببساطة شديدة، هو أنه كان نبيا مرسلا من عند الله عز وجل، ولم يكن، كما افترى عليه الكاتب، رجلا كل همه أن يؤلف كتابا ليتورجيا.

كذلك كان له صلى الله عليه وسلم أعداء نصارى ومنافقون ويهود ووثنيون. فكيف سكتوا كلهم فلم يفتح الله عليهم بكلمة تتهمه بأنه ليس سوى رجل نصرانى يريد إنشاء قريانة عربية يصلى ويعبد الله بها هو ومن يرافئه على هذا؟ لقد كان هناك زوج رملة بنت أبى سفيان، الذى هاجر مع من هاجر من مكة إلى الحبشة حيث تنصر وأخذ يسخر من رفقائه المسلمين ويعلن أنه كان مغمض العينين ففتَّح، وبَقُوا هم فى عماهم القديم. فلماذا لم يقلها؟ وكان هناك أمية بن أبى الصلت، وكان يبغض محمدا ويريد أن يكون هو النبى المنتظر. فلماذا لم يهتبل الفرصة السانحة ويضرب محمدا ضربة تطيره من مقعد النبوة ويحتل هو مكانه؟ ولن يكلفه الأمر شيئا سوى أن يعلن ما كان يعرفه من أنه ليس أكثر من نصرانى كل همه تجميع كتاب من بعض نصوص الأناجيل يستعين به فى صلواته وعباداته. وكان هناك وفد نجران، الذى أتى إلى المدينة ودعاهم النبى إلى المباهلة فنكصوا على أعقابهم وآثروا دفع الجزية والبقاء على ما هم عليه من النصرانية. ولنلاحظ أنهم من أهل اليمن،

الذين قال المؤلف إنهم من اليعاقبة وتأثر بهم محمد فى عقيدته حول السيد المسيح. ترى لماذا لم ينتهزوا فرصتهم العظيمة لكى يقضوا على مزاعم محمد ويخْزُوه ويكشفوا الغطاء عن حقيقته عوضا عن الهروب من المواجهة والمباهلة وتفضيلهم دفع المال لينجوا من الهوان والفضائح؟ وكان هناك أيضا جَبَلَة بن الأيهم، الذى ارتد فى عهد عمر وهرب تحت جنح الظلام والتحق بالروم وصار من مقربيهم والمبجلين لديهم. فلم يا ترى لم يكشف السر الخطير الذى ظل دفينا حتى هل علينا المستشرق الفرنسى ووصل بلوذعيته إلى ما لم يصل إليه أحد طوال كل هاتيك الأجيال؟ وبالمثل كان هناك يهودٌ كِثَارٌ فى المدينة تقبع فى قلوبهم نحو محمد إِحَنٌ وعداواتٌ وثاراتٌ وأحقادٌ متلتلة، ولم يفلتوا أية وسيلة دون أن يحاربوه بها إرادة القضاء عليه وعلى دينه. فما السبب يا ترى فى أنهم خَرِسُوا كغيرهم فلم يكشفوا الغطاء الذى يتلفف به محمد ويخفى به حقيقته؟ السبب هو أنه لم يكن ثم غطاء ولا كانت ثم عورات يعمل على إخفائها البتة. لقد بلغت بهم الوقاحة وجمود الوجه أن سافر بعض زعمائهم إلى مكة أثناء اشتعال الصراع بين مكة الوثنية والمدينة الموحدة وقالوا للمشركين إن آلهتهم خير من توحيد محمد. أفلو كان هناك شىء مما يزعمه الكاتب على محمد كذبا أكانت يهود تسكت فلا تطنطن به وتستخدمه خنجرا فى ظهره؟

ومما يلجأ إليه الكاتب أيضا لإثارة اللغط والبلبلة حول القرآن زَعْمُه أن كلمة "يلْحِد" فى قوله تعالى عن الشخص الذى كان المشركون يدَّعون أنه هو الذى علم الرسول فكانت ثمرة تعليمه القرآن: "ولقد نَعْلَم أنهم يقولون إنما يعلِّمه بَشَرٌ. لسان الذى يلحدون إليه أعجميٌّ، وهذا لسانٌ عربىٌّ مبينٌ" مأخوذة من الكلمة السريانية: "I'ez" بمعنى "تكلم بإبهام". وهذا عنده دليل على أن مصدر القرآن سريانى. ثم يمضى فى مزاعمه الطائشة قائلا إن القرآن لا ينفى أن يكون معلم محمد أعجميا، إذ كل ما يؤكده هو أنه مصوغ صياغة عربية مبينة، لكنه لا ينكر وجود معلم أعجمى لمحمد. وكما يرى القارئ فإن الكاتب يخلط الأمور خلطا شنيعا، إذ أين الدليل على أن كلمة "يلحد" مأخوذة من السريانية؟ لا دليل. كما أن الكلمتين لا تتطابقان صوتيا، وليس هناك دليل على أن العين والزاى فى الكلمة السريانية قد تحولتا إلى حاء ودال فى العربية. وفوق هذا فمعنى الكلمتين مختلف،

فالقرآن لا يريد أن يقول إن اتهام المشركين للنبى كان مبهما، بل كان منحرفا عن سواء الحق، إذ يتركون الصواب وينحرفون إلى مثل تلك الاتهامات الكاذبة. وهذا معنى "اللحد والإلحاد" فى اللغة العربية. وحتى لو افترضنا أن "ل ح د" موجودة فى السريانية وأن هذا هو معنى الكلمة فيها فعلا فلم ياترى يجب أن تكون العربية هى الآخذة لا المعطية؟ إن كلتا اللغتين لغة سامية، والعربية لغة قديمة جدا حتى إن بعض علماء اللغة من بين الغربيين أنفسهم يجعلون من لغة الضاد أصل اللغات السامية جميعا. وتبلغ وقاحة الكاتب الزعم بأن القرآن لا ينفى وجود معلم لمحمد. ترى كيف ذلك؟ لقد أورد القرآن تهمة المشركين ورد عليها مؤكدا أن من يقول ذلك عن محمد ويكذب بنبوته وبالقرآن هو مفترٍ للكذب، وله يوم القيامة عذاب أليم: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ إِنَّمَا يعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يلْحِدُونَ إِلَيهِ أَعْجَمِى وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِى مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يؤْمِنُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ لَا يهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يؤْمِنُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ". فما معنى ذلك؟ معناه أن ما يقوله المشركون باطل. لكن الكاتب يعمل على إفساد اللغة والمنطق بضميره المنكوس.

ولنأخذ بعض النصوص الأخرى التى تتناول نفس الموضوع جريا على ما يقوله الكاتب من أن القرآن ذاتى المرجعية، ومن ثم ينبغى التحاكم إليه عندما نريد أن نفسر منه شيئا، إذ هو يفسر بعضه بعضا. جاء فى سورة "الفرقان": "تبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * ... * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِى تُمْلَى عَلَيهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا"، وفى سورة "الكهف": "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِينْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا"، وفى سورة "طه": "طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيكَ الْقُرْآَنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا"، "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يتَّقُونَ أَوْ يحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا"، وفى سورة "الأنبياء": "قَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"،

"وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ"، وفى سورة "الحج": "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آَيَاتٍ بَينَاتٍ"، وفى سورة "القصص": "وكذلك أنزلنا إليك الكتاب"، "أَوَلَمْ يكْفِهِم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتْلَى عليهم؟"، وفى سورة "ص": "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيكَ مُبَارَكٌ لِيدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ". وفى سورة "القدر": "إنا أنزلناه فى ليلة القدر"... إلخ، وهو كثير.

ليس هذا فحسب، بل لقد أُمِر محمد أن يعلن، ردا على المشركين الذين كانوا يريدون منه تبديل الوحى، أنه لا يستطيع شيئا من هذا لأن الأمر ليس مرده إليه بل إلى الله: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آَياتُنَا بَينَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآَنٍ غَيرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يوحَى إِلَى إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيتُ رَبِّى عَذَابَ يوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ". ومع هذا يتغشمر الكاتب فيزعم أن القرآن لا ينكر أن يكون هناك معاونون لمحمد يخبرونه بها فى القريانة السريانية. كل ما هنالك أنه حريص على القول بأنه عربى الصياغة واضح المعنى. ما كل هذا التواضع يا كاتبنا؟

ثم ها هو ذا القرآن لا ينفى فقط أن يكون هناك معلمون لمحمد، بل يجعل من نفسه الرقيب والمهيمن على التوراة والإنجيل كما جاء فى سورة "المائدة": "وَأَنْزَلْنَا إِلَيكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَينَ يدَيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيمِنًا عَلَيهِ". ذلك أن أهل الكتاب، كما نقرأ فى نفس السورة، قد عبثوا بكتابيهما: "وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَى عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيةً يحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَينَا بَينَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يوْمِ الْقِيامَةِ وَسَوْفَ ينَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يصْنَعُونَ * يا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يبَينُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *

يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"، "يا أَيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يرِدِ اللَّهُ أَنْ يطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى الدُّنْيا خِزْى وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"...

على أن هذه ليست خاتمة المطاف، ففى نصوص الوحى المبكرة كلام عن النبوة والرسالة وصحف الوحى واليوم الآخر والنعيم والعذاب وما إلى ذلك مما ينسف الفكرة التى يلف المؤلف ويدور حولها فى تساخف بغيض كما هو الحال فى سُوَر "الهُمَزة والتكاثر والقارعة والعاديات والزلزلة والليل والغاشية والانشقاق والانفطار وعَبَسَ والنبأ والمرْسَلات والإنسان والقيامة والمدَّثِّر والمزَّمِّل والجن والمعارج والحاقّة والقلم والمُلْك..."، وهَلُمَّ جَرًّا. أى أن كل الطرق التى يحاول المؤلف سلوكها مغلقة تمام الإغلاق فى وجهه لا يستطيع معها شيئا مهما اتخذ من الحيل ووضع من الخطط، إذ هو يقول كلاما متهافتا يدابر المنطق ويناقض وقائع التاريخ الصحيحة.

وفى نهاية المطاف، وبعد أن اتضح تهافت فكر المؤلف ولامنطقيته وتناقضه وما يعج به من خيالات مريضة، نتساءل: ترى ما الغاية التى يتغياها هذا الشيطان من وراء هذا السخف؟ إنها محاولة البلبلة ونشر الفوضى فى الذهن الإسلامى حتى يخر ساقطا من الإرهاق والشك وعدم الاطمئنان لشىء أو الاستقرار على شىء. إنها الفوضى الخلاقة التى تسعى أمريكا إلى خلقها خلقا فى بلاد المسلمين، لكنها هذه المرة فوضى فكرية لا سياسية. وهذه الفوضى أعتى من الفوضى الأخرى لأنها تأتى إلى أساس كل شىء، ألا وهو العقل، فتنسفه أو على الأقل: ترجّه وتبلبله أملا فى أن ينتهى به الأمر إلى الإرهاق الشديد والسقوط الذريع. وفى المثل الشعبى: "الزَّنّ على الآذان أَمَرّ من السِّحْر". والواقع أن المؤلف قد أقدم على كتابة بحثه هذا وفى ذهنه تحيير العيون وشَلّ العقول ولخبطة الأذهان، وبخاصة وقد أضاف إلى هذا كله عددا كبيرا من المراجع يختار كلمة من هذا

وعبارة طائرة من ذاك متقافزا من مرجع إلى آخر، ومن عصر إلى عصر غيره، سواء كانت هناك صلة بين الطرفين أو لا. فالمراد هو إرعاب القارئ بإيهامه أنه أمام عالم لوذعى فذ، وتدويخ عقله وشله تماما بكثرة الإحالات ومراكمة المصادر والمراجع بحيث يجد نفسه فى حالة انبهار وتسليم وعجز. ولن يعدم المؤلف شياطين مستعدين للمعاونة فى هذا المجال أو حمقى جاهزين لتصديق هذا الجنون. وعلى رأى المثل الشعبى: "طلقة الرصاص التى لا تصيب تزعج".

ومن الواضح أيضا أن الكاتب يتصرف فى دراسته هذه، إن صحت تسميتها: "دراسة"، تصرُّف من يمارس لعبة الچيج سو (jig saw). إنه طوال الوقت يبذل جهده للبحث عن القطع التى يملأ بها الفراغات المجهزة سلفا حتى ينتهى إلى الشكل المراد تجميعه. فلديه، منذ البداية، الشكل النهائى الذى يجب الخروج به فى آخر اللعبة مهما أخذت من وقت واستعمل لها من طرق. لقد وضع المؤلف فى ذهنه مسبقا أنه لا بد من الوصول إلى أن محمدا لم يكن نبيا بل كان يجمع النصوص المستعارة من اليهودية والنصرانية والمانوية والغنوصية والدياتسارون والأناجيل الأبوكريفا... إلخ لتكوين قريانة عربية كالقِرْيانَات التى كان يؤلفها السريان. وعلى هذا الأساس ينطلق المؤلف فيلتقط هذا النص من هنا، وذلك النص من هناك واضعا كلا منها فى الفراغ المخصص له بحيث ينتهى إلى الفكرة المذكورة. وما هكذا يكون البحث العلمى. فالبحث العلمى يقوم على الحيادية والمنطق والمقدمات التى تؤدى إلى نتائجها الطبيعية واحترام السياق والنصوص والوثائق لا الاجتراء عليها وإهمالها وضرب الصفح عنها.

ثم إن هذه الفكرة الملفقة التافهة تفترض أن محمدا كانت تحت يده مكتبة متخصصة فى اللغات الشرقية والنصوص الدينية المختلفة، ولديه هو والفريق الذى يعاونه وقت بلا حساب للنظر فى كتب تلك المكتبة وتفليتها تفلية دقيقة كى يختاروا منها النصوص التى يمكن تأليف قِرْيانة منها، ثم ترجمة تلك النصوص ترجمة راقية رُقِيا غيرَ مسبوق أو ملحوق ثم مراجعتها مراجعة دقيقة لا يخرّ منها الماء، فضلا عن خلوّ البال من مقلقات العيش ومتطلبات الحياة، وهو ما يستلزم وجود مؤسسة تنفق على هذا المشروع وعلى من يقومون به عن سعة. ثم إنهم، بعد ذلك كله، يجتمعون فى

السر والظلام بحيث لا يراهم أحد ولا يسمع بهم أحد ولا يعرفهم أو يتنبه لأمرهم أحد، اللّهم إلا المؤلف النِّحْرِير بعد كل تلك القرون المتطاولة.

والحق أن هذا ليس بغريب فى ساحة الصراع الحضارى القائم بيننا وبين الغرب والمستمر منذ قرون. فالغرب فى صراعه مع الإسلام يتنفس طول عمره الكذب تنفسا. وله فى ذلك تقاليع كارثية. فقديما افترى الغربيون الكذب على الإسلام زاعمين أن محمدا قسٌّ رومانى محنق لأنه لم ينتخب لكرسى البابوية. وقال بعضهم إنه إله زائف يقرّب له عباده الضحايا البشرية. وادَّعَوْا أنه مات فى نوبة سكر بين وأن جسده وُجِدَ مُلْقًى على كوم من الرَّوْث وقد أكلت منه الخنازير، وهذا هو السبب الذى من أجله حرّم لحم ذلك الحيوان فى الإسلام. كما جعلوا له صنما من ذهب. أمّا أغنية رولان، التى تصوّر فرسان شارلمان وهم يحطّمون الأوثان الإسلامية، فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثا مكوّنا من ترفاجان وماهوم وأبلون. وتزعم "قصة محمد" أن الإسلام يبيح للمرأة تعدّد الأزواج! وهو، كما ترى أيها القارئ، كلام يشبه كلام المجانين.

أما فى العقود الأخيرة فقد رأينا مثلا كتاب "الهاجرية" للمستشرقين: مايكل كوك وباتريشيا كرون، اللذين يزعمان أنْ "ليس ثمة دليل قوى حول وجود القرآن بأى شكل قبل العقد الأخير من القرن السابع، والتقليد الذى يقدّم هذا النص المنزّل المبهم إلى حد ما فى سياقه التاريخى لم يشْهَد على صحته قبل منتصف القرن الثامن". وهناك بيير راكان الطبيب النفسانى الفرنسى الملتاث الذى ينادى فى كتابه: "Un Juif nommé Mahomet" ببقر بطن المدينة المنورة كى نثبت لجنابه أن محمدا كان موجودا حقيقة، ولم يكن وهما من الأوهام. ألا يقول المسلمون إنه كانت هناك معركة تسمى: معركة الخندق؟ فلنبقر بطن المدينة إذن حتى نثبت أنه كان هناك فعلا خندق، ومن ثم كان هناك رجل اسمه محمد. وهذا جنون مطبق دون مراء. وهو ما تناولته فى دراسة لى بعنوان "تقاليع مجنونة فى كتابة السيرة النبوية".

وقبل هذا وذاك ظهر على الساحة فى بداية الربع الثانى من القرن العشرين بحث لديفيد صمويل مرجليوث يمضيى فى نفس الاتجاه التشكيكى المطلق، وإن دار تشكيكه حول شعر ما قبل

الإسلام. وعنوان البحث: "The Origins of Arabic Poetry"، وفيه ينكر المستشرق البريطانى الشعر الجاهلى كله مدعيا أنه من نتاج العصر العباسى، ولم يكن له وجود البتة قبل ذلك التاريخ. والعجيب أنه رغم كل تلك المؤامرات يتهمنا الغربيون بأننا نعتقد بنظرية المؤامرة دون وجه حق وأن اعتقادنا فيها قد صار إدمانا، وأفسد علينا عقولنا وحياتنا، وجعلنا نتوهم أشياء ما أنزل الله بها من سلطان. أى أنهم يريدون منا إلغاء عقولنا، فيصير من السهل إذن خداعنا والمكر بنا وقلب الحق باطلا، والباطل حقا.

كرستوف لكسنبرج ودعوى سريانية القرآن

للمستشرق المجهول الجنسية والهوية، وإن قرأت لنبيل فياض فى حوار له قرأته على المشباك (النت) أنه سورى يعيش فى ألمانيا، كرستوف لكْسِنْبِرْج (Christoph Luxenberg) بحث بعنوان "سورة النّجم: قراءة سريانية- آرامية جديدة" طبق فيه، على صدر سورة "النجم"، دعواه الطويلة العريضة عن غير علم أو منطق أو برهان بأن فى القرآن أشياء كثيرة لا يمكن فهمها بدون الرجوع إلى اللغة السريانية لأنها مأخوذة من تلك اللغة لفظا ومضمونا، إذ كان لمحمد معاونون ممن يعرفون لغة السريان يساعدونه على تأليف القرآن وشحنه بالكنوز الدينية السريانية. وهذا البحث مترجم إلى العربية بقلم التونسى ناصر بن رجب المعجب أشد الإعجاب بالمستشرقين الذين يهاجمون الإسلام والقرآن دون عقل أو برهان، ومنشور فى موقع "الحوار المتمدن". وكنت، وأنا أقرأ البحث، أتخيل أنى فى محل تحف ثمينة أتأمل كنوز الفن والجمال والإبداع، وإذا بثور يدخل بغتة ويدهس كل التحف الرائعة الثمينة بأظلافه دون وعى أو إدراك. وبالمناسبة فلكرستوف لوكسنبرج كتاب كامل فى دعوى استعانة النبى بالسريان فى تأليف القرآن اسمه بالألمانية: "Die Syro-Aramäische Lesart des Koran: Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache"، وبالإنجليزية: "The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Qur'an". وهو أساس تلك الصرعة السريانية الحالية السخيفة فى ميدان التفسير القرآنى التى يراد منها نشر التشكيك فى القرآن وفى نبوة محمد بين المسلمين بكثرة الإلحاح عليها هنا وهناك.

يقول لكسنبرج فى أول بحثه ما نصه: "لقد أظهر التحليل الفيلولوجى أنّ الألفاظ الثلاثة التى تُكوِّن هيكل كتاب الإسلام المُقدَّس لها جذر سريانى: ١- قرآن (وهى صيغة مُحرّفة من "قِرْيانا"- كتاب طقوس)، ٢- سورة (من السريانية "سورة كْتَابْ"، تعنى حرفيا: نصّ الكتاب- كتاب [مقدّس])، ٣- آية (قراءة خاطئة للّفظة السريانية: "آثًا" - علامة [من بين معانى أخرى]: أ- علامة سماوية- مُعْجِزة، ب- كلّ علامة من العلامات التى تتكوّن منها الكتابة، أى كلّ حرف من حروف الأبجدية). وهكذا يبدو واضحا وبشكل مطّرد أنّ نصّ القرآن، وهو أوّل كتاب تأسيسى فى لغة

الأدب العربى، لا يمكن فهمه ضمن محيطه التّاريخى إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار اللّغة الأدبية المُهَيمِنة فى تلك الفترة وفى ذلك الوسط. لقد وصف آرثر جيفرى، فى كتابه: " The Foreign Vocabulary of the Qur'an"، المكانة الرئيسية التى تحتلّها اللغة السريانية فى مجمل المفردات القرآنية الأجنبية التى يحتوى عليها القرآن على النّحو التالى:

"السّريانية: ذاك هو، بدون أدنى شكّ، المنبع الغزير الذى نهل منه القرآن. فاللّغة السريانية، التى لا تزال حية إلى اليوم كلغة ليتورجية، وكذلك كلهجة تتكلّم بها أقلية من المسيحيين الشرقيين فى سوريا وبلاد ما بين النهرين وفارس، كانت فى تلك الفترة (ظهور الإسلام) لغةَ التخاطُب لتلك الجماعات المسيحية التى كانت معروفة معرفة جيدة لدى العرب. (وكتب جيفرى فى الهامش: بالنّسبة لهذه الدراسة فإنّ لفظ سريانية= الآرامية المسيحية. وهذا يشمل اللّهجة المسيحية الفلسطينية واللّهجة الآرامية للمسيحيين القاطنين شمالى سوريا بالإضافة إلى لهجة الرُّها (أورهاى بالآرامية) السريانية الكلاسيكية التى نعرفها جيدا من خلال الأدب والتى من المعروف أنّها استولت بغير حقّ على لقب "سريانية"). إنّه من الصّعب تحديد مدى انتشار استعمال اللّغة السّريانية فى زمن محمّد فى المنطقة التى تُعْرَف اليوم بسوريا، ولكن يبدو من المؤكّد إلى حدٍّ ما أنّه، عندما كانت اللّغة الإغريقية هى اللّغة الأدبية المهيمِنة فى المنطقة فى تلك الفترة، فإنّ السكّان العاديين الأصليين كانوا يتكلّمون عامّةً السريانية"".

والملاحظ أن المستشرقين بوجه عام حريصون بشكل سخيف ومَرَضِىّ على أن يرجعوا كل لفظ دينى فى الإسلام إلى لغة سامية أخرى غير العربية: فهذه الكلمة آرامية الأصل، وتلك عبرية، وتيك سريانية... إلخ. ولم يحدث، فى حدود ما أذكر، أن رد أحدهم كلمة عبرية أو آرامية أو سريانية إلى أصل عربى، مع أن كل تلك اللغات لغات سامية ترجع كلها إلى أصل واحد، ومن ثم فالصلات بينها قوية، ووجوه الشبه فى الألفاظ والمعانى كثيرة، وبالتالى لا ينبغى أن نقول باستعارة العربية من أى منها بل بانحدارها كلها، ومنها العربية، من اللغة السامية الأم، سواء كانت السامية لغة حقيقية

أو أصلا مفترضا، ودعنا الآن من أن بعض علماء الساميات يجعلون من العربية أصلا لكل تلك اللغات بمعنى أنها هى اللغة السامية التى تفرعت منها كل هذه الألسنة.

إذن فاللغة السامية هى الصلة المشتركة بين تلك اللغات المذكورة، ومعها الأكادية والبابلية والفينيقية والحبشية... وعلى هذا فمتى توقفنا عند شىء مشترك بين العربية وأى منها، وكان لا بد من القول باستعارة إحداهما من الأخرى فالمفروض أو الأرجح على الأقل أن تكون العربية هى المعيرة، والأخرى هى المستعيرة. لكن المستشرقين بعامة يصرون على نهجهم ذاك الغريب المدابر للعلم والمنهج العلمى مكايدةً للإسلام ونكايةً فيه. ذلك أن العربية عندهم هى لغة محمد، ولغة القرآن الذى نزل على محمد، ولغة الدين الذى أتى به محمد وانتصر على اليهودية والنصرانية وتحولت الملايين من أتباعهما إليه عبر القرون، أما الآرامية والسريانية والعبرية فلغات اليهود والنصارى رغم أنها كلها لغات شرقية، أى ليس لهم منها شىء، لكنها العصبية الدينية المتطرفة.

ولدينا هنا ثلاث كلمات (هى "القرآن والسورة والآية") يقول المؤلف إنها موجودة أيضا فى السريانية. وسوف أصدقه مؤقتا، بل أزيد ووأفترض أنها موجودة فى هاتين اللغتين بنفس النطق والمعنى. فلم يا ترى ينبغى أن نقول باستعارة العربية لها من السريانية؟ بل لم لا نقول إن السريانية هى التى استعارتها من لغة الضاد، وبخاصة فى ضوء ما يقوله بعض المتخصصين فى اللغات السامية من أن العربية هى اللغة الأم التى انبثقت منها الآرامية والسريانية والعبرية وغيرها من اللغات السامية؟ فإذا ما تبين لنا أن كلمة "القرآن" مشتقة من "ق ر أ"، وكانت مادة "قرأ" موجودة فيها على نطاق واسع، ووزن "فُعْلان" منتشرا انتشارا واسعا ك"برهان، وفرقان، وتكلان، وحسبان، وعمران، وبنيان، وجردان، وفقدان..."، إضافة إلى أنها ليست بنفس النطق والمعنى فى السريانية، كان لنا أن نقول إن المستشرقين يتساخفون فى موقفهم ذاك. وهذا أخف لفظ يمكن أن نصفهم به هنا. وإذا كان محمد قد استعار تلك اللفظة رغم ذلك من السريانية محولا إياها خطًا من "قريانة" إلى "قرآن"، وهم يقولون إن محمدا كان يستعين بسريان فى تأليف قرآنه، فكيف يا ترى نعلل ذاك الخطأ،

فى الوقت الذى كان حوله سريان أصلاء؟ ترى لماذا لم يصلحوه له؟ بل لماذا يقع ذلك الخطأ أصلا، وهم موجودون؟ ألا تَرَوْن أن المستشرقين يقلبون الوضع رأسا على عقب؟

والمعروف أن الرسول عليه السلام، بأمر من الله سبحانه، كان حريصا على إبعاد أى تأثير يهودى أو نصرانى عن دينه حتى إنه، حين فكر فى طريقة لدعوة المسلمين إلى الصلاة، واقترح عليه بعضهم النفخ فى الشبور كما يفعل اليهود، أو قَرْع الجرس على النحو الذى يصنع النصارى، رفض هذا وذاك، واستقر الأمر على الاستفادة من الصوت الإنسانى الجميل الرقراق. كما أنه قد أمر أتباعه أن تكون لحاهم مخالفة للحى غيرهم كما هو معروف. وهناك حديث يحض على الصلاة فى النعال، وصيام تاسع المحرم مع عاشره جميعا مخالفةً لليهود. وكان اليهود إذا حاضَتِ المرأةُ فيهم لم يؤَاكِلُوهَا ولم يجَامِعُوها فى البيوتِ، فسأل أصحابُ النبى صلى الله عليه وسلم النبى، فأنزلَ اللهُ تعالى: ويسألونك عن المحيض. قل: هو أذى. فاعتزلوا النساء فى المحيض... إلى آخر الآية. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اصْنَعُوا كلَّ شىءٍ إلا النكاحَ. فبَلَغَ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجلُ أَنْ يدَعَ من أمرِنَا شيئًا إلا خالفَنَا فيه. وفى المدينة نزل الوحى بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بعدما كان المسلمون فى مكة يستقبلون الكعبة وبيت المقدس معا فى ذات الوقت قائمين إلى الجنوب من الكعبة بحيث تكون بينهم وبين بيت المقدس فى الصلاة، فيستقبلون الاثنين جميعا، وبعدما صَلَّوْا بعض الوقت إلى الشمال حين لم يعد ممكنا الصلاة إلى الكعبة وبيت المقدس فى نفس الوقت، أتى الوحى بالتحول فى الصلاة إلى جهة الجنوب نحو مكة حيث يقوم البنيان الذى شاده من قديمٍ أبوهم إبراهيم.

وفوق هذا فإن القرآن ينتقد النصارى انتقادا شديدا ويتهمهم بالتلاعب بكتابهم ونسيان حظ مما ذُكِّروا به ويهاجمهم لإشراكهم السيد المسيح فى الألوهية، فكيف يقال إن الرسول قد أخذ "القرآن" من "قِرْيانة" السريانية النصرانية؟ وهذا إن كان، ولا يمكن أن يكون، هناك سريان فى مكة، وكذلك لم يكن حوله سريان فى أى مكان أو زمان ولا كان يعرف سريانا فى يوم من الأيام ولا استعان بأحد من السريان فى صياغة قرآنه، ببساطة لأن القرآن كتاب سماوى جاء من عند رب

العالمين. وهذا ما يحاول المستشرقون والمبشرون إثارة الضجيج حوله بهذه البهلوانيات المضحكة التى مكانها الوحيد المناسب هو السيرك.

ثم لماذا السريانية بالذات؟ هل فيها سرٌّ باتعٌ جعلت لكسنبرج يختارها هى بالذات دون غيرها من اللغات سامية كانت أو حامية؟ لاحظ، أيها القارئ العزيز، أنه يقول بوجود السريانية آنذاك فى الشام والعراق فقط، وإن لم يكن رغم هذا متأكدا مما يقول. ومن ثم كان سؤالنا المشروع بل وسؤال أى شخص عنده عقل ومنطق: إذا كان موطن السريانية على هذا البعد الشاسع من مكة حيث ظهر محمد والقرآن فكيف يا ترى تفسر تأثر القرآن بها؟ وأين الدليل على ذلك التأثر؟ ومتى تم؟ ومن كان الوسيط أو الوسطاء الذين أخذ محمد السريانية عنهم وأدخلها قرآنه؟ وفى أية ظروف كان ذلك؟ ولماذا سكت معلموه أو معاونوه عن ذكر دورهم، وبخاصة حين خدعهم وجعل من نفسه نبيا وتركهم يقشرون بصلا وفاز هو بالغنيمة وصار اسمه يدوى كالطبل: أولا فى بلاد العرب، وبعد هذا فى بلاد الدنيا كلها، فى الوقت الذى لا يذكرهم ولا يبالى بهم ولا يعرفهم أحد، وقبعوا فى الظلام والخفاء ونسجت عليهم العنكبوت بيتها ونسيهم العالم أجمع؟ بل لماذا خرس سائر سريان الشام كلهم طوال تلك القرون فلم يحاولوا فضح هذه اللعبة المحمدية؟ واضح أن كلام المستشرق لا يساوى خردلة!

والعجيب أن ألفاظ "السريانية" و"السريان" لا وجود لها لا فى الشعر الجاهلى ولا فى شعر المخضرمين ولا فى شعر صدر الإسلام بما فى ذلك شعر أمية بن أبى الصلت المتصل بكتب أهل الكتاب ولا فى القرآن ولا فى السيرة. ويؤكد البروفسير دانيال كينج، أستاذ اللغة السريانية– الآرامية بجامعة كارديف، فى بحثه: "A Christian Qur'an?" أن فى كلام لكسنبرج عن الألفاظ السريانية المزعومة فى القرآن ما يدل على اضطراب علمه بتلك اللغة، وعلى تسرعه وتعسفه فى استنتاج نتائجه. بل لقد لاحظ أن بعض تلك الألفاظ لا وجود لها أساسا فى لغة السريان.

ثم إن القرآن يكرر فى كل المناسبات أنه قرآن عربى نزل بلسان عربى: "وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبين لهم"، "بلسانٍ عربى مُبِينٍ"، "قرآنًا عربيا غيرَ ذى عِوَج"، "ولو جعلناه قرآنا

أعجميا لقالوا: لولا فُصِّلَتْ آياتُه؟ أأعجميٌّ وعربيٌّ؟". فلو كان القرآن سريانيا لهب أهل مكة والعرب جميعا، وعلى رأسهم اليهود والنصارى، يصرخون فى وجه النبى عليه السلام متهميه بالكذب الصراح قائلين: كيف تجرؤ على أن تنكر الحقائق الساطعة سطوع الشمس فى وضح النهار وتقول إن القرآن الذى أتيتنا به قرآن عربى فى حين أنه سريانىٌّ؟ ثم هل تظن أننا نائمون على صماخ آذاننا فلا نعرف أن فلانا وفلانا وفلانا ممن يعرفون السريانية يعينونك فى تأليف قرآنك؟ الحق أنى لا أدرى كيف تواتى بعض الناس الوقاحة فيتهموا القرآن الكريم بأنه يجرى على قواعد النحو السريانى، بينما هو أمامنا يتبع نحو العرب ومعجم العرب وتعابير العرب وصور العرب وتراكيب العرب. ألا إنها لجرأة بلغت المدى فى السماجة وجمود الوجه، وبخاصة حين تصدر عن مستشرق أعجمى يريد أن يعلمنا لغتنا بجهل وتنطع لا يطاقان!

ونبدأ بمناقشة تساخفات لكسنبرج، وأولها الزعم بأن كلمات "قرآن" و"سورة" و"آية" هى كلمات سريانية: أما "قرآن" فهو مصدر مشتق من مادة "ق ر أ"، وألفاظها كثيرة فى القرآن الكريم، ومعظمها مرتبط بقراءة القرآن: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الأعراف/ ٢٠٤)، "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ" (النحل/ ٩٨)، "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يوْمَ الْقِيامَةِ كِتَابًا يلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيوْمَ عَلَيكَ حَسِيبًا" (الإسراء/ ١٣- ١٤)، "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَينَكَ وَبَينَ الَّذِينَ لا يؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا" (الإسراء/ ٤٥)، "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا" (الإسراء/ ١٠٦)، "وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ" (الشعراء/ ١٩٨- ١٩٩)، "إِنَّ رَبَّكَ يعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَى اللَّيلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يقَدِّرُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآَخَرُونَ يقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (المزمل/ ٢٠)، "لا

تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَينَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ" (القيامة/ ١٦ – ١٨)، "وَإِذَا قُرِئَ عَلَيهِمُ الْقُرْآنُ لا يسْجُدُونَ" (الانشقاق/ ٢١).

ومن شواهد شعر تلك الفترة فى هذا المجال البيتان التاليان لشاعرين أحدهما لم يسلم قط، وهو أمية بن أبى الصلت، والثانى لم يكن أسلم بعد، وهو كعب بن زهير. يقول أمية:

كِتابًا مِنَ الله نَقْرَا بِهِ فَمَنْ يعْتَرِيهِ فَقِدْمًا أَثِمْ

ويقول كعب:

يسْقِينَ طُلْسًا خَفِياتٍ تَراطُنُها كَما تَراطَنُ عُجْمٌ تَقرَأُ الصُّحُفا

ومن استعمال العرب آنذاك لكلمة "قرآن" بمعنى الكلام المقروء، وهو المعنى اللغوى لا الاصطلاحى، ما جاء فى "اتفاق المبانى وافتراق المعانى" للدقيقى من أن أبا بكر سأل عن "قرآن" مسيلمة، أى الكلام الذى كان يزعم أنه ينزل عليه من السماء ويقرؤه على أتباعه. وفى "البداية والنهاية" لابن كثير خبر آخر عن هذا الموضوع وردت فيه لفظة "قرآن" بنفس المعنى. وفى "المثل السائر" لابن الأثير وصف لكتاب "الشاهنامة" بأنه "قرآن القوم".

وأما كلمة "سورة" فمادتها متوافرة فى العربية، وهى "س و ر". ومن شواهدها فى شعر الجاهليين قول المثقِّب العبدى:

غَلَبْتَ مُلُوكَ الأَرْضِ بِالحَزْمِ وَالنُّهَى فأنتَ امْرُؤٌ فى سُورَةِ المجدِ تَرْتَقى

وقول النابغة الذبيانى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أعطاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يتَذَبْذَبُ؟

* * *

وَلِرَهْطِ حَرّابٍ وَقَدٍّ سُورَةٌ فى المجدِ ليس غُرابُهُم بِمُطارِ

* * *

وميزانه فى سورة المجد ماتع

وقول عمرو بن شأس الأسدى، وهو جاهلى مخضرم أدرك الإسلام شيخا كبيرا:

خزيمـــــةُ ردّانـــــى الفَعَــــال، ومعــــشرٌ   قــديمًا بَنَـــوْا لى ســـورة المجـــد والكـــرم

والطريف أن السريان لا يستخدمون كلمة "سورة"، التى يزعم لكسنبرج أن الإسلام استعارها منهم للوحدات القرآنية، بل يستخدمون كلمة "إصحاح". فانظر بالله عليك إلى التنطع الاستشراقى الذميم! فالمفروض أن محمدا كان ينبغى أن يسمى سُوَر القرآن: "إصحاحات" ما دام يأتمر بأمر السريان الذين يعاونونه فى تأليف قرآنه. أليس ذلك ما يفرضه المنطق؟ ولكن منذ متى كان لكسنبرج وأشباهه يراعون المنطق عند حديثهم عن الإسلام أو يفكرون فى احترامه؟

وتبقى كلمة "آية"، وهذه بعض شواهدها من شعر الجاهلية. يقول الحارث بن حِلِّزَة:

آيــــةٌ شـــــارِقُ الـــــشَّقِيقَةِ إذ جـــــا   ؤوا جميعًــــا، لِكُـــــلِّ حَـــــىٍّ لِـــــوَاءُ

ويقول النابغة الذبيانى:

مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَمْـــرَو بـــنَ هِنْـــدٍ آيـــةً؟   وَمِـــنَ النـــصيحَةِ كَثْـــرَةُ الإِنْـــذارِ

* * *

تَوَهَّمْــــتُ آيـــاتٍ لهـــا فَعَرَفْتُهـــا   لِـــسِتَّةِ أَعْـــوامٍ، وذا العـــامُ ســـابِعُ

ويقول حَجل الباهلى:

أَبلِـــغ مُعاوِيـــةَ المُمَـــزَّقَ آيـــةً   عَنّـــى، فَلَـــسْتُ كَـــبَعْض مـــا يتَقَـــوَّلُ

ويقول زهير:

أَرَانـــى، إذا مـــا شِـــئْتُ، لاقَيـــتُ آيـــةً   تُـــذَكِّرُنى بعـــضَ الـــذى كنـــتُ ناسِـــيا

ويقول سنان المرى:

مَـــن مُبلِـــغٌ عَنّـــى المُـــثَلَّمَ آيـــةً   وَسَـــهْلا؟ فَقَـــد نَفَّـــرْتُم الـــوَحْشَ أَجْمَعـــا

ويقول عبيد بن الأبرص:

تُرِينـــى آيـــةَ الإِعْـــراضِ منهـــا   وَفَظَّـــتْ فى المَقَالَـــةِ بَعْـــدَ لِينِ

ويقول طرفة بن العبد:

فَغَيْرَنَ آياتِ الدِّيارِ مَعَ البِلَى — وليسَ على رَيبِ الزمانِ كَفيلُ

❋ ❋ ❋

وَبِالسَّفْحِ آياتٌ كَأَنَّ رُسُومَها — يَمَانٍ وَشَتْهُ رَيدَةٌ وَسَحُولُ

ويقول عروة بن الورد:

عَفَتْ بَعْدَنا مِن أُمِّ حَسّانَ غَضْوَرُ — وفى الرَّحْلِ منها آيةٌ لا تَغَيرُ

❋ ❋ ❋

تنكَّرُ آياتُ البلادِ لِمالِكٍ — وَأَيقَنَ ألا شَىءَ فيها يقَوَّلُ

فالكلمة إذن كانت موجودة فى اللغة العربية وجودا راسخا قبل ظهور الإسلام، ولا داعى للقول باستعارة القرآن لها من السريانية.

ليس ذلك فحسب، بل إن كلمات "مصاحف" و"صحف" (وكذلك مفردها: "صحيفة")، وهى الكلمات التى تطلق على القرآن المكتوب، موجودة فى اللغة العربية من قبل نزول القرآن من عند الله سبحانه. يقول الحصين بن حمام الفزارى مثلا:

فما بَرِحوا حتى رأى اللهُ صَبْرَهُم — وحتى أَشَرَّت بِالأَكُفِّ المَصَاحِفُ

ويقول الملك الضِّلِّيل:

أَتَتْ حِجَجٌ بَعْدى عَلَيها فَأَصْبَحَت — كَخَطِّ زَبُورٍ فى مَصَاحِفِ رُهْبانِ

ويقول المتلمس الضبعى:

وَرَهَنْتَنى هِنْدًا وَعِرْضَكَ فى — صُحُفٍ تَلُوحُ كَأَنَّها خِلَلُ

❋ ❋ ❋

فَبَهْرًا لِمَنْ غَرَّت صَحِيفَةُ مُنْذِرٍ — وَإِنْ كانَ عَقْدٌ مِنْهُمُو مُتَظَاهِرُ

❋ ❋ ❋

أَلْقِ الصَحيفَةَ، لا أَبَا لَكَ! إِنَّهُ — يُخْشَى عَلَيكَ مِنَ الحِباءِ النِّقْرِسُ

* * *

أَوْدَى الذى عَلِقَ الصحيفةَ منها وَنَجا حِذارَ حِبَائِهِ المُتَلَمِّسُ

ويقول زهير بن أبى سُلْمَى:

أُخْبِرْتُ أَنَّ أبا الحُوَيرِثِ قَد خَطَّ الصحيفةَ. أَيِتَ لِلْحِلْمِ

ويقول لقيط بن يعْمُر:

سَلامٌ فى الصحيفَةِ مِن لَقيطٍ إلى مَنْ بِالجَزيرَةِ مِن إِيادِ

ويقول بشر بن أبى خازم:

كَأَنَّها بَعْدَ عَهْدِ العاهِدينَ بِها بين الذَّنُوبِ وَحَزْمَى واحِفٍ صُحُفُ

ويقول الممزق العبدى:

فلا أنا مَوْلاهُمْ ولا فى صحيفَةٍ كَفَلْتُ عليهم، وَالكَفالَةُ تَعْتَقِى

ويقول علباء بن أرقم:

أَخَذْتُ لِدِينٍ مُطْمَئِنٍّ صحيفةً وَخالَفْتُ فيها كُلَّ مَنْ جارَ أَو ظَلَمْ

وأسخف من هذا كله قول الكاتب المسكين إن كلمة "آية" هى قراءة خاطئة للّفظة السريانية: "آثَا". الله أكبر! إن ذلك المسكين الذى لا يحترم عقله ولا يحترم عقولنا ويقول كلاما لو عُرِض على أى طفل صغير لرَفَضَه لسطوع تهافته وتفاهته، يفترض أن الذين تأثروا بالسريانية إنما تعلموها على أيدى أنفسهم وعرفوها معرفة صامتة، أى بالنظر فقط، فهم لا يعرفون كيف ينطقونها لأنهم لم يتلقَّوْها عن أحد يتلفظها أمامهم فيعرفوا منه كيف تُنْطَق ألفاظها، فكأنهم يمارسون الرسم ولا يتعلمون لغة. ومن هنا فحين رَأَوْا كلمة "آثا" وظنوها: "آية" انتهى الموضوع على هذا النحو وظل هكذا إلى الأبد. هذه واحدة، والثانية أنه ليس هناك وجه صلة بين الكلمتين كما يرى القارئ بنفسه. وثالثا كيف يغلط المتضلعون من السريانية (الذين كانوا يعلّمون محمدا كيفية تأليف القرآن) فى نطقها ويقعون فى هذا الخطإ المبين؟ ورابعا كيف نقبل هذا الذى يقوله لكسنبرج فى الوقت الذى

تتوافر فى لغة الضاد كلمة "آية"؟ نعم كيف تكون كلمة "آية" متاحة فى العربية ثم يتجاهل محمد هذا ويذهب فينقب هو ومعاونوه أو معلموه فى السريانية فلا يجدون سوى كلمة "آثا"، فيأخذونها ليرموها فى أقرب مقلب زبالة ويستبدلون بها كلمة "آية" الموجودة من الأصل فى لغته؟ صدق المثل: أذنك من أين يا جحا؟ وحتى لو قلنا إن كلمة "آية" نفسها كانت موجودة فى السريانية كما هى موجودة فى العربية فلِمَ ينبغى أن تكون العربية هى الآخذة لا المعطية؟ وسادسا من يا ترى الذين ساعدوا محمدا من العالمين بالسريانية فى استعارة تلك الألفاظ من لغتهم وإدخالها فى قرآنه؟ ومتى كان ذلك؟ ومن الشهود؟ وأين الدليل على أى شىء من هذا كله؟ وسابعا، ويكفى هذا الآن، كيف تتأثر العربية بلغة يبعد موطنها عن موطن العرب كل ذلك البعد الشاسع فى وقت كانت وسائل الاتصال والمواصلات فى غاية البطء والبدائية؟

إن المستشرقين يقولون دائما لنا: إنكم تريدوننا أن نكتب عن الإسلام من وجهة نظركم رغم أننا لا نؤمن به ولا بمحمد. والواقع أنْ ليست هذه هى نقطة الخلاف، فلم يطلب منهم أحد أن يسلموا، لأن الإسلام دين الحرية والرقى، ولا يحتاج إلى الضغط على أحد كى ينال شرف اعتناقه، فضلا عن أن الإسلام الإكراهى لا يقْبَل عند الله سبحانه. المطلوب هو احترام المنهج العلمى. وأين المنهج العلمى فى الحديث عن تأثيرات سريانية فى ألفاظ القرآن ومضامينه فى الوقت الذى ليس هناك أى دليل على هذه الدعوى، بل كل الدلائل تصرخ بأن شيئا من ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا؟

إن صنيع هذا المستشرق ونظرائه إنما يستهدف وضع المسلمين دائما تحت ضغط التشكيك فى دينهم وكتابهم ونبيهم وإرباك ذهنهم وعقولهم وإشعارهم أن كل شىء فى القرآن مؤلف تأليفا وليس نازلا من السماء وأنه لا فرق بينه وبين الكتاب المقدس، الذى انهار تحت معاول البحث والتحقيق بعدما ثبت أنه من صنع بشر. وبهذا لا يكون أحد أحسن من أحد. ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإسلام هو الحصن الحصين المتين للمسلمين. به فتحوا العالم وسادوا الدنيا، وظل الغرب يرهبه ويرهب أتباعه قرونا. وهم موقنون أن المسلمين بدون الإسلام لا شىء: فبه قوتهم، ومنه

عزتهم وكرامتهم، وبمبادئه وقيمه العظيمة يمكنهم أن يستعيدوا مجدهم الدابر الغابر وتصبح لهم مكانة عظيمة. فالذى يفعله المستشرقون هو ضربات استباقية حتى لا يفيق المسلمون من سكرتهم وخُمَارهم ويظلوا فى رقدة الوخم والوهن بل رقدة العدم التى هم فيها. واستدامة تلك الرقدة القاتلة إنما تكون بالتشكيك فى مصدر القرآن، والإلحاح على أنه إنجاز محمدى. وما دام القرآن صناعة بشرية فلن يعود له ذلك السحر الآسر الذى يستولى به على العقول والقلوب.

على أن دور الغربيين لم يتوقف عند هذا، بل تراهم يعضدون المشائخ الضالين المضللين الذين يلفتون الناس عما فى دينهم من قيم بديعة ومبادئ سامية سامقة ويشغلونهم بالتفاهات والشكليات التى تستهلك اهتماماتهم وتصرفهم عن الجواهر والأصول فلا تكون له قيمة فى عالم الحضارة والصراعات السياسية والاقتصادية والثقافية، وهو حال المسلمين اليوم بوجه عام حتى ليظن من ليس له اطلاع على دينهم أنه دين يأمر بالتخلف والضياع وينْهَى عن التقدم والتحضر بكل ما فيه من قوة. ومرة أخرى لا يكتفى الغربيون، فى محاربتهم الإسلام، بهذا بل يشيعون الاضطراب فى مفاهيمه ومضامينه قالبين كل شىء فيه رأسا على عقب، وعقبا على رأس. فتراهم يسخرون من الجنة ويتهمون الإسلام بأنه دين شهوانى لأنه يعِدُ أتباعه بمتع الطعام والشراب والجنس هناك، وكأن الجنس والطعام مما يعاب، وكأنهم هم لا يسرقون شعوب العالم ويقتلون منها الملايين بل ويدمرونها تدميرا من أجل المال الذى به يشترون الطعام والشراب ويستمتعون بالنساء. يا لهم من منافقين! ثم إن هؤلاء الشياطين يستديرون من الناحية الأخرى ساخرين من إيمان المسلمين بما فى الجنة من نعيم ومتع، قائلين إن الشبان الذين يموتون فى سبيل دينهم ويضحون بأرواحهم وأموالهم مخدوعون بما يقرأونه فى القرآن من أنه سوف يكون فى الفردوس حور عين، إذ هذا فهم خاطئ لنصوص القرآن صوابه أنهم سوف يأكلون زبيبا أبيض ليس إلا. فهذا هو معنى "حور عين" فى القرآن طبقا لتفسير لكسنبرج.

وهنا نصل إلى بهلوانيات لكسنبرج فى هذا المجال. إنه مثلا يدعى أن لغة القرآن لا تتطابق ولغة الشعر الجاهلى. كيف؟ هذا ما لا أدريه ولا يدريه أى عاقل فى رأسه مسكة من العلم والفهم.

ترى هل الشعر الجاهلى يرفع الفاعل بينما ينصبه القرآن؟ ترى هل الشعر الجاهلى يجر المضاف إليه بينما يجزمه القرآن؟ ترى هل الجملة العربية فى الشعر الجاهلى فعلية أو اسمية، بينما هى فى القرآن حرفية؟ ترى هل يأتى حرف الجر فى الشعر الجاهلى قبل الاسم المجرور بينما يأتى فى القرآن بعده؟ أم هل يا ترى تختلف مفردات المعجم أو المشتقات أو أنواع الأزمنة أو أدوات الشرط مثلا هنا عنها هناك؟ أم هل ينتمى الشعر الجاهلى إلى اللغة العربية بينما ينتمى القرآن إلى اللغة اللاوندية؟ هل العرب منذ نزول القرآن قد صاروا عربَين: عربا يفهمون القرآن ولا يفهمون شيئا فى الشعر الجاهلى، وعربا يفهمون الشعر الجاهلى بكل أريحية بينما يجدون القرآن معمَّيات وألغازا؟ وهل كان المشركون ليسكتوا على تحدى القرآن لهم أن يأتوا ولو بسورة من مثله فلا يردوا عليه بأن اللغة التى نزل بها غير لغتهم التى يعرفونها وينظمون شعرهم ويلقون خطبهم بها؟ بل هل كان يمكن أن يفهموا القرآن، وهو بلغة وقواعد غير لغتهم وقواعدهم؟

أيمكن أن يكون صاحب هذا الخبص واللبص أوربيا ممن صنعوا الغواصات وغَزَوُا الفضاء وشيدوا الطائرات وأبدعوا الصواريخ وسفن الكواكب وبلغوا القمر واخترعوا المذياع والتلفاز والمشباك والأمصال واللقاحات والأدوية لمختلف الأمراض والعمليات الجراحية المختلفة وغير ذلك من ألوف المخترعات فى كل ميدان ومجال؟ بيد أننا ينبغى أن نتنبه إلى أن كثيرا جدا من الغربيين إذا سمعوا بالإسلام والقرآن يضطرب تفكيرهم وتتداخل سلوك عقولهم وتضطرب قواهم الذهنية وتتشوش أمخاخهم فيقولون كلاما أشبه بكلام الملتاثين.

والآن مع أهم ما قاله لكسنبرج عن الآيات الثمانى عشرة الأولى من سورة "النجم"، التى اتخذها مجالا لتطبيق منهجه السخيف فى التفسير السريانى للقرآن المجيد. وسوف أعقب على كلامه أولا بأول. ولسوف يتضح بكل جلاء أن الرجل مجرد بهلوان ليس له موضع أحق به من السيرك. يقول عن الآية الأولى من السورة الكريمة: "إنّ التحليل الفيلولوجى لسورة النّجم سيقيم الدليل على أنّ موضوعها الرئيسى هو الجدل الشائع فى محيط الرّسول (لم يذْكَر اسمه فى السورة)، الذى رُمِى بالجنون. ففى الآية ٢٥ من "المؤمنون": "إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ"، وفى الآية ٨

من "سبأ": "أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ؟" اتُّهِم محمّد بأنّه ركِبه "جِنٌّ"، وفى خمس آيات أخرى وُصِف بأنّه "مَجْنُون" (ليس بالمعنى الحديث للكلمة، ولكن بمعنى "استحوذ عليه جنّ"، "ركبه جنّ"). يدحض القرآن التهمة الأولى فى ثلاث مناسبات: "أَوَلَمْ يتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ" (الأعراف/ ١٨٤)، "أَمْ يقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ" (المؤمنون/ ٧٠)، "مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم" (سبأ/ ٤٦)، ويدحض كذلك التهمة الثّانية فى آيات ثلاث: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ" (الطور/ ٢٩)، "مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ" (القلم/ ٢)، "وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ" (التكوير/ ٢٢). إنّ سورة "النّجم" تتناول سبب بعض العوارض التى تنتاب النّبى والتى لاحظها خصومه. والسؤال يتمثّل فى معرفة ما إذا كانت هذه العوارض نتيجةَ وَسْوَسة شيطانية أم وَحْى إلهى. القرآن، بطبيعة الحال، يتمسّك بالحالة الثانية، وينسب أيضا نفس "المرض المقدّس" إلى رُسُلٍ آخرين كانوا قد سبقوا رسول القرآن. ولهذا السبب صرّح القرآن فى سورة "الذاريات" (٥١/ ٥٢): "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِنْ رَّسُولٍ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ". وقد اتُّهِم نوح بنفس التهمة فى سورة "القمر" (٥٤/ ٩): "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ". وبعد أن وضّحنا السياق الذى يجب أن نتناول فيه سورة "النّجم" يمكننا عندئذ الشروع فى تحليل النّص تحليلا دقيقا، آخذين بعين الاعتبار، وفى نفس الوقت، اللّغة العربية واللّغة السريانية الآرامية.

تحليل فيلولوجى لكلّ آية على حدة: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى"... إنّ ما يصفه نولدكه بخصوص النّحو السريانى، والذى كثيرا ما يحَير المختصّين فى العربية، نجده أيضا جليا فى الجملة التى تأتى فى مقدّمة السورة التى نحن بصددها. فوحدة الجملة، التى انكسرت بفعل إدخال الفاصلة الخاطئة (بعد "هَوَى")، لم يهْتدِ إليها المفسِّرون والمترجمون. فى الحقيقة تحتوى الآيتان الافتتاحيتان على جملة مركَّبة من شرط (آية ١) وجواب شرط (آية ٢). وهكذا فإنّ التركيب النحوى للجملة يكون كالتّالى: الكلمة الأولى: "والنَّجْمِ" ليست الفاعل فى الآية ١ بل هى قَسَمٌ لا دور آخر له سوى تقديم الجملة التى تأتى لاحقا. وبناء على هذا فإنّ الجملة (الآية) كلّها تكون: "وَالنَّجْمِ"، وليس "وَالنَّجْمِ

إِذَا هَوَى"... زمن الجملة التى تأتى بعدها "إِذَا هَوَى" زمن شرطى، والفاعل هو الشخص المذكور فى جواب الشرط فى الآية ٢: "صَاحِبُكُمْ". يجب إذن أن نفهم الجملة على النحو التالى: "إِذَا هُوَ (صَاحِبُكُم) هَوَى". جواب الشّرط (جواب القسم) يأتى منطِقيا فى الآية ٢: "مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى". عندما يترجِم بل (Bell) هذه الآية هكذا: " Your comrade has not gone astray, nor has he erred"، فهو لا يرى بوضوحٍ كافٍ ما تشير إليه، أى المَسّ الشيطانى الذى يعْتَقَد أنّ الذى يصَاب به يخرج عن الطريق المستقيم وينتابه الهذيان. فلهذا السّبب إذن يؤكِّد القرآن أنّ النَّبى (صَاحِبكُمْ) لم يحِدْ عن الحقّ ولا زال عنه، ولم يصَب بالهذيان. فتصبح ترجمة الآية الأقرب إلى الصواب كالتّالى: " Your companion has not gone astray, nor has he become delirious".

وأول شىء ألفت الانتباه إليه هو قول المستشرق إن القرآن ينسب المرض المقدس (أى الجنون) إلى الأنبياء الآخرين. وهذا كذب وافتراء، فلم يحدث قط أن نسب القرآن الجنون إلى أى نبى أو رسول كائنا من كان، وإلا كان هذا منه تكذيبا لهم. كل ما فعل هو ذِكْرُه اتهامَ أقوام النبيين والمرسلين لهم بالجنون مفندا اتهاماتهم ومسخفا عقولهم ومتوعدا إياهم بأسوإ مصير. وشتان هذا وذاك. وهذا يذكرنى بما افتراه خليل عبد الكريم على القرآن من أنه يصف أتباع نوح بـ"الأرذلين" مع أن القرآن لم يفعل أكثر من إيراد ما يقوله المستكبرون الكافرون عن أولئك المؤمنين. كذلك فزعم المستشرق أن الآيات الأولى من سورة "النجم" إنما تتحدث عن اتهام المشركين له صلى الله عليه وسلم بالجنون والهذيان هو زعم جاهل. فالآيات تذكر الضلال والهوى والغواية، وهذه أمور أخلاقية. ولو كانت تريد أن تنفى عنه الجنون لذكرت الهذيان لأنه أمر عصبى يرتبط بالجنون. وهذا من الوضوح بمكان مكين، ومن ثم فكل ما قاله الرجل فى هذا الموضوع سخف فى سخف.

أما قوله إن المفسرين، ومن ثم المترجمين، قد أخطأوا فهم التركيب الموجود فى الآيات الثلاث الأولى من السورة بسبب جريها على النحو السريانى فلا أدرى أى جنون سول له هذا الهذيان. أى نحو سريانى؟ وأى بطيخ؟ إن معنى الآيتين واضح تماما، وهو القسم بالنجم عند هُوِيه بأن الرسول

لم يضلَّ ولم يغْو ولم ينطق عن الهوى. فما المشكلة فى ذلك؟ أهى فى الفصل بين القسم وجوابه ووجود هذا فى آية، وذاك فى آية أخرى؟ لكن ذلك يتكرر كثيرا فى القرآن. وحتى لو سرنا على دربه الملتوى الخبيث وقلنا: إن المعنى هو "والنجم إن صاحبكم إذا هوى ما كان ضالا ولا غاويا ولا ناطقا عن الهوى" لظل الفصل قائما بين الشرط وجوابه كما هو واضح، إذ إن فعل الشرط موجود فى الآية الأولى، وجوابه موجود فى الآية الثانية. وهذا يعنى أن اعتراضه لا يخرج عن أن يكون زوبعة فى كستبان. أما الطنطنة بالنحو السريانى وإنجاده لنا فى فهم هذه الآية التى يزعم أبو جهل غموضها، وما هى بغامضة إلا على لسان الكذاب الدجال، فهى طنطنة لا معنى لها ولا محصَّل من ورائها لأنه لا يوجد هنا نحو سريانى البتة. إن هى إلا شعوذة يحاول لكسنبرج التأثير بها على السطحيين من أمثاله.

والآن أحب أن أنبه القراء إلى أننا لو فصلنا "والنجم" عن "إذا هوى" وجعلنا "إذا" شرطية (وليست ظرفية بمعنى "حين يهوى") لوجدنا أنفسنا إزاء تركيب لا وجود له فى القرآن قط. فالقرآن، حين يستخدم واو القسم مع شىء كالنجم، فهو يرفد المُقْسَم به إما بـ"إذا" الظرفية وإما بنعت أو عطف مثلا، أو يفعل الأمرين جميعا: "والقرآن ذى الذِّكْر * بل الذين كفروا فى عِزّةٍ وشقاق"، "والكتابِ المُبِين * إنا جعلناه قرآنًا عربيا لعلكم تعقلون"، "والكتابِ المُبِين * إنا أنزلناه فى ليلةٍ مباركةٍ. إنا كنا منذِرين"، "والقرآنِ المجيد * بل عجبوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم، فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، و"الذاريات ذَرْوا * فالحاملات وِقْرا * فالجاريات يسْرا * فالمقسِّمات أمرا * إن ما تُوعَدون لَصَادِق"، "والطُّور * وكتابٍ مسطور * فى رَقٍّ منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع"، "والسماءِ ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهِدٍ ومشهود * قُتِل أصحابُ الأخدود"، "والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق؟ * النَّجْمُ الثاقب * إنْ كلُّ نفسٍ لمّا عليها حافظ"، "والشمسِ وضُحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جَلّاها * والليل إذا يغشاها * ... ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها"، "والليلِ إذا يغْشَى * والنهار إذا تجلَّى * وما خَلَقَ الذَّكَرَ

والأنثى ❋ إنّ سَعْيكم لَشَتَّى"، "والضُّحَى ❋ والليل إذا سَجَا ❋ ما ودَّعك ربك وما قَلَى"، "والتينِ والزيتون ❋ وطُورِ سِينِين ❋ وهذا البلدِ الأمين ❋ لقد خلقنا الإنسانَ فى أحسن تقويم"...

وبالمثل سوف يكون عندنا تركيب لا يعرفه القرآن بل ولا تعرفه اللغة العربية. ذلك أن تركيب الآيتين الأُولَيينْ طبقا للتوجيه الغبى لذلك المستشرق سوف يكون كالآتى: "والنجم: إذا هوى لم يضل صاحبكم" بمعنى أن صاحبكم إذا هوى لم يضل. أى أنه إذا كان قد هوى من الصَّرْع فإنه لم يضل. والآن هل لاحظتم أن فاعل "هوى" ضمير يعود على متأخر لفظا ورتبة، وهو "صاحبكم" (فاعل فعل جواب الشرط)؟ ومعروف أن جواب الشرط يلى فعل الشرط قاعدةً وحكمًا، وهو يليه هنا واقعًا متحققا. وهذا لا تعرفه اللغة العربية ولا يعرفه القرآن. ثم متى يقول العربى: "إن فلانا قد هوى" هكذا بإطلاق دون أى تحديد أو توضيح، ويكون المقصود أنه قد سقط مصروعا؟

بل من قال أصلا إن محمدا كان يصيبه الصَّرْع؟ إن ذلك الشيطان يحاول بخبث، لكنه مفضوح، أن يمرر فى هدوء الزعم بأن النبى عليه الصلاة والسلام كان مصابا بالصَّرْع وكان يسقط دائما أمام المشركين فى الشارع كلما جاءته نوبة الوحى. يريد أن يقول إن وحى القرآن لم يكن وحيا سماويا بل أثرا من آثار الصَّرْع. ولكن منذ متى كان الصَّرْع يثمر شيئا مثل القرآن أو يثمر أى فكر أصلا؟ إن الصَّرْع حالة يفقد معها الإنسان حسه وشعوره وعقله وتفكيره. فكيف يتسق هذا وذاك؟ وكيف، عندما ينهض محمد من نوبة الصَّرْع، يكون جاهزا بنص قرآنى بلغ القمة فى روعة الأسلوب وفى رقى مضمونه العقيدى والأخلاقى والاجتماعى والاقتصادى والنفسى والسياسى والعسكرى حسب النص الموحى به؟ ولقد سبق أن تناولت تلك التهمة الغبية فى الفصل الثالث من الباب الأول فى كتابى: "مصدر القرآن"، وبينت من خلال ما كتبه الأطباء عن أعراض الصَّرْع أن أعراض الوحى شىء آخر مختلف تماما عن هذا المرض وعن أى مرض غيره. ثم لو كان محمد مريضا بالصَّرْع ويسقط فى شوارع مكة دائما أكان المشركون يؤمنون به حتى لو انطبقت السماء على الأرض؟ وهل المصروع يمكن أن يكون قائدا سياسيا وعسكريا ومشرِّعا وزوجا وصديقا وأبا وحَمًا وقاضيا يبعث

على الإجلال والتبجيل بين أتباعه، بل وبين الخصوم الكارهين له؟ وقبل ذلك كله هل حدث أن اتهمه قومه بأنه مصروع؟ الواقع أن ذلك لم يحدث قط. ألا إن ما يقوله كرستوف لكسنبرج لكلام ساذج مفضوح.

كذلك يقول الكاتب إن "الهوى" فى الآية الثالثة هى الصَّرْع. فهل يمكن أن يقول العربى إن فلانا لم ينطق ما نطقه عن الصرع؟ يمكننا أن نقول إن فلانا ينطق عن علم أو عن جهل أو عن كبر أو عن فرط سذاجة مثلا، أما أن يقول إنه ينطق (بمعنى "يأتى بأفكار ومبادئ وعقائد وأخلاق") عن صرع فلا. ذلك أن الصرع غياب عن الوعى والإدراك والتفكير والتقدير، وليس حالة يمكن أن يصدر عنها أى شىء من هذا القبيل. أما استشهاده بقوله تعالى عن خمر الجنة: "لا يصّدَّعون عنها ولا ينْزِفون" فهو استشهاد فى غير محله، إذ التصديع (أى الإصابة بالصداع) هو نتيجة لشرب الخمر، أما التفكير والتقدير فليسا نتيجة للصرع. وهذا يريك كيف يخبط الرجل خبط عشواء!

وهنا أود اهتبال الفرصة السانحة لسَوْق بعضٍ من كلامه فى تحليل الألفاظ العربية وانتقالها المزعوم من السريانية إلى العربية كى يلمس القارئ بنفسه أنه أمام كلام غير مفهوم. وهو نفسه الأسلوب الذى انتهجه لويس عوض فى كتابه: "مقدمة فى فقه اللغة العربية. وهذا مثال من كلام الكاتب الذى يشبه كلام لويس عوض مما يدل على أن الكلامين قد خرجا من معين واحد. يقول ذلك الأعجمى المتساخف مخطئا القرآن بعد أربعة عشر قرنا لم يستطع أن يدرك خطأه خلالها عمالقة الشعراء والخطباء والبلغاء من مشركين ويهود ونصارى معاصرين للنبى ولا متعصبة اليهودية والنصرانية الذين كانوا يعملون طوال الوقت على تصيد العورات للإسلام فلم يفلحوا حتى هل هلال لكسنبرج فالتقطت عيناه فى الحال تلك الأخطاء. يقول:

"القراءة التقليدية: "ينْزِفُونَ" قراءة خاطئة. والتعديل المُقْتَرَح هنا يبَرِّره الفعل السّريانى "اتْرَفِّ" ("استرخى")، وما الصيغة القرآنية إلا ترجمة له. أنظر:

R. Smith ،Thesaurus Syriacus ،vol. I, Oxford 1879, vol. 2, 1901.

مثلا: "رَفِّيوتا" و"مرَفِّيوتا" وما يقابلهما بالعربية، حسب بار على وبار بهلول: "رَخَاوَة"، "ارْتِخَاء"، اسْتِرْخَاء". أن يكون الجذر السريانى "رْ فَ ا" هو نفسه صيغة مُشتقَّة من "رْ/فَ/ح" بحذف الحاء فذلك ما تبرهن عليه دلالة هذا اللّفظ الذى يقابِله منّا (Manna) فى العربية بكلمة "رَخَفَ" (وهو تبادل صوتمى لكلمة "رَفَحَ"، فالحرف العربى "خَ" هو صوتم آرامى منبثق عن حرف "حَ"، ويؤكّد هذا عديد اللّهجات الآرامية البابلية بما فيها اللّهجات الآرامية الجديدة التى تُعْرَف بالآشورية فى بلاد ما بين النهرين) ثمّ "اسْتَرْخى" بالمعنى المادّى للكلمة (مثل العجين بالنّظر إلى طبيعته غير المتماسكة).

إن هذا الاستشهاد الأخير يظهر لنا أنّ الجذر العربى "رَ/خَ/ا" هو اشتقاق تطوّر من حذف حرف النهاية: "ف" للفظة "رَخَفَ" (مثلا فى اللّهجة الحلبية المعاصرة فإنّ لفظة "ب-أَعْرِفْ" تُنْطَق "ب-أَعْرَا). وهذه الأخيرة هى بدورها نطق مشتق من الجذر السريانى الآرامى "ر ح ى ف" الذى ينْطَق بدوره من خلال تخفيف الحرف الوسطى "ح"، والفعل العربى المشتق "رَأَفَ/رَؤُفَ"، ومنه اللّفظ السريانى "رَاحُوفَا" الذى يعطى اللّفظ العربى "رَئِيف". وهذا يمكن مقارنته بالجذر "رْ/حِ/ي/مْ"، بالعربية "رَ/حِ/ى/مْ". أخيرا، نلاحظ أنّ "لسان العرب" يستشهد عند تعرّضه للجذر "رَ/فَ/حَ" بحديث عمر لمّا تزوّج أمّ كلثوم بنت على، إذ قال: "رَفِّحُونِى". أى قولوا لى ما يقال للمُتزوِّج، بمعنى "تَفْرَحُ" (وهذه العبارة ما زالت تُقال إلى يومنا هذا قبل أو عند الزّواج)، وكذلك فإنّ عبارة "فَرَحْ" تُطلق على حفلة الزفاف فى مصر مثلا، (وكذلك فى تونس). وهذا يفسِّر لنا أن الصيغة المشتقّة من الفعل العربى "فَرِحَ" هى تبادل صوتمى للجذر السريانى الآرامى "ر/ف/ح" (أمّا الصيغة العربية الأخرى "رَ/قَ/حَ" التى ذكرها "لسان العرب" على أنّها تؤدّى نفس المعنى هى بوضوح نتيجة للتّنقيط الخاطئ الذى أفرز "ق" عوضا عن "ف"). نودّ أيضا أن نجلب الانتباه إلى صيغة أخرى للإشتقاق العربى لنفس الجذر التى هى نتيجة لقلب "الحاء" إلى "هاء" لكى تعطى: "رَفَهَ/رَفُهَ"، تَرَفَّهَ، والأسماء المشتقّة مثل "رَفَاهَة" و"رَفَاهِية"... إلخ.

وهذا نص مشابه من كتاب لويس عوض، وهو عن لفظة "الصحراء" واشتقاقها متنقلة عبر اللغات المختلفة حتى وصلت إلى اللغة العربية طبقا لمزاعم لويس عوض الجاهلة. يقول: "اسم "دوشيرت: Doshret, Doshert" بمعنى "صحراء" هو فى تقديرى صيغة من "اسم "سقارة" المصرية، و"سَقَر" أو "صَقَر" العربية، بمعنى "جهنم" أو "مملكة الموتى". وبهذا المعنى يمكن تفسير تردد كلمة "المستقرّ" و"المقرّ" فى القرآن عند ذكر "الآخرة". فالجذر إذن هو "قر" أو "كر" أو "خر" أو "حر" أو "جر" أو "شر" (بالميتاتيز: "روك")، وقد دخلت عليها "س" أو "ص" أو "ح" الابتدائية: إما لأنها صُوَرٌ من "dh-d"، وإما لأنها أداة السببية. وهكذا خرجت من "قر": "سقر" و"سقارة" و"صحراء" و"صخر" و"حجر"...إلخ. و"طوكر" فى العامية المصرية هى صيغة من "صقر" و"سقر" و"سقارة"، وبهذا المعنى يكون اصطلاح "يرسل إلى طوكر" معناها غالبا: "يرسل إلى الجحيم" أصلا، وليس النفى إلى طوكر فى السودان كما يظن عادة، لأن النفى إلى السودان كان عادة فى "فازوغلى" فى السودان وليس إلى "طوكر". ولأن "سقر" و"سقارة" و"قر" و"قرارة" كانت من أقدم العصور تنصرف إلى مملكة الموت أو جهنم بمثل ما تنصرف إلى معنى "الصحراء" ظهرت فى العربية عبارات مثل "سكرات الموت" دون أن يكون لها علاقة واضحة بفعل "سَكِر يسْكَر"، أى "ثَمِل يثْمَل". والكلمتان المتطابقتان من مجرد الهومونيمات التى تدعو إلى المجاز فى الاستعمال البلاغى: "وجاءت سَكْرة الموت بالحق، ذلك ما كنتَ منه تحيد" (ق/ ١٩)، "وترى الناس سُكارَى، وما هم بسُكَارى، ولكن عذاب الله شديد" (الحج/ ٢). ومن جذر "كر" أيضا الألفاظ المتعلقة بمملكة الموت مثل اسم الملكين: "ناكر" و"نكير" ومادة "نشر- نشور"، وهى من "ناكر: نا+ شر"، وكذلك مادة "حشر" ومادة "الآخرة". واسم "قرارة- مملكة الموتى" بجوار "شارونة" فى المنيا. قارن "Acheren"...".

أما "شديد القوى" فإن لكسنبرج يرى أنه هو الله وأن معنى "ذو مِرَّة": "الذى هو مارا"، أى الرب. وأما جملة "وهو بالأفق الأعلى" فالواو فيها استئنافية لا حالية، وتعنى أن الله يسكن فى الأعالى، أى أن مسكنه فى السماء، وأن "دنا فتدلى" معناها أنه سبحانه قد تواضع فنزل من عليائه

ليكون فى مستوى عبده تحببا إليه وتنازلا حتى لا يكسر خاطره. أما من أين أتى التواضع هذا فمن كلمة "استوى"، التى أوصلها لكسنبرج ببهلوانياته وشقلباظاته إلى أن معناها: "تواضَعَ". أى أن الله قد نزل من عليائه نزولا ماديا.

والآن إلى التفاصيل. فهو، بكل وضوح، لا يتصور أو لا يريدنا أن نتصور، أن صفة "القوة" لا يمكن أن يوصف بها أحد سوى الله، مع أن هذه الصفة قد تكررت فى القرآن كثيرا نعتا للمخلوقين كما فى قوله تعالى: "إنى عليه لقوى أمين"، "إنّ خَيرَ مَنِ استأجرتَ القوىُّ الأمين"، "اللهُ الذى خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة"، "مَنْ أشدُّ منا قوةً وأكثرُ جمعا؟"، "كانوا أشدَّ منهم قوة". بل إن قوله تعالى فى سورة "النجم": "شديد القوى" قد وُصِف به جبريل فى سورة "التكوير" فى الحديث عن نفس الموقف: "وَاللَّيلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ". فـ"شديد القُوَى" فى "النجم" هو ذاته الموصوف هنا بـ"ذى قوة عند ذى العرش مكين". وهناك رأى محمد جبريل "بالأفق الأعلى"، وهنا رآه "بالأفق المبين". وأرجو أن يتنبه معى القارئ إلى أننا هنا، كما هو الحال مع سورة "النجم" أيضا، إزاء قَسَمٍ متلوٍّ بـ"إذا" الظرفية، مع فصل القسم عن جوابه أيضا.

ومعروف فى الإسلام وفى العقل وفى المنطق أن الله لا يرَى لنا، على الأقل: فى الدنيا ونحن بإمكاناتنا الحالية. وقد سبق موسى أنْ طلب من الله رؤيته، فكان جوابه سبحانه عليه: "لن ترانى. ولكن انظر إلى الجبل. فإن استقرَّ مكانَه فسوف ترانى". ثم إنه سبحانه تجلَّى للجبل، فخرَّ موسى صَعِقًا، واعتذر حين أفاق قائلا: "سبحانك! تبتُ إليك، وأنا أول المؤمنين". وقد نفت عائشة أن يكون الرسول رأى ربه البتة. والإسلام لا يعرف التجسيد كالنصرانية، ومن ثم فرؤية الله مستحيلة فى دنيانا هذه إلى أن ننتقل إلى الاخرة، فيصير لكل حادث حديث لا نريد استباقه قبل الأوان. وإذا كان بعض الصوفية يظنون أنهم أفضل من الأنبياء ويستطيعون مشاهدة الحضرة الإلهية فهم وذاك. وللأسف نجد فيهم كذبا وغرورا وقلة خشية رغم تشدقهم بقربهم من ربهم وبلوغهم فى معاريج

التطور الروحى درجات سامقة. ولا أدل على ذلك من القصة التى نجدها فى بعض كتبهم عن موسى وصَعْقته، إذ يقال إنه عليه السلام، حين تجلى ربه للجبل عقب طلبه رؤيته، قد خرَّ صَعِقًا، وكان يفيق والملائكة تقوله له: يا ابن الحيض، أَمِثْلُك مَنْ يسأل الرؤية؟ ونحن بدورنا نسأل: إذا كان موسى ابنا من أبناء الحيض، وهو فعلا كذلك، فهل السادة الصوفية أبناء القشدة والعسل؟ إن ما قاله القشيرى كلام لا يليق، إن لم نقل فيه أكثر من ذلك. ومعروف أن بعض الصوفية يرَوْن رغم هذا إمكان تجلى الله لهم.

وهذا هو الحديث الخاص بكلام عائشة فى إنكار رؤية النبى ربه. فعن مسروق أنها رضى الله عنها قالت له: "يا أبا عائشةَ، ثلاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بواحِدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على اللهِ الفِرْيةَ: مَنْ زَعمَ أنَّ محمَّدًا رأى ربَّهُ فقَد أعظمَ الفِرْيةَ على الله. والله يقول: "لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ"، "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيا أوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ" ... فقلتُ: يا أمَّ المؤمنينَ، أَنْظِرينى ولا تُعْجِلِينى. أليسَ اللهُ تَعالى يقول: "وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى"، "وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ"؟ قالَت: أنا واللهِ أَوَّلُ مَن سألَ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عَن هذا. قالَ: "إنَّما ذلك جبريلُ. وما رأيتُهُ فى الصُّورةِ التى خُلِقَ فيها غيرَ هاتينِ المرَّتينِ. رأيتُهُ منهبِطًا منَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ". ومن زعمَ أنَّ محمَّدًا كَتَمَ شيئًا مِمَّا أنزلَ الله عليهِ فقَد أعظمَ الفِرْيةَ على اللهِ. يقولُ الله: "يا أيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ". ومَنْ زعمَ أنَّهُ يعلَمُ ما فى غدٍ فقد أعظمَ الفريةَ على اللَّهِ، واللَّهُ يقولُ: لا يعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ الْغَيبَ إلا اللَّهُ".

ومن ثم فكل ما قاله لكسنبرج هو كلام فارغ لا مَعْدَى لنا عن وصفه بذلك. والعجيب أن لكسنبرج يحسب نفسه خفيف الدم فيقول إن "ذو" فى "ذو مِرّة"، ليس معناها "ذو قوة" بل معناها "الذى هو الرب" لأن "مِرّة" هى فى السريانية "مارا"، أى الرب. وعلى ذلك فمعنى الكلام هو "علّمه شديد القوى الذى هو الرب". وهو يستعين بما يقال فى كتب النحو من أن بعض القبائل العربية تستخدم "ذو" لا بمعنى "صاحب" بل بمعنى "الذى/ التى" كما فى قول الشاعر: "وبئرى ذو حفرْتُ وذو طويتُ"، أى "بئرى التى حفرتها والتى بطَّنتها بالحجارة". لكن فاته أن "ذو" (عندما

تكون اسما موصولا) تحتاج إلى جملة صلة. وهنا لا توجد جملة صلة. فهل يمكن أن يقول العرب: "شديد القوى الذى الله"؟ هذا ليس كلاما عربيا بل خواجاتيا لكسنبرجيا سخيفا تافها. والعجيب أنه يحاول استغفالنا فى الزحمة فيقول فى عجلة ولهوجة إن "ذو" معناها: "الذى هو"، أى "الذى هو مِرَّة" أى مارا، بمعنى "الذى هو الرب"، وذلك حتى تستقيم له الجملة. وشتان! فـ"ذو" معناها "الذى" فقط دون "هو". ورؤيته حلمة أذنه أقرب إليه من بلوغ غايته من خلال هذه البهلوانية. أما كيف تحولت، على يديه الخفيفتين كأيدى اللصوص، كلمة "مِرَّة" إلى "مارا"، أى الرب فى السريانية كما يقول، فمن خلال الزعم بأن هناك خطأ فى قراءة كلمة "مارا" أدى إلى نطقها وكتابتها: "مِرَّة".

ومثل ذلك قوله عن عبارة "فكان قاب قوسين أو أدنى": "قَابَ: ليست لفظة عربية، ولا هى ظرف مكان ولا وحدة قياس، بل هى بالأحرى قراءة خاطئة لصِفَةٍ مشبّهة سريانية آرامية. فعوضا عن "قَابَ" يجب قراءة "قَايث"، الذى هو فعل سريانى آرامى يعنى "جَمَد، بقى ساكنا، تسمَّر". ومهما يكن من أمر، فإنّ الحَرْفَم (grapheme: وحدة صوتية) القرآنى "قَات" يتطابق مع الصفة المشبّهة السريانية، ومن هنا ينبغى للمرء أن يقرأ "قايث" (أنظر "قايم"= فى العربية "قايم/قائم")، التى تعنى "واقف، ثابت، ساكن". وإذا وضعنا الفعل العربى "كان" فإنّ معنى الجملة يصبح "كَانَ قَائِمًا". إنّ القراءة التقليدية "قَوْسَين" هى قراء خاطئة ولا علاقة لها لا بقوس واحد ولا بقوسين إثنين. فالكلمة ليست عربية، إذ يجب ازالة النقطتين عن القاف وتعويضهما بنقطة واحدة للحصول على الحرف السريانى ""فَ" (أو پ = p)، ثمّ يجب إضافة ثلاث نقاط إلى السّين للحصول على شين، وهذا يقود إلى قراءة سريانية بصيغة التثنية العربية " پوْشَين/فَوْشَين، الذى يعنى، حسب معجم منّا تحت مادّة " پَوْشَا" (وقفة، استراحة، انقطاع). وبالتّالى فإنّ الكلمة يصبح لها معنى "وَقْفَتَين = لَحْظَتَين من الزمن". وهكذا فبدل القراءة العربية التقليدية " فَكَانَ قَابَ قَوْسَينِ أَوْ أَدْنَى"، يجب أن نقرأ "فَكَانَ قَايتْ فَوْشَينِ أَوْ أَدْنَى"، التى تعنى "فَبَقِى (العَبْد) مَذْهُولًا لَحْظَتَينِ أَوْ أَقَلَّ".

وهو خبث جاهل لا يخرج العاقل منه بشىء سوى أن ذلك المجنون يريد إلى القول بأن الآية القرآنية قائمة على قراءة خاطئة لإحدى العبارات السريانية. والواقع أن العرب كانوا يستخدمون مثل ذلك التعبير ببساطة شديدة. قال الأجدع الهمدانى، وهو شاعر مخضرم معمَّر:

كـــانَ، لـــولا بَـــدَرَ المُهْـــرُ بِـــهِ،   قـــابَ سَـــوْطٍ أَن يدَهْـــدَى لِلـــذَّقَنْ

وقال الشاعر المخضرم أيضا:

حَسْبِى مِنَ الإِقْدَامِ قَابُ رُمْحِى

وبالمناسبة فلكلمة "قاب" عدة صيغ كما جاء فى "تاج العروس" للزَّبِيدِىّ مثلا: "القَابُ: المِقْدارُ، كالقِيبِ بالكَسْر. تقول: بَينَهُمَا قابُ قَوْسٍ، وقِيبُ قَوْسٍ، وقادُ قوْسٍ، وقِيدُ قَوْسٍ، أَى قَدْرُ قَوْسٍ... وفى الحديث: لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُم خَيرٌ من الدُّنْيا وما فيها".

ومن شواهد "قيد" قول خداش العامرى، وهو مخضرم مات على الشرك:

مَـــوَالى بَنِـــى عَمْـــروٍ وَأَهْـــلِ أَمانَـــةٍ   وَقُرْبَـــى، فَلَـــمْ ينفَعْهُمُـــو قِيـــدَ إِصْـــبَعِ

وقول عبدة بن الطبيب، وهو شاعر مخضرم أيضا:

يتْـــبَعْنَ أَشْـــعَثَ كَالـــسِّرْحانِ مُنْـــصَلِتًا   لَـــهُ عَلَيهِـــنَّ قيـــدَ الـــرمحِ تَمْهيـــلُ

وقول كعب بن زهير، وهو من المخضرمين كذلك:

يحَـــشْرِجُ مِـــنهُنَّ قيـــدَ الـــذِّراعِ   وَيـــضْرِبْنَ خَيـــشومَهُ وَالجَبِينـــا

فهل كل هذا خطأ فى قراءة الكلمة السريانية المزعومة؟ وإذا كان هذا المجنون يتهم النبى ومن يعاونونه حسب هذيانه بأنهم أخطأوا قراءة الكلمة السريانية فكيف نصنع مع أولئك الشعراء؟ وكيف فهم العرب الآية الكريمة التى نحن بصددها والحديث الشريف الذى أورده الزبيدى فى معجمعه آنفا إذا كانت الكلمة لا وجود لها أصلا فى اللغة العربية ولا فى السريانية؟

الحق أن أفضل ما ينطبق على هذا التخبط اللكسنبرجى هو قولنا فى العامية المصرية: "سمك، لبن، تمر هندى!" كحَذْوِك النَّعْلَ بالنعل. وخيبة الله على العلم وأهل العلم إذا كان ما يقوله لكسنبرج علما أو له صلة بالعلم والعلماء! لقد قلت من قبل إن هذا بهلوان مكانه الحقيقى هو

السيرك. وهأنذا أكرر ذلك هنا. إن هذا الجاهل يظن أنه بجهله ذاك قادر على تخطئة القرآن والعرب والمسلمين أجمعين بنحوييهم ولغوييهم ومعجمييهم ومفسريهم ونقادهم وشعرائهم وكُتّابهم ومفكريهم وحُفّاظهم ومحدِّثيهم وعلمائهم وفلاسفتهم والزعم بأنه الوحيد الذى اكتشف فى القرآن أخطاء لم يتنبه إليها أحد طوال أكثر من أربعة عشر قرنا، وتنبه إلى أن جانبا كبيرا من كتاب الله مأخوذ من السريانية، التى لم يكن أحد يعرف عنها شيئا فى مكة إبان عصر الرسول! خيبة الله على الجهل وثقل الظل! بالله عليك أيها القارئ لِمَ يتنكب القرآن كلمة "الرب" ويلجأ إلى "مارا" تلك، وهى كلمة سريانية كما يقول المؤلف الملتاث رغم أن أحدا هناك لم يكن يعرف السريانية؟ ترى بالله كيف كان العرب يفهمون القرآن لو كان بالسريانية،التى لم يكونوا يعرفونها؟ ثم أكان المشركون يسكتون فلا يشنعون على محمد وينجحون فى تهييج الخلق عليه وتنفيرهم عن دينه؟

لقد كان الشدياق، رحمه الله، كثير السَّخَر بالمستشرقين وتعالمهم الجاهل كما فى قوله، فى كتابه: "كَشْف المخبَّا عن فنون أوربَّا"، إن المستشرق ريتشاردسون قد "ألف كتابا فى لغته ولُغَتَىِ العرب والفُرْس، فأُقْسِم بالله إنه كان لا يدرى من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته. بل سوّلت له نفسه أيضا إلى أن ترجم النحو العربى فخلط فيه ولفّق ما شاء، فمثَّل للإضافة بقوله: "قدح فضة" و"ملك كسرى" و"رأس أمان" و"الغالب عجم" و"غالب عجم" و"كتاب سليمان" و"نصرا عقبه"، وفسرها بأنها مثنًّى مضاف إلى "العقبة"، و"نصروا عقبه" و"النصرا عقبه" و"النصروا عقبه". وأورد حكاية من كتاب "ألف ليلة وليلة" عن ذلك الأحمق الذى قَدَّر فى باله أن يتزوج بنت الوزير، فلما وصل إلى قوله: "ولا أخلى روحى إلا فى موضعها" ترجمها: "ولا أعطى الحرية لنفسى، أى لزوجتى، إلا فى حجرتها"... فإن أحدهم لا يبالى بأن يؤدى معنى الترجمة بأى أسلوب خطر له، فلو قرأ أحدهم سَبًّا فى كتبنا نحو "يحرق دينه" ترجمه أن دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والقنوت بحيث إنه يحرق ما عداه من المذاهب، أى يغلب عليها، فهو الدين الحقيقى كما ورد أن الله نار آكلة...". لقد ظننت أننى لا يمكن أن أقع على من هو أجهل من رتشاردسون هذا ولا أشد استحقاقا للتهكم منه ولا

أبعث على القهقهة حتى وقع لى لكسنبرج فعلمت أن فى الدنيا من العجائب ما لا يمكن أن يخطر على بال!

فهذا هو مستوى لكسنبرج فى ميدان العلم والتفكير والعقل واحترام المنهج العلمى. إنه مستوًى متدنٍّ لا يصلح صاحبه إلا لأداء الألعاب الأكروباتية فى السيرك كى يضحك الأطفال والعامة ويسرّى عنهم ويبهج قلوبهم فيعودوا إلى بيوتهم آخر المطاف وقد خُفِّفت عنهم لأواء الحياة مما رأوا من الوجوه الملطخة بالأحمر والأبيض والحركات المضحكة التى تشبه حركات البله والمجانين. ومع هذا ينبرى ناصر بن رجب، الذى أخذ على عاتقه مهمة نقل هذا السخف وتلك التفاهة إلى العربية، منخرطا فى وصلات من الإشادة بمنهج المستشرقين العلمى الكفيل بالوصول إلى الحقائق والاكتشافات الجديدة بدلا من أن نظل نلف فى ذات الدائرة مع المفسرين المسلمين الذين يمضغ اللاحقون منهم كلام السابقين دون أن يزيدوا عليه شيئا، جاهلا أن المفسرين المسلمين رغم أخطائهم كانوا علماء أجلاء محترمين يعرفون اللغة والتاريخ والعقائد والأحكام معرفة واسعة وعميقة بخلاف لكسنبرج البكاش.

وأنا على يقين أن لكسنبرج يعرف أنه يبكِّش ويكذب، ومترجمه يعرف ذلك ويباركه، إذ لا يعقل أن يكون هناك عاقل يصدق هذا الهراء، وإلا كانت كارثة بكل المقاييس والاعتبارات. ولكسنبرج، إذ يفعل هذا، إنما يتغيا إشاعة الاضطراب فى العقل الإسلامى وبث التشكيك فى الإسلام ونفى الاطمئنان إليه طمعا فى انفلات المسلم من دينه مع كثرة الزن على الآذان. وهذه هى الفوضى الخلاقة فى نظر أمريكا على مستوى الفكر، والفكر يمثل البنية العميقة التى ما إن تنهار حتى ينجرف معها كل شىء.

ترى هل هذا التفسير اللكسنبرجى يعجب حقا ناصر بن رجب؟ خاب إذن خيبة الأزل والأبد! وفوق هذا يتميز ابن رجب بركَّة العبارة والعجز عن معرفة الإملاء الصحيح حتى إنه ليثبت الهمزة مع كل ألف، غير عارف أن هناك شيئا اسمه همزات الوصل. فكله عند ابن رجب صابون! كما يخطئ أخطاء فاحشة فى أوليات النحو فيرفع المفعول وينصب الفاعل ويجر ما حقه الرفع، ويثبت

ياء المنقوص النكرة فى حالتى الرفع والجر... وهكذا. وصياغة الجملة عنده وعرة حتى إنه ليكثر من نعت النكرة بوصفٍ معرَّف، وتتداخل عنده العبارات وتشتبك كما هى فى الأصل دون أن يقدر على فض اشتباكها وكسوتها ثوبا عربيا جميلا، فضلا عن ترجمته للمصطلحات الموجودة فى النص ترجمة حرفية كقوله: "الفعل الانعكاسى" بدلا من "فعل المطاوعة"، أو "الزمن الشرطى"، ولا أدرى ماذا يقصد به... إلخ.

حايى بار - زيف يتهم القرآن بالأخذ من كتب اليهود

فى كتاب لحايى بار- زيف (Haï Bar-Zeev) عنوانه: " UNE LECTURE JUIVE DU CORAN" من منشورات (BERG INTERNATIONAL ÉDITEURS) بباريس عام ٢٠٠٥م يحاول هذا المؤلف، محاولة تقوم على الخداع والقفز من مقدمات بائسة إلى نتائج لا علاقة لها بتلك المقدمات البتة، الإيهام بأن القرآن يستقى، فى مواضع كثيرة جدا منه تمثل جوهره ومبادئه وعقائده وتشريعاته وأخلاقه وقصصه، من التوراة والتلمود وغيرهما من كتب يهود. وهو يرجع سبب اهتمامه بالقرآن إلى تجدد الاهتمام العالمى بالإسلام والإقبال على الكتب التى تتناوله بالدراسة وكثرة الطلب على شراء القرآن الكريم، وإنْ زَعَم أن القارئ غير المدرب لا يستطيع فهم القرآن وأن قليلا من الكتب الغفيرة التى أخذت على عاتقها شرحه وتوضيحه قد نجحت فى مهمتها نظرا إلى أن تلك الكتب تعتمد بصورة أساسية على التراث الإسلامى، الذى يتجاهل دينونته لليهودية، وإلى حد أقل للنصرانية أيضا. وهذه أول كذبة لأن إثبات سرقة القرآن من كتب اليهود لا يمكن أن تحول صعوبة فهمه سهولة ويسرا. إن كل ما سوف يفعله هذا الإثبات، إنْ صَحَّ أصلا، تبيين أن هذه القصة أو تلك الفكرة مأخوذة من التوراة أو من التلمود، ودمتم. إنها تبرهن على أن الفكرة مسروقة، لكنها لا تشرح تلك الفكرة. ومن هنا قلت إن هذه أول كذبة.

وثم كذبة أخرى. فالمؤلف يتحدث عن كتابه هذا على أنه ابن بَجْدَتها، بينما هناك كتب أخرى وضعها مستشرقون وحاخامات وميشرون تتهم القرآن بأنه مسروق من كتبهم. وقد قرأتُ فى أكسفورد، وعندى نسخة منه، كتاب إبراهيم كاتز (Abraham Katz) عن اليهودية فى الإسلام (Judaism in Islam)، وموضوعه نفس موضوع الكتاب الحالى، والهدف هو الهدف. كل ما هنالك أنه مكتوب بالإنجليزية، وهذا بالفرنسية. والقراء المسلمون المتصلون بكتابات الغربيين المناهضة للإسلام يعرفون أن هناك كتبا ودراسات ومقالات متعددة ألفها أصحابها تحديدا للحديث عن مصادر الإسلام، وبعضها مترجم إلى العربية، إلى جانب الكتب والدراسات الأخرى التى تتناول هذا الموضوع ضمن غيره من الموضوعات ولا تقتصر عليه. وفى كل من " Encyclopaedia of

"Islam" و"Encyclopaedia of the Qur'an" إصرار حاد على إرجاع كل شىء مشترك بين القرآن والكتاب المقدس إلى الكتاب الأخير. بل إن بعض المنتسبين إلى الإسلام اسما قد كتبوا فى هذا الموضوع ورددوا هذا الزعم الكاذب، ومنهم خليل عبد الكريم (المصرى) والعفيف الأخضر (التونسى)... وقد سبق أن رددت على الأول فى كتابى: "اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة"، وعلى الثانى فى دراسة يجدها القارئ فى هذا الكتاب. وهذه بعض من تلك الكتابات (الإنجليزية والفرنسية فقط) التى تتهم القرآن بالأخذ عن المصادر الكتابية:

- An Enquiry into the Sources of Islam by W. Goldsack
- Judaism and Islam by Abraham Geiger
- Jewish Foundations of Islam by Charles Cutler Torrey
- The Original Sources of the Qur'an by W. St. Clair Tisdall
- The Sources of Islam by Tisdall
- The Influence of Animism on Islam by Samuel M. Zwemer
- Legends, Myths and Fables incorporated into the Qur'an
- Apocryphal gospels in the Quran
- Abraham and the Flame of the Chaldeans: How the Quran Turns a Fable into Reality
- Biblical Stories in the Qur'an
- Midrash in the Qur'an
- Syriac Influence on the Style of the Kur'an
- Muhammad confusing Torah and Talmud
- Aux origines du Coran
- Comment est né le texte sacré de l'islam
- Les sources du Coran par Mohammad Ali Amir-Moezzi
- Origines de l'islam (Wikipédia)
- Des Auteurs Nzaréens aux Sources du Coran
- Coran: aux origines d'un grand bricolage
- Des sources chrétiennes du Coran
- Le Prêtre et le prophète. Aux sources du Coran par Joseph Azzi

بيد أن هناك نقطة فى المسألة يتجنب دائما هؤلاء المدَّعون الاقتراب منها، ألا وهى: مَنْ يا ترى أولئك اليهود أو النصارى الذين أخذ محمد منهم موادّ القرآن؟ وأين كان يقابلهم ويجلس معهم ويدارسهم وينقل عنهم؟ ومن شاهده وهو يفعل ذلك؟ ولماذا لاذ هؤلاء الأساتذة بالصمت ولم يتكلموا؟ بل دَعُونا من هذا وتعالَوْا بنا إلى النصارى واليهود المعاصرين للنبى عليه الصلاة

والسلام: لماذا لم يفضحوا الأمر ويفضحوا محمدا ويقضوا عليه وعلى دعوته فى مهدها ويريحوا ويستريحوا من ذلك الصداع الذى كانت تسببه لهم تلك الدعوة واقتضتهم المؤامرات والأموال والحروب والدعايات الفارغة؟ الحق أننا لم نسمع أنه كان بمكة يهودى واحد. ومن ثم فالقول بأنه أخذ من اليهودية كلام فارغ.

أما فى المدينة فقد كان الرسول مبتعدا عنهم لا يغشاهم فى معبدهم ولا فى مجالسهم العلمية. نعم لقد اتهمهم بالعبث بكتبهم والكفر بما فيها والخيانة لأنبيائهم، كما كان يدعوهم إلى الإسلام رحمة منه بهم وإشفاقا عليهم وامتثالا قبل ذلك لأمر ربه بتبليغ دعوته إلى العالمين جميعا، فاستجاب له بعضهم، وشَمَسَ عليه باقيهم وعَصَوْا وتمردوا وركبوا رؤوسهم المتيبسة، لكن لم يحدث قط أن رماه أحد منهم بأنه استقى قرآنه من لدنهم، وإلا فليخبرنا أولئك المتفلحسون الذين أَتَوْا بعد مرور كل تلك القرون يريدون أن يوهمونا بأنه صلى الله عليه وسلم قد سرق ما فى القرآن من عقائد وأخلاق وتشريعات وقصص من العهد القديم والتلمود، فليخبرنا أولئك الفلاحيس بأسماء من تعلم محمد على أيديهم، علما بأن معظم ما يحتويه القرآن عن اليهود إنما نزل فى مكة، أى قبل أن يصطبح النبى عليه السلام بوجوه اليهود فى يثرب.

ولا يمكن أن يقال إن اليهود كانوا يخجلون من محمد أو يخافونه، ومن ثم لم يشاؤوا اتهامه بالسرقة. لقد كانوا، والحمد لله، ذوى ألسنة حادة كالمناشير، سامة كزُبَانَى العقرب. وكانت وجوههم مصفَّحة لا تبالى. أليسوا هم الذين قالوا للمسلمين: "إن الله فقير ونحن أغنياء"؟ أليسوا هم الذين قالوا: "يد الله مغلولة"؟ أليسوا هم الذين كشفوا سوأة سيدة مسلمة فى سوقهم وصاروا يتضاحكون فى خسة ونذالة؟ أليسوا هم الذين ذهبوا إلى المشركين فى مكة يؤلبونهم على النبى ودينه؟ أليسوا هم الذين قالوا لهم إن وثنيتكم خير من توحيده؟ أليسوا هم الذين كانوا ينظمون أشعارا يقرضون بها أعراض زوجات الكبار من المسلمين ويتغزلون فيهن تغزلا جنسيا فاحشا؟ أليسوا هم الذين تحدَّوُا النبى عقب بدر قائلين له فى وقاحة: "لا يغُرَّنَّك أنك هزمتَ قوما لا علم لهم بالحرب.

ولإن حاربناك لتعلمنَّ أننا نحن الناس"، ثم لما قامت الحرب بينهم وبينه جبنوا ولم يرفعوا سيفا ولم يصوبوا سهما ولا رمحا، واستسلموا فى خزى وهوان؟

أما النصارى الذين كانوا موجودين بمكة فقد كانوا قلة شحيحة، وكانوا منحصرين تقريبا فى بعض الحرفيين الأعاجم الذين ألقت بهم الأقدار إلى مكة، ولم يكونوا يحسنون الحديث بالعربية، اللّهم إلا جملا مشوهة مكسرة يصرّفون بها أمورهم مع عملائهم دون أن يكونوا قادرين على التعبير بها عن أى شىء آخر، وهذا إن كان لدى أولئك الحرفيين أى شىء آخر له صلة بالدين ذات قيمة. ثم لقد انتهى هؤلاء إلى الدخول فى دين محمد عليه الصلاة والسلام. وهو ما انتهى إليه أيضا ورقة، الذى من الواضح أن محمدا لم يكن على صلة به، والذى لم يظهر على مسرح حياة محمد إلا يوم استفتته خديجة حين أتاها زوجها يرجف من الغار جراء ما شاهد هناك وسمع من جبريل عليه السلام مما لم يكن له به عهد ولا عرف أنه يمكن أن يقع لأى إنسان. ذلك أن ورقة قد أكد لخديجة أن ما ظهر لمحمد ليس شيئا آخر غير الناموس الذى كان ينزل على موسى، واعدا إياها أنه لو عاش حتى يدعو زوجها الناس إلى دينه ويخرجه قومه من بين أظهرهم لينصرنه نصرا مؤزرا. ليس هذا فحسب، بل الغريب المخرس أن المشركين الذين اتهموا النبى دون أدنى دليل بأنه إنما يعلمه بشر وأنه يكتتب أساطير (أى كُتُبَ) الأولين قد اعتنق جميع من عاش منهم دين الرجل الذى اتهموه بذلك، مما يدل على أنهم كانوا فى دعواهم على غير الحق، إذ سحبوا كلامهم وانخرطوا فى جيوش محمد يدافعون عن دينه وينشرون ضياءه فى الخافقين.

ومع هذا كله يزعم المؤلف أنه كان هناك يهودى فى مكة قبل الهجرة هو ورقة بن نوفل، وأن أم النبى الحقيقية هى أخت ورقة، فورقة هو خاله. والدليل عنده أنه كان يناديه بيا "mon neveu"، ومعناها: "يا ابن أخى"، جاهلا أن تلك هى الطريقة التى كان ينادى بها كبار العرب صغارهم، وبخاصة إذا كانوا من ذات القبيلة. كما كان النظراء فى العمر يتنادون بـ"يا ابن عمّ". بل إن خديجة كانت تنادى زوجها محمدا بـ"يا ابن العم" مع أنه لم يكن ابن عمها بتاتا. إنما هو تقليد اجتماعى عربى لا أكثر. وفى الشعر العربى الجاهلى شكوى متكررة من ابن العم وما يسلكه من تصرفات مسيئة نحو

الشاعر المتبرم. والمقصود مجرد شخص من القبيلة لا أكثر ولا أقل. بيد أن الكاتب الفرنسى يشرح العبارة على أن معناها: "يا ابن أختى" كى تخدم غرضه الخبيث. أى أن محمدا يهودى.

وهذه هى القصة التى رواها ابن إسحاق فى "السيرة النبوية": "قال ابن إسحاق: ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله فمرَّ به، فيما يزعمون، على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى بن قُصَى بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤَى بن غالب بن فِهْر، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى وهى عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبى. قالت: لك مثل الإبل التى نُحِرَتْ عنك، وقَعْ على الآن. قال: أنا مع أبى، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه. فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وهو يؤمئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب، وهى يؤمئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا... فزعموا أنه دخل عليها، حين أملكها، مكانه فوقع عليها، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها: ما لك لا تعرضين على اليوم ما كنتِ عرضتِ على بالأمس؟ قالت له: فارقك النور الذى كان معك بالأمس، فليس لى بك اليوم حاجة. وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر واتبع الكتب، أنه كائن فى هذه الأمة نبى".

أى أن أم محمد هى آمنة قولا واحدا، لكن الكاتب الخبيث يلجأ إلى الكذب والاختراع. ثم هل يعقل أن تقول سيدة عربية كريمة من بيت شريف كأخت ورقة لرجل فى الشارع مارٍّ بها هو وأبوه: "تعال وقَعْ علىَّ" هكذا من الباب للطاق؟ وهل يمكن أن تفكر امرأة صالحة كأخت ورقة عندها عِلْمٌ بالنبوات وتنتظر مع المنتظرين النبى الأمين أن تفكر فى الحمل بذلك النبى من زنا، وأن تحصل على النور الكريم الذى كان يشع من عبد الله بهذه الوسيلة المنكرة التى كلها ظلام ودنس؟ كذلك لا بد بالأحرى أن يعرف ورقة أخوها أن هناك نبيا يوشك أن يظهر هو ابن عبد الله بن عبد المطلب ما دام ورقة عالما بالتوراة والإنجيل. فلم إذن كان يرفده بالقصص الكتابية اليهودية؟ هل كان يخشى ألا تكون السماء قد اختارته اختيارا موفقا، فأراد أن يتدارك الأمر قبل الأوان فيعلمه بل

يغششه؟ ولكن كيف يستوى نبى مع تعليمه وتغشيشه؟ ثم كيف يا ترى فاتت المسألة عيون يهود يثرب المتربصين بمحمد المصائب والدوائر، الناصبين له الفخاخ والأشراك، المدبرين له المكائد والمؤامرات، الواضعين أيديهم فى أيدى المشركين فى مكة قوم محمد وورقة فلم يتكلموا ويفضحوه؟ ثم أليس مضحكا أن يؤكد يهود يثرب لمشركى مكة أن وثنيتهم خير من دين محمد المؤلف من كتاباتهم وكتبهم؟ ألم يكن الواجب يقتضيهم الإيمان به ما دام يهوديا وما دام كتابه يتضمن ما فى كتابات اليهود بدلا من الشغب عليه والتآمر على قتله وإثارة المشاكل له فى كل خطوة؟ أليس ذلك أمرا غريبا جدا؟ بل قبل ذلك كله كيف يرْسَل نبى يهودى إلى غير اليهود؟ ولكن منذ متى كان اليهود، فى عنادهم وصلابة أمخاخهم، يفكرون بالعقل والمنطق؟

كذلك فرغم قول ابن إسحاق إن ورقة كان نصرانيا نجد الكاتب يصر على أنه يهودى وأن محمدا هو ابن أخته. بل إنه ليدعى أن ابن إسحاق ذكر أنه كان يهوديا فى الأصل ثم انقلب نصرانيا. ترى أين قال ابن إسحاق ذلك، وهذه سيرته وسيرة ابن هشام كلتاهما بين أيدينا؟ ألا خيبة الله على الخبثاء الكذابين! ثم لماذا يشجع ورقة محمدا على النبوة، وهو كيهودى حسب تخريفات زا-ييف يعرف أن النبى المنتظر عند قومه اليهود هو من بنى إسرائيل لا من العرب؟ كما أن ورقة لم يظهر فى حياة محمد إلا بعدما نزل عليه الوحى وقصدته خديجة لتتأكد من الأمر، ثم سرعان ما مات لأنه كان شيخا كبيرا. إلا أن حايى زا-ييف يصر على أن يجعله خالا للنبى، ويمد عمره بالقوة إلى ما بعد تاريخ موته بفترة حتى يصح القول بأنه هو من مد النبى بالحكايات اليهودية التى ألف منها الوحى المكى. وعلى كل حال فإن ورقة قد آمن بالنبى عليه السلام وصار تابعا مبكرا له وطمأن قلبه قائلا: فليثبت إذا ما آذاه قومه أو أخرجوه. لكن زا-ييف يصر على أن يجعله أستاذا لمحمد. فانظر كم مرة حرف الكاتب التاريخ ليصل إلى غايته!

ومرة أخرى انظر إلى خبث الكاتب فى قوله إن ورقة كان ينادى محمدا بـ"mon neveu"، ومعناها فى سياق كلام الكاتب: "يا ابن أختى" مع أن ورقة لم يقل ولا يمكن أن يقول ذلك، بل قال: "يا ابن أخى"، إلا أن الكلمة الفرنسية تصلح لهذا ولذاك، ومن هنا وصفتُ الكاتب بالخبث، إذا

استخدم "يا ابن أخى" بمعنى"يا ابن أختى" ليوهم القارئ الفرنسى، لو افترضنا أن أحدا من الفرنسيين اهتم بتحقيق المسألة أو شغلته أصلا، أنه صادق فى النقل عن كتاب ابن إسحاق. وهذه هى الرواية التى يشير إليها الكاتب منقولة من سيرة ابن إسحاق من لدن رجوع الرسول من الغار إلى زوجته يرتجف إثر مقابلته الأولى مع جبريل، إذ سمعتْ منه الحكاية ثم "قالت: أبشر "يا ابن عم" واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة. ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع، فقال ورقة بن نوفل: قدوس قدوس! والذى نفس ورقة بيده لَإِنْ كنتِ صَدَقْتِنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة. فقولى له: فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل. فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف صنع كما كان يصنع: بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال: "يا ابن أخى"، أخبرنى بما رأيتَ وسمعتَ. فأخبره رسول الله...". ولعل القارئ الكريم تنبه لعبارتَىْ "يا ابن عم" و"يا ابن أخى" التى نادى بها كل من خديجة وورقة الرسول عليه السلام بالتوالى.

أما حقيقة الأمر، وهذا ما يقول به الإسلام، فهى أن القرآن والتوراة والإنجيل كلها من عند الله، ومن ثم كان لا بد أن تتفق فيما هو صحيح النسبة إلى السماء، وإلا فهل تناقض السماء نفسها؟ هذا غير ممكن. أما إذا كان هناك عبث من جانب الكتابيين بكتبهم فإن للقرآن عندئذ وقفة صلبة غير متساهلة يكشف فيها عبثهم وتزييفهم ويعمل على ردهم إلى جادة الحق والصواب. فالقرآن نزل ليهيمن على غيره من الكتب: فما أجازه فهو الحق لا ريب فيه، وما خطَّأه فهو ما لعبت به أهواء أصحابه وغيرت فيه وبدلت وأضافت وحذفت وأظهرت وأخفت.

ولنذهب بعد هذا إلى ما قاله مؤلف الكتاب عن تطابق عقائد الإسلام وعقائد اليهودية تقريبا، بدءا من اعتقاد الطرفين فى الله سبحانه، وانتهاء بالاعتقاد فى اليوم الآخر. وهذا أولا نص ما قال:

"La foi prêchée par le Coran est plus ou moins la même que celle professée par la Bible juive. Les principes qu'on y retrouve invariablement sont l'unicité de Dieu, Sa toute-puissance, Sa magnificence, Son omniprésence, Sa Providence dans le monde et la récompense qu'Il réserve aux Justes. Le Coran mentionne le repas accompagné de vin, réservé au jardin d'Éden pour les Justes. Il réitère les souffrances de l'enfer auxquelles les mécréants sont exposés, sujet qui est aussi abondamment traité dans le Talmud. Il reprend du Tanakh les thèmes apocalyptiques, tels que la guerre de Gog et Magog; il décrit la sonnerie des Trompettes, le grand Chofar annonçant la résurrection des morts, et le jour du Jugement au cours duquel les livres où sont consignés les bonnes et les mauvaises actions des hommes seront ouverts devant Dieu qui jugera, récompensera ou punira chacun selon ses mérites. Tous ces sujets sont traités par les prophètes d'Israël et les sages du Talmud, et le Coran affirme qu'ils figuraient déjà dans les écrits de Moïse et d'Abraham, ainsi que dans les Psaumes de David".

وسأبدأ بالاعتقاد فى اليوم الآخر، الذى يقر الكاتب بأنه لا أثر له فى التوراة، أو فلنقل نحن: "فى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم"، لأن التوراة شىء، والعهد القديم شىء آخر. فالتوراة وحى سماوى أنزله الله على موسى عليه السلام، أما العهد القديم فصناعة بشرية تحتوى على نصوص من الوحى الإلهى، لكنه ليس وحيا صافيا بل تم فيه العبث والتغيير والاستبدال والحذف والإضافة وما إلى ذلك. والسؤال هو: إذا كان الاعتقاد فى اليوم الآخر هو من الأمور الأساسية فى اليهودية فكيف يا ترى لا نجد له ذكرا فى العهد القديم لا فى أسفاره الخمسة الأولى ولا فى أى سفر آخر منه؟ إننا لا نتكلم هنا عن مسألة فرعية أو تفصيلية بل عن أحد الأسس الرئيسية فى أى دين، فكان لا بد أن يكون موجودا فى كتاب اليهود الأساسى. لكننا نبحث فى ذلك الكتاب فلا نجد شيئا من هذا، وإنما نجده فى التلمود، وهو عبارة عن شرح الحاخامات للعهد القديم. فمن أين أتى به الحاخامات؟ هل أَتَوْا به من التوراة، أى الأسفار الخمسة الأولى من كتابهم المقدس؟ فأين هو من التوراة؟ أم هل أَتَوْا به من عندهم؟ فهل هم مصدر الوحى السماوى حتى يضيفوا من عندهم شيئا غير موجود فى الكتاب الذى نزل على موسى؟

التفسير الوحيد الذى يمكن أن يقبله العقل هو أن ذِكْر الدار الآخرة كان موجودا فى التوراة، لكن لسبب أو لآخر سقط من العهد القديم، وظهر فى التلمود. وهذا أقرب الافتراضات إلى المنطق، وإلا فإن تلك العقيدة لم تكن موجودة فى اليهودية، واستوردها مؤلفو التلمود من مصدر آخر. لكن الكاتب يشير إلى ما يقوله القرآن من أن موضوع الدار الآخرة موجود فى كتب إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء. أى أن الكاتب يقر بما يقوله القرآن فى هذا الموضوع. وهو، حين يفعل ذلك، إنما يهدف إلى اتهام القرآن بالسرقة، غافلا أنه يحفر قبره بيده، وإلا فأين ذلك الاعتقاد من أسفار موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل؟ والجواب بالطبع أنه لا وجود لشىء من ذلك واضح فى الأسفار المذكورة حسبما انتهى بها الأمر فى أيديهم العابثة، بل هو موجود فى كتابات حاخاماتهم. وهذا ما يشير إليه القرآن من أن الله سبحانه نزَّل على نبيه محمد هذا القرآن مهيمنا على الكتب السماوية السابقة حتى يبين مدى صحة الموجود منها الآن فى أيدى الكتابيين ومدى بطلانه. وهو ما يقصده القرآن حين يخاطب اليهود فى سورة "المائدة" قائلا لهم فى تبكيت وإخزاء: "يا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يبَيِنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيعْفُو عَنْ كَثِيرٍ"، وكذلك حين يتهمهم فى نفس السورة بأنهم "يحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ".

ومما يكذب فيه الكاتب أيضا زعمه بأن التوراة، حسبما ذكر القرآن، نزلت من عند الله نورًا مُبِينًا لبنى إسرائيل وللعالم أجمع. وهو يشير فى هذا الصدد إلى قوله تعالى فى "آل عمران" و"الأنبياء" و"القَصَص" على الترتيب: "وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ"، "وَلَقَدْ آَتَينَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِياءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ"، "وَلَقَدْ آَتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يتَذَكَّرُونَ". فأين فى هذه النصوص الثلاثة ما يشير إلى أن التوراة جاءت نورا للبشرية جمعاء؟ لقد ذكر القرآن فى كل المواضع أن موسى إنما بعث لبنى إسرائيل وحدهم. كذلك من الفروق التى تميز بين رسولنا عليه السلام وبين الأنبياء الآخرين وتبرز تفوقه عليهم أنهم قد أُرْسِلوا إلى أقوامهم خاصة بينما أُرْسِل هو إلى الناس كافة: "أُعْطِيتُ خمسا، ولا أقوله

فخرا: بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود، وجُعِلَتْ لى الارض طَهُورًا ومسجدًا، وأُحِلّت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى، ونُصِرْتُ بالرعب فهو يسير أمامى مسيرة شهر، وأُعْطِيتُ الشفاعة فأَخّرْتُها لأمتى إلى يوم القيامة، وهى نائلة إن شاء الله من لم يشرك بالله شيئا"، "أُعْطِيتُ خمسا لم يعْطَهنَّ أحد قبلى: نصرت بالرغب مسيرة شهر، وجعلت لى الارض طهورا ومسجدا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبْعَث إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى الناس عامة". ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن إشارة القرآن إلى بعثه صلى الله عليه وسلم إلى الناس كلهم لا إلى العرب وحدهم تتضمن كلمة "جميعا/ كافة/ العالمين" على النحو التالى: "قل: يا أيها الناس، إنى رسول الله إليكم جميعا"، "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا"، "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". وعلى هذا رأيناه صلى الله عليه وسلم يبعث برسائل إلى ملوك الأرض من حوله يدعوهم فيها إلى اعتناق الإسلام. فأين هذا فى كتب اليهود؟

يقول العهد القديم فى سفر "الخروج" عن رسالة موسى: "١وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يرْعَى غَنَمَ يثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيانَ، فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللهِ حُورِيبَ. ٢وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. ٣فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيقَةُ؟». ٤فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِينْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: «هأَنَذَا». ٥فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى ههُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِى أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ».

٦ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يعْقُوبَ». فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ ينْظُرَ إِلَى اللهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّى قَدْ رَأَيتُ مَذَلَّةَ شَعْبِى الَّذِى فِى مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّى عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ، ٨فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيدِى الْمِصْرِيينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا، إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيينَ وَالْحِثِّيينَ وَالأَمُورِيينَ وَالْفِرِزِّيينَ وَالْحِوِّيينَ وَالْيبُوسِيينَ. ٩وَالآنَ هُوَذَا صُرَاخُ بَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَتَى إِلَى، وَرَأَيتُ

أَيضًا الضِّيقَةَ الَّتِى يضَايِقُهُمْ بِهَا الْمِصْرِيونَ، ١٠فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِى بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ».

١١فَقَالَ مُوسَى للهِ: «مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَحَتَّى أُخْرِجَ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟» ١٢فَقَالَ: «إِنِّى أَكُونُ مَعَكَ، وَهذِهِ تَكُونُ لَكَ الْعَلاَمَةُ أَنِّى أَرْسَلْتُكَ: حِينَمَا تُخْرِجُ الشَّعْبَ مِنْ مِصْرَ، تَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى هذَا الْجَبَلِ». ١٣فَقَالَ مُوسَى للهِ: «هَا أَنَا آتِى إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِى إِلَيكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِى: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟» ١٤فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيِهِ الَّذِى أَهْيهْ». وَقَالَ: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ: أَهْيهْ أَرْسَلَنِى إِلَيكُمْ».

١٥وَقَالَ اللهُ أَيضًا لِمُوسَى: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ: يهْوَهْ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يعْقُوبَ أَرْسَلَنِى إِلَيكُمْ. هذَا اسْمِى إِلَى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِى إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. ١٦اِذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيوخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمُ: الرَّبُّ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيعْقُوبَ ظَهَرَ لِى قَائِلًا: إِنِّى قَدِ افْتَقَدْتُكُمْ وَمَا صُنِعَ بِكُمْ فِى مِصْرَ. ١٧فَقُلْتُ أُصْعِدُكُمْ مِنْ مَذَلَّةِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيينَ وَالْحِثِّيينَ وَالأَمُورِيينَ وَالْفِرِزِّيينَ وَالْحِوِّيينَ وَالْيبُوسِيينَ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا... إلخ".

ولم يحدث قط أن دعا موسى أحدا آخر من غير بنى إسرائيل ولا فكر فى ذلك ولا ذكر أحد عنه أنه كان يفكر فى ذلك، بل كان كل همه بنى إسرائيل أولا وآخرا ووسطا. بل إن الكاتب ذاته سيذكر بعد قليل أن السيد المسيح عليه السلام هو نبى يهودى آخر إلى بنى إسرائيل. وغير مجهول قول المسيح عليه السلام للمرأة الكنعانية إنه لم يبعث إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة. وفى سورة "آل عمران" مثلا أنه قد بُعِث "رسولا إلى بنى إسرائيل". ومعروف أن اليهودية دين منغلق على نفسه ليس فيه دعوة للأمم الأخرى إلى الدخول فيها. ولهذا السبب نجد أن عدد اليهود فى العالم يقل عن أربعة عشر مليونا بينما يبلغ المسلمون مثلا ما يقارب المليارين. والآن ماذا ينبغى أن نسمى هذا؟ أليس الكذب هو أجدر تسمية له؟

كذلك يذكر الكاتب أن الله فى اليهودية والإسلام شىء واحد تقريبا، فهو واحد أحد مطلق الوجود قادر على كل شىء عالم بكل شىء رحيم بعباده يرزقهم ما يحتاجونه. هذا ما يقوله الكاتب،

لكن تعالَوْا نَرَ ما يقوله العهد القديم عنه سبحانه وتعالى. ولسوف نرى أن الأمر ليس كما يقول المؤلف، إذ الله فى العهد القديم ليس هو الله فى القرآن. ذلك أن التفاصيل تكشف من الأمور الكثير وتفضح الكلام الإجمالى العام الذى يكون عادة جميلا جذابا، ولكن عند أول منعطف فى التفاصيل تنكشف حقيقة كل شىء. وبحقٍّ يقال إن "الشيطان يكمن فى التفاصيل"! ففى العهد القديم نجد مثلا أن الله يتعب فيستريح: "٢وَفَرَغَ اللهُ فِى الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِى عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِى الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِى عَمِلَ". وهو لا يستطيع أن يعلم أين اختبأ آدم وحواء منه فى الجنة: "٨وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيا فِى الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِى وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَينَ أَنْتَ؟». ١٠فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِى الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّى عُرْيانٌ فَاخْتبَأْتُ»". ولله أبناء كما للناس بنات: "١وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، ٢أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا".

كما يغار سبحانه من آدم ويحقد عليه ويعاقبه بإنزاله من الجنة خشية أن يصير مثله خالدا وعارفا بكل شىء من الخير والشر: "٢٢وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يمُدُّ يدَهُ وَيأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَياةِ أَيضًا وَيأْكُلُ وَيحْيا إِلَى الأَبَدِ». ٢٣فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِى أُخِذَ مِنْهَا". ومن حقده سبحانه وتعالى على البشر أنه لم يطق تحدثهم بلغة واحدة، فبلبل ألسنتهم حتى يشقيهم: "١وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً. ٢وَحَدَثَ فِى ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِى أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. ٣وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيا». فَكَانَ لَهُمُ اللِّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ، وَكَانَ لَهُمُ الْحُمَرُ مَكَانَ الطِّينِ. ٤وَقَالُوا: «هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ». ٥فَنَزَلَ الرَّبُّ لِينْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَينِ كَانَ بَنُو آدَمَ يبْنُونَهُمَا. ٦وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يمْتَنِعُ عَلَيهِمْ كُلُّ مَا ينْوُونَ أَنْ يعْمَلُوهُ. ٧هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». ٨فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ

هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ، ⁹لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ".

وهو عز وجل يظْهَر للبشر: "¹وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا، ²فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا»... ²²فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَهُ صَعِدَ اللهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ... ¹وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ... وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ... ⁹وَظَهَرَ اللهُ لِيَعْقُوبَ أَيْضًا حِينَ جَاءَ مِنْ فَدَّانَ أَرَامَ وَبَارَكَهُ. ¹⁰وَقَالَ لَهُ اللهُ: «اسْمُكَ يَعْقُوبُ. لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِيمَا بَعْدُ يَعْقُوبَ، بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِسْرَائِيلَ». فَدَعَا اسْمَهُ «إِسْرَائِيلَ»".

ولايظهر الله للبشر فقط بل يلتحم معهم فى مصارعة، فيغلبونه، ولا يمكنه التفلص من قبضة غريمه إلا باللتيا والتى كما حدث مع يعقوب، الذى صارع الله طوال الليل، وقبض عليه بذراعيه قبضة عنيفة لم يمكنه سبحانه الإفلات منها إلا بعدما ضرب يعقوبَ على حق فخذه وآلمه: "²²ثُمَّ قَامَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَخَذَ امْرَأَتَيْهِ وَجَارِيَتَيْهِ وَأَوْلاَدَهُ الأَحَدَ عَشَرَ وَعَبَرَ مَخَاضَةَ يَبُّوقَ. ²³أَخَذَهُمْ وَأَجَازَهُمُ الْوَادِي، وَأَجَازَ مَا كَانَ لَهُ. ²⁴فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ. ²⁵وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. ²⁶وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي». ²⁷فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ». ²⁸فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». ²⁹وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. ³⁰فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلًا: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي». ³¹وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ. ³²لِذلِكَ لاَ يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِي عَلَى حُقِّ الْفَخْذِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنَّهُ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِ يَعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا".

وفى العهد القديم أيضا نقرأ ما يلى: "¹وَكَانَتْ إِلَيَّ كَلِمَةُ الرَّبِّ قَائِلَةً: ²«يا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، ³وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ.

أَبُوكِ أَمُورِى وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. ٤أَمَّا مِيلاَدُكِ يوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِى بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِى تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِى تَقْمِيطًا. ٥لَمْ تَشْفُقْ عَلَيكِ عَينٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يوْمَ وُلِدْتِ. ٦فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِى، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِى. ٧جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيانِ. نَهَدَ ثَدْياكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً. ٨فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيلِى عَلَيكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِى عَهْدٍ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِى. ٩فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيتِ، ١٠وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا، ١١وَحَلَّيتُكِ بِالْحُلِى، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِى يدَيكِ وَطَوْقًا فِى عُنُقِكِ. ١٢وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِى أَنْفِكِ وَأَقْرَاطًا فِى أُذُنَيكِ وَتَاجَ جَمَال عَلَى رَأْسِكِ. ١٣فَتَحَلَّيتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِبَاسُكِ الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيتَ، وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. ١٤وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِى الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِبَهَائِى الَّذِى جَعَلْتُهُ عَلَيكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ.

١٥«فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيتِ عَلَيهَا. أَمْرٌ لَمْ يأْتِ وَلَمْ يكُنْ. ١٧وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِى وَمِنْ فِضَّتِى الَّتِى أَعْطَيتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيتِ بِهَا. ١٨وَأَخَذْتِ ثِيابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيتِى وَبَخُورِى. ١٩وَخُبْزِى الَّذِى أَعْطَيتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيتَ وَالْعَسَلَ الَّذِى أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ.

٢٠«أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِى، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ ٢١أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِى وَجَعَلْتِهِمْ يجُوزُونَ فِى النَّارِ لَهَا؟ ٢٢وَفِى كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِى أَيامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. ٢٣وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيلٌ، وَيلٌ لَكِ! يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، ٢٤أَنَّكِ بَنَيتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِى كُلِّ شَارِعٍ. ٢٥فِى رَأْسِ كُلِّ طَرِيق بَنَيتِ

مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. ٢٦وَزَنَيتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِى مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِى زِنَاكِ لإِغَاظَتِى.

٢٧«فهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يدِى عَلَيكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيينَ، اللَّوَاتِى يخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. ٢٨وَزَنَيتِ مَعَ بَنِى أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِى فَزَنَيتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِى أَيضًا. ٢٩وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيينَ، وَبِهذَا أَيضًا لَمْ تَشْبَعِى. ٣٠مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيةٍ سَلِيطَةٍ، ٣١بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِى رَأْسِ كُلِّ طَرِيق، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِى كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِى كَزَانِيةٍ، بَلْ مُحْتَقَرَةً الأُجْرَةَ. ٣٢أَيتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣لِكُلِّ الزَّوَانِى يعْطُونَ هَدِيةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَاياكِ، وَرَشَيتِهِمْ لِيأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِى زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ.

٣٥«فَلِذلِكَ يا زَانِيةُ اسْمَعِى كَلاَمَ الرَّبِّ: ٣٦هكَذَا قَالَ السَّيدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ بَذَلْتِهِمْ لَهَا، ٣٧لِذلِكَ هأَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِينْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ. ٣٨وَأَحْكُمُ عَلَيكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السَّخْطِ وَالْغَيرَةِ. ٣٩وَأُسَلِّمُكِ لِيدِهِمْ فَيهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ، وَينْزِعُونَ عَنْكِ ثِيابَكِ، وَيأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيتْرُكُونَكِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً. ٤٠وَيصْعِدُونَ عَلَيكِ جَمَاعَةً، وَيرْجُمُونَكِ بِالْحِجَارَةِ وَيقْطَعُونَكِ بِسُيوفِهِمْ، ٤١وَيحْرِقُونَ بُيوتَكِ بِالنَّارِ، وَيجْرُونَ عَلَيكِ أَحْكَامًا قُدَّامَ عُيونِ نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكُفُّكِ عَنِ الزِّنَا، وَأَيضًا لاَ تُعْطِينَ أُجْرَةً بَعْدُ. ٤٢وَأُحِلُّ غَضَبِى بِكِ فَتَنْصَرِفُ غَيرَتِى عَنْكِ، فَأَسْكُنُ وَلاَ أَغْضَبُ بَعْدُ. ٤٣مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ لَمْ تَذْكُرِى أَيامَ صِبَاكِ، بَلْ أَسْخَطْتِنِى فِى كُلِّ هذِهِ، فَهأَنَذَا أَيضًا أَجْلِبُ طَرِيقَكِ عَلَى رَأْسِكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، فَلاَ تَفْعَلِينَ هذِهِ الرَّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكِ كُلِّهَا".

وهو جل وعلا يتخذ فى أكثر من مناسبة قرارا بمعاقبة بنى إسرائيل، بيد أنه حين يبدأ فى كل مرة العقاب يندم ويغير رأيه ويتخذ قرارا آخر: "فنَدِم الربُّ على الشر الذى قال إنه يفعله بشَعْبِه"، "وبسط الملاكُ يده على أورشليم ليهْلِكها، فندم الرب عن الشَّرّ، وقال للملاك المُهْلِك الشعب: كَفَى الآن. رُدَّ يدَك. وكان ملاكُ الربِّ عند بَيدَر أرونة اليبُوسِى"، "هل قَتْلًا قَتَلَه حزقيا مَلِكُ يهوذا وكلّ يهوذا؟ ألم يَخَفِ الربَّ وطَلَب وَجْهَ الربّ، فنَدِم الربُّ عن الشر الذى تكلَّم به عليهم؟ فنحن عاملون شَرًّا عظيما ضد أنفسنا"، "فنَدِم الربُّ على هذا. لا يكون: قال الربُّ". ولا يصح القول بأن هذه مجرد مجازات، فلا السياق يقبل هذا ولا الأسلوب يرشح له. وعلى هذا فمن الجرأة بمكان مقارنة العهد القديم بالقرآن فى عقيدة الألوهية.

وبالنسبة للوصايا يكتب المؤلف أن القرآن يكرر الدعوة إلى الخشية من الله وعبادته وتمجيده، وإلى احترام الوالدين والعطف على الغرباء والأرامل واليتامى، وإخراج الزكاة، والحكم بالعدل والسعى إلى السلام ونبذ الفرقة والشقاق ومراعاة أيام الصوم، وتجنب الشرك والقتل والوأد والزنا والشذوذ الجنسى والسرقة والخداع فى البيع والشراء ولعب الميسر والسحر والأيمان الكاذبة وأكل الربا. وهو يقصد أن القرآن متأثر فى هذا بالعهد القديم. وهذه مغالطة شديدة، فلم ينكر القرآن أن التوراة وحى سماوى. وليس من المعقول أن يختلف وحى سماوى مع وحى سماوى آخر فيما هو عام من المبادئ الأخلاقية، إذ لا يمكن أن يأمر دين من أديان الله بالقتل أو بالسرقة أو بالخيانة مثلا.

ومع هذا فإن الربا فى العهد القديم غير مجرَّم إلا إذا كان مع إسرائيلى، أما إذا كان المرابَى معه من الأجانب فأهلا وسهلا. كما أن الله سبحانه قد بارك سرقة الإسرائيليين لذهب جيرانهم المصريين ليلة الخروج من البلاد. أما القتل فداوود قد اقترفه بضمير راسخ، مضيفا إليه الزنا بامرأة جاره وقائده الحربى المخلص، إذ خطط لقتله على خط النار، وتم القتل فعلا، حتى يخلو له وجه الزوجة، وهى بالمناسبة أم سليمان. أى أن داوود، وهو نبى، قد قتل وزنا، فارتكب بذلك خطيئتين شنيعتين. وسوف يقع الزنا فى بيته بعد ذلك بين ابنه وابنته. ومن قبلُ وَقَع الزنا بين يهودا وبين زوجة ابنه، ووقع أيضا بين لوط وابنتيه كما هو معروف. ووقع القتل من موسى ذاته، وكان قتلا عمدا وعن

سبق إصرار. ثم لدينا حكم العهد القديم فى الأمم المجاورة التى يهزمها الإسرائيليون، إذ ليس لها فى تلك الحالة سوى الإبادة المتوحشة التامة الشاملة للإنسان والحيوان على السواء. كما تنازل إبراهيم عن زوجته سارة لأبيمالك قائلا له إنها أخته، وانشغل بما أفاض الملك عليه من بقر وغنم. ولولا أن أبيمالك قد عرف فى الحلم أن سارة هى امرأة إبراهيم لوقعت الفاس فى الراس.

وتبقى الأصنام. وكان من أول من صنعها، حسب مؤلفى العهد القديم، هارون عليه السلام، حين غاب أخوه فوق الجبل فى ميعاده مع ربه، وتذمر الشعب، فصنع لهم هارون عجلا كى يعبدوه، وأخذ الشعب يتصايح وهو يطوف بتمثال العجل عراة كما ولدتهم أمهاتهم، وهارون حاضر معهم. ثم لم يقصر عنه سليمان، الذى تزوج وثنيات عصيانا لنهى الله له ولقومه عن الزواج بهن. ثم لم يكتف بهذا بل أمر بصنع أوثان لهن كى يعبدنها على راحتهن فى بيته. وبعد هذا كله يجد الكاتب الجرأة فى نفسه على اتهام القرآن بأنه اقتبس ما فيه من عقائد وتشريعات وأخلاق وقصص من العهد القديم وغيره من كتب يهود.

والعجيب الغريب الذى يدل على صدق نبينا عليه السلام أن الإسلام برَّأ من جميع التهم الماضية أنبياء بنى إسرائيل، الذين لوثهم العهد القديم: فموسى لم يقتل المصرى عمدا وعن سبق إصرار، بل كان القتل على سبيل الخطإ والمصادفة، وسرعان ما استغفر ربه وعاهده ألا يكون ممن يناصرون المجرمين أبدا، وغفر الله له. وهارون لم يصنع العجل لقومه بل صنعه السامرى، ولم يقدر هارون معهم على فعل أى شىء، وكان حريصا طوال الوقت الذى غابه موسى على وحدتهم وعدم إتيان ما يمكن أن يؤدى إلى تفرقة كلمتهم. وليس فى قصة داوود كما رواها القرآن أى كلام عن قتل أو زنا. ومن السهل جدا، لو كان لقصة العهد القديم عنه أصل من الحقيقة، تأويلها فى القرآن بأنه ربما مر بخاطره أن تكون له امرأة قائده، فبعث الله إليه الخصمين لينبهاه إلى ذلك عن طريق ضرب المثل بمالك النعجة الواحدة ومالك النعاج التسع والتسعين، إذ كانت لسليمان إماء كثيرات، ومن ثم لا معنى لذلك التطلع، فارعوى وخر راكعا وأناب. وإلا فربما كان سبب استغفاره وإنابته أنه تسرع وحكم على الأخ الذى أراد أن يضم نعجة أخيه إلى نعاجه اللاتى يبلغن المائة تقريبا دون أن يحاول

التحقق من صحة الدعوى رغم أن كل شيء فى كلام صاحب النعجة الواحدة يشير إلى صدقه. فأراد الله سبحانه أن يعلمه مبدأ التحقق والتيقن قبل إصدار الحكم مهما بدت القرائن فى صالح الحكم الصادر، وذلك حتى يأتى الحكم غير مشوب بالعُوَار. وليس فى القرآن قط أن سليمان تزوج وثنيات، بله أن يكون قد أمر بصنع أوثان لهن يعبدنها فى بيته. وإبراهيم فى القرآن أُمَّة، ولوط هاجَرَ فى سبيل ربه، فكيف يقال إن ابنتيه سقتاه خمرا ونامتا معه وزنتا به؟ أستغفر الله. أى أن القرآن أبرُّ بأنبياء بنى إسرائيل من العهد القديم بهم. ولو كان القرآن من صنع محمد لترك كلام العهد القديم فى حقهم كما هو دون حذف أو تلطيف حتى يبْرُز هو وحده من بينهم وضاء ساطعا متوهجا، ولأَبْقَى على كل ما قصه مؤلفو العهد القديم عن موقف شريعة بنى إسرائيل من الربا والسرقة وما إلى ذلك بوصفها شريعة التوراة فعلا. لكنه نبى كريم، ومن ثم جرَّم بنى إسرائيل ولم يجرِّم كتابهم ولا شريعتهم مؤكدا أنها شريعة إلهية. وتلك عليا مراتب الأنبياء!

ومرة أخرى يكذب الكاتب اليهودى فيزعم زورا وباطلا وبهتانا أن الرسول كان يدعو قومه فى مكة إلى الإيمان بثلاثة أشياء: الله والتوراة واليوم الآخر. فنحن إذن أمام قواعد جديدة للإسلام. ولنلاحظ أن الدعوة الجديدة، حسبما يوضح الكاتب الخبيث، لا تتضمن الإيمان بنبوة محمد، بل بالتوراة. والواقع أن الرسول لم يدع قومه إلى الإيمان بالتوراة بل تحدث عن موسى وقومه وما وقع لهم فى مصر وبعد تركهم مصر. لكنه لم يقتصر على ذلك بل تحدث أيضا عن عاد وثمود وشعيب ونوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويونس واليسع وعيسى. فكما ترى لم يقتصر الحديث على التوراة وموسى بل شمل أيضا أنبياء وأقواما آخرين... كما لم يتطرق الكلام فى مكة إلى التشريعات التوراتية. بل إن لفظة "التوراة" لم ترد فى القرآن المكى سوى مرة واحدة فى الآية ١٥٧ من سورة "الأعراف"، وكانت عن وجوب إيمان أهل الكتاب من يهود ونصارى بمحمد عليه السلام كما أمرهم كتابهم بذلك، فى حين وردت لفظة "قرآن" فى ذلك الوحى أكثر من ستين مرة.

وها هى ذى الآية المذكورة فى سياقها هناك: "وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِياى أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِى إِلَّا

فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِينا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيكَ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يتَّقُونَ وَيؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَياتِنَا يؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِى الْأُمِّى الَّذِى يجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَينْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيحِلُّ لَهُمُ الطَّيبَاتِ وَيحَرِّمُ عَلَيهِمُ الْخَبَائِثَ وَيضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يا أَيهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يحْيِى وَيمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِى الْأُمِّى الَّذِى يؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يعْدِلُونَ (١٥٩)". فانظر كيف يقلب الكاتب الأمر من دعوة التوراة لبنى إسرائيل إلى الإيمان بمحمد متى أدركوا عصره إلى القول بأن محمدا كان يدعو قومه للإيمان بالتوراة لا للإيمان بنبوته هو.

ثم ها هى ذى السور المكية أمامنا فى المصحف الشريف، ومنها نعرف أن الرسول عليه السلام كان يدعو إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والأخلاق الكريمة والعطف على الفقراء والمساكين والأيتام والأمانة فى البيع والشراء وإيفاء الكيل والميزان والبر بالوالدين والصدق فى القول والوفاء بالوعد، والإيمان بنبوة محمد بطبيعة الحال، والحديث عن بعض الرسل والأنبياء السابقين وعناد أقوامهم معهم وتمردهم عليهم وتكذيبهم إياهم وما نزل بهم لهذا السبب من عقاب سماوى مخيف. ولم يقل الرسول يوما لقومه: آمنوا بالتوراة. نعم سوف يقول ذلك فى المدينة، لكن ليس بوصفه أساسا من أسس الإسلام كما يريد الكاتب منا أن نفهم، بل بوصفه أمرا متضمنا فى الإيمان بمحمد والكتاب الذى جاء به. فمحمد نبى مثل أولئك الأنبياء، وكما ينبغى أن نؤمن به ينبغى أن نؤمن بهم كذلك، لكنه خاتمهم وزعيمهم، وكتابه هو الكتاب المهيمن على كتبهم. ثم إن محمدا لم يكتف بهذا بل كان واضحا تماما فى القول بأن التوراة قد وقع فيها عبث وتحريف. أى أن ما قاله الكاتب الماكر فى هذا الصدد ضلال مبين.

ويلجأ الكاتب إلى شبهة أخرى للقول بأن القرآن متأثر باليهودية، وهى أن بين السور المكية نحو خمسين كلها مأخوذ من كتابات اليهود وحدها، بعكس الكتابات النصرانية التى لا تحتل فى ذلك الوحى أى موضع مثلما لا يأتى ذكر للمسيح فيه. وأنا لن أجادله فيما يقول، ولكن أحب أن أسأله هذا السؤال: هل قال القرآن فى ذلك الوحى شيئا طيبا عن اليهود؟ لنأخذ النصين التاليين من الوحى المكى الذى يتكلم عن اليهود، وهما من "الأعراف" و"طه" على الترتيب. ولسوف يرى القارئ أن رأى القرآن فى اليهود حتى فى الوحى المكى قبل أن يصطدم الرسول بهم فى يثرب هو رأى لا يسر عدوا ولا صديقا: "وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَينَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيسْتَحْيونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)... وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يرَوْا أَنَّهُ لَا يكَلِّمُهُمْ وَلَا يهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يجُرُّهُ إِلَيهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِى الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَينَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِياى أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِى إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِى الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيكَ قَالَ

عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِى الْأُمِّى الَّذِى يجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَينْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيحِلُّ لَهُمُ الطَّيبَاتِ وَيحَرِّمُ عَلَيهِمُ الْخَبَائِثَ وَيضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يا أَيهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يحْيِى وَيمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِى الْأُمِّى الَّذِى يؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَينَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَينًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيوْمَ لَا يسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَينَا الَّذِينَ ينْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ إِلَى يوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيئَاتِ لَعَلَّهُمْ يرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيقُولُونَ سَيغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يأْخُذُوهُ أَلَمْ يؤْخَذْ عَلَيهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيرٌ لِلَّذِينَ يتَّقُونَ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)".

"وَلَقَدْ أَوْحَينَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيهُمْ مِنَ الْيمِّ مَا غَشِيهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يا بَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيحِلَّ عَلَيكُمْ غَضَبِى وَمَنْ يحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِى (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يحِلَّ عَلَيكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِى (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِى (٨٨) أَفَلَا يرَوْنَ أَلَّا يرْجِعُ إِلَيهِمْ قَوْلًا وَلَا يمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يرْجِعَ إِلَينَا مُوسَى (٩١) قَالَ يا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَينَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يا سَامِرِى (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىءٍ عِلْمًا (٩٨)"

أما الكلام عن النصرانية والمسيح فيكفى أن هناك فى الوحى المكى سورة كاملة باسم أمه عليها السلام، وفيها حديث طويل عن ميلاده المعجز مع الحملة على عقيدة تأليهه فى ذات الوقت: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيا (١٧) قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيا مَنْسِيا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيا (٢٤) وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيا (٢٥) فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيا (٢٧) يا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيا (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَينَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَى يوْمَ وُلِدْتُ وَيوْمَ أَمُوتُ وَيوْمَ أُبْعَثُ حَيا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يقُولُ لَهُ كُنْ فَيكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَينِهِمْ فَوَيلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يوْمَ يأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَينَا يرْجَعُونَ (٤٠)"

وهذه أيضا نصوص مكية يرد فيها اسم عيسى عليه السلام بعكس ما يزعم المدلس الكذاب: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَينَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيعْقُوبَ كُلًّا هَدَينَا وَنُوحًا هَدَينَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيمَانَ وَأَيوبَ وَيوسُفَ

وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيا وَيحْيى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيسَعَ وَيونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)" (الأنعام)، "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَينَا إِلَيكَ وَمَا وَصَّينَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ اللَّهُ يجْتَبِى إِلَيهِ مَنْ يشَاءُ وَيهْدِى إِلَيهِ مَنْ ينِيبُ" (الشورى/ ١٣)، "وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِى الْأَرْضِ يخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يصُدَّنَّكُمُ الشَّيطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَينَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَينَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَينِهِمْ فَوَيلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ ينْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يشْعُرُونَ (٦٦)" (الزخرف)، وذلك على الرغم من أن المرحلة المكية إنما يناسبها حكاية القصص التى انتهت بانتصار الأنبياء على من عَصَوْهم وتمردوا عليهم، وهو ما لا وجود له فى قصة عيسى. أى أن ما قاله الكاتب عن اختفاء اسم عيسى والنصرانية من الوحى المكى هو كذب فى كذب!

وفضلا عن ذلك نراه قد تجاهل النصوص المكية الكثيرة المفصلة التى تتناول هودا وصالحا وشعيبا وسيرتهم مع أقوامهم وما عانَوْه فى بيئاتهم مع الشرك والمشركين حتى نصرهم الله نصرا مؤزرا، علاوة على القصص غير الكتابية كقصة المرأة التى نقضت غَزْلها أنكاثا فى سورة "النحل" وقصة "صاحبى الجنتين فى سورة "الكهف" وقصة أصحاب الجنة فى سورة "القلم" وغيرها من القصص والأمثال. ثم كيف يا ترى نفسر إيراد القرآن فى الفترة المدنية لتفاصيل جديدة من حياة السيد المسيح لم يتطرق لها الوحى قبلا؟ الواقع أننا كيفما نظرنا للأمر تبدى لنا أن الكاتب يجرى على عرقه اليهودى الأصيل، إذ فيه كل العِبَر التى اشتهر بها اليهود من مداورة ولف ودروان وتنطع وعناد وصلابة دماغ وافتراءات بجحة واتهامات تدابر المنطق والعقل والذوق دون حياء أو خجل.

ويمضى الكاتب فى كذبه وتزييفه قائلا إن محمدا طوال العهد المكى لم يدُرْ فى خَلَده أن يقدم للناس دينا جديدا ولم يحدث أن ذكر أن له كتابا خاصا يختلف عن التوراة، بل كان كل جهده ينحصر فى تذكير الناس أن ما أتى به لا يختلف فى شىء عما عند اليهود. فما مدى صحة هذا الكلام؟ الحق أنه كذاب من الطراز الردىء، فأنت تقرأ السور المكية القصيرة كلها فلا تجد فيها ذكرا لليهود بأى حال، وإن ذُكِر اسم فرعون وموسى فقط على ندرة شديدة. لكن هناك سورة "البينة"، وفيها ذكر لأهل الكتاب بعد وضعهم مع المشركين فى سلة واحدة وانتقاد شديد لهم وحديث عمن كفر منهم ونهايته البشعة يوم القيامة مما له مغزاه الواضح: "لَمْ يكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيهُمُ الْبَيِنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَينَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيرُ الْبَرِيةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِى رَبَّهُ (٨) ".

أما أن الرسول لم يذكر أنه أتى بكتاب خاص به أو بدين جديد غير اليهودية فسوف أترك النصوص التالية تتكلم من تلقاء ذاتها: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيلَةِ الْقَدْرِ" (القدر/ ١)، "بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)" (البروج)، "فَمَا لَهُمْ لَا يؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيهِمُ الْقُرْآَنُ لَا يسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يكَذِّبُونَ (٢٢)" (الانشقاق)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَينَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ " (التكوير)، "كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)" (عَبَس)، "فَبِأَى حَدِيثٍ بَعْدَهُ يؤْمِنُونَ" (المرسلات/ ٥٠)، ، "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (الإنسان/ ٢٩)"، "كَلَّا

إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥)" (المدَّثِّر)، "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَى اللَّيلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يقَدِّرُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيسَّرَ مِنَ الْقُرْآَنِ عَلِمَ أَنْ سَيكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآَخَرُونَ يقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) "، "قُلْ أُوحِى إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآَنًا عَجَبًا (١) يهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآَمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)" (الجن)،) "فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)" (الحاقَّة)، "فَذَرْنِى وَمَنْ يكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيثُ لَا يعْلَمُونَ" (القلم/ ٤٤)... إلخ.

وهذا فى الجزأين الأخيرين من القرآن فقط، وهما من القرآن المكى المبكر جدا. ويرى القارئ بنفسه كيف يتكرر الحديث عن القرآن فى تلك النصوص إما بلفظ القرآن ذاته أو بلفظ "التذكرة" أو "الصحف" أو "الكتاب" أو "الذكر" أو "التنزيل" أو "الحديث" أو "قول رسول كريم"، كل هذا دون وجود أية إشارة إلى التوراة بصريح اللفظ أو بالتلميح أو بأية وسيلة أخرى، اللّٰهم إلا مرة واحدة فى عبارة "صحف إبراهيم وموسى" فى سورة "الأعلى" بإرفاقها بصحف إبراهيم كما نرى، وعدم إفرادها بالذكر وحدها. وفوق ذلك فهى "إشارة" عارضة وخاطفة. ولقد سبق أن بينا أن كلمة "التوراة" لم ترد فى القرآن المكى سوى مرة واحدة فى سورة "الأعراف" تبكيتا لأهل الكتاب من يهود ونصارى، ونخسا لهم أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمد قبل أن تفوتهم الفرصة ويكون مصيرهم الجحيم، بينما تكرر لفظ "القرآن" أكثر من ستين مرة.

كذلك سبق أن أوردنا من القرآن المكى انتقادات حادة لليهود لانحرافهم عن الصراط المستقيم، وتصويرا لتيبس أمخاخهم ومسارعتهم إلى الارتكاس فى حمأة الوثنية كلما نجمت الفرصة.

ثم إن الموضوعات التى تتناولها النصوص المكية هى موضوعات خاصة بالمجتمع العربى وبحياة الرسول وتجاربه مع قومه واجتهاده فى دعوتهم إلى الإيمان بالقيم الجديدة. وإذا ما حدث أن أتى ذكر بنى إسرائيل أو غيرهم من الأمم السابقة كعاد وثمود والمؤتفكات وقوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط فلكى ينبه القرآن مشركى العرب إلى أن مصيرهم سيكون كمصير أولئك الذين كذبوا رسلهم، فكانت عاقبتهم وخيمة. ومن هذا كله يتبين أن الأمر يسير عكس الاتجاه الذى يحاول الكاتب المدلس لَيَهُ إلى الناحية الأخرى، لكن كل الدلائل والشواهد والنصوص والمنطق تقف ضده وتفضحه!

كما يزعم المدلس أن محمدا قد اتخذ من التوراة مصدرا رئيسيا له، وأنه كان حريصا على أن يبين للعرب أهمية التوراة ويدعوهم إلى الإيمان بها. ثم تبلغ به بجاحته أن يحيل إلى بعض النصوص القرآنية إثباتا لهذا الهلس الذى يقول. ومنها قوله تعالى فى سورة "الجاثية": "وَلَقَدْ آَتَينَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ". فهل يستطيع القارئ أن يرى فى هذه الآية شيئا مما يدعيه ذلك الكذاب؟ إن القرآن يقرر حقيقة من حقائق التاريخ، وهى أن الله قد آتى موسى الكتاب والحكم والنبوة، لكن النبى لم يقل لقومه: لقد جئتكم لأدعوكم إلى الإيمان بالتوراة، ذلك الكتاب الذى أنزله الله على موسى واليهود. ومع هذا فلن أكتفى بها مر بل سأقرأ مع القراء الآيات التالية من صدر السورة ذاتها لنرى ماذا تقول: "حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)... تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيكَ بِالْحَقِّ فَبِأَى حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يؤْمِنُونَ (٦) وَيلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيهِ ثُمَّ يصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آَيَاتِنَا شَيئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يغْنِى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)". وواضح أن الكلام فى النص عن آيات القرآن، الذى يسمى فيه بـ"الكتاب"، وأنه دعوة للإيمان بذلك الكتاب الذى جاء هدى للبشر، وتقريع وتهديد بعذاب من رجز أليم لمن يكْفُره ويصر مستكبرا على النفور منه والاستهزاء به.

ولنأخذ مثالا آخر من تخرصات الكاتب التى يريد أن يوهمنا بها أن محمدا لم يكن يدعو فى القرآن المكى إلا إلى التوراة واليهودية. إى والله هذا ما يريد الكاتب منا أن نصدقه ونؤمن به. يقول تعالى: "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يؤْمِنُونَ" (الأنعام/ ١٥٤). مرة أخرى أين، فى الآية الكريمة المذكورة، ما يعمل الكاتب على إقناعنا به؟ تعالوا نقرأ الآية فى سياقها من السورة، ولسوف يتضح الأمر أكثر وأكثر ويتبين أنه لا يمكن أبدا أن يكون على النحو الذى يدعيه هذا المدلس. يقول تعالى: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا وَبِالْوَالِدَينِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِياهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِى أَحْسَنُ حَتَّى يبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَينِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَينَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى الَّذِينَ يصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ ينْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يأْتِى رَبُّكَ أَوْ يأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يوْمَ يأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا ينْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)".

إن النص يتحدث عن صراط الله المستقيم الذى يجب على قوم محمد عليه السلام اتباعه دون غيره من السبل، وعن الكتاب المبارك الذى أنزله الله بعد كتابَىْ موسى وعيسى والذى يقضى على ما يتحجج به المشركون من أنهم لم ينزل عليهم كتاب خاص بهم، إذ ها هو ذا الكتاب الذى كانوا

يتحججون بأنه لم ينزل عليهم قد نزل وأبطل حجتهم، فليس أمامهم من حل سوى الإيمان به قبل أن يأتى يوم القيامة فتكون نهايتهم شنيعة ولاينفعهم الإيمان ساعتئذ. أما إذا أصروا على الكفر والعصيان فلينتظروا ما شاؤوا الانتظار، فإن عاقبتهم وخيمة! ترى أين إذن مزاعم ذلك المزيف قوال الأباطيل؟

وهكذا يدور القرآن كله حول دعوة محمد وحياته وأصحابه والأعداء الذين يحوطونه ويناوئونه من مشركين ومنافقين ويهود ونصارى. ثم تأتى قصص الأمم السابقة وأنبيائها، ومنهم موسى، كعنصر ملحق بالصورة الأصلية، وليس شيئا أساسيا فيها. فأين ذلك الوهم الذى يعمل الكاتب بكل وسيلة شيطانية على تسويقه زعما بأن محمدا يهودى اعتمد على الكتابات اليهودية فى تأليف قرآنه؟ ليس ذلك فقط، إذ بينما كانت رسالة موسى عليه السلام محلية تخاطب قومه دون غيرهم من الأقوام، وهو ما ينطبق على كل النبوات والرسالات قبل محمد عليه الصلاة والسلام، فإن رسالة محمد رسالة عالمية لا تخص العرب وحدهم، وإن كان قد بدأ بطبيعة الحال بهم، ثم تجاوزت بعد ذلك حدود بلادهم إلى العالم أجمع بدءا بفارس والروم أقرب الدول الكبيرة إليهم. فكيف، بعد ذلك كله، يصر الكاتب على الاستمرار فى دجله الشيطانى وخيالاته المريضة؟ ومرة أخرى ليس ذلك فقط، إذ ما من مرة أورد القرآن شيئا مما جاء ذكره فى العهد القديم عن موسى أو غيره يختلف عما عند اليهود إلا وكان الصواب والخلق الكريم والعبرة الطيبة فى جانب القرآن. وقد مرت بعض الأمثلة عن هارون، الذى اتهمه كُتّاب العهد القديم بصنع العجل لبنى إسرائيل كى يعبدوه، بينما يقول القرآن إن صانعه هو السامرى وإن هارون لم يشترك فى تلك الوثنية على أى نحو من الأنحاء، وكذلك عن داود وما ارتكبه من زنا وقتل فى كتاب اليهود بينما صورته فى القرآن نظيفة طاهرة، وأيضا عن سليمان، الذى أسندوا إليه أنه أمر بصنع أصنام تعبدها زوجاته المشركات على راحتهن فى بيته... إلخ. فماذا يريد الكاتب المراوغ غير هذا حتى يكف عن تحامقه الخبيث؟ ومرة أخرى رابعة لا يقف الأمر عند هذه النقطة، بل نجد فى المبادئ والتشريعات التى يحتوى عليها العهد القديم زَغَلًا غير قليل فى حين أنها فى القرآن تسطع متوهجة كمالا وجمالا حسبما أوضحنا من قبل.

ونحن لا نتهم التوراة فى شىء، إذ التوراة وحى إلهى لا يمكن أن يكون فيه زغل، بل نتحدث عن العهد القديم، وهو من تأليف البشر، وإن كان لا يخلو من بعض الوحى الأصلى قبل أن يعتريه الحذف والإضافة والتبديل.

وعلى الناحية الأخرى تبرز قصة إبراهيم عليه السلام فى سورة "الأنعام"، وهو يشق طريقه نحو الله من خلال التأمل فى ظواهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم، وهو ما لم تحظ به فى هذه السورة قصة موسى عليه السلام. كما تحتل قصته فى آخر السورة المسماة باسمه مكانا كبيرا بخلاف موسى، الذى انحصر الكلام عنه فى آيتين اثنتين مجملتين فى أولها. وبالمثل تأخذ قصة إبراهيم ولوط حيزا كبيرا نسبيا فى سورة "الحِجْر"، ولا يشاركهما فيها أحد آخر من النبيين والمرسلين. أما فى "الأعراف" فتقابلنا قصص نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى. أى أن موسى لم يذْكَر وحده بل أتى مع عدد من الأنبياء الآخرين تكررت مرافقته لهم فى أكثر من سورة كـ"هود" و"الفرقان" و"الشعراء" و"الصافات" و"ق" و"القمر" و"الحاقة". وإذا كان لدينا سورتان تحتل قصة موسى فيهما موضعا بارزا لا تشاركها فيه قصة نبى آخر هما "طه" و"القصص" فما أكثر، فى ذات الوقت، السور المكية التى لم يرد فيها اسم موسى ولا تطرقت إلى الحديث عن اليهود أو الإشارة إليهم. كما أن لدينا سورا أخرى يبرز فيها إبراهيم عليه السلام وحده كما وضحنا، مثلما هناك سورة كاملة باسم "مريم"، وأخرى كاملة وطويلة وتقتصر من أولها إلى آخرها على يوسف عليه السلام. ولدينا سور مسماة باسم هذا النبى أو ذاك: "يونس، هود، يوسف، إبراهيم، محمد، نوح" ليس من بينها واحدة باسم "موسى". وكثيرا ما تكون الإشارة إلى موسى فى السور القرآنية سريعة وخاطفة حتى لقد تقتصر تقريبا على ذكر اسمه عليه السلام ليس إلا حسبما بينا.

وهنا أحب أن أقول إننى كثيرا ما أتوقف لأتساءل عن مصير الكفار الذين لم يستبن لهم وجه الحق فى أمر نبينا عليه السلام. لكنى ما إن وقعت على الكتاب الذى أنا بصدده وعرفت كيف يروغ الكاتب ويزيغ عن الحق عامدا متعمدا متصلبا معاندا واضعا يديه على عينيه حتى لا يرى النور العظيم الذى يسطع من دين محمد، مؤثرا البقاء فى الظلام والعفونة حتى أفىء إلى نفسى قائلا: إن

مثل هذا المدلس لا يمكن أن ينطبق عليه القول بأنه قد ضَلَّ بنية سليمة. إنه شيطان مريد! وعندئذ أكر إلى الماضى البعيد يوم كان النبى يعايش اليهود فى المدينة ويعرض عليهم نور الإسلام، فيقلون أدبهم ويسلكون سلوك المجرمين ويتآمرون وينصرون الشرك على التوحيد النقى الصافى ويسخرون من المسلمين وعبادتهم ويثيرون الأحقاد القديمة بينهم ويؤرِّثون العداوات ضدهم ويهددونهم ويشتمونهم ويلطخون أعراض نسائهم الحرائر العفيفات بغزل جنسى حقير ويخونون المجتمع الذى آواهم وعاملهم معاملة كريمة راقية، فأثبتوا أنهم لا يستحقون شيئا مما كانوا ينعمون به هناك، وأنه لا بد من إخراجهم والتخلص منهم، وإلا كانوا وبالا ودمارا على الدولة ومواطنيها ودينهم وأوضاعهم ومصالحهم.

كما أن هناك فروقا ضخمة بين القرآن والعهد القديم: فمثلا فى القرآن الكريم يكثر وصف الطبيعة من سماء وليل ونهار ورياح وسحاب ومطر ومواش وبساتين وليل ونهار، بينما لا يعرف العهد القديم شيئا من هذا. ولنأخذ النصوص التالية من الوحى المكى شاهدا على ما نقول، مما يدل على أن الزعم بتأثر الرسول فى مكة بكتابات اليهود كلام معاتيه: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِتِ مِنَ الْحَى ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَينْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يؤْمِنُونَ (٩٩)" (الأنعام)، "اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يدَبِّرُ الْأَمْرَ يفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَينِ اثْنَينِ يغْشِى اللَّيلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ (٤)... هُوَ الَّذِي يرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَينْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيصِيبُ بِهَا مَنْ يشَاءُ وَهُمْ يجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)" (الرعد)، "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَينَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَينَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَينَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)" (الحِجْر)، "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ينْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يخْلُقُ كَمَنْ لَا يخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)... أَوَلَمْ يرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ يتَفَيأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)... وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَينِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ

وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (٦٩)... أَلَمْ يرَوْا إِلَى الطَّيرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)" (النحل)، "أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَينَا قَبْضًا يسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْرًا بَينَ يدَي رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِي بِهِ بَلْدَةً مَيتًا وَنُسْقِيهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا (٤٩)... وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَينِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَينَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)... تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١)" (الفرقان)، "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَينَ الْبَحْرَينِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيكْشِفُ السُّوءَ وَيجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَينَ يدَي رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يشْرِكُونَ (٦٣)" (النمل)، "أَفَلَمْ ينْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيفَ بَنَينَاهَا وَزَينَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَينَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيينَا بِهِ بَلْدَةً مَيتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)" (ق).

ومع هذا ففى العهد القديم نص واحد يشذ عن سائر نصوصه فى هذا الصدد، وهو ما ورد فى "نشيد الأنشاد" من وصف للحقول وجمالها فى الربيع حيث تبدو الطبيعة وكأنها تشارك الحبيبين الشبقين شهواتهما الجنسية المغتلمة. لكن هناك مع هذا فرقا هائلا بين هذا النص وبين نصوص القرآن التى تتناول وصف الطبيعة كما يعرف قراء ذلك النشيد. فكيف يتَّهَم محمد بأنه كان يستلهم فى قرآنه، وبخاصة المكى منه، محتويات العهد القديم وغيره من كتابات اليهود؟ فلِمَ يا ترى لَمْ يستلهم مثل هذا السفر المغناج؟ نعم كيف تسامت نفسه عن نقل هذا الغزل الشهوانى المشتعل وآثر الطهارة والرقى؟ ألا يدل هذا، لو انطلقنا من منطلق الكاتب المدلس، أن محمدا أفضل من أنبياء العهد القديم بآماد شاسعة؟ على أن الأمر لا ينتهى عند هذا، بل هناك نصوص أخرى كالنص التالى الذى يعبر عن تغيظه عز وجل من بنى إسرائيل مشبها إياهم فى خيانتهم لربوبيته وانغماسهم فى عبادة الأوثان بعاهرة لا تعرف شيئا من الحياء ولا القدرة على الاستتار بعهرها ودعارتها عن أعين الناس جميعا. وهو من سفر حزقيال:

"١وَكَانَتْ إِلَى كَلِمَةُ الرَّبِّ قَائِلَةً: ٢«يا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، ٣وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِى وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. ٤أَمَّا مِيلاَدُكِ يوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِى بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِى تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِى تَقْمِيطًا. ٥لَمْ تَشْفُقْ عَلَيكِ عَينٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يوْمَ وُلِدْتِ. ٦فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِى، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِى. ٧جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيانِ. نَهَدَ ثَدْياكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً. ٨فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيلِى عَلَيكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِى عَهْدٍ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِى. ٩فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيتِ، ١٠وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا، ١١وَحَلَّيتُكِ بِالْحُلِى، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِى يدَيكِ وَطَوْقًا فِى عُنُقِكِ. ١٢وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِى أَنْفِكِ وَأَقْرَاطًا فِى أُذُنَيكِ وَتَاجَ جَمَال عَلَى رَأْسِكِ. ١٣فَتَحَلَّيتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِبَاسُكِ

الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيتَ، وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. ١٤وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ.

١٥«فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيتِ عَلَيهَا. أَمْرٌ لَمْ يأْتِ وَلَمْ يكُنْ. ١٧وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيتِ بِهَا. ١٨وَأَخَذْتِ ثِيابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيتِي وَبَخُورِي. ١٩وَخُبْزِي الَّذِي أَعْطَيتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيتَ وَالْعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ. ٢٠«أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ ٢١أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِي وَجَعَلْتِهِمْ يجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ ٢٢وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. ٢٣وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيلٌ، وَيلٌ لَكِ! يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، ٢٤أَنَّكِ بَنَيتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. ٢٥فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. ٢٦وَزَنَيتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي.

٢٧«فَهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يدِي عَلَيكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيينَ، اللَّوَاتِي يخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. ٢٨وَزَنَيتِ مَعَ بَنِي أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِي فَزَنَيتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيضًا. ٢٩وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيينَ، وَبِهذَا أَيضًا لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيةٍ سَلِيطَةٍ، ٣١بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيةٍ، بَلْ مُحْتَقَرَةً الأُجْرَةَ. ٣٢أَيتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣لِكُلِّ الزَّوَانِي يعْطُونَ هَدِيةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَاياكِ، وَرَشَيتِهِمْ لِيأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ.

٣٥«فَلِذلِكَ يا زَانِيةُ اسْمَعِى كَلاَمَ الرَّبِّ: ٣٦هكَذَا قَالَ السَّيدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ بَذَلْتِهِمْ لَهَا، ٣٧لِذلِكَ هأَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِينْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ. ٣٨وَأَحْكُمُ عَلَيكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السَّخْطِ وَالْغَيرَةِ. ٣٩وَأُسَلِّمُكِ لِيدِهِمْ فَيهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ، وَينْزِعُونَ عَنْكِ ثِيابَكِ، وَيأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيتْرُكُونَكِ عُرْيانَةً وَعَارِيةً. ٤٠وَيصْعِدُونَ عَلَيكِ جَمَاعَةً، وَيرْجُمُونَكِ بِالْحِجَارَةِ وَيقْطَعُونَكِ بِسُيوفِهِمْ، ٤١وَيحْرِقُونَ بُيوتَكِ بِالنَّارِ، وَيجْرُونَ عَلَيكِ أَحْكَامًا قُدَّامَ عُيونِ نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكُفُّكِ عَنِ الزِّنَا، وَأَيضًا لاَ تُعْطِينَ أُجْرَةً بَعْدُ. ٤٢وَأُحِلُّ غَضَبِى بِكِ فَتَنْصَرِفُ غَيرَتِى عَنْكِ، فَأَسْكُنُ وَلاَ أَغْضَبُ بَعْدُ. ٤٣مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ لَمْ تَذْكُرِى أَيامَ صِبَاكِ، بَلْ أَسْخَطْتِنِى فِى كُلِّ هذِهِ، فَهأَنَذَا أَيضًا أَجْلِبُ طَرِيقَكِ عَلَى رَأْسِكِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، فَلاَ تَفْعَلِينَ هذِهِ الرَّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكِ كُلِّهَا.

٤٤«هُوَذَا كُلُّ ضَارِبِ مَثَل يضْرِبُ مَثَلًا عَلَيكِ قَائِلًا: مِثْلُ الأُمِّ بِنْتُهَا. ٤٥اِبْنَةُ أُمِّكِ أَنْتِ، الْكَارِهَةُ زَوْجَهَا وَبَنِيهَا. وَأَنْتِ أُخْتُ أَخَوَاتِكِ اللَّوَاتِى كَرِهْنَ أَزْوَاجَهُنَّ وَأَبْنَاءَهُنَّ. أُمُّكُنَّ حِثِّيةٌ وَأَبُوكُنَّ أَمُورِى. ٤٦وَأُخْتُكِ الْكُبْرَى السَّامِرَةُ هِى وَبَنَاتُهَا السَّاكِنَةُ عَنْ شِمَالِكِ، وَأُخْتُكِ الصُّغْرَى السَّاكِنَةُ عَنْ يمِينِكِ هِى سَدُومُ وَبَنَاتُهَا. ٤٧وَلاَ فِى طَرِيقِهِنَّ سَلَكْتِ، وَلاَ مِثْلَ رَجَاسَاتِهِنَّ فَعَلْتِ، كَأَنَّ ذلِكَ قَلِيلٌ فَقَطْ، فَفَسَدْتِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ فِى كُلِّ طُرُقِكِ. ٤٨حَى أَنَا، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ، إِنَّ سَدُومَ أُخْتَكِ لَمْ تَفْعَلْ هِى وَلاَ بَنَاتُهَا كَمَا فَعَلْتِ أَنْتِ وَبَنَاتُكِ. ٤٩هذَا كَانَ إِثْمَ أُخْتِكِ سَدُومَ: الْكِبْرِياءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخُبْزِ وَسَلاَمُ الاطْمِئْنَانِ كَانَ لَهَا وَلِبَنَاتِهَا، وَلَمْ تُشَدِّدْ يدَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، ٥٠وَتَكَبَّرْنَ وَعَمِلْنَ الرِّجْسَ أَمَامِى فَنَزَعْتُهُنَّ كَمَا رَأَيتُ. ٥١وَلَمْ تُخْطِئِ السَّامِرَةُ نِصْفَ خَطَاياكِ. بَلْ زِدْتِ رَجَاسَاتِكِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ، وَبَرَّرْتِ أَخَوَاتِكِ بِكُلِّ رَجَاسَاتِكِ الَّتِى فَعَلْتِ. ٥٢فَاحْمِلِى أَيضًا خِزْيكِ، أَنْتِ الْقَاضِيةُ عَلَى أَخَوَاتِكِ، بِخَطَاياكِ الَّتِى بِهَا رَجَسْتِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ. هُنَّ أَبَرُّ مِنْكِ، فَاخْجَلِى أَنْتِ أَيضًا، وَاحْمِلِى عَارَكِ بِتَبْرِيرِكِ أَخَوَاتِكِ. ٥٣وَأُرَجِّعُ سَبْيهُنَّ، سَبْى سَدُومَ وَبَنَاتِهَا، وَسَبْى السَّامِرَةِ وَبَنَاتِهَا، وَسَبْى مَسْبِييكِ فِى وَسْطِهَا، ٥٤لِكَى

تَحْمِلِى عَارَكِ وَتَخْزَى مِنْ كُلِّ مَا فَعَلْتِ بِتَعْزِيتِكِ إِياهُنَّ. ٥٥وَأَخَوَاتُكِ سَدُومُ وَبَنَاتُهَا يرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ الْقَدِيمَةِ، وَالسَّامِرَةُ وَبَنَاتُهَا يرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ الْقَدِيمَةِ، وَأَنْتِ وَبَنَاتُكِ تَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِكُنَّ الْقَدِيمَةِ. ٥٦وَأُخْتُكِ سَدُومُ لَمْ تَكُنْ تُذْكَرْ فِى فَمِكِ يوْمَ كِبْرِيائِكِ، ٥٧قَبْلَ مَا انْكَشَفَ شَرُّكِ، كَمَا فِى زَمَانِ تَعْيِيرِ بَنَاتِ أَرَامَ وَكُلِّ مَنْ حَوْلَهَا، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيينَ اللَّوَاتِى يحْتَقِرْنَكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. ٥٨رَذِيلَتُكِ وَرَجَاسَاتُكِ أَنْتِ تَحْمِلِينَهَا، يقُولُ الرَّبُّ.

٥٩« لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيدُ الرَّبُّ: إِنِّى أَفْعَلُ بِكِ كَمَا فَعَلْتِ، إِذِ ازْدَرَيتِ بِالْقَسَمِ لِنَكْثِ الْعَهْدِ. ٦٠وَلكِنِّى أَذْكُرُ عَهْدِى مَعَكِ فِى أَيامِ صِبَاكِ، وَأُقِيمُ لَكِ عَهْدًا أَبَدِيا. ٦١فَتَتَذَكَّرِينَ طُرُقَكِ وَتَخْجَلِينَ إِذْ تَقْبَلِينَ أَخَوَاتِكِ الْكِبَرَ وَالصِّغَرَ، وَأَجْعَلُهُنَّ لَكِ بَنَاتٍ، وَلكِنْ لاَ بِعَهْدِكِ. ٦٢وَأَنَا أُقِيمُ عَهْدِى مَعَكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنِّى أَنَا الرَّبُّ، ٦٣لِكَى تَتَذَكَّرِى فَتَخْزَى وَلاَ تَفْتَحِى فَاكِ بَعْدُ بِسَبَبِ خِزْيِكِ، حِينَ أَغْفِرُ لَكِ كُلَّ مَا فَعَلْتِ، يقُولُ السَّيدُ الرَّبُّ»". فمثل هذا لا يوجد له نظير فى القرآن الكريم البتة. فكيف تسامت نفس محمد فارتقت أعلى من الكتاب السماوى الذى كان ينقل منه حسبما يكذب الكاتب؟

كما أننا كثيرا ما نسمع فى صفحات العهد القديم دمدمة غضب الرب على بنى إسرائيل كالرعد القاصف. وهو ما لا يوجد له شبيه فى القرآن المجيد، الذى لا يذكر الصحابة بسوء ولا يلعنهم ولا يقعقع غضبا عليهم، مما يدل على أن اتهام الكاتب الكذوب للرسول محمد بالنقل عن العهد القديم وكتابات يهود هو ضلال فى ضلال. وفى سفر "إِشَعْياء" مثلا نقرأ ما يلى: "١رُؤْيا إِشَعْياءَ بْنِ آمُوصَ، الَّتِى رَآهَا عَلَى يهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ، فِى أَيامِ عُزِّيا وَيوثَامَ وَآحَازَ وَحِزْقِيا مُلُوكِ يهُوذَا: ٢اِسْمَعِى أَيتُهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِى أَيتُهَا الأَرْضُ، لأَنَّ الرَّبَّ يتَكَلَّمُ: «رَبَّيتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ، أَمَّا هُمْ فَعَصَوْا عَلَى. ٣اَلثَّوْرُ يعْرِفُ قَانِيهُ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يعْرِفُ. شَعْبِى لاَ يفْهَمُ». ٤وَيلٌ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ، الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ، نَسْلِ فَاعِلِى الشَّرِّ، أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ! تَرَكُوا الرَّبَّ، اسْتَهَانُوا بِقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ، ارْتَدُّوا إِلَى وَرَاءٍ. ٥عَلَى مَ تُضْرَبُونَ بَعْدُ؟ تَزْدَادُونَ زَيغَانًا! كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ، وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ. ٦مِنْ أَسْفَلِ الْقَدَمِ إِلَى الرَّأْسِ لَيسَ فِيهِ صِحَّةٌ، بَلْ جُرْحٌ وَأَحْبَاطٌ وَضَرْبَةٌ طَرِيةٌ لَمْ تُعْصَرْ وَلَمْ تُعْصَبْ وَلَمْ تُلَيَّنْ بِالزَّيتِ. ٧بِلاَدُكُمْ خَرِبَةٌ. مُدُنُكُمْ مُحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرْضُكُمْ تَأْكُلُهَا غُرَبَاءُ قُدَّامَكُمْ، وَهِى

خَرِبَةٌ كَانْقِلاَبِ الْغُرَبَاءِ. [٨]فَبَقِيتِ ابْنَةُ صِهْيَوْنَ كَمِظَلَّةٍ فِي كَرْمٍ، كَخَيمَةٍ فِي مَقْثَأَةٍ، كَمَدِينَةٍ مُحَاصَرَةٍ. [٩]لَوْلاَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا بَقِيةً صَغِيرَةً، لَصِرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ.

[١٠]اِسْمَعُوا كَلاَمَ الرَّبِّ يا قُضَاةَ سَدُومَ! أَصْغُوا إِلَى شَرِيعَةِ إِلهِنَا يا شَعْبَ عَمُورَةَ: [١١]«لِمَاذَا لِي كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ، يقُولُ الرَّبُّ. اتَّخَمْتُ مِنْ مُحْرَقَاتِ كِبَاشٍ وَشَحْمِ مُسَمَّنَاتٍ، وَبِدَمِ عُجُول وَخِرْفَانٍ وَتُيوسٍ مَا أُسَرُّ. [١٢]حِينَمَا تَأْتُونَ لِتَظْهَرُوا أَمَامِي، مَنْ طَلَبَ هذَا مِنْ أَيدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دُورِي؟ [١٣]لاَ تَعُودُوا تَأْتُونَ بِتَقْدِمَةٍ بَاطِلَةٍ. الْبَخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِي. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ الْمَحْفَلِ. لَسْتُ أُطِيقُ الإِثْمَ وَالاعْتِكَافَ. [١٤]رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَي ثِقْلًا. مَلِلْتُ حَمْلَهَا. [١٥]فَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيدِيكُمْ أَسْتُرُ عَينَي عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثَّرْتُمُ الصَّلاَةَ لاَ أَسْمَعُ. أَيدِيكُمْ مَلآنَةٌ دَمًا. [١٦]اِغْتَسِلُوا. تَنَقَّوْا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَينَي. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. [١٧]تَعَلَّمُوا فَعْلَ الْخَيرِ. اطْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيتِيمِ. حَامُوا عَنِ الأَرْمَلَةِ. [١٨]هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ، يقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَاياكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالدُّودِي تَصِيرُ كَالصُّوفِ. [١٩]إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ تَأْكُلُونَ خَيرَ الأَرْضِ. [٢٠]وَإِنْ أَبَيتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ بِالسَّيفِ». لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ. [٢١]كَيفَ صَارَتِ الْقَرْيةُ الأَمِينَةُ زَانِيةً! مَلآنَةً حَقًّا. كَانَ الْعَدْلُ يبِيتُ فِيهَا، وَأَمَّا الآنَ فَالْقَاتِلُونَ. [٢٢]صَارَتْ فِضَّتُكِ زَغَلًا وَخَمْرُكِ مَغْشُوشَةً بِمَاءٍ. [٢٣]رُؤَسَاؤُكِ مُتَمَرِّدُونَ وَلُغَفَاءُ اللُّصُوصِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يحِبُّ الرَّشْوَةَ وَيتْبَعُ الْعَطَايا. لاَ يقْضُونَ لِلْيتِيمِ، وَدَعْوَى الأَرْمَلَةِ لاَ تَصِلُ إِلَيهِمْ.

[٢٤]لِذلِكَ يقُولُ السَّيدُ رَبُّ الْجُنُودِ عَزِيزُ إِسْرَائِيلَ: «آهِ! إِنِّي أَسْتَرِيحُ مِنْ خُصَمَائِي وَأَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِي، [٢٥]وَأَرُدُّ يدِي عَلَيكِ، وَأُنَقِّي زَغَلَكِ كَأَنَّهُ بِالْبَوْرَقِ، وَأَنْزِعُ كُلَّ قَصْدِيرِكِ، [٢٦]وَأُعِيدُ قُضَاتَكِ كَمَا فِي الأَوَّلِ، وَمُشِيرِيكِ كَمَا فِي الْبَدَاءَةِ. بَعْدَ ذلِكَ تُدْعَينَ مَدِينَةَ الْعَدْلِ، الْقَرْيةَ الأَمِينَةَ». [٢٧]صِهْيَوْنُ تُفْدَى بِالْحَقِّ، وَتَائِبُوهَا بِالْبِرِّ. [٢٨]وَهَلاَكُ الْمُذْنِبِينَ وَالْخُطَاةِ يكُونُ سَوَاءً، وَتَارِكُو الرَّبِّ يفْنَوْنَ. [٢٩]لأَنَّهُمْ يخْجَلُونَ مِنْ أَشْجَارِ الْبُطْمِ الَّتِي اشْتَهَيتُمُوهَا، وَتُخْزَوْنَ مِنَ الْجَنَّاتِ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا. [٣٠]لأَنَّكُمْ تَصِيرُونَ كَبُطْمَةٍ قَدْ ذَبُلَ وَرَقُهَا، وَكَجَنَّةٍ لَيسَ لَهَا مَاءٌ. [٣١]وَيصِيرُ الْقَوِي مَشَاقَةً وَعَمَلُهُ شَرَارًا، فَيحْتَرِقَانِ كِلاَهُمَا مَعًا وَلَيسَ مَنْ يطْفِئُ".

وهذا نص آخر، وهو من "مراثى إرميا": ١كَيفَ جَلَسَتْ وَحْدَهَا الْمَدِينَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّعْبِ! كَيفَ صَارَتْ كَأَرْمَلَةٍ الْعَظِيمَةُ فِى الأُمَمِ. السَّيدَةُ فِى الْبُلْدَانِ صَارَتْ تَحْتَ الْجِزْيَةِ! ٢تَبْكِى فِى اللَّيلِ بُكَاءً، وَدُمُوعُهَا عَلَى خَدَّيهَا. لَيسَ لَهَا مُعَزّ مِنْ كُلِّ مُحِبِّيهَا. كُلُّ أَصْحَابِهَا غَدَرُوا بِهَا، صَارُوا لَهَا أَعْدَاءً. ٣قَد سُبِيتْ يهُوذَا مِنَ الْمَذَلَّةِ وَمِنْ كَثْرَةِ الْعُبُودِيةِ. هِى تَسْكُنُ بَينَ الأُمَمِ. لاَ تَجِدُ رَاحَةً. قَدْ أَدْرَكَهَا كُلُّ طَارِدِيهَا بَينَ الضِّيقَاتِ. ٤طُرُقُ صِهْيوْنَ نَائِحَةٌ لِعَدَمِ الآتِينَ إِلَى الْعِيدِ. كُلُّ أَبْوَابِهَا خَرِبَةٌ. كَهَنَتُهَا يتَنَهَّدُونَ. عَذَارَاهَا مُذَلَّلَةٌ وَهِى فِى مَرَارَةٍ. ٥صَارَ مُضَايقُوهَا رَأْسًا. نَجَحَ أَعْدَاؤُهَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَذَلَّهَا لأَجْلِ كَثْرَةِ ذُنُوبِهَا. ذَهَبَ أَوْلاَدُهَا إِلَى السَّبْى قُدَّامَ الْعَدُوِّ. ٦وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِنْتِ صِهْيوْنَ كُلُّ بَهَائِهَا. صَارَتْ رُؤَسَاؤُهَا كَأَيائِلَ لاَ تَجِدُ مَرْعًى، فَيسِيرُونَ بِلاَ قُوَّةٍ أَمَامَ الطَّارِدِ. ٧قَدْ ذَكَرَتْ أُورُشَلِيمُ فِى أَيامِ مَذَلَّتِهَا وَتَطَوُّحِهَا كُلَّ مُشْتَهَياتِهَا الَّتِى كَانَتْ فِى أَيامِ الْقِدَمِ. عِنْدَ سُقُوطِ شَعْبِهَا بِيدِ الْعَدُوِّ وَلَيسَ مَنْ يسَاعِدُهَا. رَأَتْهَا الأَعْدَاءُ. ضَحِكُوا عَلَى هَلاَكِهَا. ٨قَدْ أَخْطَأَتْ أُورُشَلِيمُ خَطِيةً، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ صَارَتْ رَجِسَةً. كُلُّ مُكَرِّمِيهَا يحْتَقِرُونَهَا لأَنَّهُمْ رَأَوْا عَوْرَتَهَا، وَهِى أَيضًا تَتَنَهَّدُ وَتَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ. ٩نَجَاسَتُهَا فِى أَذْيالِهَا. لَمْ تَذْكُرْ آخِرَتَهَا وَقَدِ انْحَطَّتِ انْحِطَاطًا عَجِيبًا. لَيسَ لَهَا مُعَزّ. «انْظُرْ يا رَبُّ إِلَى مَذَلَّتِى لأَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ تَعَظَّمَ». ١٠بَسَطَ الْعَدُوُّ يدَهُ عَلَى كُلِّ مُشْتَهَياتِهَا، فَإِنَّهَا رَأَتِ الأُمَمَ دَخَلُوا مَقْدِسَهَا، الَّذِينَ أَمَرْتَ أَنْ لاَ يدْخُلُوا فِى جَمَاعَتِكَ. ١١كُلُّ شَعْبِهَا يتَنَهَّدُونَ، يطْلُبُونَ خُبْزًا. دَفَعُوا مُشْتَهَياتِهِمْ لِلأَكْلِ لأَجْلِ رَدِّ النَّفْسِ. «انْظُرْ يارَبُّ وَتَطَلَّعْ لأَنِّى قَدْ صِرْتُ مُحْتَقَرَةً».

١٢«أَمَا إِلَيكُمْ يا جَمِيعَ عَابِرِى الطَّرِيقِ؟ تَطَلَّعُوا وَانْظُرُوا إِنْ كَانَ حُزْنٌ مِثْلُ حُزْنِى الَّذِى صُنِعَ بِى، الَّذِى أَذَلَّنِى بِهِ الرَّبُّ يوْمَ حُمُوِّ غَضَبِهِ؟ ١٣مِنَ الْعَلاَءِ أَرْسَلَ نَارًا إِلَى عِظَامِى فَسَرَتْ فِيهَا. بَسَطَ شَبَكَةً لِرِجْلَى. رَدَّنِى إِلَى الْوَرَاءِ. جَعَلَنِى خَرِبَةً. الْيوْمَ كُلَّهُ مَغْمُومَةً. ١٤شَدَّ نِيرَ ذُنُوبِى بِيدِهِ، ضُفِرَتْ، صَعِدَتْ عَلَى عُنُقِى. نَزَعَ قُوَّتِى. دَفَعَنِى السَّيدُ إِلَى أَيدٍ لاَ أَسْتَطِيعُ الْقِيامَ مِنْهَا. ١٥رَذَلَ السَّيدُ كُلَّ مُقْتَدِرِى فِى وَسَطِى. دَعَا عَلَى جَمَاعَةً لِحَطْمِ شُبَّانِى. دَاسَ السَّيدُ الْعَذْرَاءَ بِنْتَ يهُوذَا مِعْصَرَةً. ١٦عَلَى هذِهِ أَنَا بَاكِيةٌ. عَينِى، عَينِى تَسْكُبُ مِياهًا لأَنَّهُ قَدِ ابْتَعَدَ عَنِّى الْمُعَزِّى، رَادُّ نَفْسِى. صَارَ بَنِى هَالِكِينَ لأَنَّهُ قَدْ تَجَبَّرَ الْعَدُوُّ».

[17]بَسَطَتْ صِهْيَوْنُ يدَيهَا. لاَ مُعَزِّى لَهَا. أَمَرَ الرَّبُّ عَلَى يعْقُوبَ أَنْ يكُونَ مُضَايقُوهُ حَوَالَيهِ. صَارَتْ أُورُشَلِيمُ نَجِسَةً بَينَهُمْ. [18]«بَارٌّ هُوَ الرَّبُّ لأَنِّى قَدْ عَصَيتُ أَمْرَهُ. اسْمَعُوا يا جَمِيعَ الشُّعُوبِ وَانْظُرُوا إِلَى حُزْنِى. عَذَارَاى وَشُبَّانِى ذَهَبُوا إِلَى السَّبْى. [19]نَادَيتُ مُحِبِّى. هُمْ خَدَعُونِى. كَهَنَتِى وَشُيوخِى فِى الْمَدِينَةِ مَاتُوا، إِذْ طَلَبُوا لِذَوَاتِهِمْ طَعَامًا لِيرُدُّوا أَنْفُسَهُمْ. [20]انْظُرْ يا رَبُّ، فَإِنِّى فِى ضِيق! أَحْشَائِى غَلَتْ. ارْتَدَّ قَلْبِى فِى بَاطِنِى لأَنِّى قَدْ عَصَيتُ مُتَمَرِّدَةً. فِى الْخَارِجِ يثْكُلُ السَّيفُ، وَفِى الْبَيتِ مِثْلُ الْمَوْتِ. [21]سَمِعُوا أَنِّى تَنَهَّدْتُ. لاَ مُعَزِّى لِى. كُلُّ أَعْدَائِى سَمِعُوا بِبَلِيتِى. فَرِحُوا لأَنَّكَ فَعَلْتَ. تَأْتِى بِالْيوْمِ الَّذِى نَادَيتَ بِهِ فَيصِيرُونَ مِثْلِى. [22]لِيأْتِ كُلُّ شَرِّهِمْ أَمَامَكَ. وَافْعَلْ بِهِمْ كَمَا فَعَلْتَ بِى مِنْ أَجْلِ كُلِّ ذُنُوبِى، لأَنَّ تَنَهُّدَاتِى كَثِيرَةٌ وَقَلْبِى مَغْشِى عَلَيهِ».

[1]كَيفَ غَطَّى السَّيدُ بِغَضَبِهِ ابْنَةَ صِهْيَوْنَ بِالظَّلاَمِ! أَلْقَى مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ فَخْرَ إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يذْكُرْ مَوْطِئَ قَدَمَيهِ فِى يوْمِ غَضَبِهِ. [2]ابْتَلَعَ السَّيدُ وَلَمْ يشْفِقْ كُلَّ مَسَاكِنِ يعْقُوبَ. نَقَضَ بِسَخَطِهِ حُصُونَ بِنْتِ يهُوذَا. أَوْصَلَهَا إِلَى الأَرْضِ. نَجَّسَ الْمَمْلَكَةَ وَرُؤَسَاءَهَا. [3]عَضَبَ بِحُمُوِّ غَضَبِهِ كُلَّ قَرْنٍ لإِسْرَائِيلَ. رَدَّ إِلَى الْوَرَاءِ يمِينَهُ أَمَامَ الْعَدُوِّ، وَاشْتَعَلَ فِى يعْقُوبَ مِثْلَ نَارٍ مُلْتَهِبَةٍ تَأْكُلُ مَا حَوَالَيهَا. [4]مَدَّ قَوْسَهُ كَعَدُوٍّ. نَصَبَ يمِينَهُ كَمُبْغِضٍ وَقَتَلَ كُلَّ مُشْتَهَياتِ الْعَينِ فِى خِبَاءِ بِنْتِ صِهْيَوْنَ. سَكَبَ كَنَارٍ غَيظَهُ. [5]صَارَ السَّيدُ كَعَدُوٍّ. ابْتَلَعَ إِسْرَائِيلَ. ابْتَلَعَ كُلَّ قُصُورِهِ. أَهْلَكَ حُصُونَهُ، وَأَكْثَرَ فِى بِنْتِ يهُوذَا النَّوْحَ وَالْحُزْنَ. [6]وَنَزَعَ كَمَا مِنْ جَنَّةٍ مَظَلَّتَهُ. أَهْلَكَ مُجْتَمَعَهُ. أَنْسَى الرَّبُّ فِى صِهْيَوْنَ الْمَوْسِمَ وَالسَّبْتَ، وَرَذَلَ بِسَخَطِ غَضَبِهِ الْمَلِكَ وَالْكَاهِنَ. [7]كَرِهَ السَّيدُ مَذْبَحَهُ. رَذَلَ مَقْدِسَهُ. حَصَرَ فِى يدِ الْعَدُوِّ أَسْوَارَ قُصُورِهَا. أَطْلَقُوا الصَّوْتَ فِى بَيتِ الرَّبِّ كَمَا فِى يوْمِ الْمَوْسِمِ. [8]قَصَدَ الرَّبُّ أَنْ يهْلِكَ سُورَ بِنْتِ صِهْيَوْنَ. مَدَّ الْمِطْمَارَ. لَمْ يرْدُدْ يدَهُ عَنِ الإِهْلاَكِ، وَجَعَلَ الْمِتْرَسَةَ وَالسُّورَ ينُوحَانِ. قَدْ حَزِنَا مَعًا. [9]تَاخَتْ فِى الأَرْضِ أَبْوَابُهَا. أَهْلَكَ وَحَطَّمَ عَوَارِضَهَا. مَلِكُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا بَينَ الأُمَمِ. لاَ شَرِيعَةَ. أَنْبِياؤُهَا أَيضًا لاَ يجِدُونَ رُؤْيا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ. [10]شُيوخُ بِنْتِ صِهْيَوْنَ يجْلِسُونَ عَلَى الأَرْضِ سَاكِتِينَ. يرْفَعُونَ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. يتَنَطَّقُونَ بِالْمُسُوحِ. تَحْنِى عَذَارَى أُورُشَلِيمَ رُؤُوسَهُنَّ إِلَى الأَرْضِ. [11]كَلَّتْ مِنَ الدُّمُوعِ عَينَاى. غَلَتْ أَحْشَائِى. انْسَكَبَتْ عَلَى الأَرْضِ كَبِدِى عَلَى سَحْقِ بِنْتِ شَعْبِى،

لأَجْلِ غَشَيانِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ فِى سَاحَاتِ الْقَرْيةِ. ١٢يقُولُونَ لأُمَّهَاتِهِمْ: «أَينَ الْحِنْطَةُ وَالْخَمْرُ؟» إِذْ يغْشَى عَلَيهِمْ كَجَرِيحٍ فِى سَاحَاتِ الْمَدِينَةِ، إِذْ تُسْكَبُ نَفْسُهُمْ فِى أَحْضَانِ أُمَّهَاتِهِمْ. ١٣بِمَاذَا أُنْذِرُكِ؟ بِمَاذَا أُحَذِّرُكِ؟ بِمَاذَا أُشَبِّهُكِ يا ابْنَةَ أُورُشَلِيمَ؟ بِمَاذَا أُقَايسُكِ فَأُعَزِّيكِ أَيتُهَا الْعَذْرَاءُ بِنْتَ صِهْيوْنَ؟ لأَنَّ سَحْقَكِ عَظِيمٌ كَالْبَحْرِ. مَنْ يشْفِيكِ؟ ١٤أَنْبياؤُكِ رَأَوْا لَكِ كَذِبًا وَبَاطِلًا، وَلَمْ يعْلِنُوا إِثْمَكِ لِيرُدُّوا سَبْيكِ، بَلْ رَأَوْا لَكِ وَحْيا كَاذِبًا وَطَوَائِحَ. ١٥يصَفِّقُ عَلَيكِ بِالأَيادِى كُلُّ عَابِرِى الطَّرِيقِ. يصْفِرُونَ وَينْغُضُونَ رُؤُوسَهُمْ عَلَى بِنْتِ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «أَهذِهِ هِى الْمَدِينَةُ الَّتِى يقُولُونَ إِنَّهَا كَمَالُ الْجَمَالِ، بَهْجَةُ كُلِّ الأَرْضِ؟» ١٦يفْتَحُ عَلَيكِ أَفْوَاهَهُمْ كُلُّ أَعْدَائِكِ. يصْفِرُونَ وَيحْرِقُونَ الأَسْنَانَ. يقُولُونَ: «قَدْ أَهْلَكْنَاهَا. حَقًّا إِنَّ هذَا الْيوْمَ الَّذِى رَجَوْنَاهُ. قَدْ وَجَدْنَاهُ! قَدْ رَأَينَاهُ». ١٧فَعَلَ الرَّبُّ مَا قَصَدَ. تَمَّمَ قَوْلَهُ الَّذِى أَوْعَدَ بِهِ مُنْذُ أَيامِ الْقِدَمِ. قَدْ هَدَمَ وَلَمْ يشْفِقْ وَأَشْمَتَ بِكِ الْعَدُوَّ. نَصَبَ قَرْنَ أَعْدَائِكِ. ١٨صَرَخَ قَلْبُهُمْ إِلَى السَّيدِ. يا سُورَ بِنْتِ صِهْيوْنَ اسْكُبِى الدَّمْعَ كَنَهْرٍ نَهَارًا وَلَيلًا. لاَ تُعْطِى ذَاتَكِ رَاحَةً. لاَ تَكُفَّ حَدَقَةُ عَينِكِ. ١٩قُومِى اهْتِفِى فِى اللَّيلِ فِى أَوَّلِ الْهُزُعِ. اسْكُبِى كَمِياهٍ قَلْبَكِ قُبَالَةَ وَجْهِ السَّيدِ. ارْفَعِى إِلَيهِ يدَيكِ لأَجْلِ نَفْسِ أَطْفَالِكِ الْمُغْشِى عَلَيهِمْ مِنَ الْجُوعِ فِى رَأْسِ كُلِّ شَارِعٍ.

٢٠«اُنْظُرْ يا رَبُّ وَتَطَلَّعْ بِمَنْ فَعَلْتَ هكَذَا؟ أَتَأْكُلُ النِّسَاءُ ثَمَرَهُنَّ، أَطْفَالَ الْحَضَانَةِ؟ أَيقْتَلُ فِى مَقْدِسِ السَّيدِ الْكَاهِنُ وَالنَّبِى؟ ٢١اضْطَجَعَتْ عَلَى الأَرْضِ فِى الشَّوَارِعِ الصِّبْيانُ وَالشُّيوخُ. عَذَارَاى وَشُبَّانِى سَقَطُوا بِالسَّيفِ. قَدْ قَتَلْتَ فِى يوْمِ غَضَبِكَ. ذَبَحْتَ وَلَمْ تَشْفِقْ. ٢٢قَدْ دَعَوْتَ كَمَا فِى يوْمِ مَوْسِمٍ مَخَاوِفِى حَوَالَى، فَلَمْ يكُنْ فِى يوْمِ غَضَبِ الرَّبِّ نَاجٍ وَلاَ بَاق. اَلَّذِينَ حَضَنْتُهُمْ وَرَبَّيتُهُمْ أَفْنَاهُمْ عَدُوِّى»".

ثم هذا نص ثالث، من سفر "هوشع": ١قَوْلُ الرَّبِّ الَّذِى صَارَ إِلَى هُوشَعَ بْنِ بِئِيرِى، فِى أَيامِ عُزِّيا وَيوثَامَ وَآحَازَ وَحَزَقِيا مُلُوكِ يهُوذَا، وَفِى أَيامِ يرُبْعَامَ بْنِ يوآشَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ. ٢أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى، لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ». ٣فَذَهَبَ وَأَخَذَ جُومَرَ بِنْتَ دِبْلاَيمَ، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا، ٤فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «ادْعُ

اسْمَهُ يزْرَعِيلَ، لأَنَّنِى بَعْدَ قَلِيل أُعَاقِبُ بيتَ ياهُو عَلَى دَمِ يزْرَعِيلَ، وَأُبِيدُ مَمْلَكَةَ بَيتِ إِسْرَائِيلَ. ٥وَيكُونُ فِى ذلِكَ الْيوْمِ أَنِّى أَكْسِرُ قَوْسَ إِسْرَائِيلَ فِى وَادِى يزْرَعِيلَ».

٦ثُمَّ حَبِلَتْ أَيضًا وَوَلَدَتْ بِنْتًا، فَقَالَ لَهُ: «ادْعُ اسْمَهَا لُورُحَامَةَ، لأَنِّى لاَ أَعُودُ أَرْحَمُ بَيتَ إِسْرَائِيلَ أَيضًا، بَلْ أَنْزِعُهُمْ نَزْعًا. ٧وَأَمَّا بَيتُ يهُوذَا فَأَرْحَمُهُمْ وَأُخَلِّصُهُمْ بِالرَّبِّ إِلهِهِمْ، وَلاَ أُخَلِّصُهُمْ بِقَوْسٍ وَبِسَيفٍ وَبِحَرْبٍ وَبِخَيل وَبِفُرْسَانٍ». ٨ثُمَّ فَطَمَتْ لُورُحَامَةَ وَحَبِلَتْ فَوَلَدَتِ ابْنًا، ٩فَقَالَ: «ادْعُ اسْمَهُ لُوعَمِّى، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ شَعْبِى وَأَنَا لاَ أَكُونُ لَكُمْ. ١٠لكِنْ يكُونُ عَدَدُ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَرَمْلِ الْبَحْرِ الَّذِى لاَ يكَالُ وَلاَ يعَدُّ، وَيكُونُ عِوَضًا عَنْ أَنْ يقَالَ لَهُمْ: لَسْتُمْ شَعْبِى، يقَالُ لَهُمْ: أَبْنَاءُ اللهِ الْحَى. ١١وَيجْمَعُ بَنُو يهُوذَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعًا وَيجْعَلُونَ لأَنْفُسِهِمْ رَأْسًا وَاحِدًا، وَيصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ، لأَنَّ يوْمَ يزْرَعِيلَ عَظِيمٌ.

١«قُولُوا لإِخْوَتِكُمْ «عَمِّى» وَلأَخَوَاتِكُمْ «رُحَامَةَ». ٢حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا، لأَنَّهَا لَيسَتِ امْرَأَتِى وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا، لِكَى تَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا وَفِسْقَهَا مِنْ بَينِ ثَدْييهَا، ٣لِئَلاَّ أُجَرِّدَهَا عُرْيانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيوْمِ وِلاَدَتِهَا، وَأَجْعَلَهَا كَقَفْرٍ، وَأُصَيرَهَا كَأَرْضٍ يابِسَةٍ، وَأُمِيتَهَا بِالْعَطَشِ. ٤وَلاَ أَرْحَمُ أَوْلاَدَهَا لأَنَّهُمْ أَوْلاَدُ زِنًى. ٥«لأَنَّ أُمَّهُمْ قَدْ زَنَتِ. الَّتِى حَبِلَتْ بِهِمْ صَنَعَتْ خِزْيا. لأَنَّهَا قَالَتْ: أَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّى الَّذِينَ يعْطُونَ خُبْزِى وَمَائِى، صُوفِى وَكَتَّانِى، زَيتِى وَأَشْرِبَتِى. ٦لِذلِكَ هأَنَذَا أُسَيجُ طَرِيقَكِ بِالشَّوْكِ، وَأَبْنِى حَائِطَهَا حَتَّى لاَ تَجِدَ مَسَالِكَهَا. ٧فَتَتْبَعُ مُحِبِّيهَا وَلاَ تُدْرِكُهُمْ، وَتُفَتِّشُ عَلَيهِمْ وَلاَ تَجِدُهُمْ. فَتَقُولُ: أَذْهَبُ وَأَرْجعُ إِلَى رَجُلِى الأَوَّلِ، لأَنَّهُ حِينَئِذٍ كَانَ خَيرٌ لِى مِنَ الآنَ.

٨«وَهِى لَمْ تَعْرِفْ أَنِّى أَنَا أَعْطَيتُهَا الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيتَ، وَكَثَّرْتُ لَهَا فِضَّةً وَذَهَبًا جَعَلُوهُ لِبَعْل. ٩لِذلِكَ أَرْجعُ وَآخُذُ قَمْحِى فِى حِينِهِ، وَمِسْطَارِى فِى وَقْتِهِ، وَأَنْزِعُ صُوفِى وَكَتَّانِى اللَّذَينِ لِسَتْرِ عَوْرَتِهَا. ١٠وَالآنَ أَكْشِفُ عَوْرَتَهَا أَمَامَ عُيونِ مُحِبِّيهَا وَلاَ ينْقِذُهَا أَحَدٌ مِنْ يدِى. ١١وَأُبَطِّلُ كُلَّ أَفْرَاحِهَا: أَعْيادَهَا وَرُؤُوسَ شُهُورِهَا وَسُبُوتَهَا وَجَمِيعَ مَوَاسِمِهَا. ١٢وَأُخَرِّبُ كَرْمَهَا وَتِينَهَا اللَّذَينِ قَالَتْ: هُمَا أُجْرَتِى الَّتِى أَعْطَانِيهَا مُحِبِّى، وَأَجْعَلُهُمَا وَعْرًا فَيأْكُلُهُمَا حَيوَانُ الْبَرِّيةِ. ١٣وَأُعَاقِبُهَا عَلَى أَيامِ بَعْلِيمَ الَّتِى فِيهَا كَانَتْ تُبَخِّرُ لَهُمْ وَتَتَزَينُ بِخَزَائِمِهَا وَحُلِيهَا وَتَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيهَا وَتَنْسَانِى أَنَا، يقُولُ الرَّبُّ.

١٤«لكِنْ هأَنَذَا أَتَمَلَّقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيَةِ وَأُلاَطِفُهَا، ١٥وَأُعْطِيهَا كُرُومَهَا مِنْ هُنَاكَ، وَوَادِى عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ. وَهِى تُغَنِّى هُنَاكَ كَأَيامِ صِبَاهَا، وَكَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ١٦وَيكُونُ فِى ذلِكَ الْيَوْمِ، يقُولُ الرَّبُّ، أَنَّكِ تَدْعِينَنِى: رَجُلِى، وَلاَ تَدْعِينَنِى بَعْدُ بَعْلِى. ١٧وَأَنْزِعُ أَسْمَاءَ الْبَعْلِيمِ مِنْ فَمِهَا، فَلاَ تُذْكَرُ أَيضًا بِأَسْمَائِهَا. ١٨وَأَقْطَعُ لَهُمْ عَهْدًا فِى ذلِكَ الْيَوْمِ مَعَ حَيوَانِ الْبَرِّيَةِ وَطُيورِ السَّمَاءِ وَدَبَّابَاتِ الأَرْضِ، وَأَكْسِرُ الْقَوْسَ وَالسَّيفَ وَالْحَرْبَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَجْعَلُهُمْ يضْطَجِعُونَ آمِنِينَ. ١٩وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِى إِلَى الأَبَدِ. وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِى بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالإِحْسَانِ وَالْمَرَاحِمِ. ٢٠أَخْطُبُكِ لِنَفْسِى بِالأَمَانَةِ فَتَعْرِفِينَ الرَّبَّ. ٢١وَيكُونُ فِى ذلِكَ الْيَوْمِ أَنِّى أَسْتَجِيبُ، يقُولُ الرَّبُّ، أَسْتَجِيبُ السَّمَاوَاتِ وَهِى تَسْتَجِيبُ الأَرْضَ، ٢٢وَالأَرْضُ تَسْتَجِيبُ الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيتَ، وَهِى تَسْتَجِيبُ يزْرَعِيلَ. ٢٣وَأَزْرَعُهَا لِنَفْسِى فِى الأَرْضِ، وَأَرْحَمُ لُورُحَامَةَ، وَأَقُولُ لِلُوعَمِّى: أَنْتَ شَعْبِى، وَهُوَ يقُولُ: أَنْتَ إِلهِى».

١وَقَالَ الرَّبُّ لِى: «اذْهَبْ أَيضًا أَحْبِبِ امْرَأَةً حَبِيبَةَ صَاحِبٍ وَزَانِيةً، كَمَحَبَّةِ الرَّبِّ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُلْتَفِتُونَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى وَمُحِبُّونَ لأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ». ٢فَاشْتَرَيتُهَا لِنَفْسِى بِخَمْسَةَ عَشَرَ شَاقِلَ فِضَّةٍ وَبِحُومَرَ وَلَثَكِ شَعِيرٍ. ٣وَقُلْتُ لَهَا: «تَقْعُدِينَ أَياما كَثِيرَةً لاَ تَزْنِى وَلاَ تَكُونِى لِرَجُلٍ، وَأَنَا كَذلِكَ لَكِ». ٤لأَنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَيقْعُدُونَ أَيامًا كَثِيرَةً بِلاَ مَلِكٍ، وَبِلاَ رَئِيسٍ، وَبِلاَ ذَبِيحَةٍ، وَبِلاَ تِمْثَال، وَبِلاَ أَفُودٍ وَتَرَافِيمَ. ٥بَعْدَ ذلِكَ يعُودُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَيطْلُبُونَ الرَّبَّ إِلهَهُمْ وَدَاوُدَ مَلِكَهُمْ، وَيفْزَعُونَ إِلَى الرَّبِّ وَإِلَى جُودِهِ فِى آخِرِ الأَيامِ.

١اِسْمَعُوا قَوْلَ الرَّبِّ يا بَنِى إِسْرَائِيلَ: «إِنَّ لِلرَّبِّ مُحَاكَمَةً مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ، لأَنَّهُ لاَ أَمَانَةَ وَلاَ إِحْسَانَ وَلاَ مَعْرِفَةَ اللهِ فِى الأَرْضِ. ٢لَعْنٌ وَكَذِبٌ وَقَتْلٌ وَسِرْقَةٌ وَفِسْقٌ. يعْتَنِفُونَ، وَدِمَاءٌ تَلْحَقُ دِمَاءً. ٣لِذلِكَ تَنُوحُ الأَرْضُ وَيذْبُلُ كُلُّ مَنْ يسْكُنُ فِيهَا مَعَ حَيوَانِ الْبَرِّيَةِ وَطُيورِ السَّمَاءِ، وَأَسْمَاكِ الْبَحْرِ أَيضًا تَنْتَزِعُ. ٤«وَلكِنْ لاَ يحَاكِمْ أَحَدٌ وَلاَ يعَاتِبْ أَحَدٌ. وَشَعْبُكَ كَمَنْ يخَاصِمُ كَاهِنًا. ٥فَتَتَعَثَّرُ فِى النَّهَارِ وَيتَعَثَّرُ أَيضًا النَّبِى مَعَكَ فِى اللَّيلِ، وَأَنَا أُخْرِبُ أُمَّكَ. ٦قَدْ هَلَكَ شَعْبِى مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ. لأَنَّكَ أَنْتَ رَفَضْتَ الْمَعْرِفَةَ أَرْفُضُكَ أَنَا حَتَّى لاَ تَكْهَنَ لِى. وَلأَنَّكَ نَسِيتَ شَرِيعَةَ إِلهِكَ أَنْسَى أَنَا أَيضًا بَنِيكَ. ٧عَلَى حَسْبَمَا

كَثُرُوا، هكَذَا أَخطَأُوا إِلَى، فَأُبْدِلُ كَرَامَتَهُمْ بِهَوَانٍ. ٨يأْكُلُونَ خَطِيَةَ شَعْبِى وَإِلَى إِثْمِهِمْ يحْمِلُونَ نُفُوسَهُمْ. ٩فَيكُونُ كَمَا الشَّعْبُ هكَذَا الْكَاهِنُ. وَأُعَاقِبُهُمْ عَلَى طُرُقِهِمْ وَأَرُدُّ أَعْمَالَهُمْ عَلَيهِمْ. ١٠فَيأْكُلُونَ وَلاَ يشْبَعُونَ، وَيزْنُونَ وَلاَ يكْثُرُونَ، لأَنَّهُمْ قَدْ تَرَكُوا عِبَادَةَ الرَّبِّ.

١١«اَلزِّنَى وَالْخَمْرُ وَالسُّلاَفَةُ تَخْلِبُ الْقَلْبَ. ١٢شَعْبِى يسْأَلُ خَشَبَهُ، وَعَصَاهُ تُخْبِرُهُ، لأَنَّ رُوحَ الزِّنَى قَدْ أَضَلَّهُمْ فَزَنَوْا مِنْ تَحْتِ إِلهِهِمْ. ١٣يذْبَحُونَ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَيبَخِّرُونَ عَلَى التِّلاَلِ تَحْتَ الْبَلُّوطِ وَاللُّبْنَى وَالْبُطْمِ لأَنَّ ظِلَّهَا حَسَنٌ! لِذلِكَ تَزْنِى بَنَاتُكُمْ وَتَفْسِقُ كَنَّاتُكُمْ. ١٤لاَ أُعَاقِبُ بَنَاتِكُمْ لأَنَّهُنَّ يزْنِينَ، وَلاَ كَنَّاتِكُمْ لأَنَّهُنَّ يفْسِقْنَ. لأَنَّهُمْ يعْتَزِلُونَ مَعَ الزَّانِياتِ وَيذْبَحُونَ مَعَ النَّاذِرَاتِ الزِّنَى. وَشَعْبٌ لاَ يعْقِلُ يصْرَعُ. ١٥«إِنْ كُنْتَ أَنْتَ زَانِيا يا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يأْثَمُ يهُوذَا. وَلاَ تَأْتُوا إِلَى الْجِلْجَالِ وَلاَ تَصْعَدُوا إِلَى بَيتِ آوَنَ وَلاَ تَحْلِفُوا: حَى هُوَ الرَّبُّ. ١٦إِنَّهُ قَدْ جَمَحَ إِسْرَائِيلُ كَبَقَرَةٍ جَامِحَةٍ. اَلآنَ يرْعَاهُمُ الرَّبُّ كَخَرُوفٍ فِى مَكَانٍ وَاسِعٍ. ١٧أَفْرَايمُ مُوثَقٌ بِالأَصْنَامِ. اتْرُكُوهُ. ١٨مَتَى انْتَهَتْ مُنَادَمَتُهُمْ زَنَوْا زِنًى. أَحَبَّ مَجَانُّهَا، أَحَبُّوا الْهَوَانَ. ١٩قَدْ صَرَّتْهَا الرِّيحُ فِى أَجْنِحَتِهَا، وَخَجِلُوا مِنْ ذَبَائِحِهِمْ".

١«اِسْمَعُوا هذَا أَيهَا الْكَهَنَةُ! وَانْصِتُوا يا بَيتَ إِسْرَائِيلَ! وَأَصْغُوا يا بَيتَ الْمَلِكِ! لأَنَّ عَلَيكُمُ الْقَضَاءَ، إِذْ صِرْتُمْ فَخًّا فِى مِصْفَاةَ، وَشَبَكَةً مَبْسُوطَةً عَلَى تَابُورَ. ٢وَقَدْ تَوَغَّلُوا فِى ذَبَائِحِ الزَّيغَانِ، فَأَنَا تَأْدِيبٌ لِجَمِيعِهِمْ. ٣أَنَا أَعْرِفُ أَفْرَايمَ. وَإِسْرَائِيلُ لَيسَ مَخْفِيا عَنِّى. إِنَّكَ الآنَ زَنَيتَ يا أَفْرَايمُ. قَدْ تَنَجَّسَ إِسْرَائِيلُ. ٤أَفْعَالُهُمْ لاَ تَدَعُهُمْ يرْجِعُونَ إِلَى إِلهِهِمْ، لأَنَّ رُوحَ الزِّنَى فِى بَاطِنِهِمْ، وَهُمْ لاَ يعْرِفُونَ الرَّبَّ. ٥وَقَدْ أُذِلَّتْ عَظَمَةُ إِسْرَائِيلَ فِى وَجْهِهِ، فَيتَعَثَّرُ إِسْرَائِيلُ وَأَفْرَايمُ فِى إِثْمِهِمَا، وَيتَعَثَّرُ يهُوذَا أَيضًا مَعَهُمَا. ٦يذْهَبُونَ بِغَنَمِهِمْ وَبَقَرِهِمْ لِيطْلُبُوا الرَّبَّ وَلاَ يجِدُونَهُ. قَدْ تَنَحَّى عَنْهُمْ. ٧قَدْ غَدَرُوا بِالرَّبِّ. لأَنَّهُمْ وَلَدُوا أَوْلاَدًا أَجْنَبِيينَ، اَلآنَ يأْكُلُهُمْ شَهْرٌ مَعَ أَنْصِبَتِهِمْ.

٨«اِضْرِبُوا بِالْبُوقِ فِى جِبْعَةَ، بِالْقَرْنِ فِى الرَّامَةِ. اصْرُخُوا فِى بَيتِ آوَنَ. وَرَاءَكَ يا بَنْيامِينُ. ٩يصِيرُ أَفْرَايمُ خَرَابًا فِى يوْمِ التَّأْدِيبِ. فِى أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ أَعْلَمْتُ الْيقِينَ. ١٠صَارَتْ رُؤَسَاءُ يهُوذَا كَنَاقِلِى التُّخُومِ. فَأَسْكُبُ عَلَيهِمْ سَخَطِى كَالْمَاءِ. ١١أَفْرَايمُ مَظْلُومٌ مَسْحُوقُ الْقَضَاءِ، لأَنَّهُ ارْتَضَى أَنْ يمْضِى وَرَاءَ الْوَصِيةِ. ١٢فَأَنَا لأَفْرَايمَ كَالْعُثِّ، وَلِبَيتِ يهُوذَا كَالسُّوسِ.

١٣«وَرَأَى أَفْرَايمُ مَرَضَهُ وَيهُوذَا جُرْحَهُ، فَمَضَى أَفْرَايمُ إِلَى أَشُّورَ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَلِكٍ عَدُوٍّ. وَلكِنَّهُ لاَ يسْتَطِيعُ أَنْ يشْفِيكُمْ وَلاَ أَنْ يزِيلَ مِنْكُمُ الْجُرْحَ. ١٤لأَنِّى لأَفْرَايمَ كَالأَسَدِ، وَلِبَيتِ يهُوذَا كَشِبْلِ الأَسَدِ. فَإِنِّى أَنَا أَفْتَرِسُ وَأَمْضِى وَآخُذُ وَلاَ مُنْقِذٌ. ١٥أَذْهَبُ وَأَرْجعُ إِلَى مَكَانِى حَتَّى يجَازَوْا وَيطْلُبُوا وَجْهِى. فِى ضِيقِهِمْ يبَكِّرُونَ إِلَىَّ»". وأحسب هذا كافيا وفوق الكافى كى يعرف القاصى والدانى إلى أى مدى توغل الكاتب اليهودى فى التزييف والتضليل.

وفى "دائرة المعارف الكتابية" نقرأ، عن ارتكاس اليهود فى عبادة الأوثان كلما واتتهم الفرصة، ما يلى: "تاريخ عبادة الاصنام فى إسرائيل: عاش إبراهيم فى عالم يعبد الأوثان، وكان سبب ارتحاله غربا هو أن يبتعد عن أور الكلدانيين الوثنية وأن يبحث عن موطن جديد يعبد فيه الله الحقيقى. ومما يستلفت النظر أن بين نسل إبراهيم ظهرت ديانات التوحيد الثلاثه. وقد نهت الشريعة نهيا جازما عن عبادة الأصنام، فجاء فى وصيتين من الوصايا العشر: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامى. لا تصنع لك تمثالا منحوتا إلى صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت، وما فى الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن" (خر ٢٠: ٣ – ٥) تث ٥: ٧ – ٩، انظر أيضا لا ٩: ٤). وكانت عبادة الاصنام تعتبر خيانة لله الحى الحقيقى عقوبتها الرجم حتى الموت (تث ١٧: ٢ – ٧).

ويأمرهم الله أن يحترسوا جدا لأنفسهم: "فإنكم لم تَرَوْا صورةً ما يوم كلمكم الرب فى حوريب من وسط النار، لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا، صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى، شبه ما مما على الأرض، شبه طير ما ذى جناح مما يطير فى السماء، شبه دبيب ما على الأرض، شبه سمك ما مما فى الماء من تحت الأرض، ولئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم، كل جند السماء... فتغتر وتسجد لها وتعبدها" (تث ٤: ١٥ – ١٩ – انظر أيضا هو ٤: ١٢، إش ٤٤: ٩ و١٠، مز ١١٥). فعبادة الأصنام حماقة مطلقة. فالعبادة يجب أن تكون لله وحده،حيث إنه هو الإله الحى خالق كل الإشياء. وهو روح لا يمكن تصويره أو تمثيله بأى شكل. وتبدأ قصة عبادة الأصنام عند العبرانيين بحادثة سرقة راحيل لأصنام أبيها لابان (تك ٣١: ١٩). ولعل راحيل لم تكن تنوى عبادة هذه الاصنام لأن ما أسفر عنه التنقيب فى "نوزو" (فى بلاد بين النهرين)

يدل على أن رئاسة العائلة كانت تنتقل لمن يمتلك أصنامها. فلربما كانت راحيل تريد أن تجعل من يعقوب رأسا لعائلة أبيها. ولاشك فى أن السنين الطويلة التى قضاها بنو إسرائيل فى مصر جعلتهم يفْتَنُون بأصنامها (انظر يش ٢٤: ١٤، حز ٢٠: ٧ و٨)، ولذلك تحدى موسى آلهة مصر فيما أجراه من معجزات (عد ٣٣: ٤).

وعندما غاب موسى فوق جبل سيناء طلب بنو إسرائيل من هرون أن يصنع لهم ألهة تسير أمامهم (خر ٣٢: ١)، ولأن أفكارهم كانت متشبعة بما رأوه فى مصر صنع لهم "عجلا مسبوكا، فقالوا: هذه آلهتكم يا إسرائيل" (خر ٣٢: ٤). ومن عجب أن هارون "بنى مذبحا أمامه ونادى هرون وقال: غدا عيد للرب" (خر ٣٢: ٥). وكان ذلك العجل الذهبى يمثل "الرب" (يهوه) مما أدى بهم إلى أن يغنوا ويرقصوا عراة أمام العجل (٣٢: ٦ و١٨ و١٩ و٢٥) مثلما كان يحدث فى الاحتفال بالعجل "أبيس" فى مصر. ولا شك أن هذا الغناء والرقص كان مصحوبا بنوع من الحركات المثيرة حيث إن كلمة "اللعب" (خر ٣٢: ٦) تتضمن معنى مداعبات جنسية (انظر كلمة "يلاعب" أو "يداعب" فى تك ٢٦: ٨) مما أثار غضب الله وغضب موسى (خر ٣٢: ٧ و٨ و١٩ و٢٠) ويقول المرنم: "صنعوا عجلا فى حوريب وسجدوا لتمثال مسبوك، وأبدلوا مجدهم بمثال ثور آكل عشب" (مز ١٠٦: ١٩ و٢٠).

كما وقع بنو إسرائيل فى هذه الخطية فى شطيم عندما افتتن رجال إسرائيل بجمال بنات موآب اللواتى دعونهم "إلى ذبائح آلهتهن، فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن" (عد ٢٥: ١ و٢). وعندما دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين احتكوا بالكثير من إشكال العبادات الوثنية، ومع أن الرب أمرهم بأن يلاشوها تماما (تث ١٢ و٢: ٣)، إلى أنهم لم ينفذوا هذه الوصية تنفيذا كاملا (انظر قض ٢: ١١ – ١). وكان فى بيت يوإش الأبيعزرى (أبى جدعون) مذبح للبعل، أمر الرب جدعون بأن يهدمه (قض ٦: ٢٥ – ٣٢). كما أن الأفود التى صنعها جدعون وجعلها فى مدينة عفرة صارت فخًّا لبيته ولكل بنى إسرائيل (قض ٨: ٢٧). وحالما مات جدعون رجع بنو إسرائيل وعبدوا "البعليم وجعلوا لهم بعل بريث (بعل العهد) إلها" (قض ٨: ٣، ٩: ٤). وقصة ميخا المذكورة فى

الإصحاحين السابع عشر والثامن عشر من سفر القضاة تعطينا دليلا على أن بعض العائلات والأفراد (قض ١٧: ١ – ٦) كانت لهم أصنامهم الخاصة داخل بيوتهم. بل والأغرب أن "لاويا" يقبل أن يكون كاهنًا لصنم (انظر تث ٢٧: ١٥). وعندما تولى صموئيل القضاء لإسرائيل وجد إلزاما عليه أن يحثهم على نزع الآلهة الغريبة من وسطهم (١ صم ٧: ٣ و٤).

وقد مهد سليمان الطريق للارتداد إلى الوثنية بزواجه بعدد كبير من نساء أجنبيات جاءت كل واحدة منهن بأصنامها وعبادتها، فظهرت عشتورت إلهة الصيدونيين، وكموش صنم الموآبيين، وملكوم صنم بنى عمون، وغيرها كثير. وأقيمت على ثلاث قمم من جبل الزيتون مرتفعات لهذه الآلهة وسميت القمة الرابعة: "جبل الهلاك" (١ مل ١١: ٥ – ٨، ٢ مل ٢٣: ١٣ و١٤). وكانت أم رحبعام بن سليمان عمونية، فعمل "يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه، وبنوا هم أيضا لأنفسهم مرتفعات وأنصابا وسوارى على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة خضراء. وكان أيضا مأبونون فى الأرض، فعملوا حسب كل أرجاس الأمم" (١ مل ١٤: ٢١ – ٢٤). وأقام يربعام بن ناباط، الذى عاش فى مصر زمنا، عجلى ذهب فى بيت إيل ودان (١ مل ١٢: ٢٦ – ٣٣). ويسمى هوشع النبى هذه العبادة: "خطية إسرائيل" (هو ١٠: ٥ – ٨). وكان أعظم من شجع على عبادة الاوثان فى تاريخ بنى إسرائيل الملك أخآب وزوجته الصيدونية إيزابل (١ مل ٢١: ٢٥ و٢٦)، فهو لم يكتف ببناء هيكل ومذبح لـ"مكارت" بعل الصيدونيين، بل اضطهد أيضا أنبياء الرب (١ مل ١٦: ٣١ – ٣٣). وقد تحدى إيليا أنبياء البعل والسوارى فى حادثة جبل الكرمل الشهيرة دفاعا عن مجد الله الإله الحقيقى وحده (١ مل ١٨).

وأصبحت المملكة الشمالية (إسرائيل) تسير بقيادة ملوكها المتعاقبين فى طريق يربعام بن ناباط حتى أصبحت تعرف بـ"طريق ملوك إسرائيل" (١ مل ١٥: ٣٤، ٢ مل ١٦: ٣، ١٧: ٧ – ٨). وهكذا سار ملوك إسرائيل بالشعب فى طريق الارتداد عن الرب إلى أن غزاهم ملوك أشور. وقد أدخل آحاز ملك يهوذا عبادة الأوثان إلى المملكة الجنوبية، فبنى مذبحا على مثال المذبح الذى رآه فى دمشق فى مكان المذبح النحاسى فى الهيكل فى أورشليم (٢ مل ١٦: ١٠ – ١٥) وعبَّر ابنه فى النار (٢

مل ١٦: ٣)، وقدم ذبائح لآلهة دمشق (٢ أخ ٢٨: ٢٣). وكان منسى ملك يهوذا من أطول الملوك حكما وأكثرهم شرا وارتدادا. ومع أنه رجع للرب قبل موته (٢ أخ ٣٣: ١٠ – ١٧) إلا أنه لم يستطع إزالة آثار ما سبق أن عمله فى سنواته الماضية العديدة من العرافة والسحر وتنجيس هيكل الرب ببناء مذابح فيه لكل جند السماء وللبعل وللسارية (٢ مل ٢١: ١ – ٩، إرميا ٣٢: ٣٤). وكان من نتيجة ذلك أنه، بعد توبته بقليل ثم موته، أعاد ابنه آمون عبادة الأصنام وذبح للجميع التماثيل التى كان أبوه قد عملها وعبدها (٢ مل ٢١: ١٩ – ٢٢، ٢ أخ ٣٣: ٢١ – ٢٤). وكان من أبرز صور الارتداد والوثنية أن يتزعم الأنبياء هذه الحركة بتأييد من بعض الكهنة الأشرار (٢ مل ٢٣: ٥). فأولئك "الكهنة لم يقولوا: أين هو الرب، وأهل الشريعة لم يعرفونى، والرعاة عَصَوْا على، والأنبياء تنبأوا ببعل وذهبوا وراء ما لا ينفع" (إرميا ٢: ٨. انظر أيضا ٢ أخ ١٥: ٣).

ويبدو أنه كانت هناك بعض المحاولات للخلط بين عبادة الله الحقيقى وعبادة الأصنام (٢ مل ١٧: ٣٢، إرميا ٤١: ٥). ومما لا شك فيه أن التزواج بين شعب الله والأمم الوثنية كان الخطوة الأولى نحو عبادة الأصنام (خر ٣٤: ١٤ – ١٦، تث ٧: ٣ و٤، عز ٩: ٢، ١٠: ١٨، نح ١٣: ٢٣ – ٢٧). ويصف حزقيال غرفةً رُسِم على حائطها أشكال أصنام ودبابات وحيوانات نجسة لا شك فى أنهم نقلوها عن مصر. بل لقد نظروا إلى الحية النحاسية نظرتهم إلى صنم وأوقدوا لها البخور (٢ مل ١٨: ٤). وجاء السبى البابلى عقابا لهم على عبادة الأصنام (٢ مل ٢٤: ١ – ٤، ٢ أخ ٣٦: ١٥ – ٢٠). وفيما بعد السبى، وبخاصة فى أيام الاسكندر الأكبر وخلفائه، واجه اليهود عاصفة عاتية من عبادة الأوثان (١ مك ١: ٤٠ – ٥٠) حتى فضَّل الكثيرون من الأمناء أن يسْتَشْهَدوا عن أن يسجدوا لها (١ مك ٢: ٢٣ – ٢٦ و٤٥ – ٤٨)". وبالمناسبة فلم يحدث أن ارتكس المسلمون فى عبادة الأصنام لا فى عصر النبى ولا فى عصر خلفائه ولا فى أى عصر من عصور تاريخهم إلى الآن على العكس من اليهود كما هو واضح من النصوص التى استشهدنا بها هنا.

وهناك موضوعات يهتم بها القرآن، ولا وجود لها فى العهد القديم، كقضية العطف على الأنثى والدفاع عن حقها فى الحياة والحملة الشديدة على ظاهرة وأد البنات التى كانت منتشرة بين

بعض القبائل العربية قبل الإسلام كما فى كثير من بلاد العالم منذ القديم وحتى الآن: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يحْكُمُونَ (٥٩)" (النحل)، "أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ ينَشَّأُ فِى الْحِلْيةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيرُ مُبِينٍ (١٨)" (الزخرف)، "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَى ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)" (التكوير). ومن تلك القضايا التى لا يتعرض لها العهد القديم تطفيف الكيل والميزان، وإن تعرض فعَرَضًا أو على هيئة صورة بلاغية وما أشبه: "وَأَوْفُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" (الأنعام/ ١٢٥)، "فَأَوْفُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ" (الأعراف/ ٨٥)، "وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيكُمْ عَذَابَ يوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)" (هود)، "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)" (الرحمن)، "وَيلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يخْسِرُونَ (٣) أَلَا يظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يوْمَ يقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)" (المطففين). وبالمثل يدعو القرآن إلى فك الرقاب، أى إعتاق الرقيق وتحرير الأسرى، كعمل من أعمال البر والتقرب إلى الله ونيل رضاه، وهو ما لا وجود له فى العهد القديم. قال تعالى: "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِى يوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيمَنَةِ (١٨)"(البلد). وقد كانت هذه الدعوة فى الوحى المكى دعوة عامة إجمالية، ثم فصل الوحى المدنى الكلام فيها تفصيلا وجعلها كفارة عن عدد من الذنوب كما فى كفارة اليمين والظهار والقتل الخطإ، فضلا عن أن تحرير الرقاب يشكل بابا من أبواب الزكاة.

ولا تقف الاختلافات بين القرآن والعهد القديم وغيره من كتابات اليهود عند هذا الحد، بل هناك اختلافات أخرى كما هو الحال فى قصة خروج آدم من الجنة. ذلك أن العهد القديم يحمّل حواء المسؤولية فى ذلك ويعلن أن الله قد عاقبها بالحمل والولادة وما يعتريها أثناء ذلك من متاعب وآلام ومعاناة. أما القرآن فإنه يحمل المسؤولية آدم وحواء معا، وإن كان قد نسب النسيان الذى أدى إلى الأكل من الشجرة لآدم وحده. ولنقرأ النصين التاليين من سفر "التكوين" من أسفار العهد القديم ومن سورة "طه" على هذا الترتيب:

- "١وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيوَانَاتِ الْبَرِّيَةِ الَّتِى عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» ٢فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، ٣وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِى فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». ٤فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! ٥بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يومَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». ٦فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. ٧فَانْفَتَحَتْ أَعْينُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. ٨وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيا فِى الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِى وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَينَ أَنْتَ؟». ١٠فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِى الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّى عُرْيانٌ فَاخْتَبَأْتُ». ١١فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِى أَوْصَيتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» ١٢فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِى جَعَلْتَهَا مَعِى هِى أَعْطَتْنِى مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». ١٣فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِى فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيةُ غَرَّتْنِى فَأَكَلْتُ». ١٤فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَينَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيامِ حَياتِكِ. ١٥وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَينَكِ وَبَينَ الْمَرْأَةِ، وَبَينَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». ١٦وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يكُونُ اشْتِياقُكِ وَهُوَ يسُودُ عَلَيكِ». ١٧وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِى أَوْصَيتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا،

مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيامِ حَياتِكَ. [١٨]وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. [١٩]بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». [٢٠]وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَى. [٢١]وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. [٢٢]وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يمُدُّ يدَهُ وَيأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَياةِ أَيضًا وَيأْكُلُ وَيحْيا إِلَى الأَبَدِ». [٢٣]فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِى أُخِذَ مِنْهَا. [٢٤]فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِى جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَياةِ".

– "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيهِ الشَّيطَانُ قَالَ يا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يأْتِينَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاى فَلَا يضِلُّ وَلَا يشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى (١٢٤)".

ومن الاختلافات الكثيرة بين العهد القديم والقرآن الكريم أيضا كثرة التفصيلات والأرقام والأعداد وأسماء الأعلام والأنساب فى الكتاب الأول، وندرة ذلك فى كتابنا. والأمر من الشهرة بمكان بحيث لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه من نصوص الكتابين. والمؤلف ذاته يشير إلى أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وحدها تشتمل على أكثر من أربعمائة اسم من أسماء الأشخاص، ومئات التواريخ والمواقع الجغرافية والمدن والأنهار والجبال، على عكس القرآن، الذى لا يهتم عادة بشىء من هذا:

"Plus de quatre cents noms de personnage des centaines de dates d'événements et de célébrations, de sites géographiques, de villes, pays, fleuves et montagnes sont mentionnés par le Pentateuque. A l'inverse, le Coran Mushaf

'Uthman n'indique pas le nom du narrateur, ni celui de la personne qui l'interroge, pas plus d'ailleurs que celui ou de ceux à qui il s'adresse. À l'exception de deux ou trois villes, les lieux où se déroulent les faits ne sont pas mentionnés. Nulle date n'est précisée et encore moins une chronologie. À part une ou deux fois, aucun nom des contemporains de Mohammed n'y figure. On n'y trouve que les noms de prophètes – ou de personnages considérés comme tels par le Coran".

وقد سبق أن قلنا إن القرآن لا يكتفى بالكلام عن أنبياء العهد القديم من يعقوب فمَنْ بعده أو قبله كنوح وإبراهيم، بل يحكى قصص هود وصالح وشعيب من أنبياء العرب كذلك، وهو ما لا يعرفه العهد القديم. وقد سبق أن بينا أوجه الاختلاف بين مفهوم الإله عن اليهود وفى القرآن بحيث لا نحتاج إلى إعادة القول فيه هنا. كذلك فالعهد القديم هو فى كثير من أسفاره تاريخ مفصل لبنى إسرائيل بوقائعه وأشخاصه ومواقيته وغير ذلك. ولو كان الرسول ينقل عن العهد القديم والتلمود فلماذا شق القرآن طريقا مخالفا عن كتب اليهود؟ لقد كان القرآن يتغيا إصلاح العرب والعالم لا النقل من العهد القديم والتلمود. ومحمد نبى حقيقى، وإذا لم يكن نبيا حقيقيا فلا نبوة حقيقية فى الدنيا على الإطلاق. أما ما يستشهد به القرآن من قصص إسرائيلى فهو عنصر واحد من عناصر قصص الأمم القديمة وأنبيائها أولا، وهو يمثل ملحقا فرعيا بالموضوعات التى يتناولها، ولا يشكل أساسا أصيلا من أسسه ثانيا.

ورغم كل ما أوضحناه هنا نرى المؤلف يؤكد أن الرسول عليه السلام كان مطمئنا إلى اليهود. ومما يعتمد عليه من النصوص لإثبات ذلك وتأييده قوله تعالى فى سورة "المائدة": "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربَّانيون والأحبارُ بما استُحْفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء"، وقوله من سورة "آل عمران": "الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم"، مفسرا الآية الأخيرة بأن المقصود هو معرفة اليهود للتوراة كمعرفتهم لأبنائهم بالضبط. وهو كلام لا معنى له ولا رأس ولا ذنب. بل المقصود هو تقريع الله سبحانه لليهود بأنهم، رغم معرفتهم حقيقة أمر محمد عليه الصلاة والسلام وأنه نبى حقيقى بشرت به التوراة من قديم، لم يؤمنوا به بل عاندوا ورفضوا الدخول فى الإسلام. فانظر كيف يلوى الكلام عن وجهته ويفسد معناه الحقيقى رغم وضوحه التام. وبقية الآية يقول: "وإن كثيرا منهم ليكتمون الحق وهم

يعلمون". أى أن كفرهم بنبوته صلى الله عليه وسلم لم يكن عن جهل أو اجتهاد خاطئ بل عن عمد وسبق إصرار وعناد وتشبث بالباطل.

وهذا سياق الآية القرآنية كاملا، ومنه يتضح أن القرآن إنما يحمل على أهل الكتاب ويتهمهم بأنهم ذوو أهواء وأن ما مع محمد هو العلم والحق، ومن ثم يدعوهم إلى المسارعة إلى الإيمان به صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذى نزل عليه، ويحذرهم مغبة الرفض والنكوص عن ذلك الإيمان. فالقرآن إذن يوجههم ويعلمهم ويهديهم ويجعل من نفسه المعيار لا كتبهم. وهذا كله عكس ما يدعيه الكاتب، الذى يتخيل ويخال: "وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آَيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ

بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يعْرِفُونَهُ كَمَا يعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)" (البقرة).

هذا عن الآية الأخيرة، أما الأولى فسبب نزولها أنه قد "زنى رجل من اليهود بامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبى فإنه نبى بُعِثَ بتخفيف، فإن أفتانا بفُتْيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله وقلنا: فُتْيا نبى من أنبيائك. قال: فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد فى أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول فى رجل وامرأة منهم زَنَيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت المِدْراس فقام على الباب فقال: أَنْشُدُكُمْ باللَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ على مُوسَى ما تَجِدُونَ فِى التَّوْرَاةِ على مَنْ زَنى إذَا أُحْصِنَ؟ قالوا: يحَمَّم ويجَبَّهُ ويجْلَد (والتجبيه: أن يحمل الزانيان على حمار تقابل أقفيتهما، ويطاف بهما)، وسكت شاب، فلما رآه سكت ألظّ به النِّشْدة، فقال: اللّٰهمّ إذ نَشَدْتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: فَمَا أَوَّلُ ما ارْتُخِصَ أَمْرُ اللَّه؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل فى أسرة من الناس، فأراد رجمه، فحال قومه دونه وقالوا: لا ترجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه. فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم. قال النبى صلى الله عليه وسلم: فإنّى أَحْكُم بِمَا فِى التَّوْرَاة. فأمر بهما فرُجما. قال الزهرى: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: "إِنَّا أَنْزَلْنا التَّوْرَاةَ فِيها هُدًى وَنُورٌ يحْكُمُ بِها النَّبِيونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا". فكان النبى منهم"، أى من النبيين الذين أسلموا. فالآية إذن تقريع لهم وفضح لخبثهم والتوائهم، إذ أتوا إلى النبى كى يهربوا من حكم التوراة متصورين أنهم بهذه الطريقة سوف يفلتون من عقاب الله جراء تركهم العمل بما تقوله التوراة فى هذه الحالة، لكن القرآن كشف ألاعيبهم وألزمهم العمل بالكتاب الذى يعلنون التمسك به ويكفرون بنبوته صلى الله عليه وسلم بسببه كما يزعمون، ومع هذا يسارعون إليه ليحكم بينهم أملا منهم فى أن يتمكنوا من خداعه ويفلتوا من رجم الرجل والمرأة الزانيين، موهمين أنفسهم فى ذات الوقت أن محمدا هو الذى حكم

بذلك. وهذه نفسية اليهود المعقدة المضحكة. فالآية، كما نرى، لا تدل على ما يحاول أن يوهمنا به الكاتب المكار.

ومن خفة ظله وظرف طبعه ولكونه ابن نكتة مصفًّى يتساءل وفى عينيه لمعة خبث الثعالب: ما دام القرآن يجل التوراة ويثنى عليها ويضعها هذا الموضع العالى أليس من واجب المسلمين اقتناؤها والعكوف على قراءتها ودراستها؟ والطريف أن هناك شيخا مسلما فى أكسفورد يدعو المسلمين إلى العمل بما فى التوراة بوصفها كتابا سماويا. فكيف تمت هذه المصادفة يا ترى؟ ثم يبدى كاتبنا الثعلب أسفه على أن المسلمين لا يقتنون التوراة، إن اقتنوها، إلا لكى ينقدوها ويردوا عليها.

وعلى عادة اليهود فى إثارة المشاكل فى كل خطوة يتساءل: من مؤلف القرآن؟ ليرد بأننا، من قراءتنا للقرآن، لا نستطيع أن نعرف مؤلفه ولا أين ألفه ولا الظروف التى تم تأليفه فيها. وأنا فى الواقع لا أدرى ماذا كان يريد من القرآن أن يفعل حتى نعرف شخصية المؤلف والمكان الذى كان جالسا فيه وهو يكتبه والأحوال التى كانت تحيط به أوانذاك. هل كان يريد منه أن يقول: أنا، رب السماوات والأرض، مؤلف هذا الكتاب الذى يقع فى أربعمائة وخمسين صفحة من القطع المتوسط. هل يريد الكاتب أن يقول الله شيئا كهذا حتى يطمئن ويرتاح؟ خيبة الله على عقله التربلى! ولكن هل فى العهد القديم ذكر لاسم مؤلف الكتاب؟ سيقول: إن الله أحيانا ما يقول فى درج الكتاب: "يقول الله". وردنا هو أن ذلك غير مطرد، ولو سرنا على تنطعه لقلنا إن هذا خاص بتلك المواضع فقط، لكن لا يمكن سحبه على كل العهد القديم. ثم كيف نسى أن هناك أمرا مضحكا جدا يتصل بهذه النقطة فى العهد القديم، ألا وهو أننا نقرأ فى آخر الأسفار الخمسة بعد موت موسى أن الذى كتب هذه الأسفار من أولها إلى آخرها هو موسى. أى أن موسى بعد أن مات قد قام من موته وسجل تلك الحادثة ثم رجع يموت مرة أخرى. أليس ذلك أمرا مضحكا؟ كما أن هذا دليل قاطع على أن موسى هو مؤلف هذه الأسفار وليس الله، فضلا عن أن المشكلة الخاصة بهوية مؤلفى باقى العهد القديم سوف تظل قائمة لا تحل. وهذا إن كانت مشكلة تلك الأسفار الخمسة قد انحلت، وهى طبعا لم تحل. ومع هذا ففى كثير من الأحيان نجد الله سبحانه وتعالى فى القرآن يخاطب نبيه أو

المؤمنين به أو الناس جميعا قائلا، صراحةً أو إشارةً، إنه هو الله. وكثيرا ما يأمر عبده ونبيه محمدا بـ"قل كذا وكذا". وهذه أمثلة على ما نقول:

"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يأْتِينَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاى فَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يحْزَنُونَ (٣٨)" (البقرة)، "يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِياي فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِياي فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيئًا وَلَا يقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ ينْصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّينَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيسْتَحْيونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَينَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آَتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيكُمُ

الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَينًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)" (البقرة).

"إِنَّ الَّذِينَ يلْحِدُونَ فِى آَيَاتِنَا لَا يخْفَوْنَ عَلَينَا أَفَمَنْ يلْقَى فِى النَّارِ خَيرٌ أَمْ مَنْ يأْتِى آَمِنًا يوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَينِ يدَيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآَنًا أَعْجَمِيا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ أَأَعْجَمِى وَعَرَبِى قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يؤْمِنُونَ فِى آَذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيهِمْ عَمًى أُولَئِكَ ينَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آَتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِى بَينَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيهِ يرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيوْمَ ينَادِيهِمْ أَينَ شُرَكَائِى قَالُوا آَذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لَا يسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِى الْآَفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يتَبَينَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ (٥٣)" (فُصِّلَتْ).

"كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيهِمُ الَّذِى أَوْحَينَا إِلَيكَ وَهُمْ يكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ ييئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يأْتِى وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يعْلَمُ فِى الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَينَاهُمُ الْكِتَابَ يفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ ينْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيهِ أَدْعُو وَإِلَيهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِى وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يأْتِى بِآيةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يمْحُوا اللَّهُ مَا يشَاءُ وَيثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مَا نُرِينَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّينَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيكَ الْبَلَاغُ وَعَلَينَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَينِى وَبَينَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)" (الرعد).

"حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَينَا لَعَلِى حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِى فِى الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يأْتِيهِمْ مِنْ نَبِى إِلَّا كَانُوا بِهِ يسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)" (الزخرف)، "حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ

(٣) فِيهَا يفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦)" (الدخان). "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَينَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيعْلَمَ اللَّهُ مَنْ ينْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِى عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّينَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّينَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيمَ وَآتَينَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايتِهَا فَآتَينَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)" (الحديد).

وفى القرآن أيضا حوارات بين الله وبعض مخلوقاته، وتقابلنا فيها عبارة "قال الله/ قال ربك/ قلنا... إلخ": "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يفْسِدُ فِيهَا وَيسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)" (البقرة).

"إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يا مَرْيمُ إِنَّ اللَّهَ يبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يخْلُقُ مَا يشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يقُولُ لَهُ كُنْ فَيكُونُ (٤٧) وَيعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيكُونُ طَيرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَينَ يدَى مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يومِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَينكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)" (آل عمران).

"وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيينَ لَمَا آتَيتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)" (آل عمران).

"وَقَالَتِ الْيهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يغْفِرُ لِمَنْ يشَاءُ وَيعَذِّبُ مَنْ يشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَينَهُمَا وَإِلَيهِ الْمَصِيرُ (١٨) يا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يبَينُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ (١٩)" (المائدة).

"إِذْ قَالَ الْحَوَارِيونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيمَ هَلْ يسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ ينَزِّلَ عَلَينَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَينَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيكُمْ فَمَنْ يكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَينِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيهِمْ شَهِيدًا مَا

دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يوْمُ ينْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)" (المائدة).

"فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ ينَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَينَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨)" (الأعراف).

"وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى فَخُذْ مَا آتَيتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيرِ الْحَقِّ وَإِنْ يرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يرَوْا سَبِيلَ الْغَى يتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)" (الأعراف).

"حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَينِ اثْنَينِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِى تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يا بُنَى ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَينَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيا سَمَاءُ

أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِى الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)" (هود).

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يوْمِ يبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيتَنِى لَأُزَينَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِينَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)" (الحجر).

"وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِى يا مُوسَى (١١) إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يوحَى (١٣) إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيمِينِكَ يا مُوسَى (١٧) قَالَ هِى

عَصَاى أَتَوَكَّأُ عَلَيهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِى فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِى حَيةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيضَاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ آَيةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آَيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيسِّرْ لِى أَمْرِى (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى (٢٧) يفْقَهُوا قَوْلِى (٢٨) وَاجْعَلْ لِى وَزِيرًا مِنْ أَهْلِى (٢٩) هَارُونَ أَخِى (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى (٣٢) كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَينَا إِلَى أُمِّكَ مَا يوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيمِّ فَلْيلْقِهِ الْيمُّ بِالسَّاحِلِ يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَينِى (٣٩) إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَى تَقَرَّ عَينُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّينَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْينَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِى وَلَا تَنِيا فِى ذِكْرِى (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَينًا لَعَلَّهُ يتَذَكَّرُ أَوْ يخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يفْرُطَ عَلَينَا أَوْ أَنْ يطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِياهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِى إِلَينَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)" (طه).

"حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يوْمِ يبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَينَهُمْ يوْمَئِذٍ وَلَا يتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِى تُتْلَى عَلَيكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَينَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ

(١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتمُوهُمْ سِخْرِيا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يوْمًا أَوْ بَعْضَ يوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَينَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)" (المؤمنون).

"وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَلِكَ يوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِياهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)" (ق). وهذا فى الحوارات المباشرة، أما الحوارات غير المباشرة فكثيرة جدا. ومثله الحوار الذى لا نسمع فيه إلا كلام الله دون كلام الطرف الآخر.

وهناك أيضا الأسلوب، الذى لا يشبه أسلوب الأحاديث المحمدية بأى حال. ولقد وضعتُ كتابا من ستمائة صفحة فى المقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث هو "القرآن والحديث- مقارنة اسلوبية"، فألفيت أن الأسلوبين مختلفان تمام الاختلاف فى المفردات والعبارات والتراكيب والأبنية مما لا يمكن معه القول إن محمدا هو مؤلف القرآن. بل لم يكن هناك فى ذلك الوقت أى كتاب تقريبا فى بلاد العرب أصلا. كذلك فالجلال السارى فى القرآن من أوله لآخره دليل آخر على أنه ليس من صنع بشر. وعبثا تحاول أن تجد فيه شيئا من ضعف البشر من حزن أو قلق أو خوف أو تردد أو توجس أو فرح رغم ما مر بالرسول من الأحداث والحروب والمؤامرات والعداوات وألوان المشاعر والأحاسيس المختلفة. وأمامك القرآن كله، فحاول أن تجد فيه صدى لحزن محمد حين ماتت زوجته خديجة أو بنته أو ابنه أو قلقه خلال وقائع حديث الإفك أو أثناء حصار الأحزاب

للمدينة فى غزوة الخندق أو ابتهاجه بانتصار بدر العجيب أو تألمه وغيظه مما حدث فى أُحُدٍ وما انتهت به تلك الغزوة من انتكاسة باهظة ومقتل عمه الحبيب عمزة المأساوى أو سروره لزواجه من عائشة أو ضيقه بتصرفات بعض نسائه وتغايرهن... إلخ مما نجده فى الأحاديث مفصلا حيا. أما فى القرآن فلا.

وعلى أية حال فقد أخبرَنا محمد أنه تلقاه من عند الله، كما أن الله قد كرر فى القرآن مرارا القول بأنه منزل من عنده وأن الروح القدس حمله إليه وبلغه إياه. وليس عندنا شك فى صدق الرسول لأنه لم يجرَّب عليه كذبة واحدة ولا كانت له أية مصالح شخصية فى تحمل كل ما نزل به من أذى بدنى ونفسى وتضحيات هائلة فى الدعوة إلى دين الله حتى نقول إنه صبر عليها وتحملها كى يفوز بتلك المصالح. كذلك لم يكن له ارتباط بأية دولة أجنبية تستخدمه فى تنفيذ خططها وتحقيق غاياتها، بل على العكس من ذلك تماما بعث برسائل إلى ملوك عصره من حوله يدعوهم فيها بكل عزة وإيمان إلى اعتناق الدين الذى أتى به. كما أن أتباعه الذين هاجروا إلى الحبشة قد أعلنوا بوضوح وصراحة فى حضرة النجاشى وبطارقته عن عقيدتهم فى المسيح وأنه مجرد عبد لله ورسول له رغم ما يعرفونه من أن ذلك الإعلان قد يكلفهم الكثير. وكان يعيش عيشة متواضعة شديدة التواضع، ولم يكن يريد مُلْكًا ولا سيادة ولا غطرسة ولا استبدادا، بل كان يتعامل مع من حوله تعاملا كريما يخلو من التعالى والتكبر ولا يسْمِع أحدا منهم كلمة قاسية تنال من كرامته ولا ورَّث الحكم لأحد من أهله، ولم يدَّع معرفة الغيب ولا وضع نفسه يوما فوق البشر بأى معنى ولا نفى عن نفسه إمكان وقوعه فى السهو والنسيان والانخداع بكلام الكذابين. وكان كثيرا ما يؤكد بشريته وماضيه البسيط، فيتحدث عن أمه التى لا تتميز عن سواها من النساء بشىء، ويذكر ببساطة شديدة أنه كان يرعى الغنم فى صباه وشبابه. بل إنه حين ظهر له الملاك فى بداية الوحى لم يزعم المزاعم بشأنه بل عاد يرتجف ويطلب من زوجته أن تغطيه. ولو كان كاذبا قد اخترع حكاية الملاك والوحى هذه لعاد متهللا يدعى أن جبريل قد أخذه بالأحضان وأبلغه سؤال الله عنه بل لادعى أنه رأى الله ذاته... إلى آخر ما يردده بعض الصوفية والمتنبئون الكذابون وأمثالهم من مبالغات زائفة.

وكان يرفض أن يرفعه أحد من أتباعه على إخوانه الأنبياء والرسل رغم ما يتميز به عنهم من أنه صاحب رسالة عالمية لا محلية وأنه خاتمهم فلا نبى بعده وغير ذلك. وقد كان مستطيعا أن يترك ما قاله العهد القديم فى حق الأنبياء من رميهم بالزنا وارتكاب جريمة القتل والدياثة ومضاجعة المحارم والسُّكْر القبيح، إن لم يزد الصورة إفسادا وتشويها، حتى تبرز قامته من بينهم أعلى وأسمق. لكنه، عليه الصلاة والسلام، نبى كريم لا يفعل شيئا من هذا الذى برع فيه يهود وأشباه يهود. ثم ماذا فى الدين الذى جاء به يمكن أن يعاب أو ينتقد، وبخاصة فى ضوء مقارنته بنظيره فى الأديان الأخرى؟ إن دين محمد هو دين الحضارة من حث على العمل والجد والإتقان وطلب العلم والحرص على الذوق الراقى والنظام والنظافة والتعاون والتخطيط والإبداع، وهو ما لا وجود له فيما نعرف من أديان، وعلى رأسها اليهودية والنصرانية. وهو دين يعلى من شأن الأمل والتفاؤل واطراح اليأس والنكد، ويدعو إلى بذل الابتسام وبسط الوجه لكل من يقابله الشخص.

إن الكاتب الضلالى يفترى على التاريخ الكذب فيقول إن عثمان جمع بعض أحاديث محمد مع ما كان فى حوزة حفصة (يكتبها: "حفظة")، فكان القرآن. ثم زاد الكذاب أن عثمان قد أشرف بنفسه على محو وإحراق وإخفاء ما لم يعجبه من ذلك القرآن. ولا أدرى من أى واد من أودية الهلاوس أتى بذلك الكلام. لقد كان القرآن محفوظا فى الصدور، أى فى ذاكرة الصحابة، وفى ذات الوقت كان يكْتَب أولا بأول. وفى خلافة أبى بكر تم جمعه بين دفتين، أى فى مصحف، من الصدور والرقاع وما أشبه، وأُودِع لدى حفصة زوجة النبى عليه السلام. وحين تولى عثمان بن عفان الخلافة أعاد جمعه فى عدة نسخ لا نسخة واحدة كنسخة أبى بكر، ثم وزعها فى الآفاق. وكانت هناك فى المرتين لجنة تقوم بهذا العمل فى ظل ضوابط منهجية التزمتها بدقة صارمة. أما أحاديث محمد فتلك قصة أخرى، ولها كتب مستقلة خاصة بها هى كتب الأحاديث. وقد قلت إن أسلوبها والروح السارى فيها يختلفان اختلافا تاما عما هو موجود فى القرآن المجيد. أما حكاية إحراق عثمان ومحوه وإخفائه ما لم يكن يعجبه فى نص القرآن فهو كلام مجانين. ترى ما هى تلك النصوص المحذوفة أو المخفاة؟ وهل كان المسلمون ليسكتوا على فعلته تلك؟ إن بعض الشيعة يقولون مثلا إنه كان ثمة سورة فى القرآن تنص

على حق على وذريته فى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنها حذفت. وهذه السورة تسمى: "سورة النورين" أو "سورة الولاية". وقد عكفت عليها وفحصتها أسلوبا ومضمونا: كلمة كلمة، وعبارة عبارة، وتركيبا تركيبا، وفكرة فكرة، وقارنتها بأسلوب القرآن ومضمونه، فألفيت البون بينهما كما بين السماء والأرض، وأنه لا يقول بهذا القول العجيب الشاذ إلا مخبول. وعنوان دراستى المذكورة هو "سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم– دراسة أسلوبية تحليلية". فهذا يعطينا فكرة عن الأساليب القذرة التى يحارب بها أولئك الشياطين ديننا العظيم.

ويمضى الشيطان اللعين فى أكاذيبه قائلا إن محمدا قد ذكر فى القرآن الذى بين أيدينا أنه مطابق تماما لتوراة موسى مع أن القرآن إنما يتناول بالدرجة الأولى حوادث عصره وأحوال قومه وأمور حياته، فكيف يكون إذن مطابقا للتوراة؟ وأنا لا أستطيع أن أعرف إلى أى نص فى القرآن يشير هذا المجنون. أم هل قال الرسول الكريم ذلك؟ فأين يا ترى؟ إن الكاتب اليهودى لم يحِلْ إلى أى موضع فى القرآن أو حديث من الأحاديث النبوية كى نرجع إليه ونرى ماذا يقول النص، وكيف فهمه هو، فقد عودنا على فهم النصوص أو ليها بطريقة لا تخطر على عقل عاقل. كما يتساءل مستغربا: كيف يقول محمد إنه قد أتى العرب بالقرآن مع أن هذا القرآن لم يجمع إلا بعد وفاته؟ بالله عليكم ماذا يمكن أن نقول لهذا الأحمق؟ إن تسمية "القرآن" تنطبق على القرآن كله مثلما تنطبق على أى جزء منه. فسورة "البقرة" مثلا أو سورة "الصمد" قرآن، والآية الواحدة من أيتهما هى أيضا قرآن، وسور المفصَّل قرآن، والسبع الطوال قرآن، والقرآن قبل أن يكتمل نزوله قرآن، وبعد أن اكتمل نزوله قرآن. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد شاهدت قبل ثلاثين عاما ونيف حلقة تلفازية مع الممثل البريطانى بيتر سيلارس حكى فيها أنه كان يمثل ذات مرة فِلْمًا، وكان الدور يستلزم أن يردد بعض الآيات القرآنية، فقام بكتابتها ولصقها فى عدة أماكن يستطيع أن يراها فيها وهو يمثل الفلم دون أن يلحظ المشاهد ذلك. فماذا قال؟ قال إنه وضع هنا قرآنا، وهنا قرآنا، وهنا قرآنا. يقصد أنه كتب هنا آية، وهناك آية أخرى... وهكذا. أى أنه قد سمى الآية الواحدة: قرآنا. كما سمعت أحد الشبان

المصريين الأميين فى السعودية منذ أكثر من عشرين عاما يسمى المصاحف: قَرَائِين (جمع "قرآن"). فما المشكلة إذن؟

أيا ما يكن الأمر فهل تأخُّر جمع القرآن إلى ما بعد وفاة النبى، إن كان قد تأخر جمعه فعلا، ينفى عنه قبل هذا الجمع أن يكون قرآنا؟ ثم ما دخل جمع القرآن بين دفتين فى أن يكون القرآن قد اكتمل قبل هذا الجمع؟ إن القرآن قرآن وهو مكتوب، وقرآن وهو محفوظ فى الصدور، وقرآن وهو ينْسَخ، وقرآن وهو يتْلَى شفاها، وقرآن وهو موجود فى الذاكرة دون تلاوة. إن الرجل يقول كلاما طفوليا سخيفا. ولقد كان القرآن على كل حال مجموعا فى الصدور وبالكتابة معا. وحين تصدت اللجنتان اللتان عُينَتَا فى عهد أبى بكر وعثمان لجمعه قامتا بجمعه من صدور الصحابة ومن الوثائق المكتوبة وسجلتاه كتابةً تسجيلا دقيقا محكما رغم أن التسجيل الكتابى فى ذلك الحين كان تسجيلا بدائيا بالنسبة لما آلت إليه الأمور فيما بعد. لكن العبرة بالعزيمة وخلوص النية وتحرى الحق ونشاط العقل وحرارة الضمير. ونحن اليوم قد تقدمنا تقدما مذهلا بالمقارنة مع عصر النبى والصحابة، ولكننا عاجزون عن إنجاز واحد على المليار مما أنجزوه رغم وسائلهم البدائية بل رغم انعدام الوسائل فى معظم الأحيان.

ثم ينتهى الخبيث إلى الزعم بأن محمدا، حين يذكر كلمة "قرآن" فى النص الكريم إنما يقصد التوراة، التى يقول الثعلب إن اليهود يسمونها اسما قريبا من القرآن، ألا وهو "مقراه"! كما يقول إن محمدا قد قام فى القرآن بتلخيص التوراة. وكأنه، عليه الصلاة والسلام، كان يتعامل مع طلابنا أبناء هذه الأيام، الذين لا يحبون القراءة ولا الرجوع إلى الكتب ذاتها، بل يكتفون بالملخصات. ومن ثم كثرت حول الجامعات المصرية المكتبات التى تنفذ للطلاب رغباتهم وتستأجر شبانا يلخصون كل المقررات فى كبسولات يحفظها الطالب حفظا قبل الامتحان بأيام. ومعنى هذا أن النبى لم يكن مؤلفا بل ملخصا! لا بأس! فشىء خير من لاشىء. إلا أن اليهود سيواجهون مشكلة كبيرة، إذ لماذا لم يؤمنوا بمحمد ما دام لم يصنع شيئا غير تلخيص التوراة، ولم يأت بدين جديد؟ وعلى هذا فمن يرد الرجوع إلى الأصل فليقرأ التوراة ذاتها، ومن لم يكن عنده وقت ولا كان يتمتع بالصبر على خوتة

الدماغ فعليه بالتلخيص المحمدى. أرأيتم تنطعا باردا غثا كهذا التنطع؟ والغريب أنه، بعد هذا كله، يعود فيقول إن عثمان أو أحدا آخر قبله أو بعده قد قام بتدميره أو إخفائه. سمك، لبن، تمر هندى! أما القرآن الذى بين أيدينا فهو من صنع عثمان وكتبته، صنفوه من المجادلات التى قامت بين محمد وبين العرب واليهود والنصارى مع إضافة بعض أحداث حياته الخاصة. يا له من اكتشاف عبقرى! وهكذا يمضى هذا المجنون فيتخيل تاريخا للإسلام وللقرآن وللمسلمين من عندياته دون أى شعور بالحياء أو التردد. أإلى هذا الحد يؤرق الإسلام هؤلاء الناس ويشعل أحقادهم ويبرجل عقولهم؟

ومن ذلك أيضا زعمه أن محمدا كان له أستاذ، وهذا الأستاذ لا يمكن أن يكون إلا يهوديا. لماذا؟ لأن القرآن الذى بين أيدينا الآن يقول مخاطبا محمدا: "وإنك لَتُلَقَّى القرآنَ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ". فمحمد إذن، حسب فهم هذا المعتوه، كان له أستاذ حكيم. ولا يمكن أن يكون هذا الحكيم سوى أحد الحاخامات أو أحد المبشرين. وهذا المعتوه يقترح القول بأنه كان له أستاذان: واحد يهودى، وواحد نصرانى. طبعا عشان ما فيش حد منهم يزعل. فأما اليهودى فكان فى مكة، وأما النصرانى فكان فى المدينة! ثم إنه لا يكتفى بهذا بل يزعم أن القرآن الذى بين أيدينا هو من تأليف عثمان لفقه بالطريقة المذكورة آنفا، أما القرآن الحقيقى، الذى لم يكن شيئا آخر غير ما فى التوراة فقد حُذِف واختفى إلى الأبد...

إلى هنا وغُلِب حمارى وتصلب فى مكانه لا يبرحه مهما فعلت. وعلى هذا أُعْلِنُ أنا العبد الفقير أن هذا يكفى، فأنا لا أستطيع الاستمرار مع خريج الخانكة ذاك. لقد فهمت الآن كيف أصر اليهود على كفرهم رغم تتالى الآيات الدالة على صدق محمد ورغم عجزهم عن الرد على تحدياته لهم وفضحه لألاعيبهم وكشفه لما صنعوه مع توراتهم من عبث وإفساد. إن جبلتهم فاسدة منحرفة، ولا أمل فيها ولا فيهم إلا فى الشاذ النادر الذى لا يعوَّل عليه كما هو الحال مع عبد الله بن سلام: "لما أراد عبد الله بن سلام الإسلام دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وقال: أشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسلك بالهدى ودين الحق، وأن اليهود يجدونك عندهم فى التوراة منعوتا. ثم قال له: أَرْسِلْ إلى نفر من اليهود: إلى فلان وفلان (فسماهم له)، وأَخْبِئْنى فى بيت، فسلهم

عنى وعن والدى، فإنهم يخبرونك، وإنى سأخرج عليهم فأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسلك بالهدى ودين الحق، لعلهم يسْلِمون. ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فخبأه فى بيته وأرسل إلى النفر الذين أمره بهم فدعاهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما عبد الله بن سلام عندكم؟ وما كان والده؟ فقالوا: سيدنا وابن سيدنا، وعالمنا وابن عالمنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيتم إنْ أَسْلَم تُسْلِمون؟ قالوا: إنه لا يسلم. قال: أرأيتم إن أسلم؟ قالوا: لا يسلم. قال: أرأيتم إن أسلم؟ قالوا: لا يسلم أبدا. فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج عليهم ثم قال: أشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسلك بالهدى ودين الحق، وإنهم ليعلمون منك مثل ما أعلم. قال: فقالت اليهود لعبد الله: ما كنا نخشاك يا عبد الله على هذا. قال: فخرجوا من عنده، فأنزل الله عز وجل فى ذلك: قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِدَ شاهدٌ من بنى إسرائيل على مثله فآمَنَ واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين".

لقد تكرر وصفهم فى العهد القديم بأنهم شعب صلب الرقبة. فماذا نريد أكثر من هذا؟ "وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «رَأَيتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ"، "[١]وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى:... فَإِنِّى لاَ أَصْعَدُ فِى وَسَطِكَ لأَنَّكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَة، لِئَلاَّ أُفْنِيكَ فِى الطَّرِيقِ»... وَكَانَ الرَّبُّ قَدْ قَالَ لِمُوسَى: «قُلْ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَة. إِنْ صَعِدْتُ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِى وَسَطِكُمْ أَفْنَيْتُكُمْ"، [٩]وَقَالَ (موسى لربه): «إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِى عَينَيكَ أَيهَا السَّيدُ فَلْيسِرِ السَّيدُ فِى وَسَطِنَا، فَإِنَّهُ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةُ...»"، "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيسَ لأَجْلِ بِرِّكَ يعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ هذِهِ الأَرْضَ الْجَيدَةَ لِتَمْتَلِكَهَا، لأَنَّكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ"، "وَكَلَّمَنِى الرَّبُّ قَائِلًا: رَأَيتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ"، "فَاخْتِنُوا غُرْلَةَ قُلُوبِكُمْ، وَلاَ تُصَلِّبُوا رِقَابَكُمْ بَعْدُ"، "أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمُ الصُّلْبَةَ"، "وَأَشْهَدَ الرَّبُّ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَعَلَى يهُوذَا عَنْ يدِ جَمِيعِ الأَنْبِياءِ وَكُلِّ رَاءٍ قَائِلًا: «ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ الرَّدِيئَةِ وَاحْفَظُوا وَصَاياى، فَرَائِضِى، حَسَبَ كُلِّ الشَّرِيعَةِ الَّتِى أَوْصَيتُ بِهَا آبَاءَكُمْ، وَالَّتِى أَرْسَلْتُهَا إِلَيكُمْ عَنْ يدِ عَبِيدِى الأَنْبِياءِ». فَلَمْ يسْمَعُوا بَلْ صَلَّبُوا أَقْفِيتَهُمْ كَأَقْفِيةِ آبَائِهِمِ الَّذِينَ لَمْ يؤْمِنُوا بِالرَّبِّ إِلهِهِمْ"،

"الآنَ لاَ تُصَلِّبُوا رِقَابَكُمْ كَآبَائِكُمْ، بَلِ اخْضَعُوا لِلرَّبِّ وَادْخُلُوا مَقْدِسَهُ الَّذِى قَدَّسَهُ إِلَى الأَبَدِ، وَاعْبُدُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ"... إلخ، وهو كثير. وبمناسبة ما نحن فيه فإن ما قاله القرآن الكريم فى حق اليهود ليعد بمثابة دغدغة تحت الإبط بالمقارنة بما قاله العهد القديم عنهم. ومع هذا يملأون الدنيا صياحا زاعمين أن القرآن يدعو إلى كراهيتهم. إنهم فعلا شعب صلب الرقبة!

جيل كورتيو يقول إن "المطَّلِب" اسم وثن من الأوثان

البحث الذى نتعرض له فى هذا الفصل عنوانه: "المُطَّلِب: إِلَهٌ فى نَسَب مُحَمَّد"، وصاحبه المستشرق چيل كورتيو الأستاذ بجامعة ليون الثالثة (" AL MUTTALIB: la présence d'un dieu dans la famille de Mohomet"). وقد ترجمه إلى العربية ناصر بن رجب (التونسى)، ونشره فى موقع "الحوار المتمدن". وهو محاولة مستميتة متعسفة لإثبات أن اسم "عبد المطلب" جد الرسول معناه "عبد وثن يسمى: المطلب"، كل هذا ليدلل على أن الوثنية ضاربة فى حياة الرسول. وهو، حين يقول ذلك، لا يقدم أى دليل. إنما هو عنادٌ حَرُونٌ لا يحترم عقلا ولا منطقا ولا علما ولا منهجا. ويبدأ البحث على النحو التالى: "يتعلّق الأمر هنا بمجالٍ كانت فيه كلّ تدليسات وغشّ الفطاحِل من المؤلِّفين المسلمين جائزةً، وذلك من أجل إعطاء نبى الإسلام، على غرار يسوع المسيحيين، نسَبًا يرقى هذه المرّة إلى آدم مباشرة بواسطة أجدادٍ عرب وعِبرانيين. وتعرض سيرة ابن هشام ذلك بوضوح فى أوّل سطورها".

وكما هو واضح يبدأ الكاتب كلامه باتهام العلماء المسلمين الكبار بالغش والتدليس دون أن يقدم دليلا على هذا الغش والتدليس المفترَى عليهم. فهو يزعم أنهم صنعوا للنبى نسبا كاذبا. فأين الدليل على أنهم كاذبون؟ قد يجد بعضنا أنه من الصعب تتبع الأنساب وتسجيلها على مدى كل تلك الأجيال دون أخطاء، لكن علماءنا القدامى كانوا يظنون أنه من الممكن الوصول بنسب الشخص إلى ذلك المدى البعيد. فهم، إذا صح أنهم مخطئون، كانوا مضلَّلين لا كاذبين. ولم يكذبون؟ أيريدون أن يصلوا نسب النبى بناس يرون أنهم أفضل منه، ومن ثم يكتسب بالانتساب إليهم شرفا لم يكن له أو يزداد شرفا على شرف على الأقل؟ لكن فات المستشرق الفرنسى الهجام أن المسلمين يؤمنون بأن نبيهم أفضل الأنبياء، وبالتالى فهو ليس محتاجا إلى التعلق بأى شخص آخر يكتسب منه الشرف أو يستزيده. ألم يقل عليه السلام: "فُضِّلْتُ على الأنبياء بِستٍّ: أُعْطِيتُ جوامعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّتْ لِى الغنائمُ، وجُعِلَتْ لِى الأرضُ مسجِدًا وطَهُورًا، وأُرْسِلْتُ إلى الخلقِ كافَّةً، وخُتِمَ بِى النَّبيونَ"؟ إذن فعلماؤنا لم يكونوا بحاجة إلى اختراع نسب له عليه الصلاة والسلام. ثم إن كُتّاب

العهد الجديد قد فعلوا نفس الشىء مع المسيح: فأحد الأناجيل أوصل نسبه إلى إبراهيم، والآخر أوصله إلى آدم نفسه. فلماذا لم يتهمهم المستشرق الهجام بالكذب والتلفيق هم أيضا؟ أما إبراهيم، وهو آخر حلقة فى نسب المسيح كما أشار المؤلف متجاهلا النسب الآخر الذى يصل إلى آدم، فلم ينازع العربَ أحدٌ فى صحة انتساب قسم منهم إليه، ومن ثم فمحمد، بوصفه واحدا من هؤلاء العرب، ينتسب هو أيضا إلى إبراهيم. ولقد كان اليهود يسمعون القرآن يؤكد أن جد العرب هو إبراهيم، بل كانوا يسمعون العرب حتى من قبل مجىء الإسلام يقولون نفس الشىء. ومع ذلك لم يحدث أن اعترضوا على ذلك رغم أنهم جعلوا هِجِّيرَاهم الإنكار على المسلمين فى كل أمر من أمورهم والتهكم به وبهم. فلولا أنهم يرون صحة ذلك الانتساب لما كفوا ألسنتهم عن الانتقاد العنيف القارص. وكيف كان يمكنهم أن يعترضوا أو ينكروا، وكتابهم المقدس يتحدث عن العرب بوصفهم ذرية إبراهيم من ناحية ابنه إسماعيل؟ بل لقد كان أهل الكتاب يسمون العرب والمسلمين: "الإسماعيليين" أو "السراسنة": الأولى نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم، والثانية نسبة إلى أَمَة سارة الفقيرة هاجَر، التى اتخذها لنفسه إبراهيم. وقد يسمونهم: الهاجَريين أيضا نسبة إلى هاجر نفسها أم ابنه إسماعيل. فأين المشكلة فى نسب النبى إذن؟ نعم يمكن أن تكون حلقةٌ أو أكثر قد سقطت هنا أو هناك أو تقدمت أو تأخرت عن موضعها أو نُطِق اسم حلقة من الحلقات نطقا خاطئا، لكن لم يحدث أن اعترض أحد من غير المسلمين لا من العرب ولا من غير العرب على هذا الانتساب إلى إبراهيم.

والمضحك أنه يعزو "اختلاق" هذه السلسلة النسبية المحمدية إلى أن "الذّهنيات البدوية، والعربية بصورة أوسع، كانت تفرض من جانبها أن يقدَّم لها نبى يتمتّع بكلّ خصال آبائه، وأن يكون منغمسا تمام الانغماس فى السياق القَبَلى، وذلك قبل أن يقود ثورته". ووجه الطرافة والإضحاك فى الأمر أنه يتحدث عن النبوات فى العرب وكأن النبوات كانت متصلة فيهم لا تتوقف وأنهم قد استقروا فيها على شروط ولوائح لمن يريد أن يكون نبيا مقبولا، مع أن القرآن لم يورد من أنبياء العرب سوى ثلاثة هم هود وصالح وشعيب ليس إلا، وكانوا ينتمون إلى الماضى السحيق. كما أن العرب، حتى من غير الأنبياء، كانوا حرصاء على تأصيل أنسابهم. ومن ثم فكلام المؤلف عن أن

النبوة كانت تقتضى هذا لا يزيد عن أن يكون رغاوَى صابون. ثم إن أولئك الأنبياء الثلاثة لم تكن معروفة أنسابهم لمعاصرى النبى، بل إننا لا نعرف أبا أى منهم. كذلك فسلسلة النسب الطويلة هذه إنما ظهرت فى كتب السيرة، أى بعد وفاة النبى عليه السلام بزمن طويل وبعدما انتشر الإيمان به بين العرب جميعا، بما يعنى أن نبوته صلى الله عليه وسلم لم تكن تقتضى هذا ولا استندت إليه أو استمدت قوتها منه كما يدعى الكاتب الهرّاف.

ثم إن نسب يسوع فى الأناجيل قائم على غير أساس، إذ ليس له أب: لا عندنا ولا عند النصارى، فنحن وهم نؤمن بأن ولادته إعجازية، أى من غير أب (بشرى)، وإن قالوا هم فى ذات الوقت بأنه ابن الله. ومن هنا فإن نسبة الإنجيل يسوعَ إلى داود هى نسبة غير صحيحة، إذ ينتهون بهذه النسبة الداودية إلى يوسف النجار، وفى ذلك ما فيه مما لا نحب التعرض له. كما أن فى حلقات ذلك النسب بكل يقين خروما أو زيادات، وتقديمات وتأخيرات طبقا لما نلاحظه من المقارنة بين نسبه فى إنجيل متى ونسبه فى إنجيل لوقا. فالإنجيلان لا يتفقان فى نسبه أبدا. وكان المؤلف حَرِيا أن يغلق فمه فلا يفتح هذا الموضوع لو رُزِق الحصافة. لكنه بكل الأسف لم يرْزَقها، فكان ما كان.

وفوق هذا رأيناه يزعم أن هناك فرقا بين نسب يسوع فى التراث النصرانى ونسب محمد فى التراث الإسلامى: فالتراث النصرانى يقف بنسب يسوع عند إبراهيم فى حين توصّل السيرةُ نسبَ محمد إلى آدم كما قال. وقد استشهد على هذا بإنجيل متى حصريا مع أن النسب الذى أورده إنجيل لوقا، وهو من التراث النصرانى طبعا، يرتفع بيسوع إلى آدم أيضا. أما الفرق الثانى الذى يزعمه فهو أن نسب يسوع يبدأ من فوق حتى يصل إلى المسيح، لكن نسب يسوع، الذى يصل هو أيضا عند لوقا إلى آدم، يبدأ كذلك من تحت، أى من المسيح صعودا حتى آدم. فكلام البروفيسير إذن فاشوش لا حقيقة له. وهذا هو مستوى بروفيسير كبير فى جامعة من جامعات الغرب الكبرى.

ليس هذا فحسب، بل يدعى أن العرب كانوا يصرون على أن يكون النبى الذى يأتيهم نبيا ذا نسب إنسانى. وهو بهذا يبرهن على أنه جهول، وإليكم البيان: أولا كان هناك عرب نصارى كثيرون. فكيف يا ترى قبلوا الإيمان بالمسيح رغم نسبه الإلهى الذى تعطيه الكنيسة إياه؟ الشىء

الثانى: ألا يعرف جاهلنا أن العرب كانت تعترض على نبوة محمد وترفض الإيمان به لأنه بشر، وكانت تريده ملاكا؟ لنقرأ: "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥)" (الإسراء). وقال هذا الكلام قبلا قوم نوح: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يرِيدُ أَنْ يتَفَضَّلَ عَلَيكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤)" (المؤمنون). كما قيل هذا لرسول أتى من بعد نوح: "ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ (أى من بعد قوم نوح) قَرْنًا آَخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤)" (المؤمنون). وقاله فرعون وملؤه لموسى وهارون: "ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَياتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَينِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)" (المؤمنون). وكذلك قالته ثمود لنبيهم صالح: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِي الذِّكْرُ عَلَيهِ مِنْ بَينِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥)" (القمر). وقاله قوم شعيب لشعيب: "وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)" (الشعراء). وقاله أيضا أصحاب القرية لرسلهم: "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيهِمُ اثْنَينِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)" (يس). لقد كان هذا حال أقوام الأنبياء جميعا: "أَلَمْ يأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَينَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِي حَمِيدٌ (٦)" (التغابن). لقد طمس الله على عقل هذا الرجل، فأينما اتجه كانت الأبواب كلها مسدودة فى وجهه.

ثم يمضى قائلا إنه سوف يركز على حلقة قريبة فى نسب النبى هى حلقة عبد المطلب وحدها تاركا الحلقات البعيدة المغلفة بالأساطير ومركزا على هذه لأن دراستها سهلة، إذ هى فى متناول أيدينا، ونستطيع أن ندرسها فى سياق التقاليد العربية والروايات المتعلقة بها والمتوفرة لدينا كما يقول. وتدور دراسته لعبد المطلب على الرغبة فى إثبات أن المقصود من اسمه ليس أنه عبد عمه المطلب بل على أن المطلب اسم وثن عربى، وأن المسلمين اخترعوا حكاية عبوديته المتوهَّمة لعمه كى يبعدوه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون أحد من آبائه وثنيا، إذ كان كل همهم، كما يقول المستشرق، هو إزالة أى دنس عنه بكل وسيلة وسبيل.

وهنا يقول مستشرقنا: "إنّ سلسلة النّسب المحمّدية لها طابع فريد من حيث أنّها لا تشمل أباه (ولا أمّه، ولكنّها تعتبر كمًّا مُهْمَلًا): عبد الله هو هيولى خارجية (ectoplasme)، كائن بلا تضاريس، بدون شخصية، ولا أهمّية له. فحتّى اسمه فهو شفّاف إلى أقصى حدود الشفافية، أو الأكثر تعتيما، هذا إذا كان يخْفى هويته الحقيقية. ولهذا يكون لزاما علينا أن نمرّ إلى مراتب الجدّ، وجدّ الجدّ، والجدود الجانبين (من الحواشى) ومن بينهم مرجعية محمّد الأساسية، وهو جدّه عبد المطّلب ومن خلفه شخص غامض: المُطَّلِب، وهو الشخص الذى يهمّنا هنا. محمّد ليس له أب، وهذا مفهوم بالضرورة، فهو بهذا يختلف عن الإنسانية. فلو كان قد خضع لسلطة أبوية لكان قد فقد كلّ هيبته وكلّ كاريزما له فى أعين الآخرين. وهو ليس أيضا أبا أحد (كما يقول القرآن) بمعنى أنّه لم يكن له ابن بقى على قيد الحياة. وهذا يمكن أن يكون مفتاح هذه الشّخصية: فبعض الآيات القرآنية يبدو أنّها تفسِّر هذه النقيصة. ولكن يبقى لمحمّد، وهو بدون أب ولا ابن، إلاّ النُّبوّة لكى ينجح فى حياته وسط العرب (وهذا على غرار ما عاشه الإسبان تحت حكم الديكتاتور فرانكو. فحتّى يصبح الإسبانى شخصية محترمة كان عليه أن يصير إمّا قسًّا أو عسكريا أو مصارع ثيران). وهذه الوضعية فى الوسط القبلى هى وضعية خَطِرة ومؤثِّرة تدفع الفرد الذى يلحق به مثل هذا العار إلى البحث فى كلّ مكان عن حماية ممكنة، عن رعاية أجداد وأعمام أو آلهة تكبر قوّتها وتنمو أكثر فأكثر. والله بدون شكّ هو الإله الذى بدأت قوّته تزداد فى تلك الفترة".

وهذا الكلام هو مما يقال عنه: سمك، لبن، تمر هندى. فالمستشرق يبدأ قائلا إن محمدا لم يكن له أب لأنه لو كان له أب لفقد هيبته وسحره وجاذبيته كزعيم للعرب. ثم يعود فينقلب على نفسه قائلا إن كل من يعيش فى هذا المجتمع العربى لا بد له من البحث عن عزوة وحماية من أجداده وأعمامه. فكيف يبحث محمد صلى الله عليه وسلم عن عزوة، وهو قد تخلى عن تلك العزوة متمثلة فى أبيه؟ ثم إن المستشرق المعاند يتحدث عن موت والد الرسول وكأن الرسول هو الذى تخلص من أبيه حتى تصير له جاذبية. ترى ألا يكون للشخص هيبة وجاذبية وسحر إلا إذا كان بلا أب؟ وهل كان محمد يخطط وهو فى بطن أمه ليكون نبيا فرأى أنه لا بد من التخلص من أبيه حتى يخلو له الجو، فخرج من بطن أمه ليلا فى غفلة منها ومن سائر أفراد الأسرة وهم نائمون، فقتل أباه ثم عاد سريعا إلى قواعده سالما قبل أن يكتشف أحدٌ الملعوب؟ كلام سخيف ومتهافت وناقص المنطق والحياء!

ثم إن والد الرسول لم يكن شخصا مجهولا. ألم تحك كتب السيرة عن زواج عبد الله بأمينة، وعن الفداء الذى نجاه الله به، وعن خروجه فى تجارة إلى الشام، وعن موته ومحمدٌ ما فتئ فى بطن أمه؟ لقد مات شابا فلم تكن هناك فرصة لإنجازات كثيرة يمكن أن تساق هنا. كما يدعى المستشرق أنه اسم شفاف أو معتم بمعنى أنه لا يقول شيئا بل يخفى عبد الله وراءه. وهو يرى أيضا أن هذا الاسم اسم نصرانى، فكأنه ينكر أن يكون اسم والد النبى هو عبد الله، الذى يرى فيه اسما لا نتوء له أو تضاريس ولم تكن تعرفه العرب. إنه اسم والسلام بمعنى أنه يمكن أن ينطبق على أى إنسان فى أى زمان ومكان. أليس كل منا عبد الله؟

لكن هذا الاسم كان معروفا لدى العرب فى الجاهلية كما توضح لنا الشواهد الشعرية التالية، ومن ثم لا يصح أن نقول إنه اسم شفاف أو معتم لا يعنى شيئا بل يراد له إخفاء شىء خلفه، وإنه لم يكن له وجود بين العرب. تقول ابنة أبى الجدعاء الطهوى فى رثاء أبيها:

دَعَا دَعْوَةً إِذْ جَاءَه ثَمّ مالِكًا ... ولم يَكُ عبدُ اللهِ ثَمَّ ونَهْشَلُ

كما كرر أبو مثلم الهذلى فى ميمية له هذا الاسم سبع مرات منها هذا البيت على سبيل التمثيل ليس إلا:

أَصَــخْرُ بــنَ عبــدِ اللهِ إن تَــكُ شــاعِرًا ... فَإِنَّـــك لا تُهْـــدِى القَـــرِيضَ لِمُفْحَـــمِ

ويقول الجميح الأسدى:

عمـــــرو بـــــن عبــــدِ اللَّه إنَّ بــــهِ ... ضَـــنًّا عـــن المَلْحَــــاةِ والـــشَّتْمِ

ويقول الحارث بن ظالم المرى:

وأفلـــــتَ عبـــــد الله منـــــى بـــــذعرةٍ ... وعـــروةُ مـــن بعـــد ابـــن جَعْـــدَةَ شـــاهدى

ويقول حاتم الطائى:

أَيـــا ابنـــةَ عبـــدِ اللهِ وَابنـــةَ مالِـــكٍ ... ويـــا ابنـــة ذى الـــبُرْدَينِ وَالفَـــرَسِ الـــوَرْدِ

ويقول زهير بن أبى سلمى:

فَمَهْـــــلًا آلَ عبــــدِ اللهِ عَــــدُّوا ... مَخَــــازِى لا يـــدَبُّ لَهَـــا الـــضَّرَاءُ

ويقول عمرو بن الداخل:

تَـــــذَكَّرَ أُمَّ عبـــــدِ اللهِ لَمَّـــــا ... نَأَتْـــهُ وَالنَّـــوَى مِنهـــا لَجُـــوجُ

ويقول عنترة بن شداد:

فَـإِن يــكُ عبــدُ اللهِ لاقَــى فَوارِسًــا ... يــرُدّونَ خــالَ العــارِضِ المُتَوَقِّـــدِ

ثم يستمر الرجل فى هلوساته قائلا إن محمدا لم يبق له، كى تكون له حيثية بين العرب، سوى النبوة. وكأن محمدا قد اتخذ قراره بأن يكون نبيا. ما علينا! سوف نُعَدِّى له عن هذه ونقول إنه حر فى أن يؤمن أو لا يؤمن بنبوة رسولنا عليه السلام. ولكن من قال لذلك المعاند إن النبوة هى التى ستأتى لمحمد الفاقد الحيثية فى مجتمع العرب بتلك الحيثية المفقودة؟ أترى مستشرقنا لا يعرف أن النبوة قد جَرَّتْ على النبى المتاعب والبلايا والمؤامرات والشتائم والقذف بالحجارة والتخطيط لقتله ومطاردته فى الشوارع وعبر طرق الصحراء، وفرضت عليه الدخول فى معارك طاحنة وعرَّضَتْه لمؤامرات اليهود والمنافقين والمشركين؟ والحمد لله أن النبى ظهر فى المجتمع العربى آنذاك ولم يظهر فى أسبانيا على عهد الجنرال فرانكو، وإلا كان، أستغفر الله، مصارع ثيران كما يلمح الكاتب

السخيف العقل؟ لو كان عنده شىء من الفهم لعرف أن أصحاب الرواج بين العرب فى ذلك الوقت هم الشاعر والمحارب والكاهن لا النبى. لكن ماذا نقول فيمن أراد الله طمس بصيرته؟

ونعود إلى زعم الكاتب المتهافت بأن محمدا قد أراد ألا يكون له أب حتى لا يفقد هيبته وكاريزماه، وكأن محمدا صلى الله عليه وسلم أنكر أن يكون له أب. ولنفترض أنه أنكر أباه، ولا أدرى كيف، أفلم يذكر كتاب السيرة جده وأنه هو الذى رباه وعطف عليه وأكرمه وكان له خير عوض عن أبيه، وكان يفيض عليه الاهتمام ويقربه إليه فى مجلسه عند الكعبة؟ ألم يقولوا إن عمه أبا طالب قد كفله بعد جده؟ ألم يقولوا إن أبا طالب هذا هو الذى حماه من المشركين وهو يؤدى دعوته ولم يتخل عنه يوما قط؟ ألم يقولوا إن خديجة وقفت معه بمالها وحبها وتعاطفها وإيمانها واهتمامها؟ ألم يقولوا إن العام الذى مات فيه هذان الاثنان قد سمى: عام الحزن؟ ألم يقولوا إن حمزة قد ضرب أبا جهل بقوسه على رأسه عند الكعبة يوم أتاه الخبر بأن هذا الفظ الجهول قد أساء إلى ابن أخيه، ثم زاد فأعلن يومذاك أنه من أتباعه وتحدى بذلك المشركين جميعا؟ ألم يقولوا إن حليمة السعدية قد أخذته وأرضعته رغم يتمه وقلة ماله وإنه ظل يذكر لها هذا الأمر حتى بعد أن صار نبيا وزعيما يطير اسمه فى الآفاق، وأكرم ابنتها (أخته من الرضاع) بعد سنوات طوال احتراما لهذه الذكرى الجميلة؟ ألم يقل كتاب السيرة إن العباس عمه قد وقف إلى جواره ليلة العقبة كى يطمئن إلى أن أهل يثرب لن يتخلَّوْا عنه بعد أن يهاجر إليهم طبقا للاتفاق بينهم وبينه؟ ألم يذكر هو للأنصار جميلهم هذا بعد الهجرة يوم شعروا بشىء من الغضاضة حين أعطى ناسا من الغنائم أكثر مما أعطاهم، فظنوا أنهم قد فقدوا مكانهم عنده؟ ألم يعترف هو نفسه بأيدى أبى بكر عنده حتى لقد سماه: "خليل الله"؟ هل نال هذا كله من كاريزماه؟ أبدا بل زادها تألقا. وهكذا نرى أن كلام المؤلف هو كلام لا رأس له ولا ذيل!

ونعود إلى زعم المؤلف بأن محمدا أنكر أباه، إذ يشير إلى ما أعلنه فى بعض المواقف من أنه "ابن عبد المطلب": "وكمثال على ذلك ما حدث فى المعركة ضدّ هوازن (غزوة حنين). وفى لحظة حاسمة، وعندما أراد أن تنصاع له جيوشه ولكى يحضّها، قام محمّد باستخدام المشاعر القبلية

وتَحدَّى قوانين البيولوجيا حين صرخ فى الجموع مناديا لمّا حَمِى الوطيس: "ولقد رأيت رسول الله على بغلته البيضاء وإنّ أبا سفيان ابن الحارث آخِذٌ بزمامها، وهو يقول: أنَا النَّبِى لا كَذِبْ. أنا ابْنُ عبْدِ المُطَّلِبْ". هناك حديث يقدّم لنا كيف كان كفّار تلك الفترة ينادون محمّدا: "يقُولُ (أنس بن مالك): بَينَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النبِى صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلمَ فِى المَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِى المَسْجِدِ ثُم عَقَلَهُ ثُم قَالَ لهم: أيكم محمدٌ؟ والنبى صلى الله عليه وسَلمَ مُتَّكِئٌ بَينَ ظَهْرَانَيهِم، فَقُلنَا: هَذَا الرجل المُتَّكِئُ. فَقَالَ لَهُ الرجُل: يا ابنَ عَبدِ المُطَّلِب. فَقَالَ لَهُ النبِى صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلّمَ: قَد أَجَبْتُكَ". فالأب يقع إنكاره وإنكاره مرّات ومرّات على عين الملإ من طرف ابنه. والجدّ يحصل، بعد الوفاة، على صفة الأب".

وليس فى ذلك أية غضاضة، بل هو إشارة إلى أن جده هو الذى رباه بعد أن مات أبوه وهو فى بطن أمه حتى إن بعض من كانوا يفدون عليه من العرب كانوا، كما شاهدنا، ينسبونه مباشرة إليه. ولقد لقن هو نفسه زوجته صفية أن تقول لضَرّاتها اللاتى كن يضايقنها بذكر أنسابهن إنها ابنة موسى، وإن عمها هارون، مع أن هذا غير صحيح فى الواقع بل على المجاز. كما ذكر القرآن أن اليهود، عندما رَأَوْا مريمَ تحمل عيسى على صدرها دون أن تكون قد تزوجت، قرَّعوها قائلين: "يا أخت هارون، ما كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ، وما كانت أمُّكِ بغيا". وقد شغب وما زال يشغب أهل الكتاب متسائلين: كيف ينسب القرآن مريم أم عيسى إلى هارون باعتبار الأخوة مع ما يفصل بينهما من القرون المتطاولة؟ رغم أن القرآن ليس هو الذى نسبها إلى هارون، بل هو مجرد راوٍ لما وقع ليس إلا. كما أن الكتاب المقدس مفعم بمثل ذلك النسب أبوةً وبنوةً وأخوةً على ما توضح موادّ "أب" و"أخ" و"أخت" فى "دائرة المعارف الكتابية". وما أكثر ما سمعنا هذا الشاعر الشعوبى أو ذاك وهو يتنفج على العرب بأنه ابن قيصر أو ابن كسرى (أو ساسان) رغم أنه لا يربطه شيء لا بهذا ولا بذاك، بل كثيرا ما يكون صعلوكا حقيرا لا قيمة له فى عالم الأنساب. وهذا من الشهرة بحيث لا أحتاج إلى سوق الشواهد عليه.

وما دام الشيء بالشيء يذكر فإن المسيح يسمى فى الأناجيل: "ابن داود" مع أن داود ليس جده بيولوجيا كما وضحنا آنفا على عكس عبد المطلب، الذى ينحدر محمد من صلبه فعلا، علاوة على أنه هو الذى رباه منذ ولادته إلى أن بلغ ثمانى سنوات. وفى الكتاب المقدس كثيرا ما ينسب الشخص إلى من ليس بأبيه أو أخيه البيولوجى لكثير من الاعتبارات كما هو معروف. ومن يرد التحقق من هذا فليرجع إلى مواد "أب" و"أخ" و"أخت" فى "دائرة المعارف الكتابية" كما قلت قبل قليل. وعلى هذا فلا معنى للقول بأن محمدا، حين انتسب إلى جده عبد المطلب، قد تحدى قوانين البيولوجيا كما يقول الكاتب. وكيف يتحدى قوانين البيولوجيا، وهو فعلا من ظهر عبد المطلب عبر عبد الله بعكس الأُبُوّات والأُخُوّات الكثيرة فى الكتاب المقدس التى لا تسندها أية قوانين بيولوجية بحال؟ وكانت قريش، تعبيرا عن غيظها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسميه بـ"ابن أبى كبشة" تشبيها له برجل لا نسب بينه وبينه خالفها فى عبادة الشِّعْرَى مثلما خالف محمد قومه فى عبادة الأوثان. كما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يسمى عبد الله بن مسعود: "ابن أم عبد". أتراه كان يجهل أن أباه هو مسعود؟ وكانت خديجة تنادى رسول الله زوجها أحيانا بـ"يا ابن عم" مع أنها كانت من عشيرة غير عشيرته.

ومع هذا فالغالب فى المواقف المختلفة أن يذْكَر أبو الرسول. فعن عفيف الكندى: "كُنْتُ امرًا تاجرًا فقدِمْتُ مكَّةَ فأتَيتُ العبَّاسَ بنَ عبدِ المطَّلبِ لأُبايعَ منه بعضَ التِّجارةَ، وكان امرًا تاجرًا. قال: فواللهِ إنِّى لعندَه بمنًى إذ خرَج رجلٌ من خباءٍ قريبٍ منه إذ نظَر إلى السَّماءِ، فلمَّا رآها مالَت قام يصلِّى... قال: فقُلْتُ للعبَّاسِ: يا عبَّاسُ، ما هذا؟ قال: هذا محمَّدٌ ابنُ أخى، ابنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلب...". وعن ابن عباس "أنَّ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لخديجةَ: إنى أرَى ضوءًا وأسمعُ صوتًا، وأنا أخشَى أن يكونَ بى جِنٌّ. قالت: لم يكنِ اللهُ ليفعلَ ذلك بك يا ابنَ عبدِ اللهِ...". وفى صلح الحديبية رفض المشركون أن يكتبوا فى الاتفاقية "محمد رسول الله" وكتبوا "محمد بن عبد الله" وأمضى صلى الله عليه وسلم الأمر كما أرادوا. و"جاء العَبَّاسُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وكأنَّهُ سمعَ شيئًا، فقامَ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على المِنْبَرِ فقال: مَنْ أنا؟ فَقَالوا: أنتَ رسولُ اللهِ

عليكَ السلامُ. قال: أنا محمدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ...". حتى الحديث الذى ساقه المستشرق ليدلل به على أن رسول الله كان يهمل تماما ذكر أبيه، وهو الحديث الذى يقول فيه رسول الله يوم انهزم صحابته فى بداية الحرب مع ثقيفٍ، فناداهم كى يفيئوا إليه قائلا: "أنا النبى لا كذب. أنا ابن عبد المطلب" هذا الحديث له رواية أخرى تقول إنه نادى صحابته يومئذ بقوله: "أين أيها النَّاسُ؟ أنا رسولُ اللهِ، وأنا محمَّدُ بنُ عبدِ الله". و"خطبَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم فقالَ: أَنا محمَّدُ بن عبد اللَّهِ بنِ عبدِ المطَّلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ مَنافِ بنِ قصى بنِ كلابِ بنِ مرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لؤى بنِ غالبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضرِ بنِ كنانةَ بنِ خُزَيمةَ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضرَ بنِ نزارٍ. وما افترقَ النَّاسُ فِرقتينِ إلَّا جعلَنى اللَّهُ فى خيرِهما". وعن أنس بن مالك "أنَّ رجلًا قال: يا محمَّدُ، يا سيدَنا وابنَ سيدِنا، وخيرَنا وابنَ خيرِنا. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عليكم بقولِكم، ولا يستهوينَّكم الشَّيطانُ. أنا محمَّدُ بنُ عبدِ الله، عبدُ اللهِ ورسولُه. واللهِ ما أُحِبُّ أن ترفعونى فوق منزلتى الَّتى أنزلنى اللهُ عزَّ وجلَّ".

ولو كان النبى عليه الصلاة والسلام يضع اعتبارات الهيبة والكاريزما فى حسبانه فلماذا كان متواضعا غاية التواضع حتى ليقول عن نفسه لرجل ارتعد فى حضرته مهابة وخشية: هَوِّن عليك يا أخى، فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة؟ ولماذا قال فى موقف آخر: إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد؟ ولماذا لم يتخذ الجلاوزة والحراس يمنعون الناس من الاقتراب منه حتى تظل صورته بعيدة عن الخدش؟ ولماذا صبر على البدوى الجلف الذى شده من طوق جلبابه وقال له فى غلظة: "أعطنى من مال الله لا من مالك ولا مال أبيك"، فلم يعاقبه أو يعنفه؟ ولماذا كان يعلن أمام الناس جميعا أنه كان يرعى الغنم مقابل أجرة؟ ولماذا نجد فى القرآن عتابا له بما يدل على أن السماء لا توافقه على هذا الرأى أو ذاك الموقف أو ذلك القرار؟ ولماذا قال القرآن له: "قل: ما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وما أدرى ما يفْعَل بى ولا بكم"؟ ولماذا يقول له القرآن أيضا: "ليس لك من الأمر شىءٌ أو يعذِّبَهم أو يتوبَ عليهم"؟ ولماذا قال عن نفسه: إنما أنا بشر، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر، فأقضى له بغير حقه؟ ولماذا يوم سها وصلى إحدى

الصلوات الرباعية ركعتين اثنتين فقط أقر، حين نُبِّه إلى هذا، أنه سها، ولم يقل مثلا إن الصلاة قد خففت هذه المرة إلى ركعتين بدلا من أربع؟ ولماذا كان ينزل إلى قبور الفقراء يدفنهم بيده؟ ولماذا كان إذا سافر مع رفقة له اشتغل كما يشتغل أى واحد فى الرحلة رغم تسابق الجميع إلى إعفائه من العمل وحرصهم على راحته؟ ولماذا كان يعمل فى حفر الخندق ولم يتذرع بأنه القائد وجلس فى الظل مرتاحا مكتفيا بمراقبة العاملين وتوجيههم من بعيد؟ ولماذا بكى أمام قبر امه وعند موت صغيره إبراهيم بكاء شديدا، ولم يتمالك نفسه أو على أقل تقدير: لم ينعزل عن الناس فيبكى ملء جفونه بعيدا عنهم حتى لا يطلعوا على ضعفه فتظل صورته فى نظرهم ثابتة لا تهتز؟ ولماذا، حين رأى أخته البدوية من الرضاع بعد عشرات السنين، فرش لها ثوبه كى تجلس معززة مكرمة، ولم يتشامخ بأنفه ويتجاهلها حتى لا يبدو سهل المنال رخيصا كما يفهم الناس الرخص وسهولة المنال؟ أهذا سلوك من يحرصون على المهابة والكاريزما؟ أم هل هو سلوك التلقائيين البسطاء النفس والضمير؟

وهكذا يرى القارئ كيف أن المستشرق يأتى إلى أى شىء يخدم قضيته رغم قلة قيمته فيلقى عليه الضوء ساطعا وهاجا، ويهمل فى ذات الوقت النصوص الكثيرة التى تكشف خزيه وتفاهة رأيه. ثم يمضى المدلس قائلا: "نصل الآن إلى مرتبة الجدّ، إلى كبير الأعيان ذائع الصّيت هذا. الوثائق غزيرة بشأنه، وخاصّة حول شبابه؛ ولكنْ كلّها تهدف إلى غرض واحد وحيد هو تفسير، بشكل أو بآخر، لماذا كان يحمل هذا الاسم. وهو بكلّ وضوح، من حيث تركيبه بإضافة "عَبْد"، اسم إله، ولكن قبل الإسلام، وليس هو اسم "عبد الله" الذى يمكن أن يبَرَّر بأنّه اسم مسيحى... والقصص التى تُرْوَى من أجل إدخاله على خشبة المسرح الرئيسة، أى مكَّة، هى أُحْدوثات (حكايات صغيرة) تدور حول تركيبة اسمه المثيرة للإرباك والمتمثِّلة فى "عَبْد" لشخص يدْعى "المُطَّلِب". وللخروج من هذا المأزق عمد نوابغ الكتّاب المسلمين إلى إقحام عمِّه فى المسألة أخى هاشم، الذى كان يحمل نفس هذا الاسم. إجمالا: الرّوايات حول هذا الموضوع تتشابه ولا تفترِق إلاّ فى جزئيات طفيفة. فهى تحكى قصّة جلب الصَّبى شَيبة من يثرِب إلى مكّة... ويصوِّر المأثورُ الإسلامى الغلامَ عائدًا على ظهر بَعِير عَمِّه وهو راكب خَلْفه، وذلك لسبب سخيف لا يقبله العقل.

فعندما رَأَتْهُ جُمُوع مكَّة قادمًا وهو خلف عمّه ظنّت أنّه عبد له ...: "وَقدِم ثابت بن المنذر بن حِزام، وهو أبو حسّان ابن ثابت الشّاعر، مكّةَ مُعْتَمِرًا فلقى المُطَّلب، وكان له خليلا، فقال له: لو رأَيتَ ابنَ أخيكَ شَيبة فينا لَرَأيتَ جَمالا وهَيبة وشَرَفًا. لقد رأيتُه وهو يناضِل فتْيانًا من أخوالِه فيدْخِل مِرْمَاتَيه جميعًا فى مثل راحَتى ويقول كلما خَسَقَ (أصاب المرمى بسهمه): أنا ابن عَمْرِو العُلَى! فقال المُطَّلب: لا أُمْسى حتّى أَخرُج إليه فأَقْدَم به... فخرج المُطَّلِب فوَرَد المدينة فنَزَل فى ناحية وجَعل يسْأَل عَنْه حتّى وجَدَه يرمى فى فِتْيانٍ من أَخْوالِه. فلمّا رَآهُ عَرَف شيبَةُ أَبَاهُ فيه، ففاضت عيناه، وضمَّه إليه وكَساهُ حُلَّةً يمانية وأنْشَد يقول:

عَرَفْتُ شَيبَةَ والنَّجّارُ قدْ حَفَلَتْ ... أَبْناؤُها حولَه بالنَّبْلِ تَنْتَضِلُ

عَرَفْتُ أَجْلادَه مِنّا وشِيمَتَهُ ... ففَاضَ مِنِّى عليه وابِلٌ سَبَلُ

ودخَلَ به المُطَّلب ظُهْرًا، فقالت قريش: هذا عبد المُطَّلِب! فقال: فلم يزل عبد المُطَّلب مُقيمًا بمكّة حتّى أَدْرَكَ".

ثم يعلق الكاتب على ذلك قائلا: "من الصّعب جدًّا، سواء فى ذلك العصر أو فى يومنا هذا، أن نَعْتَقِد فى صحَّة خرافةٍ كهذه والتى تتناقض أشدّ التناقض مع قواعد الشّرف لدى البَدْو... إنّ روح الفكاهة العربية ما قبل الإسلام كانت معروفة جدًّا فى الشّعر: فهى تأخذ شكل الهِجَاء والتّهجّم العنيف ضدّ الآخرين، وهى قد تكون سُخرية لاذِعة، وكذلك قد تُعبّر عن اليأس، ولكّنها لم تكن أبدًا تسمح لنفسها بالقَدْح فى الظّروف الاجتماعية للفَرْد والحَطّ منها. فعبد المطَّلب لم يكن ليعيش طيلة حياته وهو يحمل اسمًا مُخْزيا يعبِّر عن العبودية، وهذا بسبب الخطَإِ الذى ارتكبه بَعْضٌ من عامّة قريش. وهى أيضا تتهكّم على مكانة جدّ محمّد وتتحدّث عنه بكلّ استخفاف فى حين أنّ كلّ التقليد الإسلامى، عندما يتناول مسألة محمّد ومحيطه وأقاربه، يظْهِر دائما احتراما مطْلَقًا لم يحِدْ عنه أبدًا... فى عالم قُدَماء العرب أنْ يكون المرء عبدًا لإنسان فذلك كان يعَدُّ عيبًا من أبشع العيوب. أمّا أن يكون عَبْدًا وخادِمًا لإله من الآلهة فذلك كان فخْرًا لا يضَاهيه فخر. غير أنّ الكلمة كانت مع ذلك هى

نفسها، "عبيد" أو "عبد". ولكى يتجنَّب الأدب الإسلامى تعريض سُمْعَة محمّد للخَطَر لجأ إلى اللّعب على الغموض الذى يكتنف هذه اللّفظة، ولم يتردّد فى تحقير شَيبَةَ بإعطائه مكانةً وضيعَة".

ومستشرقنا يرفض تلك الرواية لغاية فى نفس يعقوب، ألا وهى أن عبد المطلب هو عبد إله وثنى. يريد أن يقول إن جد النبى كان يعبد هو وأهله الأوثان: "كلّ الروايات تعطى الانطباع بأنّ المُطَّلب لا معنى لوجوده سوى إضافة حَجَر إلى البناء الرئيسى، ألا وهو سلسلة نسب نَبى المسلمين وإثبات وجوده، وهو الذى يحظى بكلّ أشكال الطّاعة والخشوع. كلّ الأشخاص الآخرين مُسَخَّرون لهذه القضية، ولكنّنا هنا أمام حالة جلية للعيان لأنّ المُطَّلب موجود فقط لتفسير اسْمِ شخص آخَر. ففى كلّ مصنّفات الحديث، بالرّغم من أنّها مُفعَمة بالأسماء، لم أعثُر إلاّ على "مُطَّلب" واحد فى سلسلة الأسانيد: "حدَّثَنى يحيى عن مالك عن ابن شهاب عن السّائب بن يزيد عن المُطَّلِب بن أبى وَدَاعَةَ السَّهْمِى...". فى أكبر خَزين للنّقوش فى شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية لا يوجد بين الأسماء العربية التى عُثِر عليها أى "مُطَّلِبٍ" واحد. فلو كان الأمر مُقتَصِرًا على الأدب فقط فإنّه يحقّ لنا الاعتقاد بأنّ المأثور الإسلامى سارَع بمحو آثار كلّ ذِكْر لاسم "المُطَّلب" حفاظًا على وحدة وتماسك نسب نَبيه. ولكنّ المصدر النقشى هو أقلّ خضوعًا للرّقابة من غيره من المصادر. فعلى امتداد ملايين الكيلومترات المربّعة وعلى امتداد قرون كان من المفروض أن يظهر هذا الاسم فى مكان مّا.

باختصار شديد: هذه الشّخصية هى ظِلٌّ يخْفِى وراءه حقيقة، شائبة، وصْمَة، أمرا مُشِينا. وقد حاولت الأخبار والرّوايات تغطية ذلك حتّى لا تنتقل عدواها إلى الشّخصية النّقية، شخصية محمّد بذاتها. فكلّ مُطَّلِعٍ على سيرة النّبى، وخاصّة فى فترة صِبَاه، ما قبل الإسلام بطبيعة الحال، يدْرِك مدى العناية الفائقة التى وقع اتّخاذُها لكى يبْعَد عنه أى احتكاك بشعائر آلِهَة النّظام القديم، وذلك باستخدام أساليب قد تبدو فى بعض الأحيان مضحِكة. إنّ معرفة هل كان محمّد، قبل مبعثه ونزول الوحى عليه، مُشْرِكًا أم لا تظلّ إلى يوم النّاس هذا مسألة حارِقة فى العالم الإسلامى قد تصل إلى درجة الهوَس. إنّنا لم نزل بعد فى صُلْب المشكلة مع مسألة "المُطَّلِب". فقد كان من الضرورى على

الإطلاق، حتى ولو تطلَّب الأمر استخدام حكايات شاذّة، تحوير معنى "عبد المُطَّلب"، جاعلين منه عبْدًا لإنسان عِوَض خادِمٍ لِصَنَم. فقد كان من الواجب تجنيب محمّد الوقوف أمام الملإ ويعلِن أنّه ابنُ عبدِ إلَهٍ قديم (صنم من أصنام الجاهلية)... هذا بالإضافة إلى انّ الوضعية تتعكَّر أكثر إذا ما ثبتت الرّوايات بأنّ عبد المُطَّلب كان عابدًا حقيقيا للأوثان".

ورغم أنه ليس هناك أى إله عند العرب (ولا عند غير العرب) اسمه "المطلب" فإن مستشرقنا لا يكف عن هلوساته وتهوساته فيقول: "يجب علينا الآن أن نجْرُأَ على إعلان ذلك بصوت أعلى: المُطَّلِب لم يكن إِنْسانًا، ولكنّه كان إلَهًا. إلهٌ لا نعرفه إلاّ بفضل رجل يكَنَّى به، كما يقول هو ذلك بنفسِه: "عَبْدِى"، "عبد لى"، "عبد المُطَّلِب". ولكنّ هذا ليس استِثْناءً. هناك العديد من الآلهة العربية القديمة لم يستطع العلم الحديث التّعرُّفَ عليها إلاّ من خلال عِلْم أسماء الأَعْلام، بواسطة الأسماء التى تحمل آلهة. ففجأة، ومن خلال اكتشاف اسم واحد منقوش على الحجارة، إلاّ ويبْرُزُ من العدم إلَهٌ عَربى. الديانة العربية القديمة هى ديانة وثنية تحتوى على العديد من الآلهة العامّة أو المحلّية التى يمكن أن تنحصِر فى بيت أو فى إطار عائلة واحدة. هناك "عبد المُطَّلِب"، الذى وُهِب عند ولادته إلى الآلهة، ويجد نفسه بحكم كُنْيته مرتَبِطا إلى الأبد بهذه القوّة الخارقة للطّبيعة. ليس بحوزتنا أى أثر لوجود مثل هذا الإله فى وسط الجزيرة العربية. ولكنّ النّقوش فى هذه المنطقة نادرة جدًّا، والنّصوص الإسلامية دأبت على محو آثارها إن عثرت عليها. بالمقابل نجد فى جنوب الجزيرة، الذى يحدِّده المأثور الإسلامى، كما سبق ورأينا، كوِجْهَة لرحلات المُطَّلب وكمكان لوفاته، آلهة متواجدة فيه بكثرة تحمل اسم "طَلَب": وظيفة هذه الآلهة كانت حماية أماكن خاصّة وقبائل مُعينة، وخاصّة حماية قطعان الأنعام. و"طَلَب" هذا مُمَثَّل فى شكل حيوان هو العَنْز البَرِّى والذى نجده منحوتًا على جدران المعابد. كما يمكن أن يشَبَّه بالقَمَر، وهو موجود فى كلّ مكان... وسط الجزيرة العربية، حول مكّة، عالَمَ الآلهة غير معروف كما هو الحال مع آلهة جنوب الجزيرة. ففى هذه المنطقة الأقلّ تَطوُّرًا قدّمت لنا النُّقوش المعروفة قليلا جدّا من الوثائق. والأدهى من ذلك أنّ الأدب الإسلامى قام إمّا بفسخ أو مسْخِ عالم الآلهة الذى سبق مجىء الإسلام. ومعرفتنا به تنحصِر بصورة

أساسية فى كتابٍ يتيمٍ هو كتاب "لأصنام" لابن الكَلْبى الذى لا يذكر أى إله يحمل اسم "المُطَّلب"...".

فكما نرى يعمل المستشرق بكل جهده المسعور على أن يعبث باسم جد النبى، وينكر الرواية التى يوردها كتاب السيرة تفسيرا لذلك الاسم رغم أنه تفسير معقول جدا. وحتى لو رفضه أحدنا فإن رفضه له لا يستلزم أبدا كل هذا الخلط والتلبيس والاختراع والكذب والتزييف. من حقك أن ترفض الرواية التى تشرح سبب تسمية عبد المطلب بهذا الاسم، لكن ليس من حقك ممارسة كل هذا الاعتساف والتعنت والتنطع لإثبات شىء لا يمكن إثباته. أولا: ما الدليل على أنه لا يمكن أن يقول العرب الجاهليون فى تسمية شخص من الأشخاص: "عبد فلان"؟ ألم يأت مستشرقَنا اللوذعىَّ خبرُ الأبيات التالية؟ يقول الأسود بن يعفر النهشلى:

خالى ابنُ فارِس ذى الوُقوف مُطلقٌ ... وأبى أبو أَسماءَ عبدُ الأسودِ

وتقول جيداء بنت زاهر الزُّبَيدية:

كانَ لى فارسٌ سقاهُ المنايا ... عَبْدُ عبسٍ بجَوْرِهِ والتعدّى

ويقول الحصين بن حمام الفزارى:

أَقيمى إِلَيكِ عَبْدَ عَمرٍو وَشايعى ... عَلى كُلِّ ماءٍ وَسْطَ ذُبْيانَ خَيما

***

جَزَى اللهُ عَنّا عَبْدَ عَمرٍو مَلامَةً ... وَعَدْوانَ سَهْمٍ ما أَدَقَّ وَأَلأَما

وتقول الخرنق بنت بدر:

أَرى عَبْدَ عَمرٍو قَد أَساطَ ابنَ عَمِّهِ ... وَأَنْضَجَهُ فى غَلْى قدرٍ، وما يدرى

***

أَلا ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ عَبْدَ عَمرٍو ... أَبالخِزْيَاتِ آخَيتَ المُلوكا؟

ويقول زهير بن جَنَاب الكلبى:

فَجَّعتُ عَبْدَ القَيسِ أَمْسِ بِجَدِّها ... وَسَقَيْتُ هَدّاجًا بِكَأْسِ الأَقْزَلِ

ويقول طرفة بن العبد:

يـا عَجَبًـا مـن عَبْـدِ عَمْـرٍو وَبَغْيِـهِ لَقَـد رامَ ظُلْمـى عَبْـدُ عَمْـرٍو فَـأَنعَما

وهناك أيضا "عبد الدار" و"عبيد العصا" مثلا. وفى مواجهة هذا يقول النبى عليه السلام: "لا يقُلْ أحدُكم: أَطْعِمْ ربَّك، وَضِّئْ ربّك، واسْقِ ربّك. ولا يقُلْ أحدٌ: ربى. ولْيقُلْ: سَيدى، ومولاى. ولا يقلْ أحدُكم: عبدى، وأَمَتى. ولْيقُل: فتاى، وفتاتى، وغلامى".

وفى عالم الألقاب كل غريب ومسىء، ولا يتبرأ أصحاب تلك الألقاب منها مع ذلك. وقد كان عند العرب الجاهليين من الأسماء جحش ويعفور والشَّنْفَرَى وقُرَاد وكلب وكليب وجمل وثور وحنش وحية وفِهْر وحَجَر وضَبّ ومعاوية والمشؤوم وتأبط شرا والكذاب والسكران والأبرش والأبرص والعبد ووذو الإصبع وخِرْنِق وأم ندبة مثلا. وبعد الإسلام رأينا الأبجر والأخطل وجريرا والفرزدق والجاحظ وجحظة وديك الجن وشيطان الطاق والموسوس والمجنون ومسروق وابن خروف والأخفش والأعمش والأعمى وابن عُنَين وكُرَاع النمل وقبيحة، وكلهم شعراء وعلماء وأدباء ومفكرون وقادة كبار، وليسوا ناسا مغمورين لا قيمة لهم. وفى عصرنا هذا لدينا "خدّام" لقب أحد السياسيين الكبار فى سورية، و"البغل" صاحب أشهر مطاعم للفول والطعمية فى محافظة الغربية بمصر، ويعلق لافتة طويلة عريضة باسمه على محلاته المختلفة تفاخرا بلقبه. ومن الألقاب المشهورة فى مصر أيضا "الشحات" و"الحشاش" و"أبو حشيش" و"زعلوك" و"الأقرع" و"ملوخية" و"عدس" و"طبل" و"أبو الريش" و"أبو الرُّوس" و"بصل" و"الحيوان" و"غراب" و"قطة" و"خيشة" و"سمك" و"البلطى" و"فسيخ" و"خنفس" و"الناقة" و"الديك" و"الضبع" و"العبد" و"الجبان" و"العاصى" و"الخامورجى و"الحنطور". والناس تتعايش بطريقة أو بأخرى مع اللقب المسىء. وقد يضيقون به وينقمعون فى البداية، لكن سرعان ما تتغير الأحوال كما حدث مع بنى "أنف الناقة"، إذ كانوا يشعرون بالعار من ذلك اللقب إلى أن قال فيهم شاعرٌ مادحًا:

قـومٌ هـم الأنـف، والأذنـاب غيرهـمو ومـن يـسوِّى بـأنف الناقـة الـذَّنَبا؟

فانقلبت الآية منذ ذلك الحين، وصاروا يتفاخرون به. ثم إن لقب "عبد المطلب" لا يعبِّد صاحبه لرجل غريب، فضلا عن أن الأمر لايعدو أن يكون سوء فهم لا عبودية حقيقية، فهو لا يسوؤه على أى حال.

ورغم ذلك كله ورغم أنه لا يوجد وثن أو إله عند العرب (ولا غير العرب) اسمه "المطَّلِب" يصر مستشرقنا فى عنادٍ غبىٍّ على أنه لا بد أن يكون هناك وثن بهذا الاسم! أين؟ وكيف؟ وما الدليل؟ هو كذلك، والسلام! ثم يتمطى وينطلق إلى اليمن قائلا: هنا يوجد وثن اسمه "طلب"، و"طلب" و"المطَّلب" قريب من قريب: "ولكى نعود إلى إلَهِنَا الجديد فإنّ المُطَّلب يمكن أن يفْهَم بمعنى "الشخص المطلوب"، "الشخص الذى ننتظر منه شيئا ما"، وذلك بكلّ ورع وخشوع. وهذا الاسم يتماشى بصورة جيدة مع إطار نظام دينى تَعَاقُدى يكون فيه من الطّبيعى جدًّا أن يطْلُب المرْءُ من قوّة إلهية أن تُغدِق عليه نِعَمًا كثيرة. وللتَّذكير كانت قريش، كما رأينا، تُطْلِق على عبد المُطَّلِب لقب "الفَيض" لسماحته وسخائِه".

وهو كلام يعكس عنادا عاريا عن المنطق وبعدا شديدا عن المنهجية العلمية. ولا يقف الأمر عند ذلك الحد بل نراه يتهم المسلمين بأنهم قد حذفوا أسماء أصنام وأوثان كثيرة. يريد أن يقول: لا بد أنه كان عندهم إله اسمه "المطلب" لكنهم حذفوا اسمه. ولكن لماذا، وهم لم ينكروا أن قومهم كانوا قوما وثنيين، فضلا عن أن ذلك مسجل فى القرآن المجيد والحديث الشريف والسيرة النبوية وكتب التاريخ بتفصيل كبير؟ ثم مرة أخرى لماذا، وهم لم يحذفوا مثلا منافًا ولا العُزَّى، الوثنين اللذين عُبِّدَ لهما جده عبد مناف وعمه عبد العزى أبو لهب؟ بل إن هناك أحاديث تتكلم عن مصير أمه صلى الله عليه وسلم وأنها من أهل النار. ولو كان المسلمون يفتعلون الأمور كى تظل صورته نقية بعيدة عن الوثنية وكل ما يذكّر بالوثنية لما أَتَوْا على ذلك الموضوع أو لقالوا كذبا وزورا: إنها من أهل الجنة. وذلك رغم أنى لا أفهم كيف أنها من أهل النار ما دامت تنتمى إلى أهل الفترة، أى الزمن الذى يسبق الإسلام حين لم يكن ثم نبىٌّ يبين للعرب أنهم على ضلال؟ لكنى مع هذا أتابع المستشرق

على طريقة تفكيره وأنظر إلى الأمور من وجهة نظره المختلة حتى أُفْهِمَه أن كل الأبواب مسدودة فى وجهه بما فيها الأبواب التى يخترعها هو اختراعا ليثبت صدق سخافاته وتفاهاته!

ومع هذا فلنستمر مع علامتنا الذى ليس له نظير. فهو يقول إن "المطلب" يمكن أن يفْهَم بمعنى الشخص المطلوب"، وكأنه مجرم هارب من العدالة ومطلوبٌ القبضُ عليه حيا أو ميتا، أو ربما كان شابا جاء عليه الدور للخدمة فى الجيش، فهو مطلوب للتجنيد. وهذا السخف يخر عليه للأسف ناس من بنى جلدتنا يطنطنون بما فيه من عبقرية فريدة، ويترجمونه ويذيعونه فى الناس حتى لا يحرموا من بركته! إى والله! إن هذا الجاهل لا يستطيع أن يفرق بين "المطلوب" و"المطلوب منه". فنحن نطلب من الإله أن يحقق لنا آمالنا، لكنه هو ذاته ليس مطلوبا. ثم إنه يظن أن "مُطَّلِب" اسم مفعول فى حين أنه اسم فاعل، ولهذا انكسرت اللام فيه. وهو مأخوذ من الفعل: "اطَّلَبَ" بمعنى "حاول وجود الشىء وأخذه". ومع هذا فالمستشرق اللوذعى يقول فى خاتمة بحثه التافه: "باختصار: إنّ نوابغ المسلمين، وحتى يتجنّبوا وجود اسم يحمل إِلَهًا قد يتسبّب فى تلويث سلسلة نَسَبِ النّبى الزَّكِية، خلقوا شخصية، ولكنّها شخصية كانت تمتلك كلّ مواصفات آلِهة قديمة. إلهٌ فى نسب محمّد، باسمه مباشرة أو بكنية تحمل إلهًا. كان هذا من شأنه أن يحدِث تشويشًا جسيمًا. ولذلك كان من الواجب تدارك الأمر. لقد انْطَلَت هذه الحيلة على عامّة المسلمين طيلة قرون لأنّها كانت أيضا تقوم على التخويف والتّرهيب. ولكن قد آن الأوان اليوم للخوض فى هذه المسائل بحرّية دون تحفّظ أو وجل".

على أن جهله هذا المغلظ لا ينتهى هنا، إذ يصر على أنه قد بحث عن اسم "المطلب" بين رواة الحديث فلم يجد سوى واحد فقط. وهذا، عنده، دليل على أن اسم "المطلب" لم يكن معروفا لدى العرب، وأن المسلمين حين قالوا إنه اسم لعم والد الرسول إنما كانوا يتقولون ويدلسون للتغطية على أن جد رسول الله كان عبدا لوثن من الأوثان. وهذا "المطلب" الواحد الذى وجده بين رواة الحديث هو المُطَّلِب بن أبى وَدَاعَةَ السَّهْمِى. وهذا نص دعواه: "فكلّ الروايات تعطى الانطباع بأنّ المُطَّلب لا معنى لوجوده سوى إضافة حَجَر إلى البناء الرئيسى، ألا وهو سلسلة نسب نَبى المسلمين

وإثبات وجوده، وهو الذى يحظى بكلّ أشكال الطّاعة والخشوع. كلّ الأشخاص الآخرين مُسَخَّرون لهذه القضية، ولكنّنا هنا أمام حالة جلية للعيان لأنّ المُطَّلب موجود فقط لتفسير اسْمِ شخص آخَر. ففى كلّ مصنّفات الحديث، بالرّغم من أنّها مُفْعَمة بالأسماء، لم أعثُر إلاّ على "مُطَّلِب" واحد فى سلسلة الأسانيد: حدَّثَنى يحيى عن مالك عن ابن شهاب عن السّائب بن يزيد عن المُطَّلِب بن أبى وَدَاعَةَ السَّهْمِى...". فما رأيه فى أنه يوجد بين رواة الحديث عدد من الأشخاص كل منهم اسمه "المطلب"، وليس واحدا فقط؟ وها هم أولاء: "المطلِّب السلمى: له ذكر فى غَزْوة بئر معونة، فأخرجه الطبرانى، عن عروة قال: ... ثم بعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم المنذر بن عمرو الساعدى، وبعث معه المطلّب السّلمى ليدلّهم على الطريق..."، و"المطلب بن أبى البخترى بن الحارث القرشى الأسدى: قتل أبوه كافرًا يوم بَدْرٍ، وعاش هو بعد ذلك، وهو أخو الأسود، ذكره الزبير بن بكّار، وقال: كان عظيم الجثة، وكذلك أخوه"، و"المطلّب بن أبى وداعة. واسم أبى وداعة الحارث بن ضُبيرة بن سعيد القرشى السّهمى. أمه أَرْوىَ بنت الحارث بن عبد المطلب بن هاشم..."، "المطّلب بن أزْهر بن عبد عوف الزهرى: أمّه البُكَيرة بنت عبد يزيد بن هاشم بن المطّلب، وهو أخو عبد الرّحمن وطليب ابنى أزهر. وكان المطلّب وطليب من مهاجِرَة الحبشة. وقد أسلم المطلب بمكّة قديمًا، وهاجر إلى أرض الحبشة فى المرّة الثانية، ومعه امرأته رَمْلَةُ بنت أبى عوف بن ضُبَيْرَة. وكان للمطّلب من الولد عبد الله..."، و"المطّلب بن حَنْطَب بن الحارث القرشى المخزومى: من ولد المطّلب بن حنطب هذا الحكم بن المطّلب بن عبد الله، وكان أكرم أهل زمانه وأسخاهم، ثم زهد فى آخر عمره، ومات بمنبج..."، و"المطلب بن حَنْطب بن الحارث: كنيته أبو عبد الله، ذكره ابْنُ إسْحَاقَ فيمن أُسِر يوم بدر، ثم أسلم"، و"عَبْدُ المُطَّلِب بن رَبِيعة بن الحارِث بن عَبْد المُطَّلِب بن هاشم بن عبد مَنَاف القرشى الهاشمى، وقيل: اسمه المُطَّلِب. أمّه أمّ الحكم بنت الزبير بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف..."، و"المطّلب بن زِياد بن أبى زُهير القُرَشى: وهو مولى جابر بن سَمُرة السّوائى، وجابر حليف لبنى زُهْرة من قريش. ولذلك قيل للمطّلب بن زياد: القرشى. يكنى أبا محمد. وكان نازلًا فى ثقيف، وكان ضعيفًا فى الحديث جدًّا، وتوفّى بالكوفة سنة

خمسٍ وثمانين ومائة فى خلافة هارون"، و"المُطَّلِبُ بنُ عَبْدِ الله بن المطلب المخزومى: أمه أم أبان بنت الحكم بن أبى العاص. وَلَدَ المُطَّلِبُ بن عبد الله: الحكمَ، وأمه السيدة بنت جابر بن الأسود، وسليمانَ، وعبدَ العزيز (ولى قضاء المدينة لأبى جعفر المنصور) والفضلَ والحارثَ وأُمَّ عبد الملك، وأمهم أم الفَضْل بنت كُلَيب بن حَزْن، وعليا، وأمُّه فاخِتة بنت عبد الله بن الحارث، وقَرِيبَة، وأمها أم القاسم بنت وهب. وكان المطلب كثير الحديث، وليس يُحْتَجّ بحديثه لأنه يرسل عن النبى صَلَّى الله عليه وسلم كثيرًا، وليس له لُقِى، وعامة أصحابه يدَلِّسُون" (عن موقع "صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم": http://www.sahaba.rasoolona.com/Default.aspx)

وبالمناسبة فكل ما كتبه المستشرق اللوذعى عن الأسماء والألقاب يدل على جهل مبين وطيش عجيب: خذ مثلا قوله إن أبا بكر إنما سمى بهذه الكنية لأنه أبو عائشة العذراء، أى البِكْر. فهل كان اسم الصحابى الجليل: "أبا بِكْر"؟ إن مستشرقنا لا يستطيع التمييز بين "بَكْر" و"بِكْر". كما أن عائشة لم تكن بِكْر أبى بَكْر بل سبقتها أختها أسماء. ثم إن العرب لا يتكنَّوْن فى العادة ببناتهم بل بأبنائهم الذكور. وعلى كل فالبَكْر اسم من أسماء الجمل، ومن هنا سخر منه المرتدون عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمَّوْه: "أبا الفَصِيل" تحقيرا له وتهوينا من شأنه لأن الفصيل أصغر من البَكْر. لكن على من تنشد مزاميرك يا داود؟ كما أنه كان يلقب بذلك قبل إصهار الرسول إليه، فضلا عن أن هذا لو كان هو السبب لقيل: "أبو البِكْر" لا "أبو بِكْر" على أساس أنه ليس أبا أىّ بِكْر بل أبا بِكْرٍ معينة، فمن ثم يستخدم لها ألف ولام العهد. والمصيبة أن الكتاب العرب يسخرون منذ عقود طويلة من تفسير المستشرقين لهذا اللقب بأن المقصود "البِكْر"، ورغم هذا فإن مستشرقنا يصر على أن يقع فى ذات الحفرة غير متعلم الدرس أبدا. صحيح أننا لا نعرف للصِّدِّيق ولدا اسمه بكر، وبعضهم يقول: لا يلزم فى الكنية أن يتكنى الشخص باسم أحد من أبنائه، بل كثيرا ما يكَنَّى الأعزاب أيضا، كما أن الشخص قد يتكنى قبل أن يتزوج. إلا أن قول الحطيئة فى حروب الردة:

أطعنـــا رســـول الله مـــذ كـــان بيننـــا ... فيـــا لعبـــاد الله! مـــا لأبـــى بكـــرِ؟

أيورثهـــــا بكـــــرا إذا مـــــات بعـــــده؟ ... وتلـــك، لَعَمْـــرُ اللهِ، قاصـــمة الظهـــرِ!

وكذلك سخريتهم منه بتسميته: "أبا الفَصِيل" قد يدلان على أنه كان له ولد اسمه بكر. أفيكون له هذا الولد فعلا لكنه مات رضيعا قبل أن يشتهر أو يهتم به أحد؟ وفى البخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة أن أبا بكر رضى الله عنه تزوّج امرأة من كلب يقال لها: "أمّ بكر"، فلما هاجر أبو بكر طلّقها...". المهم أنه لم يكن يكَنَّى بـ"أبى بِكْر" بل بـ"أبى بَكْر".

ولدينا أيضا فتوى المستشرق الخاصة باسم "أبى طالب" عم النبى. يقول، لا فُضَّ فوه، فى تفسير اسم العم الكريم: "أبو طَالِب والدُ مَنْ أراد العِلْم... هو أب لشخص اسمه "طالِب"، الذى هو ابنه "على" كما يقول التقليد الإسلامى. وقد أعطى هذا الجذرُ كلماتٍ متداولَةً إلى اليوم فى لغات عديدة من لغات الشعوب الإسلامية من التّركية إلى الفارسية مرورا بالأفغانية أين أعطى "طَالِبان" المتطرّفين ذائعى الصّيت. وقد فهِم المسلمون هذا الاسم بمعنى "طلب المعرفة الدّينية". فالطالب هو الضالع فى علوم الدّين والشّغوف فى طلبها". يقول المستشرق هذا وكأن الشبان فى عصر النبى كانوا يذهبون إلى المدارس والمعاهد والجامعات. بل هل كان هناك فى ذلك العصر، بعيدا عن حكاية المدارس والجامعات، مصطلح "الطالب" بهذا المعنى؟ طبعا لم يكن. وحتى لو جارينا الكاتب وقلنا إن المقصود بـ"طالب" هو علىّ لقد كان ينبغى أن تكون كنية أبيه: "أبا الطالب" لا "أبا طالب" لأن أباه ليس أبا أى طالب بل أبا طالب بعينه، فيقال: "أبو الطالب". لكن هل كُنِّىَ عم الرسول بـ"علىٍّ" أصلا؟ الجواب هنا أيضا بالنفى. ذلك أن "طالبا" هو أكبر أبناء العم، ولهذا كُنِّىَ به على عادة العرب من تكنية الشخص بأكبر أولاده الذكور. وقد كان أسنّ من على بسنوات غير قليلة. ومن هذا يتبين لنا مقدار الجهل فى كلام المستشرق الذى يتهجم على أمور ليس على مستواها ولا هو مستعد لها. وإن هذا لهو الجهل الثخين!

وعلى أية حال هذه هى شواهد الشعر الجاهلى على كلمة "طالب"، وقد أتت بمعنى "طالب الحق" أو "طالب الحاجة" أو "طالب العطية" أو "طالب الثأر"، لكن ليس بمعنى طالب العلم. يقول الأفوه الأودى:

وَإِنّى لَأُعْطِى الحَقَّ مَنْ لَوْ ظَلَمْتُهُ أَقَرَّ وَأَعْطانى الذى أنا طالِبُ

ويقول المتلمس الضبعى:

بِالبـــابِ يطلُـــبُ كُـــلَّ طالِـــبِ حاجَـــةٍ　　فَـــإِذا خَـــلَا فَـــالمَرْءُ غَيرُ مُـــسَدَّدِ

وتقول خويلة الرئامية:

يـــا خير معتمَـــدٍ وأَمْنَـــعَ ملجـــإٍ　　وأعـــزَّ منـــتقِمٍ وأَدْرَكَ طالـــبِ

ويقول عروة بن الورد:

وَمـــا طالِـــبُ الأَوتـــارِ إِلّا ابـــنُ حُـــرَّةٍ　　طَويـــلُ نجـــادِ الـــسيفِ عـــارى الأَشـــاجِعِ

***

وَمـا طالِـبُ الحاجـاتِ مِـنْ كُـلِّ وِجْهَـةٍ　　مِـنَ النـاسِ إِلّا مَـنْ أَجَـدَّ وَشَـمَّرا

وتقول عصيمة بنت زيد النهدية:

ولـو مارسـوا مـا كنـت فيـه لأحرجـوا　　ورائـى، ولم يطلـب إلى المهـر طالـبُ

ويقول حاجز الأسدى:

قَتَلْنـــا ناجيـــا بِقَتيـــلِ فَهْـــمٍ　　وَخَيرُ الطالِـــبِ الـــتِرَةَ الغَـــشُومُ

ويقول زبان بن سيار الفهمى:

وَسِـــعْنا وَسِـــعْنا فى أُمـــورٍ تَمَهَّلَـــتْ　　عَـــلَى الطالِـــبِ المَوْتـــورِ أَى تَمَهُّـــلِ

ويقول المثقِّب العَبْدِىّ:

كَالأَجْـــدَلِ الطّالِـــبِ رَهْـــوَ القَطَـــا　　مُسْتَنْـــشِطًا فى العُنُـــقِ الأَصْـــيدِ

العفيف الأخضر واتهاماته العجيبة للنبى محمد

فى حوار معه على موقع "الحوار المتمدن" بتاريخ ٢٠١٤م بعنوان "جذور الإرهاب فى الإسلام المدنى" عرض العفيف الأخضر (التونسى) خلاصة أفكاره الموجودة فى كتابه: "من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ"، وحمل على الإسلام والنبى محمد حملة شعواء. وهذه خلاصة لما جاء فى ذلك الحوار التزمت فيها عباراته بنصها: "لم يكْتَب عن محمد شىء مهم من الزاوية النفسية حتى الآن، ومنذ ظهور الجهاد الإرهابى فى مصر فى السبعينات، وخاصة منذ مأساة ١١ سبتمبر، لم تُطْرَح على بساط النقاش العلمى علاقة الإسلام الأول، خاصة المدنى، بالإرهاب. وعلاقة محمد بذلك علاقة وثيقة. فالمجاهدان: أسامة بن لادن ود. أيمن الظواهرى هما فى طليعة الإسلام المدنى، الذى أسس الجهاد: جهاد الدفع وجهاد الطلب، أى الجهاد الداخلى ضد غزو "دار الحرب" لـ"دار الإسلام"، والجهاد الخارجى لإدخال العالم كله فى الإسلام. جهاد الطلب هو اليوم الإرهاب الإسلامى المُعَوْلَم.

ومنذ السنة الثانية للهجرة فإن القرآن والسنة، أى أقوال وأفعال نبى الإسلام، إرهاب غالبًا غير حميد. هذا إذا جاز الإدّعاء بأنّه يوجد إرهاب حميد! تاريخيا يوجد محمدان وإسلامان: كان محمد فى مكة شاعرًا ونبيا، وإسلامه كان خاليا من العنف، أى من الشريعة والجهاد، وهما أعلى درجات العنف ضد الأبرياء أفرادًا وشعوبًا. الجَلْد وقَطْع اليد والرجم ودَقّ عنق المرتد وغزو الشعوب الأخرى لإدخالها فى الإسلام هى جميعًا جرائم ضد الإنسانية. كما كان محمد معترفًا بجميع ديانات عصره من اليهودية إلى المجوسية، ديانة أحد معلميه سلمان الفارسى، مرورًا بالمسيحية والصابئة. أما فى المدينة فقد استحال إلى مشرّع ومحارب: يقطع الطريق على القوافل، ويغزو القبائل لإدخالها بالسيف فى الإسلام، ويقتل الشعراء الذين هَجَوْه، أو يقتل أسرى قريش وأسرى اليهود. ولم يكن فى مكة يفعل شيئًا من ذلك. كان يرد على هجاء مثقفى قريش بالهجاء. وعندما طلب منه وفد الأنصار، عشية هجرته، الهجوم على حى من قريش أجابهم "ما أومرت بذلك"، وكان يوصى أصحابه: "ولا

تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن" (٤٦، العنكبوت). أما فى المدينة، فقد جادلهم هو وأصحابه بالتى هى أخشن.

والواقع أن فَهْم طفولة أى شخص أمر ضرورى لفهم تصرفاته فى باقى أيام حياته. ومحمد، كما حللتُ ذلك فى طفولة محمد، وهو تحليل غير مسبوق، وُلِد مكتئبًا. موت أبيه بعد زواجه ببضعة أشهر أورث آمنة اكتئابًا حداديا طويلًا على الأرجح. نعرف اليوم طبيا أن مشاعر الحامل، السارة أو المحزنة، تنتقل إلى جنينها. عادة الأم، بدافع غريزة إعادة الإنتاج النرجسية، تنتظر أن يكون مولودها البكر بنتًا، كما يتمنى الأب العكس. لذلك يكون البكر غير مرغوب فيه، لا شعوريا على الأقل، من أحد الأبوين. أضف إلى ذلك أن القبائل العربية تتشاءم من المولود الذى يموت أبوه وهو جنين. وهكذا فالطفل محمد كان على الأرجح غير مرغوب فيه من أمه. ربما لهذا السبب سرعان ما تخلصت منه للمرضعات: أولًا لثويبة مولاة أبو لهب، ثم حليمة، وربما لمرضعات أخريات. محمد كان كلَّ شيء إلا طفلًا محبوبًا أو سعيدًا. أمه لم ترغب فيه، وآباؤه المربّون عاملوه على الأرجح بقسوة. وهذا ما أورثه، بين أمراض أخرى، الشعور الساحق بالذنب، الذى تحول إلى عدوانية وانحراف فى المدينة حيث كانت الظروف الموضوعية مساعِدة على ذلك.

شعور محمد الساحق بالذنب يتجلى فى القرآن، فقد كانت قريش تقول: "إن قرآنه أشقاه"، فأملت هذياناته وهلاوسه ردًّا عليهم بـ"طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" (١، طه). ما قيل عن أسباب نزول هذه الآية يلقى أضواء كاشفة عن شعور نبى الإسلام بالخطيئة أمام ضميره الأخلاقى الشديد العقاب على صورة الله- الأب، الذى يعذبه ويشقيه. هذا العقاب الذاتى القاسى هو ما عاقب به نبى الإسلام نفسه: "عن ابن عباس أن النبى (ص)، أول ما نزل عليه الوحى، كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى. فأنزل الله: طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. وعن ابن عباس أيضًا أن خصومه من مشركى قريس قالوا: "لقد شقى هذا الرجل بربّه". وعن ابن عباس أيضا: "كان رسول الله إذا أقام الليل يربط نفسه بحبل كى لا ينام، فأنزل الله: طه". وعن مجاهد: "كان النبى (ص) يربط نفسه، ويضع إحدى رجليه على الأخرى. وعن أنس (خادم آل البيت): "كان النبى (ص) إذا

صلى قام على رجل، ورفع الأخرى". نحن هنا أمام ما يسميه علم النفس العقاب الذاتى: تكفيرًا عن جريمة قتل الأب الوهمية بمحاولة المذنب قتل نفسه رمزيا أو فعليا!

هذا الضمير الأخلاقى المبكر كان فى منتهى القسوة، التى تجلت فى السادية ضد الذات فى مكة: من الاتهام الذاتى إلى محاولات الانتحار المتجدّدة. ستتحول السادية ضد الذات إلى سادية ضد الآخر فى المدينة: ضد الشعراء الذين هجوه، وضد اليهود الذين لم يسلّموا بنبوته، وضد أسرى قريش، الذين جادلوه واستهزأوا منه فى مكة. الاضطرابات الوسواسية القهرية التى تتجسد فى الشعائر بما هى سادية ضد الذات تجسدت عند نبى الإسلام فى شعائر دينية معقدة كثيرة ومرهقة: ٥ صلوات فى اليوم من الفجر إلى شطر من الليل، وقد تستغرق الليل كله إلا قليلا بالنوافل، وفى شعائر الطهارة للصلاة، ولقراءة القرآن أو حتى لمجرد مسه: "لا يمسه إلا المطهرون" (٧٩، الواقعة) وللصلاة: الإغتسال الأكبر بعد الجماع أو الإحتلام أو خروج المنى بأية وسيلة كانت. الوضوء، أى غسل اليدين والرجلين والوجه والمسح على الرأس، بعد التبول والتغوط والضراط والفساء وحتى مجرد مس الذكر سهوًا، وشعيرة الحج الطويلة المكلفة والخطرة، وشعيرة رمضان المؤذية للصحة والاقتصاد...

قال فرويد إن "الشعور المتعاظم بالذنب قد يجعل من الإنسان مجرمًا". و"الجنوح مرتبط ارتباطا وثيقًا بسوء تصرف الأم مع طفلها طوال فترة رضاعته، خاصة إذا كان الوسط العائلى لا يقدم للطفل مساندة ضرورية، فإن هذا الشعور بالذنب يصبح عبئًا لا يطاق" كما يؤكد النفسانى ويسكونط. "العبء الذى لا يطاق" عبر عنه اللاشعور العارى لنبى الإسلام تعبيرًا دقيقًا: "وِزْرَكَ الذى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ" (٢، الشرح). وقد تجلى هذا الجنوح والإجرام خلال الفترة المدنية فى قطع الطريق على تجارة قريش، فى قتال القبائل وتحويل مكاسبها إلى غنائم لنبى الإسلام والمقاتلين فى جيشه، فى اغتيال الشعراء الذين هجوه، فى إجلاء قبائل اليهود ومصادرة ثرواتهم.

وهكذا فهذيان الشعور الساحق بالذنب هو المغذِّى النفسى الأول حتى الآن للتعصب الدينى والمطالبة بالعنف الشرعى والإنغماس فى ممارسة الإرهاب الداخلى والخارجى. وهذا ما ينبغى

أن يعطيه الإخصائيون فى الإرهاب الأهمية التى يستحق. الإرهابيون المنفذون هم صواريخ موجَّهة. المسؤول حقًّا هم فقهاء الإرهاب، الذين يغسلون أدمغتهم "ويوعزون" لهم بالقتل. هؤلاء هم الذين يجب تحييدهم بالقانون، وليس الجنود التعساء الذين غُسِلَت أدمغتهم بثقافة الاستشهاد: قصر و٧٢ حورية فى انتظار قدوم الشهيد فى يوم استشهاده. استشهاديو حماس، الذين غُسِلَتْ أدمغتهم، يعْطَى لكل واحد منهم واقى ذكرى فولاذى يقيه من عواقب انفجار الحزام الناسف لينكح به الحوريات الموعودات!

وقد أخذ محمد هذه الآية من الديانة المجوسية. أخذها من أحد معلميه: الكاهن المجوسى سلمان الفارسى.كما أخذ عنه أساطير الجنة القرآنية. أحد آلهة يوم الحساب فى الديانة الماجوسية يكافئ المجوسى الطيب بعذراء عمرها ١٥ عامًا. ولمواجهة هذا الإرهاب الدينى لا بد من إنشاء مؤسسة عالمية من الاخصائيين فى علوم النفس والسسيولوجيا والسياسة وفى مكافحة الإرهاب لدراسة أسبابه الدينية والنفسية والاجتماعية... إلخ. قتل الإرهابيين المنفذين يحولهم إلى شهداء ويخلد قضيتهم. المطلوب هو تحييد رؤوس الإرهاب المدبرة بتجفيف ينابيعه الدينية والنفسية والاجتماعية. رهان إصلاح الإسلام هو تلطيف الشعور الساحق بالذنب منذ نبى الإسلام إلى أقصى اليمين الإسلامى المعاصر، مما جعل قطاعًا من المسلمين اليوم هاذيا دينيا. ١٥٪ من مسلمى العالم، حسب الإحصائيات الأمريكية، متطرفون يمارسون الإرهاب أو مهيأون لممارسته.

ويمكن تحقيق ذلك أساسًا بتغيير صورة الله فى اللاشعور الجمعى الإسلامى من جلاد شديد العقاب، أى قاسى وخاصى، إلى أب حنون يفيض حبًّا لعياله وأبنائه المسلمين والناس أجمعين. المطالبون بجلد شارب الخمر ٨٠ جلدة وقطع يد السارق ورجم الزانى والزانية ودق عنق المرتد والجهاد فى "الكفار" لإدخالهم فى الإسلام إكراهًا، هؤلاء هم ضحايا الشعور اللاشعورى بالذّنب. بإمكانهم ارتكاب مذبحة كونية إذا امتلكوا أسلحة الدمار الشامل. وهى إمكانية ليست أفلاطونية. ممارسة هذا الإرهاب الشرعى أو المطالبة بممارسته هما اليوم الدافع الدينى القوى للجهاد: الإرهاب المُعَوْلَمَ! لابد من خارطة طريق مرصودة لتغيير علاقة المسلم بالله: من الله- الأب الذى يشوينا فى

"نار حامية" إلى الله– الأب الذى يحمينا من مخاوفنا الطفولية. هذه الخارطة تتحقق بـ١– إصلاح الإسلام بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان من الإبتدائى إلى العالى بما هو المَعْلَم الأساسى فى طريق إسلام العقلانية الدينية المنفتحة على الإيمان كرهان وعلى الشك أيضًا. ٢– التوقف عن تدريس الآيات التى تغسل أدمغة الأجيال الطالعة بالشعور السّاحق بالذنب، وعن استخدامها فى الإعلام وتلاوتها فى الصلاة خاصة الجماعية، وعن تدريس آيات الإيمان بالقدر: خيره وشره، أى الإيمان المازوشى بأن "المكتوب" على الجبين تراه العين، وتاليا الانتهاء من تدريس وترويج آيات التسيير المخربة لثقة المسلمين فى أنفسهم وتقديرهم لها، وبدلًا منها تدريس آيات التخيير، التى تمسك بها المعتزلة، والتى تجعل من المسلم منذ نعومة أظفاره يؤمن بأنه هو، وليس الله، خالق أفعاله وصانع حاضره ومستقبله بالقرار الصائب الذى يصنعه العلم. لقد أخذ محمد من اليهودية آيات التسيير، وأخذ من الماجوسية آيات التخيير، فجاء القرآن شكشوكة تونسية.

٤– تدريس حقوق الإنسان، التى هى ترياق الشعور العُصَابى والذُّهَانى بالذنب. أُلِحُّ على هذه النقطة لأن استبطان حقوق الإنسان يحوّل ما اعتبره الدين ذنوبًا إلى حقوق يمارسها الفرد المسلم ببراءة واعتزاز. لا شىء كتدريس حقوق الإنسان للوصول إلى التحرر الذهنى الضرورى لتأسيس الحرية وميلاد الفرد المستقل عن روح القطيع. ٥– تشجيع وتعميم زواج الحب على أنقاض زواج الإكراه التقليدى السائد. فقد أكدت الدراسات النفسية أن أطفال زواج الحب يكونون محبوبين من آبائهم. هذا الحب الأبوى منذ الطفولة يعطيهم الثقة فى أنفسهم، التى هى ترياق سم الشعور بالذنب. ٦– تدريس الفن والأدب الباسمين المنشطين لغرائز الحياة. ٧– تعميم ثقافة الإقبال على التحليل النفسى، الذى يساعد الفرد على أن يعرف نفسه ويعترف بها. عندئذ لا تعود الآيات المحكمات او المتشابهات هى التى تتحكم فى تقرير مصيرنا، بل يعوضها العلم والتكنولوجيا والقيم الإنسانية والمؤسسات العلمانية والديمقراطية.

لقد كان محمد فى مكة يشعر بالذنب الساحق لمجرد أنه تهاون بابن أم مكتوم، فتُنَزِّل عليه هذياناتُه وهلاوسُه سورةً لتأنيبه وتذنيبه. وينتابه شعور مماثل عندما يفضّل مجالسة المشركين على

مجالسة عبيدهم الذين آمنوا به. لكن نبى الإسلام نفسه يأمر بقتل، فى يوم ونصف، بين ٧٠٠ إلى ٩٠٠ من ذكور بنى قريظة دون أن يشعر بأى ذنب، بل ربما شعر براحة ضمير لأنه تقرّب إلى الله بتعذيبهم وسفك دمائهم! فى مكة كان يدعم شرعيته بما أُنْزِل على أهل الكتاب ويوصى أصحابه: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن" (٤٦، العنكبوت). أما فى المدينة فجادلهم هو نفسه وأصحابه بالتى هى أخشن قولًا وفعلًا.

وهناك هذيان التراجع عن المكاسب والانجازات التى حققها نبى الإسلام فى القرآن المكى، وفى السنتين الأوليتين من الإسلام المدنى، قبل أن يشَرّع للجهاد: وصايا بالعدل والإحسان والرحمة ومكارم الأخلاق، والاعتراف بالديانات المعروفة فى عصره كاليهودية والمسيحية والمجوسية والصابئة بما هن طريق ممكن للخلاص الروحى للمؤمنين بهن، والاعتراف بالحريات الدينية، بل وحتى بحرية الضمير، أى عدم الأخذ بأى دين: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (٦٩، المائدة)، ويعترف لمشركى قريش: "وإنا وإياكم لَعَلَى هُدًى أو فى ضلال مبين" (٢٤، سبأ)، بل واعترف حتى بحرية الضمير، أى عدم الإيمان بأى دين: "فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر" (٢٩، الكهف).

حسب منطق النسخ اللامعقول، الذى وصفتُه بالهذيان، نَسَخَتْ آيةٌ واحدةٌ من الإسلام المدنى: "فإذا انسلخ الأشهر الحُرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" (١٦٥، التوبة) ١٢٣ آية أسست للتسامح الدينى. كما أن آية النرجسية الدينية: "إن الدين عند الله الإسلام" (١٩، آل عمران) نسخت جميع آيات الاعتراف بالحريات الدينية وبالديانات السابقة كاليهودية والمسيحية التى، كما قيل بعد نسخها، لم تكن ديانات بل كانت مجرد شرائع نسختها الشريعة الإسلامية! وهكذا نُسِخَت جميع الأديان والشرائع سواء منها التوحيدية أو الوثنية. وباتت البشرية، حسب فقه جهاد الطلب، أى غزو البلدان الأخرى، واقعة تحت تهديد جيوش الجهاد: إما الدخول فى الإسلام وإما الجزية وإما الحرب! ونسخت آية تشريع القتال فى المدينة: "أُذن للذين يقاتَلون (بفتح التاء) بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير" (٣٩، الحج) حوالى ٧٠ آية من آيات التسامح والمسالمة، ودخل

النبى المشرّع والمسلّح فى جدال عقيم مع اليهود والنصارى ما زال الجميع يكابد عواقبه الوخيمة حتى الساعة: "هل أنبِّئكم بِشَرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله؟ مَنْ لَعَنَه الله وغَضِب عليه وجعل منهم القِرَدَة والخنازير" (٦٠، المائدة)، و"لتجدنَّ أكثر الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا النصارى" (٨٢، المائدة). لكن سرعان ما سيتدخل هذيان النسخ لنسخ آخر الآية محولًا اليهود والنصارى معًا إلى أعداء ألّداء للمسلمين: "يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولاهم منكم فإنه منهم" (٥١، المائدة)، أى خرج من الإسلام ودخل فى دينهم. تمسَّك الإسلام الصوفى بالإسلام المكى، وتمسَّك أقصى اليمين الإسلامى بالإسلام المدنى.

فى المدينة اختفت السادية ضد الذات واختفت محاولات الانتحار، واختفى "التسامى" بغرائزه الجنسية المتفجرة فى الانتاج القرآنى وفى الدعوة اليومية لدينه وفى العبادة الطويلة والشاقة. وهكذا انطلقت جميع غرائز نبى الإسلام العدوانية المكبوتة من عقالها لتصول وتجول. كان فى مكّة يحاول إعطاء الموت الفعلى لنفسه بالإنتحار، أو الرمزى بالتأنيب والتذنيب وتعذيب نفسه بالعبادة، فأصبح فى المدينة يعطى الموت الفعلى والرمزى والتعذيب للآخرين.

مازال قطاعٌ من النخب والجمهور متسمرًّا فى الولاء والبراء، الذى أسس له الإسلام المدنى: "يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولاهم منكم فإنه منهم" (٥١، المائدة): الولاء للمسلمين حصرًا، وعداء اليهود والنصارى و"الكفار" عامة، أى عداء أشخاصهم ومعبوداتهم ومؤسساتهم وعلومهم وقيمهم وأنماط تفكيرهم وتدبيرهم. وهذا ما شكّل حتى الآن عائقًا دينيا وذهنيا لتكيف المسلمين مع ضرورات العالم الذى يعيشون فيه. ثمة وسيلتان أساسيتان لتكسير عائق الولاء والبراء: الأولى حوار الأديان التوحيدية والوثنية، الذى يحرّمه ويجرّمه شيوخ الولاء والبراء. رئيس لجنة الفتوى بالأزهر سابقًا صرح فى ٢٠٠١: لا معنى لحوار الأديان إلا بدعوة البابا للدخول فى الإسلام. والثانية هى تثقيف الجمهور الإسلامى بثقافة المشاركة العالمية لرفع التحديات الكونية، التى لا حل لها إلا فى اطار دولى: نزع فتيل قنبلة الانفجار

السكانى، حماية البيئة، التصدى للإرهاب الإسلامى المعولم، وقف انتشار أسلحة الدمار الشامل، مكافحة الأوبئة العالمية والفقر والمجاعة فى العالم.

حروب محمد على يهود المدينة والتنديد بهم وبالنصارى فى آيات القرآن المدنى أسست لهذه الإنعزالية الإنتحارية. حتى أقل واجبات المجاملة الإنسانية واللياقة الدبلوماسية نهى القرآن عنها. كواجب العزاء فى جار أو رئيس دولة غير مسلم: "فلا تأسى على القوم الكافرين" (٦٨، المائدة)، فضلًا عن آيات التحريض على مقاطعة "الكفار" وقتلهم: "واقتلوهم حيث وجدتموهم" لغسل دماغ المسلم لجعله يستسهل سياسيا ويستحل دينيا وأخلاقيا قتل "الكفار" خبط عشواء. وهو ما يجرى أمام عيوننا. رأينا ذلك فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وفى الإنتفاضة الثانية حيث كان استشهاديو حماس ينحرون وينتحرون فى الإسرائيليين سواء أكانوا واقفين أمام محطة باص أو مصطفين فى الطابور للدخول إلى مرقص أو فى مكدونالد... إلخ. ورأينا ذلك أيضًا فى يهود المغرب سنة ٢٠٠٣، وبعد ذلك فى كنيس الغريبة فى جزيرة جربه التونسية، وفى مسلمى الجزائر "المرتدين". استئصال قبائل يهود المدينة ومصادرة املاكهم وقتل جميع ذكور يهود بنى قريظة البالغين ثم تم بِيعُ نسائهم وأطفالهم فى الحبشة طبعةٌ أولى من مذابح الكنيسة الكاثوليكية التفتيشية لهم.

مشروع دستور الإخوان المسلمين الذى قدموه فى سنة ٢٠١١ شاهد بليغ على استمرار الإسلام المدنى بكل ثقافة الإنطواء على الذات، وثقافة كراهية اليهود والنصارى فضلًا عن المؤمنين بالديانات الوثنية، التى لا يعترف بها الإسلام، مخيرًا المؤمنين بها بين اعتناق الإسلام أو القتل. إليكم مثلًا عينة من مشروع هذا الدستور الخاصة بالسياسة الخارجية: المادة ١٧٧- الإسلام هو المحور الذى تدور حوله السياسة الخارجية، وعلى أساسه تُبْنَى علاقة الدولة بجميع الدول. المادة ١٧٨- الدول التى ليس بيننا وبينها معاهدات، والدول الإستعمارية فعلًا كإنجلترا وأمريكا وفرنسا، والدول التى تطمع فى بلادنا كروسيا، تعتبر دولًا محاربة... ولا يصح أن تنشأ معها علاقات دبلوماسية... الدول المحاربة فعلًا كإسرائيل مثلًا، يجب أن تتخذ معها حالة الحرب أساسًا لكافة

التصرفات، ويمنع جميع رعاياها من دخول البلاد، وتستباح دماء غير المسلمين منهم". وهكذا فصدى مذبحة يهود بنى قريظة مازال يتردد بقوة!".

هذا عرض لما يهمنا من الأفكار التى وردت فى ذلك الحوار بشىء من الاختصار. والآن تبدأ مناقشة هذه الأفكار دون الوقوف لدى الأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية، والخطإ فى نقل الايات القرآنية، وتوهُّم بعض الأحاديث قرآنا. ولكن قبل البدء ينبغى أن نوضح أن المرحلة المكية لا بد أن تكون مختلفة عن نظيرتها المدنية نظرا إلى أن النبى فى الأولى كان رسولا فقط، أما فى الأخيرة فقد كان، إلى جانب الرسالة، حاكم دولة بكل ما يعنيه ويقتضيه حكم الدول من علاقات سياسية وتشريعات وحروب وتدبير لأمور الرعية وفصل بين المتنازعين... وهكذا. وهذا ما تنبه إليه رونالد ڤكتور بودلى فى كتابه عن سيرة الرسول، إذ قال: "لقد كان محمد على نقيض من سبقه من الأنبياء. فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشاكلها، فلم يغفل الناحية العملية الدنيوية فى دينه، فوفق بين دنيا الناس ودينهم. لذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المعلمين الذين حاولوا خلاص الناس من طريق غير عملى. لقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها الله، وأن الجنة هى المطاف".

ويقول العفيف الأخضر إنه لم يكْتَب عن النبى محمد شىء مهم من الزاوية النفسية حتى الآن. وهذا غير صحيح، فقد اتُّهِم النبى من قَبْل العفيف الأخضر بأنه مصاب بالصَّرْع وبأنه إنما يصْدُر فيما يسميه: "وحيا" عن رغباته النفسية الدفينة، وبأن ما يراه ليس من أكثر من هوس وهلاوس. فالعفيف الأخضر يكذب حينما يدعى أنه أول من يتناول الرسول من الناحية النفسية القائمة على الاتهام والتشكيك. وفى مادة "محمد" فى "The Encyclopaedia of Islam" مثلا تلخيص لهذه الاتهامات. وهناك كتابٌ كامل يقع فى نحو ٣٥٠ص اسمه: "Psychology of Mohammad" لمسعود الأنصارى، وكله هجوم على الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم. ولى كتاب ظهر فى منتصف ثمانينات القرن الماضى لأول مرة ثم أعيد إصداره فى منتصف تسعيناته، وهو دراسة شديدة التفصيل للرسول وللقرآن من الناحية النفسية لا تُوَرِّى ولا تجمجم، بل تطرح كل الافتراضات التى

تخطر والتى لا تخطر على بال البشر الأسوياء ولكن يقدمها المتنطعون الكارهون للإسلام ونبيه، وعنوان الكتاب هو "مصدر القرآن". فالعفيف الأخضر لا يأتى بشىء جديد إذن، وإمكاناته العقلية والثقافية لا تسمح له بأكثر من اتباع الخطوط التى رسمها له بالنقط من يستخدمونه لمصلحتهم وغاياتهم، وتركوا له مهمة المشى على تلك النقط بالقلم، فكأنه هو الذى كتبها، بالضبط كما يفعل معلمو الخط مع الأطفال والصبيان فيما يسمونه: "المشق".

وسبق أن قام العبد لله فى ثمانينات القرن الماضى بمناقشة هذه الاتهامات مناقشة مستفيضة فى الباب الأول من كتابى: "مصدر القرآن"، وهذا الباب يستغرق نحو مائتى صفحة استعنت فيها، ضمن ما استعنت، بعلمى الطب والنفس حتى يكون الكلام قائما على أساس علمى بدلا من رميه على عواهنه بجهل وتغشمر كما يفعل أعداء الإسلام اعتمادا على أن الناس قلما تقرأ، وبخاصة إذا كانوا ممن يكرهون دين التوحيد الخالص، فهم يستلذون الهجوم عليه ولا يتوقفون لحظة لتمحيص ما يقرأون. بل إن بعضهم ليعلم أن ما يقرؤه كذب فى كذب ولا وشيجة تصله بالعلم، لكنه يرحب به ترحيبا هائلا لأنه يشبع حاجة بل حاجات فى نفسه المريضة المتقيحة ببغض الإسلام والحقد على نبيه.

وفوق هذا هناك فى الدول الغربية، وبخاصة فى أمريكا، مؤسسات مخصصة لتوظيف فريق من كارهى الإسلام فى الحرب الباردة ضده، بالضبط كما صنعت مع الشيوعية قبل سقوط الاتحاد السوفييتى وتوابعه، ثم استدارت تطلب رقبة الإسلام بعدما استفاقت من صداع الشيوعية، وصار التركيز من ساعتئذ على دين محمد وأتباع محمد بعدما كان الاهتمام بهم وبدينهم يأتى متأخرا عن الاهتمام بالماركسية ومعتنقيها. بل لقد كانت تستعين بالإسلام والمسلمين لمحاربة الشيوعية والشيوعيين حتى نجحوا فى ذلك، فتحولوا بطبعهم الذى لا يعرف وفاء ليضربوا من وقفوا معهم.

والعفيف الأخضر يتهم الإسلام فى المدينة بأنه دين إرهابى بعد أن كان فى المرحلة المكية دينا منفتحا يعترف بصحة الأديان السابقة ويقر بنجاة أصحابها حتى لو لم يؤمنوا به، فهو فى مكة يقول: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن"، ثم صار فى المدينة يجادلهم بالتى هى أخشن ويجتهد

فى إكراههم على اعتناقه بالقوة، وإلا فعليهم دفع الجزية، كما صار يقطع الأيدى ويرجم ويجلد ويقتل المرتدين من المسلمين وأسارى الكفار واليهود كما يقول. والعجيب الغريب أنه يتهم الإسلام بأنه دين نرجسى لا يطيق أى دين آخر. وبغض النظر عن أن هذه تهمة سمجة كاذبة فإن العفيف الأخضر يمارس نرجسية قميئة مثله يتهم بمقتضاها الإسلام بكل نقيصة فى الدنيا، ويتصور نفسه كامل المعانى والأوصاف. فهلا وجه كلامه إلى نفسه ورأى الخشبة التى فى عينه بدلا من الانشغال بالقشة التى يحسبها فى عين الإسلام مع أنه لا قشة هناك ولا يحزنون؟ إن كل كلامه فى الحوار الذى نحن بصدده، وفى الكتاب الذى يعد ذلك الحوار تلخيصا لما فيه، هو سِبَابٌ مرضىٌّ من سَبّابٍ مريضٍ جُنّ،َ فقام فى نفسه العمل بكل وسيلة على محاولة إهانة الرسول الأكرم كى يرضى عنه من يمونونه بالمال والطعام والمسكن والملبس والرحلات هنا وهناك.

يقول الأخضر: "الإسلام المدنى، منذ السنة الثانية للهجرة قرآنًا وسنة، أى أقوال وأفعال نبى الإسلام، إرهاب غالبا غير حميد. هذا إذا جاز الإدّعاء بأنّه يوجد إرهاب حميد! الإرهاب، بما هو عنف أعمى، لا يستطيع أن يكون حميدًا... فالإسلام المدنى العنيف شبحٌ قاتلٌ يلاحق المسلمين وغير المسلمين فى القارّات الخمس! تاريخيا يوجد محمدان وإسلامان: كان محمد فى مكة شاعرا ونبيا، وإسلامه كان خاليا من العنف، أى من الشريعة والجهاد، وهما أعلى درجات العنف ضد الأبرياء أفرادًا وشعوبًا. الجلد وقطع اليد والرجم ودق عنق المرتد وغزو الشعوب الأخرى لإدخالها فى الإسلام هى جميعًا جرائم ضد الإنسانية. كما كان محمد معترفا بجميع ديانات عصره من اليهودية إلى المجوسية، ديانة أحد معلميه، سلمان الفارسى، مرورا بالمسيحية والصابئة. أما فى المدينة فقد استحال إلى مشرّع ومحارب يقطع الطريق على القوافل، ويغزو القبائل لإدخالها بالسيف فى الإسلام، ويقتل الشعراء الذين هَجَوْه، أو يقتل أسرى قريش وأسرى اليهود. ولم يكن فى مكة يفعل شيئًا من ذلك. كان يرد على هجاء مثقفى قريش بالهجاء. وعندما طلب منه وفد الأنصار، عشية هجرته، الهجوم على حى من قريش أجابهم: "ما أومرت بذلك"، وكان يوصى أصحابه: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن" (٤٦، العنكبوت). أما فى المدينة فقد جادلهم هو وأصحابه بالتى هى

أخشن. إسلام المدينة نسخ الأساسى من الإسلام المكى، أى اللاعنف والإعتراف بجميع الأديان بما هى طريق للخلاص الروحى للمؤمنين بها، وأدخل العنف الشرعى الدموى الذى ما زال ضحاياه بالآلاف: رَجَمَ أقصى اليمين الإسلامى الإيرانى فى ٣٥ عاما حوالى ألفى امرأة، ولم يوقف جريمة الرجم إلاّ منذ شهور. وبدأت الحكومة الإسلامية الدموية فى السودان ترجم منذ ١٩١٣ ".

وهذه الفقرة مفعمة بالأخطاء القميئة: فأولا من قال من العقلاء عن القرآن إنه شعر؟ إن الشعر وزن وقافية ومديح وهجاء وغزل وخمر وفخر وبكاء على الأطلال ووصف لمناظر الصحراء وخيالات ومبالغات، ووراء كل ذلك شحنة عاطفية يريد الشاعر تصريفها عن طريق نظم الشعر. والقرآن بخلاف ذلك على طول الخط. والعفيف الأخضر، حين يقول هذا، إنما يجرى على سنة بعض المستشرقين الذين يتحدثون عن القرآن المكى بوصفه شعرا. فهو إذن لا يأتى هنا أيضا بأى جديد. وقد كان المشركون فى غمرة عنادهم وضيق أفقهم وكراهيتهم للدعوة الإصلاحية الكريمة التى أتاهم بها محمد عليه الصلاة والسلام يزعمون أنه شاعر. ولا أظنهم كانوا يقصدون أن القرآن شعر كالشعر الذى ينظمونه، بل كانوا يقصدون أن محمدا لا يتلقى وحيا من السماء، وإنما يستعين بشياطينه فى تأليف هذا القرآن مثلما يستعين الشعراء بالشياطين.

ولقد أحرج الوليد بن المغيرة المشركين حين قال بعضهم فى حضوره إنه شعر، فاعترض الوليد على هذا الكلام مبينا لهم الفرق بين الشعر والقرآن، فلم يعترض عليه أحد بكلمة مما يدل على أنهم إنما كانوا يكذبون ويعاندون. عن عبد الله بن عباس "أنَّ الوليدَ بنَ المغيرةِ جاءَ إلى النَّبى صلَّى اللَّه عليه وسلم فقرأَ عليهِ القرآنَ فكأنَّه رقَّ له، فبلغَ ذلِكَ أبا جهلٍ فأتاهُ فقالَ: يا عمُّ، إنَّ قومَكَ يرونَ أن يجمعوا لَكَ مالًا. قال: لِمَ؟ قالَ: ليعطوك، فإنَّكَ أتيتَ محمَّدًا لتعرضَ لما قبلَهُ. قالَ: قد علِمَتْ أنِّى من أَكثرِها مالًا. قالَ: فقل فيهِ قولًا يبلغُ قومَكَ أنَّكَ مُنْكِرٌ له أو أنَّكَ كارِهٌ لَهُ. قالَ: وماذا أقولُ؟ فواللَّهِ ما فيكم رجلٌ أعلم بالأشعارِ منى ولا أعلم برَجَزه ولا بقصيدِهِ منِّى ولا بأشعارِ الجنِّ. واللَّهِ ما يشْبِه الذى يقولُ شيئًا من هذا. وواللَّهِ إنَّ لقولِهِ الذى يقولُ حلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنه لمثمرٌ أعلاهُ مغدقٌ أسفلُهُ، وإنَّهُ ليعلو وما يعْلَى، وإنَّهُ ليحْطِمُ ما تحتَه. قال: لا يرضى عنْكَ قومُكَ حتَّى

تقولَ فيهِ. قالَ: فدَعْنى حتى أفَكِّر فيه. فلما فَكّر قالَ: هذا سِحْرٌ يؤْثَرُ يأثره عن غيرِه. فنزلَت: "ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا". يعنى الآياتِ". وبالمناسبة فالمستشرقون والمبشرون يرون فى كثير من أنبياء العهد القديم شعراء.

هذا عن وصف العفيف الأخضر للنبى عليه السلام بالشاعر، وأما صفة النبوة التى أثبتها له صلى الله عليه وسلم فدليل على رسوخ تخبطه واستحكام جهله. أتراه يريد إلى القول بأن محمدا كان نبيا فى مكة، ثم انحرف عن النبوة وصار قاطع طريق فى المدينة؟ وهل النبوة تغادر الإنسان بعد أن يكْسُوَهُهَا الله؟ كيف؟ إن النبى يظل طول عمره نبيا، وإلا فمعنى ذلك أن الله لم يحسن اختياره ولا صنعه على عينه، اللّهم إلا إذا كان العفيف الأخضر يرى أن النبوة مكتسبة، ومن ثم يمكن أن يفقدها صاحبها كما اكتسبها. فمن الواضح أن العفيف الأخضر لا يضبط القول ولا تنضج فى ذهنه الأفكار والآراء لأنه لا يفكر لنفسه بل يقلد غيره من الغربيين كارهى الإسلام.

ومن جهله المبين قوله إن محمدا فى مكة كان يرد على مثقفى شعراء المشركين شعرا ولا يقتلهم. فهل كان محمد شاعرا حتى يرد على هُجَاتِهِ كما يزعم ذلك الجاهل؟ بل هل كان فى مكة أصلا معارك شعرية كالتى قامت فى المرحلة المدنية حين كان حسان وابن رواحة وكعب بن مالك يتبادلون الهجاء والفخر مع ابن الزِّبَعْرَى وسفيان بن الحارث وكعب بن الأشرف وغيرهم؟ وهو أيضا يؤكد أن سلمان الفارسى كان معلما للرسول عليه الصلاة والسلام. بل إن الكلام ليوحى بقوة أن سلمان كان إلى جانب النبى منذ الفترة المكية، وهو خطأ ساطع لأن سلمان لم يظهر على الخريطة إلا بعد الهجرة بفترة حين انتهت به الأقدار إلى أن صار عبدا لأحد يهود يثرب بعدما طاف فى بلاد المنطقة يبحث عن الدين الحق حتى قابل النبى هناك فدخل دينه. ولكن العفيف الأخضر بحقده المتلظى يقلب الأمور قلبا تاما فيجعل من التلميذ التابع أستاذا متبوعا. وهو فى هذا يجرى خلف ما جاء فى كتاب "شدو الربابة" لخليل عبد الكريم.

إن سلمان الفارسى، الذى ساح فى بلاد الله بحثا عن نور اليقين حتى التقى بالرسول عليه السلام فى المدينة، يتحول على يدى العفيف الأخضر إلى معلم له صلى الله عليه وسلم يمده

بأوصاف الجنة وصور النعيم الأخروى رغم أن أوصاف الجنة وصور نعيمها كان قد انتهى الكلام فيها تقريبا فى القرآن المكى. ومن جهل العفيف الأخضر وخبثه قوله إن هناك آية تتحدث عن قصر واثنتين وسبعين حورية فى انتظار قدوم الشهيد، وإن النبى الكريم قد أخذها من معلمه المجوسى سلمان. ترى أين تلك الآية فى القرآن؟ نعم هناك حديث عن الحور العين، لكن ليس هناك تحديد عدد ولا كلام عن قصر يضمهن. وعلى كل حال ليس فى القرآن كلام عن الحور العين إلا فى الفترة المكية، ولم يكن سلمان قد وصل إلى النبى بعد ولا عرفه النبى ولا سمع به. وهذه هى النصوص التى ورد فيها الحديث عنهن: "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ" (الدخان/ ٥٤)، "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ" (الطور/ ٢٠)، "حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ" (الرحمن/ ٧٢)، "وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ" (الواقعة/ ٢٢– ٢٣). وهذه النصوص كلها بل جميع سورها التى وردت بها هى قرآن مكى. ولك، أيها القارئ، أن تحكم بما تراه مناسبا على هذا المجهال!

وتعال، أيها القارئ الكريم، معى لتعرف من يمد العفيف وأمثاله بما يقولون. ففى موقع "الكلمة" النصرانى نقرأ ما يلى تحت عنوان "الجنة حورها وولدانها": "أخذ القرآن الاعتقاد بوجود الحور فى الجنة مما قاله الزردشتية القدماء عن وجود أرواح الغادات الغانيات المضيئات فى السماء، وأن مكافأة أبطال الحروب هى الوجود مع الحور وولدان الحور. وكان الاعتقاد بوجود الحور ساريا عند الهنود أيضًا. وكلمة "حورى" فى لغة أوستا (وهى من لغات الفرس القديمة) تعنى الشمس وضوءها. وفى اللغة البهلوية "هور"، وفى لغة الفرس الحديثة "حنور". ولفظها العرب "حور" (كتاب "شرائع منوا"، فصل ٥، البيت ٨٩). فجريا على هذه العقيدة الفارسية والتعبير الفارسى قال القرآن: "حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ" (سورة الرحمن ٥٥: ٧٢)، "وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُون" (سورة الواقعة ٥٦: ٢٢ و٢٣)".

ملقِّن محمد سلمان الفارسى: شهد القرآن أن المقصود بإملائه القصص الفارسية على محمد هو سلمان الفارسى، فقال: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ: إِنَّمَا يعَلِّمُهُ بَشَرٌ. لِسَانُ الذِى يلْحِدُونَ إِلَيهِ أَعْجَمِى، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِى مُبِينٌ" (سورة النحل ١٦: ١٠٣). وسلمان هذا فارسى أسلم، وكان من الصحابة،

وهو الذى أشار على محمد وقت حصار المدينة بحفر الخندق، فنفّذ محمد نصيحته. وهو الذى أشار على محمد باستعمال المنجنيق فى غزوة ثقيف الطائف. وقد اتهم العرب محمدا أن سلمان هذا هو الذى ساعده على تأليف قرآنه، ومنه استقى الكثير من قصصه وعباراته. ومع أن محمدا قال إن سلمان أعجمى، والقرآن عربى، ولكن هذا لا يمنع أن تكون المعانى لسلمان، وصياغتها فى أسلوبها العربى لمحمد".

فكما ترى ليس للعفيف الأخضر أى فضل فى هذا الكلام، إذ هو منقول عن ذلك الموقع. أما أن المعنى للفرس، بينما الأسلوب لمحمد فقد أثبتنا فى كتابى: "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية"، على مدى ٦٠٠ صفحة، أن أسلوب القرآن يختلف تمام الاختلاف عن أسلوب الحديث. ومن هنا لا يمكن القول بِجِدٍّ إن القرآن من تأليف محمد. وعلى كل ليس ذلك هو المعنى الذى يقصده القرآن، بل المقصود أن الأعاجم الذين كانوا فى مكة ويشتغلون بالحِرَف اليدوية كجبر ويسار مثلا لم يكونوا يستطيعون الحديث بالعربية إلا فى أضيق الحدود فى مجال حرفتهم، وهو ما لا يسعفهم بالكلام فى الموضوعات الدينية بأى حال لا أنهم أعطوه المضمون، ثم صاغه هو بأسلوبه. أما سلمان فالأغبياء هنا يصرون على أنه كان موجودا بجوار النبى فى مكة. ثم ما قول الأغبياء فى أن أولئك الأعاجم قد أسلموا جميعا كما أسلم سلمان فيما بعد حين التقى الرسولَ فى المدينة؟ بل ما رأيهم فى أن الذين اتهموا الرسول بالتعلم على أيدى هؤلاء الأعاجم قد أسلموا كلهم مكذبين هكذا أنفسهم بأنفسهم؟

والمخزى لكل من يبغض محمدا أن أحدا من هؤلاء الأعاجم لم يقل يوما إنه قد عَلَّم محمدا شيئا رغم أنهم كانوا من الضعفاء المسحوقين فى المجتمع القرشى، ومن مصلحتهم أن يتقربوا إلى المكيين على حساب الرسول، الذى لم يكن فى يديه ما يضر أو ينفع. ومع ذلك لم يحدث قط أن صرح أحد منهم بشىء من هذا الذى يسنده المكيون باطلا إليهم. كما أن القرآن لم يقل، كما يزعم الأغبياء، إن هؤلاء الأعاجم قد علموا محمدا القرآن، بل قال إن المشركين يتهمونه بهذا. وشتان هذا وذاك! ليس ذلك فقط بل زاد القرآن الكريم فقال: "إنما يفترى الكذبَ الذين لا يؤمنون آيات الله. وأولئك هم الكاذبون". أى أن من يتهمون الرسول بالكذب هم الكاذبون لا هو.

ولكى يعرف القراء الكرام مدى عراقة العفيف الأخضر فى التدليس أسوق إليهم عبارته التالية: "استشهاديو حماس، الذين غُسِلَتْ أدمغتهم، يعْطَى لكل واحد منهم واقى ذكرى فولاذى يقيه من عواقب انفجار الحزام الناسف لينكح به الحوريات الموعودات!". إنه أولا يسخر من الفلسطينيين المظلومين الذين امتلخت القوى العالمية بلادهم وأعطتها اليهود ونكلت بهم أيما تنكيل وسدت فى وجوههم كل أبواب الرحمة والأمل. ثم يأتى هو فيهاجمهم ويفترى عليهم الأضاليل بقلب صلد لا يبضّ بأية قطرة من التعاطف فى الوقت الذى يناصر فيه الصهاينةَ وينهش عِرْض كل من يمسهم، ويتهمه بمعاداة السامية، ويرى فيهم وفى ديانتهم الخير كله. وليس شىء من هذا بغريب، فولاؤه للصهاينة واليهود لا للعرب ولا للفلسطينيين ولا للمسلمين. إن كل هؤلاء فى نظره إرهابيون لا بد من استئصالهم من على وجه الأرض. فالعفيف الأخضر، كما هو واضح، محب للصهاينة، مبغض للعروبة والإسلام والفلسطينيين! كما أن ما قاله عن الواقى الذكرى ليس من بنات فكره، فقد سبقت المخابرات الأمريكية أن أمدت السحاقية البانجلاديشية المتكنّدة إرشاد مانجى بفكرة مثل هذه، لكنها كانت فكرة نيئة، إذ زعمت أن الاستشهاديين يضعون حشوة من ورق الجرائد فى ذلك الموضع.

وعودا إلى سلمان الفارسى نقول: لقد وضع رضى الله عنه نفسه منذ أول دقيقة فى خدمة دين محمد واشترك فى الغزوات الحربية التى اصطدم فيها الإسلام بالوثنية واليهودية، ورغم ذلك يجعله العفيف الأخضر هو الأساس، أما محمد فظِلٌّ تابعٌ له. كيف؟ وهذه الفكرة الكاذبة ليست من بنيات أفكار العفيف الأخضر، فقد قرأناها آنفا منشورة فى موقع كنسى. كذلك سبق أن ادعاها سلمان رشدى فى روايته: "الآيات الشيطانية"، إذ جعل من سلمان، كذبا وزورا، كاتبا من كتاب الوحى يشارك فى تأليفه أو بالأحرى: فى إفساده. ثم جاء بعد ذلك خليل عبد الكريم فتناول، فى كتابه: "شدو الربابة"، موضوع سلمان الفارسى واصفا ما عنده بأنه كنز معرفى ثمين كان يمتح منه محمد فى سهراته الليلية التى كانا يقضيانها وحدهما بعيدا عن العيون فى بيت الرسول عليه السلام، وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يعيش فى قصر ذى أجنحة، فكان يسهر هو وصاحبه الفارسى فى جناح يبعد عن

أعين زوجاته وأسماعهن حتى لا يكتشفن الملعوب، لا فى غرفة بسيطة ساذجة كل شىء فيها معروف ومكشوف ومرأىٌّ ومسموع!

وهذه قصة سلمان وتطوافه فى الآفاق إلى أن التقى الرسول عليه السلام وآمن به، فأضحى من اللحظة الأولى من أخلص تابعيه. يقول رضى الله عنه: "كنتُ رجلًا فارسيا مِن أهلِ أصبهانَ، ومِن أهلِ قريةٍ منها يقالُ لها: جى. وكان أبى دهقانَ قريتِه، وكنتُ أَحَبَّ خلقِ اللهِ إليه، فلم يزَلْ به حبُّه إياى حتى حبسنى فى بيتِه، أى ملازمَ النارِ، كما تُحبَسُ الجاريةُ. وأجهدتُ فى المجوسيةِ حتى كنتُ قطنَ النارِ الذى يوقِدُها لا يترُكُها تخبو ساعةً. قال: وكانتْ لأبى ضيعةٌ عظيمةٌ. قال: فشُغِل فى بُنْيانٍ له يومًا فقال لى: يا بُنَى، إنى شُغِلْتُ فى بنيانٍ هذا اليومَ عن ضَيعَتى، فاذهَبْ فاطَّلِعْها. وأمَرنى فيها ببعضِ ما يريدُ، فخرجتُ أريدُ ضَيعتَه، فمرَرْتُ بكنيسةٍ من كنائسِ النصارى، فسمعتُ أصواتَهم فيها وهم يصلُّونَ، وكنتُ لا أدرى ما أَمْرُ الناسِ لحبسِ أبى إياى فى بيتِه. فلما مرَرْتُ بهم وسمِعْتُ أصواتَهم دخَلْتُ عليهِم أَنْظُرُ ما يصنَعونَ. قال: فلما رأيتُهم أعجَبَنى صلاتُهم ورَغِبْتُ فى أمرِهم وقلتُ: هذا واللهِ خيرٌ من الدينِ الذى نحن عليه. فواللهِ ما تركتُهم حتى غرَبَتِ الشمسُ. وتركتُ ضيعةَ أبى ولم آتِها. فقلتُ لهم: أين أصلُ هذا الدينِ؟ قالوا: بالشامِ. قال: ثم رجَعْتُ إلى أبى، وقد بعَث فى طلبى وشغَلْتُه عن عملِه كلِّه. قال فلما جئتُه قال: أى بُنَى، أين كنتَ؟ ألم أكُنْ عَهِدْتُ إليكَ ما عهدتُ؟ قال: قلتُ: يا أبَتِ، مرَرتُ بناسٍ يصلُّونَ فى كنيسةٍ لهم، فأعجَبَنى ما رأيتُ من دينِهم. فواللهِ ما زِلتُ عندَهم حتى غرَبَتِ الشمسُ. قال: أى بُنَى، ليس فى ذلك الدينِ خيرٌ. دينُكَ ودينُ آبائِكَ خيرٌ منه. قال: قلتُ: كلا. واللهِ إنه خيرٌ من دينِنا. قال: فخافَنى فجعَل فى رِجلى قيدًا ثم حبسَنى فى بيتِه. قال: وبعَثْتُ إلى النصارى فقلتُ لهم: إذا قَدِم عليكم رَكْبٌ من الشامِ تجارٌ من النصارى فأخبِرونى بهِم. قال: فقدِم عليهِم رَكْبٌ من الشامِ تجارٌ من النصارى. قال: فأخبَرونى بهم. قال فقلتُ لهم: إذ قضَوْا حوائجَهم وأرادوا الرَّجْعةَ إلى بلادِهم فآذِنُونى بهم. قال: فلما أرادوا الرَّجْعَةَ إلى بلادِهم أخبَرونى بهم. فألقيتُ الحديدَ مِن رِجلى، ثم خرَجتُ معهم حتى قدِمتُ الشامَ. فلما قدِمْتُها قلتُ: مَنْ أفضلُ أهلِ هذا الدينِ؟ قالوا: الأسقُفُّ فى الكنيسةِ. قال: فجِئتُه فقلتُ: إنى قد

رغِبتُ فى هذا الدينِ وأحبَبتُ أن أكونَ معكَ أخدمُكَ فى كنيستِكَ وأتعلَّمُ منكَ وأصلِّى معكَ. قال: فادخُلْ. فدخَلتُ معه. قال: فكان رجلَ سوءٍ يأمُرُهم بالصدقةِ ويرَغِّبُهم فيها. فإذا جمَعوا إليه منها أشياءَ اكتَنَزه لنفسِه، ولم يعطِه المساكينَ حتى جمَع سبعَ قلالٍ من ذهبٍ ووَرِقٍ. قال: وأبغَضتُه بُغضًا شديدًا لِمَا رأيتُه يصْنَعُ. ثم مات فاجتمعَتْ إليه النصارى ليدْفِنوه، فقلتُ لهم: إنَّ هذا كان رجلَ سوءٍ يأمُرُكم بالصدقةِ ويرَغِّبُكم فيها، فإذا جِئتُموه بها اكتَنَزها لنفسِه ولم يعْطِ المساكينَ منها شيئًا. قالوا: وما عِلمُكَ بذلك؟ قال: قلتُ: أنا أدُلُّكم على كَنْزِه. قالوا: فدُلَّنا عليه. قال: فأريتُهم مَوْضِعَه. قال: فاستَخْرَجوا منه سبعَ قلالٍ مملوءةٍ ذهبًا ووَرِقًا. فلما رأَوها قالوا: واللهِ لا نَدْفِنُه أبدًا. فصلَبوه ثم رجَموه بالحجارةِ، ثم جاءوا برجلٍ آخرَ فجعَلوه بمكانِه. قال: يقولُ سلمانُ: فما رأيتُ رجلًا لا يصلِّى الخمسَ أرى أنه أفضل منه أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرةِ ولا أدأَب ليلًا ونهارًا منه. قال: فأحبَبتُه حُبًّا لم أُحِبَّه مَنْ قبلَه، وأقَمْتُ معه زمانًا. ثم حضرَتْه الوفاةُ، فقلتُ له: يا فلانُ، إنى كنتُ معكَ وأحبَبتُكَ حبًّا لم أُحِبَّه مَنْ قَبْلَكَ، وقد حضَركَ ما ترى من أمرِ الله، فإلى مَنْ توصى بى؟ وما تأمُرُنى؟ قال: أى بُنَى، واللهِ ما أعلمُ أحدًا اليومَ على ما كنتُ عليه. لقد هلَك الناسُ وبدَّلوا وترَكوا أكثرَ ما كانوا عليه إلا رجلًا بالموصلِ، وهو فلانٌ. فهو على ما كنتُ عليه، فالحَقْ به. قال: فلما مات وغُيبَ لحِقْتُ بصاحبِ الموصلِ فقلتُ له: يا فلانُ، إنَّ فلانًا أوصانى عندَ موتِه أن ألحَق بكَ، وأخبَرنى أنكَ على أمرِه. قال: فقال لى: أقِمْ عندى. فأقَمتُ عندَه، فوجَدْتَه خيرَ رجلٍ على أمرِ صاحبِه. فلم يلبَثْ أن مات. فلما حضرَتْه الوفاةُ قلتُ له: يا فلانُ، إنَّ فلانًا أوصى بى إليكَ، وأمرَنى باللحوقِ بكَ، وقد حضَرك منَ اللهِ عزَّ وجلَّ ما ترى، فإلى مَنْ توصى بى وتأمُرُنى؟ قال: أى بُنَى، واللهِ ما أعلمُ رجلًا على مثلِ ما كنا عليه إلا رجلًا بنصيبينَ، وهو فلانٌ، فالحَقْ به. قال: فلما مات وغُيبَ لحِقْتُ بصاحبِ نَصِيبينَ، فجِئتُه فأخبَرتُه بخبرى وما أمرَنى به صاحبى. قال: فأقِمْ عندى. فأقَمتُ عندَه، فوجدتُه على أمرِ صاحبَيه، فأقَمتُ مع خيرِ رجلٍ. فواللهِ ما لبِث أن نزَل به الموتُ. فلما حُضِر قلتُ له: يا فلانُ، إنَّ فلانًا كان أوصى بى إلى فلانٍ، ثم أوصى بى فلانٌ إليكَ. فإلى مَنْ توصى بى؟ وما تأمُرُنى؟ قال: أى بُنَى، واللهِ ما نعلمُ أحدًا بقى على أمرِنا آمُرُكَ أن تأتيه إلا رجلًا بعَمُّوريةَ،

فإنه بمثلِ ما نحن عليه. فإن أحبَبْتَ فَأْتِه قال: فإنه على أمرِنا. قال: فلما مات وغُيبَ لحِقْتُ بصاحبِ عَمُّوريةَ، وأخبَرْتُه خبرى، فقال: أقِمْ عندى. فأقَمْتُ مع رجلٍ على هَدْى أصحابِه وأَمْرِهم. قال: واكتسَبتُ حتى كان لى بقراتٌ وغُنَيمةٌ. قال: ثم نزَل به أمرُ اللهِ. فلما حُضِر قلتُ: يا فلانُ، إنى كنتُ مع فلانٍ، فأوصَى بى فلانٌ إلى فلانٍ، وأوصى بى فلانٌ إلى فلانٍ، ثم أوصى بى فلانٌ إليكَ، فإلى مَنْ توصى بى؟ وما تأمُرُنى؟ قال: أى بُنَى، واللهِ ما أعلمُه أصبَح على ما كنا عليه أحدٌ منَ الناسِ آمُرُكَ أن تأتيه. ولكنَّه قد أظلَّكَ زَمانُ نبى هو مبعوثٌ بدينِ إبراهيمَ يخرُجُ بأرضِ العربِ مُهاجِرًا إلى أرضٍ بين حرَّتَينِ بينهما نخلٌ، به علاماتٌ لا تَخفى. يأكُلُ الهديةَ ولا يأكُلُ الصدقةَ. بين كتِفَيه خاتَمُ النبوةِ. فإنِ استَطَعتَ أن تَلحَقَ بتلك فافعَلْ. قال: ثم مات وغُيبَ، فمكَثْتُ بعَموريةَ ما شاء اللهُ أن أمكُثَ، ثم مرَّ بى نفَرٌ من كلبٍ تجارًا، فقلتُ لهم: تَحمِلونى إلى أرضِ العربِ وأُعطيكم بَقَراتى هذه، وغُنَيمَتى هذه؟ قالوا: نعم. فأعطَيتُهموها وحمَلونى، حتى إذا قدِموا بى وادى القرى ظلمونى فباعونى من رجلٍ من يهودَ عبدًا. فمكَثْتُ عندَه، ورأيتُ النخلَ، ورجَوتُ أن تكونَ البلدَ الذى وصَف لى صاحبى، ولم يحِقَّ لى فى نفسى. فبينما أنا عندَه قدِم عليه ابنُ عمٍّ له منَ المدينةِ من بنى قُرَيظَةَ فابتاعنى منه، فاحتمَلنى إلى المدينةِ. فواللهِ ما هو إلا أن رأيتُها فعرَفتُها بصفةِ صاحبى بها. فأقَمتُ بها وبعَث اللهُ رسولَه، فأقام بمكةَ ما أقام لا أسمَعُ له بذكرٍ مع ما أنا فيه من شغلِ الرِّقِّ. ثم هاجَر إلى المدينةِ، فواللهِ إنى لفى رأسِ عِذْقٍ لسيدى أعمَلُ فيه بعضَ العملِ، وسيدى جالسٌ، إذ أقبَل ابنُ عمٍّ له حتى وقَف عليه فقال: فلانُ، قاتَل اللهُ بنى قيلةَ. واللهِ إنهم الآنَ لمجتمِعونَ بقُبَاءَ على رجلٍ قدِم عليهم من مكةَ اليومَ يزعُمونَ أنه نبىٌّ. قال: فلما سمِعتُها أخَذَتْنى العُرَوَاءُ حتى ظنَنتُ أننى سأسقُطُ على سيدى. قال: ونزَلتُ عنِ النخلةِ فجعَلتُ أقولُ لابنِ عمِّه ذلك: ماذا تقولُ؟ ماذا تقولُ؟ قال: فغضِب سيدى، فلكَمنى لكمةً شديدةً ثم قال: ما لَكَ ولهذا؟ أقبِلْ على عملِكَ! قال: قلتُ: لا شىءَ. إنما أرَدتُ أن أستَثبِتَ عما قال. وقد كان عندى شىءٌ قد جمَعْتُه. فلما أمْسَيتُ أخَذْتُه ثم ذهبتُ به إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم وهو بقُبَاءَ، فدخَلتُ عليه فقلتُ له: إنه قد بلَغنى أنَّكَ رجلٌ صالحٌ، ومعكَ أصحابٌ لكَ غُرَباءُ ذَوو حاجةٍ، وهذا شىءٌ كان عندى للصدقةِ، فرأيتُكم أحقَّ

به من غيرِكم. قال: فقرَّبتُه إليه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم لأصحابِه: كُلُوا. وأمسَك يدَه فلم يأكُلْ. قال: فقلتُ فى نفسى: هذه واحدةٌ. ثم انصرَفْتُ عنه فجمَعْتُ شيئًا، وتحوَّل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم إلى المدينةِ، ثم جِئتُ به فقلتُ: إنى رأيتُكَ لا تأكُلُ الصدقةَ، وهذه هديةٌ أكرَمتُكَ بها. قال: فأكَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم منها وأمَر أصحابَه فأكَلوا معه. قال فقلتُ فى نفسى: هاتانِ اثنَتانِ. ثم جِئتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم وهو ببقيعِ الغَرْقَدِ. قال: وقد تبع جنازةَ رجلٍ من أصحابِه عليه شملتانِ له، وهو جالسٌ فى أصحابِه. فسلَّمتُ عليه ثم استدَرتُ أنظُرُ إلى ظهرِه: هل أرى الخاتَمَ الذى وصَف لى صاحبى؟ فلما رآنى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم استدَرْتُه عرَف أنى أستَثبِتُ فى شىءٍ وُصِف لى. قال: فألقى رِداءَه عن ظهرِه، فنظَرتُ إلى الخاتَمِ فعرَفتُه. فانكبَبتُ عليه أُقَبِّلُه وأبكى، فقال لى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم: تحوَّلْ. فتحوَّلتُ فقصَصتُ عليه حديثى كما حدَّثتُكَ يا ابنَ عباسٍ. قال: فأعجَب رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم أن يسمَعَ ذلك أصحابُه. ثم شغَل سلمانَ الرقُّ، حتى فاته مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم بدرٌ وأحُدٌ. قال لى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم: كاتِبْ يا سلمانُ. فكاتَبتُ صاحبى على ثلاثمائةِ نخلةٍ أُحْيِيها له بالفقيرِ، وبأربعينَ أوقيةً. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم: أعينوا أخاكم. فأعانونى بالنخلِ: الرجلُ بثلاثينَ وديةً، والرجلُ بعشرينَ، والرجلُ بخمسَ عشرةَ، والرجلُ بعشرٍ. يعنى: الرجلُ بقدْرِ ما عندَه حتى اجتمعَتْ لى ثلاثُمائةِ وديةٍ. فقال لى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم: اذهَبْ يا سلمانُ ففَقِّرْ لها، فإذا فرَغْتَ فائتِنى أكونُ أنا أضعُها بيدى. ففقَّرتُ لها، وأعاننى أصحابى. حتى إذا فرَغتُ منها جِئتُه فأخبَرتُه، فخرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم معى إليها. فجعَلْنا نقربُ له الودى ويضَعُه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم بيدِه. فوالذى نفسُ سلمانَ بيدِه، ما ماتتْ منها وديةٌ واحدةٌ. فأدَّيتُ النخلَ وبقى على المالُ، فأتى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم بمثلِ بيضةِ دجاجةٍ من ذهب من بعضِ المَغَازى فقال: ما فعَل الفارسى المكاتَبُ؟ قال: فدُعِيتُ له. فقال: خُذْ هذه فأدِّ بها ما عليكَ يا سلمانُ. فقلتُ: وأين

تقَعُ هذه يا رسولَ اللهِ مما علىّ؟ قال: خُذْها، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيؤدِّى بها عنكَ. قال: فأخَذْتُها فوزَنْتُ لهم منها، والذى نفسُ سلمانَ بيدِه، أربعينَ أوقيةً، فأوْفَيْتُهم حقَّهم وعُتِقْتُ. فشهِدْتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم الخندقَ، ثم لم يفُتْنى معه مَشهَدٌ".

فأين أستاذية سلمان للنبى؟ وأين تلمذة النبى له؟ إن الرجل قد لف المنطقة كلها بحثا عن الحق حتى بلغ الرسول عليه السلام فألفاه هو الحق الذى كان يبحث طوال الوقت عنه، وآمَن به ولزمه وأعطى المسلمين عصارة خبرته وتجاريبه، وخاصة فى حفر الخندق، وشهد معه صلى الله عليه وسلم الغزوات كلها ما عدا بدرا وأحدا، إذ كان لا يزال عبدا لليهودى لم يفْدَ بعد، وشهد بعد وفاته عددا آخر من فتوح المسلمين. ولو كان هو أستاذ النبى فلم رضى أن يكون تابعا لتلميذه الذى يعرف هو أكثر مما يعرف، وعنده علم بالدين وصناعة الدين أفضل منه، وينتسب إلى أمة ذات حضارة لا أمة تعيش فى الصحراء، ويكتب ويقرأ ويتحدث بالفارسية والعربية، وبغير الفارسية والعربية أيضا، بينما محمد ليست له سوى لغة واحدة، وفضلا عن ذلك فهو أمى لا يكتب ولا يقرأ ولا علاقة له بالكتب ولا بمقارنة الأديان طبقا لهلوسات العفيف الأخضر ومن والاه؟ وفوق هذا اشترك سلمان فى فتح بلاده للدين المحمدى، ومحو الزرادشتية، التى كان من سدنتها ومشعلى نارها حتى لا تنطفئ أبد الدهر، وولاه عمر بن الخطاب إدارة المدائن حاضرة الفرس ذاتها، فقام بالمهمة خير قيام. ترى ما الذى يدفع رجلا مثله إلى هذا كله لو كان هو الأستاذ، ومحمد هو التلميذ؟

وهذه ترجمة سلمان الفارسى كما وردت فى "الموسوعة العربية العالمية": "سَلْمان الفارسى (؟- ٣٦هـ/ ؟- ٦٥٦م): صحابى أنصارى من سكان المدينة (يثرب- طَيبَة) أصله فارسى من أصبهان. رحل سلمان إلى بلاد الشام والموصل ونصيبين وعمورية بحثا عن عقيدة يطمئن إليها واتصل بالرهبان. قرأ كتب الفرس والروم واليهود، ولم يجد ضالته، وقصد بلاد العرب، وفى طريقه لقيه ركب من بنى كلب فاسترقّوه وباعوه إلى رجل يهودى، وانتهى به المقام إلى المدينة يعمل بالزراعة. علم بخبر النبى. ولما تمت هجرة الرسول جاء إليه وتحرى أوصافه مما اطلع عليه فى التوراة والإنجيل فتيقَّن من نبوته، فآمن به ولازمه وشارك فى غزواته. بعد أن اعتنق رضى الله عنه الإسلام

آخَى الرسول بينه وبين أبى الدرداء (عويمر بن مالك)، وكاتب مالكَه على عمل معين يتعلق بغراس النخيل، وقال رسول الله: "أعينوا أخاكم بالنَّخْل"، وتم تحريره من الرق. كان سلمان رضى الله عنه قوى الجسم، راجح العقل. أشار بحفر الخندق فى غزوة الأحزاب التى سميت أيضًا بـ"غزوة الخندق" لهذا السبب، وشارك فيه. ولاه الخليفة عمر رضى الله عنه المدائن وظل فيها مؤمنا متواضعا. وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به. وكان، وهو أمير، ينسج الخوص، ويأكل خبز الشعير، ويعيش من كسب يده. روى، رضى الله عنه، ٦٠ حديثا للنبى".

والواقع أننى لا أدرى لم كل هذه الضجة جراء مسألة الحور العين؟ هل قال الإسلام إن كل ما أتى به لم يسبق إليه أى دين؟ إن الأمم كلها تقريبا تؤمن بالآخرة والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار على نحو أو على آخر. وتفسيرى للأمر أن هذا كلام السماء انتشر بين الأمم كما هو أو بعد تحويره لسبب أو لآخر، وإلا فهل كان على الإسلام أن يعاند ويقول إنه لن تكون هناك حور عين ما دام الآخرون يقولون ذلك؟ إن اليهودية مثلا تخلو من الكلام عن الآخرة، وهذا خلل. كما دخلت النصرانيةَ عقيدةُ التثليث فابتعدت عن التوحيد الصافى. أما الكلام عن نعيم الآخرة والحور العين فهو كلام فى صميم الدين كما أنزله الله. ثم يبقى بعد ذلك تفسير ذلك النعيم: هل سيكون هو نفسه ما نتلذذ به فى الدنيا كحذوك القذة بالقذة؟ أم هل سيكون مجرد لذة روحانية فحسب؟ أم هل سيكون لذة روحانية مادية لكن بشكل مختلف؟

أما أن القرآن فى مكة كان يوصى بمجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن فهذا صحيح، وأما أن الرسول والمسلمين فى المدينة قد صاروا يجادلونهم بالتى هى أخشن فهو كذب صراح. لقد كان اليهود كلما أذّن المسلمون للصلاة سخروا من الأذان وشبهوا صوت المؤذن بنهاق الحمير، وكانوا يقولون إن يد الله مغلولة، ويقولون إن الله فقير ونحن أغنياء، وكانوا يقولون للنبى عليه السلام بعد انتصاره فى بدر: لا يغُرَّنَّك أنك انتصرت على القرشيين. فلئن حاربناك لتَعْلَمَنَّ أننا نحن الناس، وكانوا يعملون على إثارة الفتن والمعارك بين الأنصار، وكانوا يقولون للمشركين إن وثنيتهم خير من الإسلام، وكانوا وكانوا وكانوا. كما عَرَّى بنو قينقاع سَوْأَةَ امرأة مسلمة كانت تتسوق عندهم،

وصاروا يتصايحون كالهمج فى السوق شماتةً بها وبِعُرْيها، ولما تدخل أحد المسلمين لحمايتها اشتعلت معركة حامية سقط فيها قتلى، وبالمثل تآمروا على حياة النبى وأوشكوا أن يلقوا برحى على رأسه من فوق سور الحصن الذى كان مستندا إليه حين ذهب إلى بنى النضير فى أمر من أمور الصحيفة التى كُتِبَتْ عقب الهجرة بين طوائف المدينة المختلفة من مسلمين ويهود ومهاجرين وأنصار، فأوهموه أنهم موافقون على ما جاء من أجله، وصعد بعضهم فوق الحصن ليقذفوا الرحى الصخرية فوق رأسه من أعلى السور حتى يتخلصوا منه إلى الأبد لولا أن الله أوحى إليه بما يدبرون، فنهض وغادر المكان قبل وقوع الكارثة، ووُجِد بعض المسلمين قتلى تحت أسوار حصونهم، واتهم أهلُ القتيل يهودَ بأنهم هم القتلة، بيد أن الرسول العظيم الرحيم الكريم لم يأخذهم بظاهر الأمر بل طالب أولياء الدم بالدليل، ثم دفعت الدولة ديته لعدم تقدمهم بما يبرهن على أن يهود هم قتلته رغم أن الشواهد كلها تقول ذلك. ثم كانت الطامة حين انحاز بنو قريظة إلى الأحزاب وذهب وفد منهم يؤرث الكراهية فى قلوب المشركين أكثر مما هى مؤرَّثة، ويتفقون على خطوط المؤامرة والخيانة. ولولا نجاح نُعَيم بن مسعود الغطفانى، الذى أسلم سرا أوانذاك، فى الإيقاع بين اليهود والأحزاب لضاع المسلمون. وهنا كان العقاب الصارم الذى أوقعه المسلمون بقريظة، فأخذ الأخضر يولول ويلطم لأن بنى قريظة والأحزاب فشلوا فى تدمير الإسلام ودولته، ويتهم النبى بأنه ارتكب مجزرة فى حق بنى قريظة مع أنه كان بهم أرحم من حكم كتابهم بمحق كل نفس حية من إنسان أو حيوان أو نبات عند جيرانهم فى حالة انتصارهم عليهم فى معركة. فما بالنا بارتكابهم الخيانة العظمى فى حق المسلمين، الذين لم يمدوا إليهم يومًا يدًا بالأذى؟ ومرة أخرى ينبغى ألا نخلط بين العلاقات الشخصية وبين أمور الدولة. فاليهود لم يخونوا الرسول بصفة شخصية، بل خانوا الدولة كلها خيانة عظمى هدفوا من ورائها تدميرها واستئصال مواطنيها والقضاء المبرم على دينهم ووضع اليد على أموالهم وممتلكاتهم.

وإلى القارئ ما يحكيه سفر "صموئيل الأول" عن إبادة شاول للشعوب المحيطة بإسرائيل رغم أنه لم تكن هناك خيانة بل عداوة من العداوات التى تكون بين الدول. يقول السفر المذكور: "١وَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: «إِياى أَرْسَلَ الرَّبُّ لِمَسْحِكَ مَلِكًا عَلَى شَعْبِهِ إِسْرَائِيلَ. وَالآنَ فَاسْمَعْ

صَوْتَ كَلاَمِ الرَّبِّ. ٢هكَذَا يقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنِّى قَدِ افْتَقَدْتُ مَا عَمِلَ عَمَالِيقُ بِإِسْرَائِيلَ حِينَ وَقَفَ لَهُ فِى الطَّرِيقِ عِنْدَ صُعُودِهِ مِنْ مِصْرَ. ٣فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا». ٤فَاسْتَحْضَرَ شَاوُلُ الشَّعْبَ وَعَدَّهُ فِى طَلاَيِمَ، مِئَتَى أَلْفِ رَاجِل، وَعَشَرَةَ آلاَفِ رَجُل مِنْ يهُوذَا. ٥ثُمَّ جَاءَ شَاوُلُ إِلَى مَدِينَةِ عَمَالِيقَ وَكَمَنَ فِى الْوَادِى. ٦وَقَالَ شَاوُلُ لِلْقَينِيينَ: «اذْهَبُوا حِيدُوا انْزِلُوا مِنْ وَسَطِ الْعَمَالِقَةِ لِئَلاَّ أُهْلِكَكُمْ مَعَهُمْ، وَأَنْتُمْ قَدْ فَعَلْتُمْ مَعْرُوفًا مَعَ جَمِيعِ بَنِى إِسْرَائِيلَ عِنْدَ صُعُودِهِمْ مِنْ مِصْرَ». فَحَادَ الْقَينِى مِنْ وَسَطِ عَمَالِيقَ. ٧وَضَرَبَ شَاوُلُ عَمَالِيقَ مِنْ حَوِيلَةَ حَتَّى مَجِيئِكَ إِلَى شُورَ الَّتِى مُقَابِلَ مِصْرَ. ٨وَأَمْسَكَ أَجَاجَ مَلِكَ عَمَالِيقَ حَيا، وَحَرَّمَ جَمِيعَ الشَّعْبِ بِحَدِّ السَّيفِ. ٩وَعَفَا شَاوُلُ وَالشَّعْبُ عَنْ أَجَاجَ وَعَنْ خِيارِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالثُّنْيانِ وَالْخِرَافِ، وَعَنْ كُلِّ الْجَيدِ، وَلَمْ يرْضَوْا أَنْ يحَرِّمُوهَا. وَكُلُّ الأَمْلاَكِ الْمُحْتَقَرَةِ وَالْمَهْزُولَةِ حَرَّمُوهَا.

١٠وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى صَمُوئِيلَ قَائِلًا: ١١«نَدِمْتُ عَلَى أَنِّى قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِى وَلَمْ يقِمْ كَلاَمِى». فَاغْتَاظَ صَمُوئِيلُ وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ اللَّيلَ كُلَّهُ. ١٢فَبَكَّرَ صَمُوئِيلُ لِلِقَاءِ شَاوُلَ صَبَاحًا. فَأُخْبِرَ صَمُوئِيلُ وَقِيلَ لَهُ: «قَدْ جَاءَ شَاوُلُ إِلَى الْكَرْمَلِ، وَهُوَذَا قَدْ نَصَبَ لِنَفْسِهِ نَصَبًا وَدَارَ وَعَبَرَ وَنَزَلَ إِلَى الْجِلْجَالِ». ١٣وَلَمَّا جَاءَ صَمُوئِيلُ إِلَى شَاوُلَ قَالَ لَهُ شَاوُلُ: «مُبَارَكٌ أَنْتَ لِلرَّبِّ. قَدْ أَقَمْتُ كَلاَمَ الرَّبِّ». ١٤فَقَالَ صَمُوئِيلُ: «وَمَا هُوَ صَوْتُ الْغَنَمِ هذَا فِى أُذُنَى، وَصَوْتُ الْبَقَرِ الَّذِى أَنَا سَامِعٌ؟» ١٥فَقَالَ شَاوُلُ: «مِنَ الْعَمَالِقَةِ، قَدْ أَتَوْا بِهَا، لأَنَّ الشَّعْبَ قَدْ عَفَا عَنْ خِيارِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ لأَجْلِ الذَّبْحِ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. وَأَمَّا الْبَاقِى فَقَدْ حَرَّمْنَاهُ». ١٦فَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: «كُفَّ فَأُخْبِرَكَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ إِلَى هذِهِ اللَّيلَةَ». فَقَالَ لَهُ: «تَكَلَّمْ». ١٧فَقَالَ صَمُوئِيلُ: «أَلَيس إِذْ كُنْتَ صَغِيرًا فِى عَينَيكَ صِرْتَ رَأْسَ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ وَمَسَحَكَ الرَّبُّ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، ١٨وَأَرْسَلَكَ الرَّبُّ فِى طَرِيق وَقَالَ: اذْهَبْ وَحَرِّمِ الْخُطَاةَ عَمَالِيقَ وَحَارِبْهُمْ حَتَّى يفْنَوْا؟ ١٩فَلِمَاذَا لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ، بَلْ ثُرْتَ عَلَى الْغَنِيمَةِ وَعَمِلْتَ الشَّرَّ فِى عَينَى الرَّبِّ؟». ٢٠فَقَالَ شَاوُلُ لِصَمُوئِيلَ: «إِنِّى قَدْ سَمِعْتُ لِصَوْتِ الرَّبِّ وَذَهَبْتُ فِى الطَّرِيقِ الَّتِى أَرْسَلَنِى فِيهَا الرَّبُّ وَأَتَيتُ بِأَجَاجَ مَلِكِ عَمَالِيقَ وَحَرَّمْتُ عَمَالِيقَ. ٢١فَأَخَذَ

الشَّعْبُ مِنَ الْغَنِيمَةِ غَنَمًا وَبَقَرًا، أَوَائِلَ الْحَرَامِ لأَجْلِ الذَّبْحِ لِلرَّبِّ إِلهِكَ فِي الْجِلْجَالِ». ٢٢فَقَالَ صَمُوئِيلُ: «هَلْ مَسَرَّةُ الرَّبِّ بِالْمُحْرَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ كَمَا بِاسْتِمَاعِ صَوْتِ الرَّبِّ؟ هُوَذَا الاسْتِمَاعُ أَفْضَلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ، وَالإِصْغَاءُ أَفْضَلُ مِنْ شَحْمِ الْكِبَاشِ. ٢٣لأَنَّ التَّمَرُّدَ كَخَطِيَّةِ الْعِرَافَةِ، وَالْعِنَادُ كَالْوَثَنِ وَالتَّرَافِيمِ. لأَنَّكَ رَفَضْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ رَفَضَكَ مِنَ الْمُلْكِ».

٢٤فَقَالَ شَاوُلُ لِصَمُوئِيلَ: «أَخْطَأْتُ لأَنِّي تَعَدَّيْتُ قَوْلَ الرَّبِّ وَكَلاَمَكَ، لأَنِّي خِفْتُ مِنَ الشَّعْبِ وَسَمِعْتُ لِصَوْتِهِمْ. ٢٥وَالآنَ فَاغْفِرْ خَطِيَّتِي وَارْجِعْ مَعِي فَأَسْجُدَ لِلرَّبِّ». ٢٦فَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: «لاَ أَرْجِعُ مَعَكَ لأَنَّكَ رَفَضْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ، فَرَفَضَكَ الرَّبُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ». ٢٧وَدَارَ صَمُوئِيلُ لِيَمْضِيَ، فَأَمْسَكَ بِذَيْلِ جُبَّتِهِ فَانْمَزَقَ. ٢٨فَقَالَ لَهُ صَمُوئِيلُ: «يُمَزِّقُ الرَّبُّ مَمْلَكَةَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ الْيَوْمَ وَيُعْطِيهَا لِصَاحِبِكَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ. ٢٩وَأَيْضًا نَصِيحُ إِسْرَائِيلَ لاَ يَكْذِبُ وَلاَ يَنْدَمُ، لأَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانًا لِيَنْدَمَ». ٣٠فَقَالَ: «قَدْ أَخْطَأْتُ. وَالآنَ فَأَكْرِمْنِي أَمَامَ شُيُوخِ شَعْبِي وَأَمَامَ إِسْرَائِيلَ، وَارْجِعْ مَعِي فَأَسْجُدَ لِلرَّبِّ إِلهِكَ». ٣١فَرَجَعَ صَمُوئِيلُ وَرَاءَ شَاوُلَ، وَسَجَدَ شَاوُلُ لِلرَّبِّ.

٣٢وَقَالَ صَمُوئِيلُ: «قَدِّمُوا إِلَيَّ أَجَاجَ مَلِكَ عَمَالِيقَ». فَذَهَبَ إِلَيْهِ أَجَاجُ فَرِحًا. وَقَالَ أَجَاجُ: «حَقًّا قَدْ زَالَتْ مَرَارَةُ الْمَوْتِ». ٣٣فَقَالَ صَمُوئِيلُ: «كَمَا أَثْكَلَ سَيْفُكَ النِّسَاءَ، كَذلِكَ تُثْكَلُ أُمُّكَ بَيْنَ النِّسَاءِ». فَقَطَعَ صَمُوئِيلُ أَجَاجَ أَمَامَ الرَّبِّ فِي الْجِلْجَالِ. ٣٤وَذَهَبَ صَمُوئِيلُ إِلَى الرَّامَةِ، وَأَمَّا شَاوُلُ فَصَعِدَ إِلَى بَيْتِهِ فِي جِبْعَةِ شَاوُلَ. ٣٥وَلَمْ يَعُدْ صَمُوئِيلُ لِرُؤْيَةِ شَاوُلَ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ، لأَنَّ صَمُوئِيلَ نَاحَ عَلَى شَاوُلَ. وَالرَّبُّ نَدِمَ لأَنَّهُ مَلَّكَ شَاوُلَ عَلَى إِسْرَائِيلَ".

ثم ها هو ذا شاهد آخر من "صموئيل الثانى"، وهو عن داود، الذى نشبت معركة بينه وبين أعدائه انتصر فيها عليهم، فنشر شعوب جميع المدن المهزومة بالمناشير وعجلات النوارج الحديدية الحادة وحطمهم برؤوس الفؤوس لم يبق على نسمة واحدة، ثم وضعهم كلهم فى أفران النار. كل ذلك ولم تكن هناك من جانبهم أية خيانة، بل هو الذى حاربهم وهزمهم فسحقهم ومزقهم: "٢٦وَحَارَبَ يُوآبُ رِبَّةَ بَنِي عَمُّونَ وَأَخَذَ مَدِينَةَ الْمَمْلَكَةِ. ٢٧وَأَرْسَلَ يُوآبُ رُسُلاً إِلَى دَاوُدَ يَقُولُ: «قَدْ

حَارَبْتُ رِبَّةَ وَأَخَذْتُ أَيضًا مَدِينَةَ الْمِيَاهِ. ٢٨فَالآنَ اجْمَعْ بَقِيةَ الشَّعْبِ وَانْزِلْ عَلَى الْمَدِينَةِ وَخُذْهَا لِئَلاَّ آخُذَ أَنَا الْمَدِينَةَ فَيدْعَى بِاسْمِى عَلَيهَا». ٢٩فَجَمَعَ دَاوُدُ كُلَّ الشَّعْبِ وَذَهَبَ إِلَى رِبَّةَ وَحَارَبَهَا وَأَخَذَهَا. ٣٠وَأَخَذَ تَاجَ مَلِكِهِمْ عَنْ رَأْسِهِ، وَوَزْنُهُ وَزْنَةٌ مِنَ الذَّهَبِ مَعَ حَجَرٍ كَرِيمٍ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ دَاوُدَ. وَأَخْرَجَ غَنِيمَةَ الْمَدِينَةِ كَثِيرَةً جِدًّا. ٣١وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِى فِيهَا وَوَضَعَهُمْ تَحْتَ مَنَاشِيرَ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسِ حَدِيدٍ وَأَمَرَّهُمْ فِى أَتُونِ الآجُرِّ، وَهكَذَا صَنَعَ بِجَمِيعِ مُدُنِ بَنِى عَمُّونَ. ثُمَّ رَجَعَ دَاوُدُ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ إِلَى أُورُشَلِيمَ".

وإلى القارئ أيضا ما يقوله سفر "الملوك الأول" عن ذبح إيليا مئات من أنبياء البعل لم يسيئوا إليه أو إلى بنى إسرائيل بشىء ولا قامت حرب بين الطرفين: "١وَبَعْدَ أَيامٍ كَثِيرَةٍ كَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى إِيلِيا فِى السَّنَةِ الثَّالِثَةِ قَائِلًا: «اذْهَبْ وَتَرَاءَ لأَخْآبَ فَأُعْطِى مَطَرًا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ». ٢فَذَهَبَ إِيلِيا لِيتَرَاءَى لأَخْآبَ. وَكَانَ الْجُوعُ شَدِيدًا فِى السَّامِرَةِ، ٣فَدَعَا أَخْآبُ عُوبَدْيا الَّذِى عَلَى الْبَيتِ، وَكَانَ عُوبَدْيا يخْشَى الرَّبَّ جِدًّا. ٤وَكَانَ حِينَمَا قَطَعَتْ إِيزَابَلُ أَنْبِياءَ الرَّبِّ أَنَّ عُوبَدْيا أَخَذَ مِئَةَ نَبِى وَخَبَّأَهُمْ خَمْسِينَ رَجُلًا فِى مُغَارَةٍ وَعَالَهُمْ بِخُبْزٍ وَمَاءٍ. ٥وَقَالَ أَخْآبُ لِعُوبَدْيا: «اذْهَبْ فِى الأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ عُيونِ الْمَاءِ وَإِلَى جَمِيعِ الأَوْدِيةِ، لَعَلَّنَا نَجِدُ عُشْبًا فَنُحْيى الْخَيلَ وَالْبِغَالَ وَلاَ نُعْدَمَ الْبَهَائِمَ كُلَّهَا». ٦فَقَسَمَا بَينَهُمَا الأَرْضَ لِيعْبُرَا بِهَا. فَذَهَبَ أَخْآبُ فِى طَرِيقٍ وَاحِدٍ وَحْدَهُ، وَذَهَبَ عُوبَدْيا فِى طَرِيقٍ آخَرَ وَحْدَهُ. ٧وَفِيمَا كَانَ عُوبَدْيا فِى الطَّرِيقِ، إِذَا بِإِيلِيا قَدْ لَقِيهُ فَعَرَفَهُ، وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ وَقَالَ: «أَأَنْتَ هُوَ سَيدِى إِيلِيا؟» ٨فَقَالَ لَهُ: «أَنَا هُوَ. اذْهَبْ وَقُلْ لِسَيدِكَ: هُوَذَا إِيلِيا». ٩فَقَالَ: «مَا هِى خَطِيتِى حَتَّى إِنَّكَ تَدْفَعُ عَبْدَكَ لِيدِ أَخْآبَ لِيمِيتَنِى؟ ١٠حَى هُوَ الرَّبُّ إِلهُكَ، إِنَّهُ لاَ تُوجَدُ أُمَّةٌ وَلاَ مَمْلَكَةٌ لَمْ يرْسِلْ سَيدِى إِلَيهَا لِيفَتِّشَ عَلَيكَ، وَكَانُوا يقُولُونَ: إِنَّهُ لاَ يوجَدُ. وَكَانَ يسْتَحْلِفُ الْمَمْلَكَةَ وَالأُمَّةَ أَنَّهُمْ لَمْ يجِدُوكَ. ١١وَالآنَ أَنْتَ تَقُولُ: اذْهَبْ قُلْ لِسَيدِكَ هُوَذَا إِيلِيا. ١٢وَيكُونُ إِذَا انْطَلَقْتُ مِنْ عِنْدِكَ، أَنَّ رُوحَ الرَّبِّ يحْمِلُكَ إِلَى حَيثُ لاَ أَعْلَمُ. فَإِذَا أَتَيتُ وَأَخْبَرْتُ أَخْآبَ وَلَمْ يجِدْكَ فَإِنَّهُ يقْتُلُنِى، وَأَنَا عَبْدُكَ أَخْشَى الرَّبَّ مُنْذُ صِبَاى. ١٣أَلَمْ يخْبَرْ سَيدِى بِمَا فَعَلْتُ حِينَ قَتَلَتْ إِيزَابَلُ أَنْبِياءَ الرَّبِّ، إِذْ خَبَّأْتُ مِنْ أَنْبِياءِ الرَّبِّ مِئَةَ رَجُلٍ، خَمْسِينَ خَمْسِينَ رَجُلًا فِى مُغَارَةٍ وَعُلْتُهُمْ بِخُبْزٍ وَمَاءٍ؟ ١٤وَأَنْتَ الآنَ تَقُولُ: اذْهَبْ قُلْ لِسَيدِكَ:

هُوَذَا إِيلِيا، فَيَقْتُلُنِى». ١٥فَقَالَ إِيلِيا: «حَى هُوَ رَبُّ الْجُنُودِ الَّذِى أَنَا وَاقِفٌ أَمَامَهُ، إِنِّى الْيَوْمَ أَتَرَاءَى لَهُ». ١٦فَذَهَبَ عُوبَدْيا لِلِقَاءِ أَخْآبَ وَأَخْبَرَهُ، فَسَارَ أَخْآبُ لِلِقَاءِ إِيلِيا.

١٧وَلَمَّا رَأَى أَخْآبُ إِيلِيا قَالَ لَهُ أَخْآبُ: «أَأَنْتَ هُوَ مُكَدِّرُ إِسْرَائِيلَ؟» ١٨فَقَالَ: «لَمْ أُكَدِّرْ إِسْرَائِيلَ، بَلْ أَنْتَ وَبَيتُ أَبِيكَ بِتَرْكِكُمْ وَصَايا الرَّبِّ وَبِسَيرِكَ وَرَاءَ الْبَعْلِيم. ١٩فَالآنَ أَرْسِلْ وَاجْمَعْ إِلَى كُلِّ إِسْرَائِيلَ إِلَى جَبَلِ الْكَرْمَلِ، وَأَنْبِياءَ الْبَعْلِ أَرْبَعَ الْمِئَةِ وَالْخَمْسِينَ، وَأَنْبِياءَ السَّوَارِى أَرْبَعَ الْمِئَةِ الَّذِينَ يأْكُلُونَ عَلَى مَائِدَةِ إِيزَابَلَ». ٢٠فَأَرْسَلَ أَخْآبُ إِلَى جَمِيعِ بَنِى إِسْرَائِيلَ، وَجَمَعَ الأَنْبِياءَ إِلَى جَبَلِ الْكَرْمَلِ. ٢١فتَقَدَّمَ إِيلِيا إِلَى جَمِيعِ الشَّعْبِ وَقَالَ: «حَتَّى مَتَى تَعْرُجُونَ بَينَ الْفِرْقَتَينِ؟ إِنْ كَانَ الرَّبُّ هُوَ اللهَ فَاتَّبِعُوهُ، وَإِنْ كَانَ الْبَعْلُ فَاتَّبِعُوهُ». فَلَمْ يجِبْهُ الشَّعْبُ بِكَلِمَةٍ. ٢٢ثُمَّ قَالَ إِيلِيا لِلشَّعْبِ: «أَنَا بَقِيتُ نَبِيا لِلرَّبِّ وَحْدِى، وَأَنْبِياءُ الْبَعْلِ أَرْبَعُ مِئَةٍ وَخَمْسُونَ رَجُلًا. ٢٣فَلْيعْطُونَا ثَوْرَينِ، فَيخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ ثَوْرًا وَاحِدًا وَيقَطِّعُوهُ وَيضَعُوهُ عَلَى الْحَطَبِ، وَلكِنْ لاَ يضَعُوا نَارًا. وَأَنَا أُقَرِّبُ الثَّوْرَ الآخَرَ وَأَجْعَلُهُ عَلَى الْحَطَبِ، وَلكِنْ لاَ أَضَعُ نَارًا. ٢٤ثُمَّ تَدْعُونَ بِاسْمِ آلِهَتِكُمْ وَأَنَا أَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ. وَالإِلهُ الَّذِى يجِيبُ بِنَارٍ فَهُوَ اللهُ». فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَقَالُوا: «الْكَلاَمُ حَسَنٌ». ٢٥فَقَالَ إِيلِيا لأَنْبِياءِ الْبَعْلِ: «اخْتَارُوا لأَنْفُسِكُمْ ثَوْرًا وَاحِدًا وَقَرِّبُوا أَوَّلًا، لأَنَّكُمْ أَنْتُمُ الأَكْثَرُ، وَادْعُوا بِاسْمِ آلِهَتِكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَضَعُوا نَارًا». ٢٦فَأَخَذُوا الثَّوْرَ الَّذِى أُعْطِى لَهُمْ وَقَرَّبُوهُ، وَدَعَوْا بِاسْمِ الْبَعْلِ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الظُّهْرِ قَائِلِينَ: «يا بَعْلُ أَجِبْنَا». فَلَمْ يكُنْ صَوْتٌ وَلاَ مُجِيبٌ. وَكَانُوا يرْقُصُونَ حَوْلَ الْمَذْبَحِ الَّذِى عُمِلَ. ٢٧وَعِنْدَ الظُّهْرِ سَخِرَ بِهِمْ إِيلِيا وَقَالَ: «ادْعُوا بِصَوْتٍ عَالٍ لأَنَّهُ إِلهٌ! لَعَلَّهُ مُسْتَغْرِقٌ أَوْ فِى خَلْوَةٍ أَوْ فِى سَفَرٍ! أَوْ لَعَلَّهُ نَائِمٌ فَيتَنَبَّهَ!» ٢٨فَصَرَخُوا بِصَوْتٍ عَالٍ، وَتَقَطَّعُوا حَسَبَ عَادَتِهِمْ بِالسُّيوفِ وَالرِّمَاحِ حَتَّى سَالَ مِنْهُمُ الدَّمُ. ٢٩وَلَمَّا جَازَ الظُّهْرُ، وَتَنَبَّأُوا إِلَى حِينِ إِصْعَادِ التَّقْدِمَةِ، وَلَمْ يكُنْ صَوْتٌ وَلاَ مُجِيبٌ وَلاَ مُصْغٍ، ٣٠قَالَ إِيلِيا لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: «تَقَدَّمُوا إِلَى». فَتَقَدَّمَ جَمِيعُ الشَّعْبِ إِلَيهِ. فَرَمَّمَ مَذْبَحَ الرَّبِّ الْمُنْهَدِمَ. ٣١ثُمَّ أَخَذَ إِيلِيا اثْنَى عَشَرَ حَجَرًا، بِعَدَدِ أَسْبَاطِ بَنِى يعْقُوبَ، الَّذِى كَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيهِ قَائِلًا: «إِسْرَائِيلَ يكُونُ اسْمُكَ» ٣٢وَبَنَى الْحِجَارَةَ مَذْبَحًا بِاسْمِ الرَّبِّ، وَعَمِلَ قَنَاةً حَوْلَ الْمَذْبَحِ تَسَعُ كَيلَتَينِ مِنَ الْبَزْرِ. ٣٣ثُمَّ رَتَّبَ الْحَطَبَ وَقَطَّعَ الثَّوْرَ وَوَضَعَهُ عَلَى الْحَطَبِ، وَقَالَ: «امْلأُوا أَرْبَعَ جَرَّاتٍ مَاءً وَصُبُّوا عَلَى الْمُحْرَقَةِ

وَعَلَى الْحَطَبِ». ٣٤ثُمَّ قَالَ: «ثَنُّوا» فَثَنَّوْا. وَقَالَ: «ثَلِّثُوا» فَثَلَّثُوا. ٣٥فَجَرَى الْمَاءُ حَوْلَ الْمَذْبَحِ وَامْتَلأَتِ الْقَنَاةُ أَيضًا مَاءً. ٣٦وَكَانَ عِنْدَ إِصْعَادِ التَّقْدِمَةِ أَنَّ إِيلِيا النَّبِى تَقَدَّمَ وَقَالَ: «أَيهَا الرَّبُّ إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ، لِيعْلَمِ الْيوْمَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ فِى إِسْرَائِيلَ، وَأَنِّى أَنَا عَبْدُكَ، وَبِأَمْرِكَ قَدْ فَعَلْتُ كُلَّ هذِهِ الأُمُورِ. ٣٧اسْتَجِبْنِى يا رَبُّ اسْتَجِبْنِى، لِيعْلَمَ هذَا الشَّعْبُ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ الإِلهُ، وَأَنَّكَ أَنْتَ حَوَّلْتَ قُلُوبَهُمْ رُجُوعًا». ٣٨فَسَقَطَتْ نَارُ الرَّبِّ وَأَكَلَتِ الْمُحْرَقَةَ وَالْحَطَبَ وَالْحِجَارَةَ وَالتُّرَابَ، وَلَحَسَتِ الْمِياهَ الَّتِى فِى الْقَنَاةِ. ٣٩فَلَمَّا رَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ ذلِكَ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَقَالُوا: «الرَّبُّ هُوَ اللهُ! الرَّبُّ هُوَ اللهُ!». ٤٠فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيا: «أَمْسِكُوا أَنْبِياءَ الْبَعْلِ وَلاَ يفْلِتْ مِنْهُمْ رَجُلٌ». فَأَمْسَكُوهُمْ، فَنَزَلَ بِهِمْ إِيلِيا إِلَى نَهْرِ قِيشُونَ وَذَبَحَهُمْ هُنَاكَ".

أما بالنسبة إلى النصارى فقد أتى مثلا إلى الرسول منهم وفدٌ من كبار أهل نجران، ودخل مع النبى فى مناقشات، فعرض عليهم صلى الله عليه وسلم الإسلام أو الجزية أو المباهلة، فنكلوا عن المباهلة، وآثروا دفع الجزية. وحين أتى الأحباش تركهم يصلون ويزفنون فى مسجده صلى الله عليه وسلم بحرية تامة. وحين ذهب المغيرة بن شعبة إلى نصارى اليمن اعترضوا على ما جاء فى القرآن من أن بنى إسرائيل كانوا ينادون مريم أم المسيح بـ"يا أخت هارون"، فلم ينلهم المغيرة بأى أذى، وكل ما فعله أنه عند عودته أنبأ النبىَّ بما كان منهم رغبة فى معرفة رده على ذلك، فلم يفكر صلى الله عليه وسلم هو أيضا فى إنزال الأذى بهم، مكتفيا بتبيين السبب فى هذا النداء إذ كانوا يتَسَمَّوْن بأسماء أهل التقوى منهم. فأين الخشونة فى هذا كله من جانب المسلمين؟ واضح أن الطرف الآخر هو الذى كان يخاشن ويتحرش ويستفزّ ويبحث عن المشاكل! وفى الفصل الخاص بأحداث السنة التاسعة للهجرة من كتابه: "La Vie de Mahomet" يؤكد الكاتب الرومانى فيرجيل جيورجيو (Virgil Gheorghiu) أنه، رغم انتشار الإسلام وسلطانه فى بلاد العرب كلها فى ذلك العام، لم يتغير من شخصية محمد أو أسلوب معيشته أى شىء، إذ ظل على بساطته وتواضعه وديمقراطيته وبُعْده عن الكبر أو التجبر. ولم يكْرِه اليهود أو النصارى على تغيير دينهم واللحاق بالإسلام، بل احتفظوا بدينهم كما يحبون. ولا يفوت الكاتب الرومانى الإشارة إلى سماح النبى لنصارى نجران

بالصلاة فى مسجده والتوجه ناحية بيت المقدس أثناء ذلك. ثم يضيف قائلا: لقد كان محمد مثالا للتسامح لم يستطع أحد تجاوزه.

ويستمر العفيف فى افتراء الباطل على النبى قائلا: "كان محمد (أى فى مكة) معترفا بجميع ديانات عصره: من اليهودية إلى المجوسية، ديانة أحد معلميه سلمان الفارسى، مرورا بالمسيحية والصابئة... إسلام المدينة نسخ الأساسى من الإسلام المكى، أى اللاعنف والإعتراف بجميع الأديان بما هى طريق للخلاص الروحى للمؤمنين بها". لكن أين الاعتراف بجميع ديانات العصر المحمدى فى القرآن؟ الواقع أن الآية التالية هى الآية الوحيدة التى تتحدث عن الأديان المذكورة جميعا فى القرآن المكى أو أول القرآن المدنى قبل أن يتغير موقف محمد من هذا الأمر حسب مزاعم العفيف الأخضر: "إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (الحج/ ١٧). فهل يستطيع أحد أن يدلنا على وجود شىء مما يقول هذا المدلِّس فى الآية عن اعتراف محمد بتلك الديانات؟ هل قول القرآن إن الله سوف يفصل بين المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين يوم القيامة معناه اعتراف الإسلام بصحة أديانهم؟ إن كل ما تتحدث عنه الآية هو أن هناك اختلافات بين أصحاب هذه الديانات سوف يفصل فيها الله يوم القيامة، ولا تدل أبدا على اعتراف بها. ثم لِمَ أتى محمد إذن بدين جديد، وعالمى أيضا، ما دام يقر بصحة الديانات الأخرى؟ أم هل يمكن أن يكون معنى القصص التى أوردها القرآن المكى عن بنى إسرائيل وعنادهم وعبادتهم العجل وكفرهم فور عبورهم البحر بعد انشقاقه لهم وتَوْقهم إلى أيام العبودية والمذلة على يد الفرعون بعد أن خلصهم الله منها واستحلالهم السبت واتهامهم مريم بالزنى وكفرهم بعيسى عليه السلام هو اعترافا من القرآن بصحة دينهم؟ أم هل قول القرآن فى سورة "مريم" إن المسيح ليس ابنا لله بل مجرد عبد ورسول له وتهديد من يؤلهونه بمشهد يوم عظيم معناه أنه يعترف بدينهم؟

ومما قاله أيضا العفيف الأخضر المدلس: "أما فى المدينة فقد استحال محمد إلى مشرّع ومحارب يقطع الطريق على القوافل، ويغزو القبائل لإدخالها بالسيف فى الإسلام، ويقتل الشعراء الذين

هجوه، أو يقتل أسرى قريش وأسرى اليهود. ولم يكن فى مكة يفعل شيئًا من ذلك". وهنا أيضا نجد العفيف الأخضر يردد ما يقوله المستشرقون والمبشرون من أمثال كلود إيتيين ساڤارى وچورچ سيل ووليم موير وهربرت چورچ ويلز ووليم مونتجمرى وات وغيرهم. وهناك فعلا بعض اغتيالات قد طالت اليهود، ومنهم شاعرة أو شاعران. لكن لا بد أن نعرف الظروف التى تم فيها هذا الاغتيال. ولسوف أنقل ما كتبه المستشرق البريطانى ستانلى لين پول عن هذه النقطة فى مقدمته للمختارات القرآنية التى ترجمها خاله إدوارد وليم لين. وهو يدين اليهود لمشاغباتهم ضد المسلمين ونبيهم، وتآمراتهم عليهم، واستفزازاتهم المستمرة لهم، وموالستهم الدائمة مع المشركين لضربهم والقضاء عليهم، وكذبهم بشأن كتبهم التى ينكرون أن تكون إشارات القرآن إليها موجودة فيها رغم أنها كانت فعلا هناك، وكذلك أشعارهم فى العدوان على أعراض السيدات المسلمات التى لم يكن من الممكن احتمالها وغض البصر عنها مهما أوتى النبى والمسلمون من حلم وسعة صدر، فضلا عن أنه ليس هناك دليل على أن الرسول كان يعلم بتلك الاغتيالات، بله أن يكون قد أمر بها. وهو يؤكد أن واجب الرسول كحاكم للمدينة يقتضيه أن يعاقب المسىء حتى لا تتدهدى الأحوال إلى ما لا تحمد عقباه. بل إنه ليرى إن الاغتيالات السرية فى مثل تلك الظروف العصيبة لهى أفضل كثيرا من العقاب الصريح أمام قبائل المجرمين، إذ كان من شأن ذلك العقاب إثارة الفتنة وانجرار جميع قبائل المدينة إلى هذا الأتون المشتعل. وهذا كله إنما يشير فى اتجاه واحد هو أن العفيف الأخضر، جراء كراهيته للإسلام ونبيه وأتباعه، يأخذ على الدوام جانب اليهود الظلمة المعتدين ضد المسلمين المظلومين المعتدَى عليهم.

ولو كان الإسلام يشرع الحرب الإكراهية كما يزعم هذا الكذاب فلم قال سبحانه وتعالى فى سورة "البقرة" و"الممتحنة"، وهما سورتان مدنيتان لا مكيتان: "وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الذين يقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا. إنَّ الله لا يحِبُّ المعتَدِين"، "فمَنِ اعْتَدَى عَلَيكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيهِ بمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيكُمْ"، "عَسَى اللَّهُ أَنْ يجْعَلَ بَينكُمْ وَبَينَ الَّذِينَ عَادَيتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لا ينْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيهِمْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"؟ من الواضح أن القرآن لا يأخذ العاطل مع الباطل، بل يفرق بينهما تفرقة دقيقة. كذلك لو كانت الحرب العدوانية شريعة إسلامية لما قال رسوله الكريم: "يا أيها الناس، لا تتمنَّوْا لقاء العدو، وسَلُوا الله تعالى العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا"، ولما رضى بشروط الحديبية المجحفة مبديا استعداده للعمل بكل سبيل إلى حقن الدماء!

وبالمثل ينتقد الكاتب الحقود القرآن لأمره المسلمين فى سورة "الأنفال" أن يعِدّوا لأعدائهم ما استطاعوا من أدوات القتال يرهبونهم بها هم وغيرهم ممن لا يظهرون على الساحة لكنهم يخططون للإضرار بالمسلمين فى الخفاء ولا يعلمهم إلا الله، مع أن هذه الآية دليل لا يصَدّ ولا يرَدّ على تهافت مثل هذا الاتهام. إنه يؤكد أنه لا يوجد إرهاب حميد، بل كله عنده إرهاب خبيث. كيف والإرهاب الذى يتحدث عنه القرآن هو تخويف العدو حتى لا يطمع فى دولتنا وأمتنا؟ إنه ردع بقوة الاستعداد دون أى لجوء إلى الحرب والقتل والتدمير. فما وجه العيب فى هذا؟ لكنه يكره كل ما يقوله الإسلام دون أن يكلف نفسه أى تفكير فى الأمر. ولنبدأ بهؤلاء الذين يتآمرون على الإسلام فى السر ولا يعلم بأمرهم المسلمون، فما معنى هذا؟ معناه أن الأمر متوقف على الطرف الآخر: فإن بادأ هذا الطرفُ المسلمين بالعدوان وقف المسلمون فى وجهه بما استعدوا به من سلاح، وإلا فلا مواجهة ولا يحزنون كما هو واضح من مفهوم الآية. أما الأعداء الظاهرون فإن هذا الاستعداد من شأنه أن يلقى الرهبة فى صدورهم فلا يجرؤوا على مهاجمة المسلمين، وينتهى الأمر هنا أيضا، وإلا فإن لم يرعووا كان المسلمون مستعدين لهم فلا يؤخَذوا على حين غِرّة. ليس ذلك فحسب، بل إن الكاتب الماكر قد تعمَّد تعمُّدًا تجاهلَ الآيات التى تلى ذلك، ونصها: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَينَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَينَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"، مما ما يؤكد ما قلناه من قبل من أن الأمر متوقف على موقف الطرف الآخر: إن شاء المسالمة

سالمه المسلمون، وإن شاء الحرب كان المسلمون مستعدين فلا يضْرَبون على غفلة. بل إن الإسلام ليمضى فى إيثار السلام إلى الحد الذى لو عُرِض على أتباعه هذا السلامُ فليجنحوا له ولا يخْشَوْا أن يغدر بهم أولئك الأعداء، والله معهم ولن يتخلى عنهم. أما إن تيقنوا فعلا أنهم ينوون بهم غدرا فعندئذ فعليهم أن ينبذوا إليهم ما كان بين الطرفين من معاهدة ولا يبدأوا هم الغِرّة، إذ لا بد أن يكون كل شىء واضحا. فبالله عليكم أيها القراء، ما الذى يمكن أن يؤخذ على هذا النبل الراقى؟

وفى مقال عنوانه: "العنف النصرانى فى التاريخ- القول بأن الإسلام المعتدل خرافة هو الخرافة"، موجود بترجمتى فى منتدى الدكتور إبراهيم عوض بموقع "واتا" (الجمعيةالدولية للمترجمين واللغويين العرب) يقول مؤلفه فنسينزو أوليفيتى ردا على باتريك سوكديو الزعيم الأنجليكانى، الذى نشر بصحيفة "السبكتيتر" البريطانية فى ٣٠ يونيه ٢٠٠٥م مقالا يتهم فيه الإسلام بأنه دين إرهابى: "الحق أنه لا وجود فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى لمثل ذلك المبدإ الذى كان ينادى به القديس أوغسطين، وهو : "عليكم أن تنصِّروهم قَسْرًا وإكراهًا". بل إن القرآن ليقول العكس من ذلك تماما كما فى الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة "البقرة"، ونصها: "لا إكراه فى الدين". لقد أدت فكرة أوغسطين المرعبة التى توجب إكراه الجميع على "التطابق" مع "العقيدة النصرانية الصحيحة" إلى قرون من سفك الدماء الذى ليس له فى تاريخ البشرية نظير. أجل، لقد عانى النصارى أثناء سلطان الحضارة النصرانية أكثر مما عانَوْا تحت سلطان الرومان قبل مجىء النصرانية أو أى سلطان آخر طوال التاريخ. لقد تجرع الملايين غصص التعذيب وذُبِحوا ذبحا باسم النصرانية أثناء البدع الآريوسية والدوناتية والألبيجينية، ودعنا من محاكم التفتيش المختلفة أو الحروب الصليبية التى كانت الجيوش الأوربية تقول فيها وهى تجزر رقاب المسلمين والنصارى معا: "اقتلوهم عن بَكْرة أبيهم، ولسوف يميز الله من يخصّونه ممن لا يخصّونه". وغَنِىٌّ عن القول أن هذه الاعتداءات التى قام بها النصارى، بل كل الاعتداءات النصرانية على مدار التاريخ، لا صلة بينها على الإطلاق وبين السيد المسيح أو حتى بينها وبين الأناجيل كما نعرفها. أجل لا يوجد مسلم واحد يمكن أن يؤاخذ السيد المسيح (الكلمة التى صارت جسدا بالنسبة للنصارى

والمسلمين جميعا)، فكيف إذن تواتى سوكْدِيو نفسُه على محاسبة القرآن (كلمة الله التى صارت كتابا بالنسبة للمسلمين) على الاعتداءات الإسلامية (التى تقلّ كثيرا جدا عن نظيرتها النصرانية)؟

والواقع أن ذلك العنف الأعمى الذى لا يعرف التمييز لا يقتصر البتة على "عصور الظلام" فى أوربا أو على فترة واحدة من التاريخ النصرانى دون سواها، فحركات الإصلاح الدينى والحركات المضادة لها قد دفعت كلتاهما بالمجازر التى ارتكبها النصارى بعضهم فى حق بعضهم إلى آمادٍ قياسيةٍ غير مسبوقة، إذ تمت إبادة ثلثى النصارى فى أوربا خلال تلك الفترة. ثم لا ينبغى أن ننسى الحروب النابليونية من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥م، ولا تجارة الرقيق الأفريقى التى حصدت أرواح عشرة ملايين إنسان، أو الغزو الاستعمارى المتلاحق، فضلا عن الحروب والبرامج والثورات والإبادات الأخرى. إن أعداد السكان الأصليين الذين أبيدوا فى شمال أمريكا ووسطها وجنوبها لترتفع إلى رقم العشرين مليونا فى خلال ثلاثة أجيال لا غير .

وبالإضافة إلى ألوان التخريب والعنف الأوربى فى الماضى، أخذت الحضارة الغربية الحروب مرة أخرى إلى مسافاتٍ لم تعرفها البشرية من قبل حتى إن أحد الإحصاءات المتحفظة ليصل بعدد المقتولين قتلا وحشيا فى القرن العشرين إلى أكثر من مائتين وخمسين مليونا يتحمل المسلمون منها وِزْر أقل من عشرة ملايين ليس إلا، على حين يسْأَل النصارى أو المنتمون إلى النصرانية عن مائتى مليون من ذلك العدد. و يعود معظم أعداد هؤلاء القتلى إلى الحرب العالمية الأولى (٢٠ مليونا، ٩٠ ٪ منها على الأقل تمت على أيدى "نصارى") والحرب العالمية الثانية (٩٠ مليونا، ٥٠ ٪ منها على الأقل تمت على أيدى "نصارى"، أما الباقى فقد وقع أغلبه فى الشرق الأقصى). وبالتأمل فى ذلك التاريخ المرعب يجب علينا نحن الأوربيين جميعا أن نعى تماما الحقيقة الساطعة التى تؤكد أن الحضارة الإسلامية أقل بما لا يقاس من ناحية القسوة والوحشية من الحضارة النصرانية.

ترى هل كانت المحرقة التى راح ضحيتها ٦ ملايين يهودى من صنع حضارة المسلمين؟ وفى القرن العشرين وحده نجد أن الغربيين والنصارى قد ارتكبوا من جرائم القتل أضعاف ما وقع من الدول الإسلامية عشرين مرة على أقل تقدير. ولقد تسببنا نحن الغربيين فى هذا القرن الذى لم يشهد

التاريخ مثله دموية فى إيقاع الإصابات بين المدنيين بما لا يقاس به ما صنعه المسلمون على مدار تاريخهم جميعا: انظر إلى إزهاق أرواح ٩٠٠٠٠٠ رواندى عامى ١٩٩٢م و١٩٩٥م فى بلدٍ أكثر من ٩٠٪ من سكانه نصارى، أو انظر إلى إبادة أكثر من ٣٠٠٠٠٠ مسلم، وكذلك الاغتصاب المنظم لأكثر من ١٠٠٠٠٠ امرأة مسلمة فى البوسنة، على يد نصارى الصرب. فهذه الحقائق البشعة تقول بلغة الأرقام والإحصاءات التى لا تعرف الكذب إن الحضارة النصرانية هى أشد حضارات التاريخ عنفا ودموية، وإنها مسؤولة عن إزهاق مئات الملايين من الأرواح .

لقد كان إنتاج الأسلحة النووية واستعمالها كفيلا فى حد ذاته بأن يجعل الغرب يتوارى خجلا أمام باقى شعوب العالم: فأمريكا هى التى صنعت الأسلحة النووية، وأمريكا هى الدولة الوحيدة التى استخدمت الأسلحة النووية، والدول الغربية هى التى تسعى إلى الحفاظ على احتكار الأسلحة النووية. وعلى هذا الأساس فليس لنا الحق بتاتا فى الاعتراض على حيازة الدول الأخرى لهذه الأسلحة إلا إذا أثبتنا أننا متجهون إلى التخلص منها تماما . ولا بد من القول بأن الإسلام، رغم اشتماله على مفهوم الحرب المشروعة دفاعا عن النفس (كما هو الحال فى النصرانية، وكذلك البوذية)، لا مكان فى ثقافته (أو فى أية ثقافة أخرى من الثقافات الموجودة الآن) لإمكانية تحويل العنف إلى مثلٍ أعلى أو جعله وثنا معبودا كما فعلت الثقافة الغربية.

إن الغربيين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ناس مسالمون، بيد أن الرقة والسموّ اللذين يطبعان الأناجيل بطابعهما، وكذلك الطبيعة المحبة للسلام التى تتسم بها الديموقراطية، ليس لها فى الحقيقة أى انعكاس فى الثقافة الغربية الشعبية إلا على سبيل الندرة. بل على العكس نرى الاتجاه التام لتلك الثقافة، متمثلا فى أفلام هوليوود وبرامج التلفاز الغربية وألعاب الفيديو والموسيقى الشعبية والمسابقات الرياضية، ينحو منحى تمجيد العنف وتزيينه. ومن ثم فإن المعدلات النسبية لجرائم القتل (وبخاصة القتل العشوائى والقتل المسلسل) فى العالم الغربى (وبالذات فى الولايات المتحدة الأمريكية، بل حتى فى أوربا كلها بصفة عامة) أعلى من مثيلاتها فى العالم الإسلامى فى البلاد التى لا يوجد فيها حروب طائفية، وذلك على الرغم من أن الغرب يتمتع بثروة أضخم كثيرا. ترى هل

قرعت سمعَ سوكْدِيو يومًا الكلماتُ التالية من إنجيل متى٧؟ 1": لاَ تَدِينُوا لِكَى لاَ تُدَانُوا،٢لأَنَّكُمْ بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِى بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ، وَبِالْكَيلِ الَّذِى بِهِ تَكِيلُونَ يكَالُ لَكُمْ. ٣وَلِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِى فِى عَينِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِى فِى عَينِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟ ٤أَمْ كَيفَ تَقُولُ لأَخِيكَ: دَعْنِى أُخْرِجِ الْقَذَى مِنْ عَينِكَ، وَهَا الْخَشَبَةُ فِى عَينِكَ؟ ٥يا مُرَائِى، أَخْرِجْ أَوَّلًا الْخَشَبَةَ مِنْ عَينِكَ، وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيدًا أَنْ تُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَينِ أَخِيكَ"!".

والغريب أن العفيف وأمثاله لا يتطرقون فى كلامهم أبدا إلى الأسلحة النووية والهيدروجينية والبيولوجية التى تضرب بها أمريكا الشعوب فى كل مكان دون مبالاة بقانون أو عرف أو دين. كما لا يتطرقون أبدا إلى القواعد العسكرية الأمريكية هنا وهناك حول العالم، تلك القواعد التى تنطلق منها الطائرات والبواخر والأسلحة الفتاكة تقصف وتنسف البلاد والعباد. وبالمثل لا يتطرق العفيف وأشباهه إلى ترسانة إسرائيل المدمرة ولا عدواناتها المجرمة على الفلسطينيين منذ أنشئت بل من قبل إنشائها حتى يومنا هذا رغم أنها ليس لها حق أصلا فى أن تكون حيث هى، ويتناسون أنها دولة دينية لا تتمشى مع مفهوم الدولة حسب طنطناتهم.

أما حوادث قطع الطريق التى أشار إليها العفيف الأخضر فإنى، رغم تأكيد الكاتب الهندى سراج على أن الأمور لم تكن قد استقرت بعد للرسول وأصحابه فى يثرب آنذاك بما يمكن أن يفكر معه فى قطع طريق أو خلافه، وبخاصة أن اتفاق العقبة بين الأنصار وبين رسول الله عليه السلام لم يكن يوجب عليهم الخروج معه لمحاربة أحد من أعدائه خارج مدينتهم، أرى أنها أمر عادل تماما. لقد اضطهد المشركون النبى وأتباعه فى مكة أيما اضطهاد، وأكرهوهم فى نهاية المطاف على ترك بلدهم ودورهم وممتلكاتهم والخروج منها منفَّضين أو شبه منفضين، مع الاعتداءات المتكررة عليهم عند مغادرتهم البلد، ومنهم بعض بنات الرسول صلى الله عليه وسلم. كما قتلوا بعض المهاجرين، ووضعوا خطة لاغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام دون أن يكون صَدَرَ منه أى إضرار بهم، وطاردوه فى الجبال يريدون الظفر برقبته بعدما أفلت من مؤامرتهم الدنيئة التى كانت تقضى باغتياله فى بيته وعلى فراشه. فما الذى كان العفيف الأخضر يريده من المسلمين؟ أن يبتلعوا كل تلك

الإهانات والمظالم والعدوانات والاغتيالات والمصادرات والاستيلاء على البيوت والممتلكات وكأن شيئا لم يكن؟ من غير المعقول ولا المنتظر أن يظل المظلوم يتلقى الصفع على قفاه والركل فى مؤخرته واستحلال البلطجية أمواله وبيته وتعديهم على نسائه وأعراضهن إلى الأبد دون أن يفكر فى الثورة على هذا يوما. كما أن العفيف الأخضر لا يفرق بين الأشخاص والدول فى هذه المسألة، فالشخص قد يتنازل عن حقه ويتسامح، لكن من الصعب على الدول انتهاج تلك السبيل كيلا تضيع هيبتها ويتجرأ الأعداء عليها وتأكلها الذئاب.

إن العفيف معروف ببغضه الحارق للإسلام والمسلمين حتى إنه كان يعضد زين العابدين بن على فيما يفعله بالتونسيين من استبداد وبطش وإجرام ونهب وقتل واعتقال وترويع وخنق للمساجد ومرتاديها وتتبع لهم وتنكيل بهم. بل إنه كان يدعو إلى الانقلاب العسكرى على الثورة التونسية فى شماتة وسعار غريب! بل إنه ليناشد الغرب مرارا لاستئصال الإسلام والمسلمين من العالم إذا لم ينصاعوا للصياغة التى يعمل الغرب على صوغهم إياها على النحو الذى يشتهى ويخرجهم تماما من ملتهم فيصبحون بلا إسلام ولا هوية. ثم ها هو ذا الآن يتباكى من أجل شاعرة أو شاعرين من يهود كانا يعملان على إثارة القلاقل ويشعلان نار العداوة والعدوان ضد الدولة التى تؤويهما ولا تتعرض بأى شر لهما، واشتركا فى التآمر عليها لتدميرها والقضاء على دينها. وهو هو موقفه من الفلسطينيين، الذين يتطاول عليهم ويدين دفاعهم عن حقوقهم السليبة المهضومة ويناصر الصهاينة فى فلسطين ويدعو إلى فرم أهل البلاد المستضعفين المظلومين.

والآن مع بعض المعارك التى دارت بين المسلمين فى المرحلة المدنية وأعدائهم لنرى من المعتدِى ومن المعتدَى عليه: ففى غزوة صفوان، وهى غزوة بدر الأولى، يقول ابن هشام: "قال بن إسحاق: ولم يقِمْ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالى قلائل لا تبلغ العَشْر حتى أغار كُرْز بن جابر الفِهْرِى على سرح المدينة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة فيما قال ابن هشام. قال ابن إسحاق: حتى بلغ واديا يقال له: "سفوان" من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه".

وهذه واقعة أخرى بطلها رجل من مشركى قريش وقع ابنه أسيرا فى يد المسلمين ببدر، فلم ينله هو أو غيره من الأسرى على يد المسلمين أى أذى. وبالمناسبة لا يحل الإسلام قتل الأسير، إذ ليس له عند المسلمين سوى أحد مصيرين: إما المنّ عليه وإطلاق سراحه بلا مقابل، وإما مفاداته، أى أخذ فدية من أهله لقاء إعطائه حريته. فالعفيف الأخضر إذن يكذب حين يتهم رسول الله والمسلمين بقتل الأسرى. وعلى كُلٍّ فقد سافر الأب من مكة إلى المدينة عازما على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه هى القصة مفصلة حسبما أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية: "قال ابن إسحاق: وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش فى الِحْجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويلْقَوْن منه عناء وهو بمكة. وكان ابنه وهب بن عمير فى أُسَارى بدر. قال ابن هشام: أسره رفاعة بن رافع أحد بنى زريق. قال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: فذكر أصحاب القَلِيب ومصابهم. فقال صفوان: والله إِنْ فى العيش بعدهم خير. قال له عمير: صدقتَ والله! أَمَا والله لولا دَينٌ على ليس له عندى قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لى قِبَلَهم عِلَّة: ابنى أسير فى أيديهم. قال: فاغتنمها صفوان وقال: على دَينُك. أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بَقُوا، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم شأنى وشأنك. قال: أفعل. قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشُحِذَ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب! والله ما جاء إلا لشر! وهو الذى حرَّش بيننا وحَزَرَنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه. قال: فأَدْخِلْه على. قال: فأقبل عمر حتى أخذ بِحِمَالة سيفه فى عنقه، فلَبَّبَه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر آخذٌ بحمالة سيفه فى عنقه، قال: أرسله يا عمر. أُدْنُ يا عمير. فدنا ثم قال: انعموا صباحا. وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير: بالسلام تحية أهل الجنة. فقال: أما والله يا محمد إنْ كنتُ بها لَحَدِيثَ عهد. قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم. فأحسنوا فيه. قال: فما بال السيف فى عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئا؟ قال: أُصْدُقْنى! ما الذى جئتَ له؟ قال: ما جئت إلا لذلك. قال: بل قعدتَ وصفوان بن أمية فى الحِجْر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَينٌ على وعيالٌ عندى لخرجتُ حتى أقتل محمدا. فتحمَّلَ لك صفوان بدَينك وعيالك على أن تقتلنى له. والله حائل بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله. قد كنا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى. وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان. فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله. فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فَقِّهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره. ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله، إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل. وأنا أحب أن تأذن لى، فأَقْدَم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أُوذِى أصحابك فى دينهم. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيامٍ تنسيكم وقعة بدر. وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألا يكلمه أبدا ولا ينفعه بنفع أبدا. قال ابن إسحاق: فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذى من خالفه أذى شديدا، فأسلم على يديه ناس كثير".

ثم هذه واقعة ثالثة. جاء فى "سيرة ابن هشام" تحت عنوان "ذِكْر يوم الرجيع فى سنة ثلاث": "حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحاق المطلبى قال: حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة

قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحُدٍ رهطٌ من عضل والقارة... قال ابن إسحاق: فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقْرِئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرًا ستةً من أصحابه، وهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب، وخالد بن البكير الليثى حليف بنى عدى بن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح أخو بنى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وخُبَيب بن عَدِى أخو بنى جحجبى بن كلفة بن عمرو بن عوف، وزيد بن الدثنة بن معاوية أخو بنى بياضة بن عمرو بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غصب بن جشم بن الخزرج، وعبد الله بن طارق حليف بنى ظفر بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس. وأَمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم مرثد بن أبى مرثد الغنوى، فخرج مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية الحجاز) على صدور الهدأة غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يرُعِ القومَ وهم فى رحالهم إلا الرجالُ بأيديهم السيوف قد غَشُوهم. فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة. ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. فأما مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا...

وكان عاصم بن ثابت يكنى: أبا سليمان، ثم قاتل القوم حتى قُتِل وقُتِل صاحباه. فلما قُتِل عاصم أرادت هذيل أخْذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرتْ على رأس عاصم لتشربنَّ فى قحفه الخمر. فمنعه الدَّبْرُ. فلما حالت بينه وبينهم قالوا: دعوه يمسى، فتذهب عنه، فنأخذه. فبعث الله الوادى، فاحتمل عاصمًا فذهب به. وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدًا ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا تَنَجُّسًا. فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول حين بلغه أن الدبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن. كان عاصم نَذَرَ ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدا فى حياته. فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته. وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق فلانوا ورَقُّوا ورغبوا فى الحياة فأَعْطَوْا بأيديهم،

فأسروهم ثم خرجوا إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم فرَمَوْه بالحجارة حتى قتلوه. فقبره، رحمه الله، بالظهران.

وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة: قال ابن هشام: فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة. قال ابن إسحاق: فابتاع خبيبًا حجيرُ بنُ أبى إهاب التميمى حليف بنى نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل. وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه، فقتله بأبيه. قال ابن هشام: الحارث بن عامر خال أبى إهاب، وأبو إهاب أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم. ويقال: أحد بنى عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم من بنى تميم. قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له: "نسطاس" إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت فى الناس أحدًا يحب أحدًا كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا. ثم قتله نسطاس، يرحمه الله.

وأما خبيب بن عدى فحدثنى عبد الله بن أبى نجيح أنه حدث عن ماوية مولاة حجير بن أبى إهاب، وكانت قد أسلمت، قالت: كان خبيب عندى، حُبِس فى بيتى. فلقد اطلعت عليه يوما، وإن فى يده لقِطْفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم فى أرض الله عنبًا يؤكل. قال ابن إسحاق: وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى نجيح جميعًا أنها قالت: قال لى حين حضره القتل: ابعثى إلى بحديدة أتطهر بها للقتل. قالت: فأعطيت غلامًا من الحى الموسَى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت. قالت: فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه فقلت: ماذا صنعت؟ أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام فيكون رجلًا برجل. فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لَعَمْرُكَ ما خافت أمُّك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلى؟ ثم خَلَّى سبيله. قال ابن هشام: ويقال: إن الغلام ابنها. قال ابن إسحاق: قال عاصم: ثم خرجوا بخبيب، حتى إذا جاءوا به إلى

التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا: دونك، فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طَوَّلْتُ جزعًا من القتل لاستكثرتُ من الصلاة. قال: فكان خبيب بن عدى أول مَنْ سَنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. قال: ثم رفعوه على خشبة. فلما أوثقوه قال: اللّٰهم إنا قد بَلَّغْنا رسالة رسولك، فبَلِّغْه الغداةَ ما يصْنَع بنا. ثم قال: اللّٰهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا. ثم قتلوه رحمه الله. فكان معاوية بن أبى سفيان يقول: حضرتُه يومئذ فيمن حضره مع أبى سفيان، فلقد رأيته يلقينى إلى الأرض فرقًا من دعوة خبيب. وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعِى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه.

قال ابن إسحاق: حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عقبة بن الحارث قال: سمعته يقول: ما أنا والله قتلت خبيبًا لأنى كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة أخا بنى عبد الدار. أخذ الحربة فجعلها فى يدى ثم أخذ بيدى وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله. قال ابن إسحاق: وحدثنى بعض أصحابنا قال: كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية وهو بين ظهرى القوم، فذُكِر ذلك لعمر بن الخطاب وقيل: إن الرجل مصاب. فسأله عمر فى قَدْمَة قَدِمَها عليه فقال: يا سعيد، ما هذا الذى يصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بى من بأس. ولكنى كنت فيمن حضر خبيب بن عدى حين قُتِل، وسمعت دعوته. فوالله ما خطرت على قلبى وأنا فى مجلس قط إلا غُشِى على. فزادته عند عمر خيرًا. قال ابن هشام: أقام خبيب فى أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم ثم قتلوه".

ثم هذه واقعة رابعة وأخيرة، فقد تكرر هذا العدوان والغدر من جانب المشركين مرارا، فتكفى أربعة شواهد عن غيرها، وإلا أمللنا القراء. يقول ابن هشام: "حديث بئر معونة فى صفر سنة أربع: قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة، ووَلِى تلك الحجةَّ المشركون، والمحرَّم، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب بئر معونة فى صَفَر على رأس أربعة أشهر من أُحُد. وكان من حديثهم كما حدثنى أبى إسحاق بن يسار عن

المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيره من أهل العلم. قالوا: قَدِم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأَسِنّة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه، فلم يسْلِم ولم يبْعُد من الإسلام وقال: يا محمد، لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد فدَعَوْهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أخشى عليهم أهل نجد. قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم، فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق ليموت فى أربعين رجلًا من أصحابه من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان أخو بنى عدى بن النجار، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق فى رجال مُسَمَّين من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، كلا البلدين منها قريب، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب. فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل. فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر، فأَبَوْا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نَخْفِر أبا براء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا. فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكوان، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غَشُوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم. فلما رَأَوْهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قُتِلوا من عند آخرهم يرحمهم الله، إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار، فإنهم تركوه وبه رَمَقٌ، فارتثَّ من بين القتلى فعاش حتى قُتِل يوم الخندق شهيدًا رحمه الله.

وكان فى سَرْح القوم عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار أحد بنى عمرو بن عوف. قال ابن هشام: هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح. قال ابن إسحاق: فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا. فأقبلا لينظرا، فإذا القوم فى دمائهم، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة، فقال الأنصارى لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال:

أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر. فقال الأنصارى: لكنى ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قُتِل فيه المنذر بن عمرو، وما كنتُ لتخبرنى عنه الرجال. ثم قاتل القومَ حتى قُتِل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا. فلما أخبرهم أنه من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل وجَزَّ ناصيته وأعتقه عن رقبةٍ زعم أنها كانت على أمه.

فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بنى عامر. قال ابن هشام: ثم من بنى كلاب، وذكر أبو عمرو المدنى أنهما من بنى سليم. قال ابن إسحاق: حتى نزلا معه فى ظلٍّ هو فيه. وكان مع العَامِرِيينِ عقدٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وجِوَارٌ لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بنى عامر. فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد قتلت قتيلين لأَدِينَّهما! ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا عمل أبى براء. قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا. فبلغ أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله صلى الله عله وسلم بسببه وجواره. وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة.

قال ابن إسحاق: فحدثنى هشام بن عروة عن أبيه: أن عامر بن الطفيل كان يقول عن رجل منهم لما قُتِل: رأيتُه رُفِع بين السماء والأرض حتى رأيتُ السماء مِنْ دونه. قالوا: هو عامر بن فهيرة. قال ابن إسحاق: وقد حدثنى بعض بنى جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر قال: وكان جبار فيمن حضرها يومئذ مع عامر ثم أسلم. قال: فكان يقول: إن مما دعانى إلى الإسلام أنى طعنت رجلًا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فُزْتُ والله! فقلت فى نفسى: ما فاز! ألستُ قد قتلتُ الرجل! قال: حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة. فقلت: فاز لَعَمْرُ الله... قال ابن إسحاق: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن

الطفيل فطعنه بالرمح، فوقع فى فخذه، فأشواه، ووقع عن فرسه فقال: هذا عمل أبى براء. إن أمت فدمى لعمى، فلا يتْبَعَنَّ به. وإن أعش فسأرى رأيى فيما أتى إلى".

ونبلغ ما زعمه العفيف الأخضر من أن النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة قد انقلب على نفسه، فبعدما كان متسامحا فى مكة مع غير المسلمين ويقول: "من شاء فليؤمنْ، ومن شاء فليكفر"، "وإنا أو إياكم لَعَلَى هُدًى أو فى ضلالٍ مبين" قال: "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ"، "قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه ولا يدِينُون دِينَ الحقِّ من الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون". وهو زعم كذوب كصاحبه، إذ إن قوله عز وجل فى النص الأول، وهو جزء من الآية الخامسة من سورة "التوبة"، ليس أمرا مطلقا بالقضاء على المشركين كما يحاول الكذابُ إيهامَ القارئ الغُفْل، بل هو رد على فريق من المشركين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة لم يحترموها، بل غدروا بها وقتلوا المسلمين وحلفاءهم غير راقبين فيهم إِلًّا ولا ذمة ولا وفاء بكلمتهم معهم كما وصفهم القرآن المجيد. ومع هذا لم يصدر القرآن الأمر بمعاملتهم بالمثل فى الوقت واللحظة، بل تسامح معهم غاية التسامح، وأعطاهم مهلة أربعة أشهر يسيحون خلالها بطول البلاد وعرضها دون أن يتعرض أحد من المسلمين لهم بأى أذى، وبحيث إذا ما أتى المسلمين أحدُ المشركين مستجيرا فلْيجِيروه وليسْمِعوه كلام الله وليبْلِغوه فى نهاية الأمر مأمنه، ثم حين تنتهى مدة السماح يبدأ سريان مفعول البيان الخاص بعقابهم بمثل ما عاملوا المسلمين به. ومع هذا لم يوضع هذا الإعلان موضع التنفيذ، إذ سرعان ما فُتِحَت مكة، ودخل الناس من تلقائهم فى دين الله أفواجا. وبقية الآيات تعضد ما نقول، إذ نجدها تعلن قولها: "إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. إن الله يحب المتقين". فالآيات تستثنى من هذا الحكم الخاص بالخونة الغدارين كُلَّ من حافظ على اتفاقاته مع المسلمين فى شرف ورجولة.

وأما قوله سبحانه: "قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر..." فهو خاص بالروم، الذين بلغ المسلمين أنهم يجمعون قواتهم العسكرية على الحدود الشمالية من بلادهم فى أطراف الشام

كى يغزوهم، فنزل الوحى بالقصد إليهم لمقاتلتهم. ذلك أن الأمر هنا أمر كرامة الدولة وتأمين حدودها وحياة أبنائها وممتلكاتهم. وإن فرَّطت الدولة فى ذلك فقل: عليها السلام. ولقد لبى الرسول والمسلمون النداء القرآنى رغم قلة الإمكانات بالنسبة إلى ما لدى الروم من تجهيزات واستعدادات وأسلحة وجيوش وخطط واستخبارات ومؤن وما إلى ذلك، وقاد الرسول بنفسه جيوشه فى تلك الظروف الصعبة حتى وصل إلى المنطقة المذكورة، فأَلْفَى الرومَ قد تركوها وعادوا من حيث جاؤوا، فبقى هناك قليلا ثم عاد إلى قاعدة انطلاقه فى المدينة بعد أن عقد بعض الاتفاقات مع القبائل هناك. فما وجه الخطإ فى هذا؟

إن ذلك المسعور لا يرضيه شىء أقل من تدمير الإسلام واستئصال المسلمين وقتل الرسول. إنه يدعو الغربيين إلى استئصال شأفة الإسلام بشبهة أنه دين إرهابى، عاكسا الوضع الصحيح وجاعلا من الغربيين سادةِ الاستعمار والاحتلال وسرقة ثروات الأمم وقاتلى الأحرار فى كل مكان ومضيقى الخناق على الشرفاء المناضلين ومزيلى الهنود الحمر بالملايين من أمريكا والسكان الأصليين من أستراليا ومالخى فلسطين من يد العرب والمسلمين ومعطيها لليهود ومستفزى أصحابها الفلسطينيين من بلادهم ليهيموا على وجوههم فى أرجاء الأرض ومفككى العراق وقاتلى مليون عراقى وممزقى السودان وحماة كل مستبد فى كل مكان على وجه البسيطة ومعاونيه ضد شعبه وأمته ليقتلهم ويسرقهم ويعتقلهم ويعذبهم ويروعهم براحته خدمة لهم وتحقيقا لأهدافهم و... و... و... مما لا يمكن إحصاؤه وحصره، جاعلا منهم دعاة سلام ونصراء عدل، ومصيرا الضحية هى المعتدية الإرهابية. كل ذلك ببجاسة قلب وقساوة ضمير.

اسمعه يقول مثلا: "حروب محمد على يهود المدينة والتنديد بهم وبالنصارى فى آيات القرآن المدنى أسست لهذه الإنعزالية الإنتحارية... رأينا ذلك فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وفى الإنتفاضة الثانية حيث كان استشهاديو حماس ينحرون وينتحرون فى الإسرائيليين سواء أكانوا واقفين أمام محطة باص، أو مصطفين فى الطابور للدخول إلى مرقص أو فى مكدونالد... إلخ... مازال جمهور أقصى اليمين الإسلامى فى العالم العربى يهدد اليهود المعاصرين بتكرار مذبحة يهود بنى قريظة. الشعار

المركزى فى مظاهرات الإخوان المسلمين فى الأردن لمساندة حماس: "خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سيعود". وعندما زار اسماعيل هنية تونس أستقبله جمهور الإسلاميين بنفس الشعار".

إنه، كما نرى، يحمل حملة شعواء مسعورة على الفلسطينيين، ويرى فى مناضليهم الذين يحاولون بما فى أيديهم من وسائل بدائية إيلام العدو الصهيونى بعضا من الألم مقابل ما يوقعه بهم هذا العدو الهمجى من كوارث ومصائب لا تحصى ولا تعد من تدمير البيوت والاعتقالات وهتك أعراض النساء وتقتيل الرجال والأطفال والسيدات ومصادرة أراضيهم وإغلاق أبواب الحياة عليهم بالضبة والمفتاح، يرى فى أولئك المناضلين جماعات إرهابية تريد قتل الصهاينة المساكين المسالمين. ثم ما قوله فى الآية التالية من سورة "البقرة"، وهى آية مدنية لا مكية: "لا إكراه فى الدين. قد تَبَين الرُّشْدُ من الغَيِّ"؟ وقد نزلت فى بعض من أبناء الأنصار كانوا يعيشون منذ الصغر يهودا مع اليهود، ولما أُجْلِيَ هؤلاء عن المدينة خرجوا معهم، فأراد آباؤهم أن يستبقوهم ويكرهوهم على ترك اليهودية، لكن القرآن كان له موقف آخر.

ومن أكاذيبه التى لا تنتهى قوله إن "مشروع دستور الإخوان المسلمين الذى قدموه (يقصد فى مصر) فى سنة ٢٠١١ شاهد بليغ على استمرار الإسلام المدنى بكل ثقافة الإنطواء على الذات، وثقافة كراهية اليهود والنصارى، فضلا عن المؤمنين بالديانات الوثنية، التى لا يعترف بها الإسلام، مخيرا المؤمنين بها بين اعتناق الإسلام أو القتل. إليكم مثلا عينة من مشروع هذا الدستور الخاصة بالسياسة الخارجية: المادة ١٧٧- الإسلام هو المحور الذى تدور حوله السياسة الخارجية، وعلى أساسه تُبْنَى علاقة الدولة بجميع الدول. المادة ١٧٨- (...) الدول التى ليس بيننا وبينها معاهدات، والدول الإستعمارية فعلًا كإنجلترا وأمريكا وفرنسا، والدول التى تطمع فى بلادنا كروسيا، تعتبر دولًا محاربة (...)، ولا يصح أن تنشأ معها علاقات دبلوماسية (...). الدول المحاربة فعلًا كإسرائيل مثلا يجب أن تتخذ معها حالة الحرب أساسًا لكافة التصرفات، ويمنع جميع رعاياها من دخول البلاد، وتستباح دماء غير المسلمين منهم". وهكذا فصَدَى مذبحة يهود بنى قريظة مازال يتردد بقوة!".

ووجه الكذب فى هذا الكلام أنه لم يكن هناك فى مصر إعداد دستور فى عام ٢٠١١م بل فى سنة ٢٠١٢. هذه واحدة. والثانية أنه لا يوجد شىء اسمه دستور الإخوان المسلمين بل الدستور المصرى فى عام ٢٠١٢ ثم الدستور المصرى مرة أخرى بعد ذلك بعامين. والكذبة الثالثة هى أنه لا يوجد فى الدستور المصرى لعام ٢٠١٢م، وهو الدستور المقصود لأنه تم فى عهد د. محمد مرسى الإخوانى، أى شىء مما قاله هذا المدلس. فأما المادتان الـ١٧٧ والـ١٧٨ فها هما تان: "يعرض رئيس الجمهورية أو مجلس النواب مشروعات القوانين المنظمة لمباشرة الحقوق السياسية وللانتخابات الرئاسية والتشريعية والمحلية على المحكمة الدستورية العليا قبل إصدارها لتقرير مطابقتها للدستور... إلخ"، "تنشر فى الجريدة الرسمية أحكام المحكمة الدستورية العليا وقراراتها الصادرة بشأن الرقابة السابقة بمشروعات القوانين المنظمة لمباشرة الحقوق السياسية وللانتخابات الرئاسية والتشريعية والمحلية...". ومن الجلى الساطع سطوع الشمس أنهما تتحدثان عن شىء آخر تماما.

أما الإشارة إلى الإسلام فترد فى أول الدستور خلال الحديث عن المقومات السياسية للبلاد حيث نقرأ فى المواد ١- ٣ ما يلى: "جمهورية مصر العربية دولة مستقلة ذات سيادة موحدة لا تقبل التجزئة، ونظامها ديمقراطى. والشعب المصرى جزء من الأمتين العربية والإسلامية، ويعتز بانتمائه لحوض النيل والقارة الأفريقية وبامتداده الآسيوى، ويشارك بإيجابية فى الحضارة الإنسانية"، "الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع"، "مبادئ شرائع المصريين من المسيحيين واليهود المصدر الرئيسى للتشريعات المنظِّمة لأحوالهم الشخصية وشؤونهم الدينية واختيار قياداتهم الروحية". وليس فيها، كما يلمس القارئ بيده لمسا، أى شىء مما يفتريه هذا المفترى، بل كل ما فيها يناقض ما يقول.

لكن لماذا انقلب الرسول على نفسه فصار عدوانيا متعصبا بعدما كان متسامحا واسع الأفق يعترف بالأديان الأخرى ويراها منفذا للنجاة فى الآخرة كما يزعم المدلس؟ يقول العفيف: "فَهْمُ طفولة أى شخص ضرورى لفهم تصرفاته فى باقى أيام حياته. ومحمد... وُلِدَ مكتئبًا. موت أبيه بعد زواجه ببضعة أشهر أورث آمنة اكتئابًا حِدَادِيا طويلًا على الأرجح. نعرف اليوم طبيا أن مشاعر

الحامل السارة أو المحزنة تنتقل إلى جنينها. عادةً الأم، بدافع غريزة إعادة الإنتاج النرجسية، تنتظر أن يكون مولودها البكر بنتًا، كما يتمنى الأب العكس. لذلك يكون البكر غير مرغوب فيه، لا شعوريا على الأقل، من أحد الأبوين. أضف إلى ذلك أن القبائل العربية تتشاءم من المولود الذى يموت أبوه وهو جنين. فى تونس إلى الخمسينات يسمونه "أحرف"، أى مشؤوم. وهكذا فالطفل محمد كان على الأرجح غير مرغوب فيه من أمه. ربما لهذا السبب سرعان ما تخلصت منه للمرضعات: أولًا لثويبة مولاة ابو لهب، ثم حليمة، وربما لمرضعات أخريات. محمد كان كلَّ شىء إلا طفلًا محبوبًا أو سعيدًا. أمه لم ترغب فيه، وآباؤه المربّون (الأب نفسيا ليس الوالد بل المربى) عاملوه على الأرجح بقسوة. وهذا ما أورثه، بين أمراض أخرى، الشعور الساحق بالذنب، الذى تحول إلى عدوانية وانحراف فى المدينة حيث كانت الظروف الموضوعية مساعدة على ذلك".

فانظر جرأته وتغشمره فى الكلام عن النبى صلى الله عليه وسلم: فمن أين له يا ترى أن الأم تريد أن يكون بكرها بنتا؟ ألا إن ذلك لهو الجنون بعينه، إذ من المعروف للبعيد والقريب، والغبى والذكى، أن العرب كانوا يكرهون خلفة البنات ويرَوْنَها شؤما وعارا. وكانت النساء أحرى أن يكرهنهن لما يمكن أن يقع لهن بسببهن من الطلاق وانهدام الأسرة. بل كان العرب، من بغضهم للإناث، يئدونهن ويدسونهن فى التراب صغيرات. فكيف يقول العفيف الأخضر هذا الكلام المجنون؟ وكيف عرف أن آمنة كانت تكره ابنها؟ يجيب بأنها تركته لغيرها من النساء يرضعنه. لكنه، لجهله، نسى أن المكيين كانوا يعهدون بأبناءهم للبدويات يأخذنهم معهم إلى الصحراء ويرضعنهم هناك حتى يشب الصبى جَلْدًا قويا متحملًا لمصاعب الحياة فصيحَ اللسان. فليس محمد بِدْعًا فى هذا. بل إن الطفل الذى لا تستطيع أسرته إرساله إلى الصحراء لضعف إمكاناتها المادية لتشعر بالغضاضة لأنه يظهرها أقل من غيرها مالا وجاها. ولقد جاءت المرضعات إلى مكة أيام رضاعة محمد، وطُفْنَ بالبيوت، وأخذت كل منهن نصيبها من الأطفال ضامنة الانتعاش جراء ما تحصل عليه مقابل ذلك من أموال وهدايا، اللّهم إلا حليمة، التى لم يقدَّر لها أن تجد رضيعا غنىّ الأسرة، فاضطُرّت إلى أن تأخذ محمدا رغم قلة ذات اليد عند أهله حتى لا ترجع فارغة فاشلة. وهل هناك أم تكره طفلها،

وبخاصة إذا لم يكن معيبا أو يسبب لها مشاكل لا تقدر على مواجهتها؟ ثم من أين للكاتب بأن العرب كانت تتشاءم بالطفل الذى يموت أبوه وهو رضيع؟ وأين ذلك التشاؤم الذى كان المكيون يكنونه لمحمد يا ترى؟ ثم هل كان المكيون، الذين لم يتركوا تهمة دون أن يلصقوها بالنبى مَينًا وزورًا حين جاءهم بالوحى، ليتركوه دون أن يرموه بالشؤم على أهله ومن حوله؟ لكنهم لم يفعلوا ولم يأتنا عنهم فى هذا الأمر أى شىء ولو على سبيل التلميح البعيد. فعلام يدل ذلك؟ يدل على أن كلام العفيف الأخضر لا قيمة له!

بالعكس إن المرأة التى تأيمَتْ لَخَلِيقَةٌ بأن تحب ابنها هذا حبًّا جَمًّا كتعويض عن زوجها الذى فقدته. ثم لو كانت آمنة تكره ابنها فلماذا لم تتزوج بعد موت والده، وقد كانت شابة تليق بالزواج ويليق بها جدا؟ ولقد كان محمد كذلك محبوبا من أهله جميعا ومن كل من له صلة بهم. فكانت أمه تلح فى استرداده دائما من حليمة السعدية مرضعته البدوية، لكن حليمة كانت تتمسك به لما وقع فى قلبها من حبه وللبركة التى أصابت حياتهم وهو فى حضانتها. فكيف يقال إن أمه كانت تكرهه؟ وهل تكره أُمٌّ فَلْذَةَ كبدها بهذه السهولة السخيفة؟ وحين كبر قليلا اصطحبته معها فى زيارة أخواله بيثرب، ثم ماتت فى طريق العودة إلى مكة، فحزن محمد الطفل الصغير عليها حزنا شديدا يدل على أنها كانت تحبه، وكان يحبها حبًّا قويا جِدَّ قَوِيٍّ على عكس ما يزعم العفيف الأخضر. ولو كانت تكرهه لتركته فى مكة وانطلقت إلى أهلها بيثرب خفيفة من عبئه الباهظ طبقا لما يدعيه العفيف! كما كانت أم أيمن مرضعته فى بيت أمه تحبه حبا جميلا، وظل هو يذكر لها حنانها وعطفها حتى فى المدينة بعد كل تلك الأعوام الطوال، ويكرمها ويقربها إليه ويقر لها بالبنوة مسويا بينها وبين أمه. وكانت هى من جانبها تعامله أحيانا وهو نبى رسول معاملتها لولد من أولادها، فيتقبل صلى الله عليه وسلم منها ذلك بكل رحابة صدر وإكرام.

كذلك كان جده عبد المطلب يحبه ويتعلق به تعلقا عجيبا. يقول ابن هشام فى "السيرة النبوية": "قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم. وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج

إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له. قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلامٌ جَفْرٌ حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى، فوالله إن له لشأنا. ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع".

وكان عمه أبو طالب، الذى آلت إليه كفالته بعد جده يحبه هو أيضا حبا هائلا، ويعطف عليه عطفا كريما، ويحرص على اصطحابه معه كلما سافر. وهو الذى خطب له خديجة بنت خويلد وألقى خطبة النكاح مباهيا به مثنيا عليه مادحا خلائقه وكرم نحيزته. وحين نزل عليه الوحى كان يحميه بكل ما لديه من قوة وجاه من بطش قومه رغم ما كان يسببه له ذلك من إحراج مع كبارهم، ولم تبدر منه كلمة سيئة حين أَلْفَى ابنَه عليا ينحاز لابن عمه ويسارع على الفور إلى اعتناق دينه وهو صغير. وسواء اعتنق أبو طالب الإسلام كما يقول الشيعة أو ظل على دين قومه حتى فاضت روحه إلى بارئها كما يعتقد أهل السنة فقد ظل دائما يرعاه ويحنو عليه ولا تخرج من فمه له أبدا كلمة مؤلمة، ويتدخل فى حسم بينه وبين كفار قريش فيكفّهم عن أذاه وإزعاجه حتى إن الرسول والمسلمين قد سَمَّوُا العام الذى تُوُفِّىَ فيه هو وخديجة وارتفعت عنه صلى الله عليه وسلم حمايته الكريمة بـ"عام الحزن". فأين تلك الكراهية المزعومة التى يزعجنا بالحديث عنها الكاتب المدلس! ثم لو كان قد لقى فى بيت أبى طالب ما يؤذيه أكان يضم إلى أسرته عليا وينفق عليه ويعامله كأنه ابنه؟

ولقد ظل رسول الله يحفظ فى قلبه، لثويبة مولاة عمه أبى لهب التى أرضعته أول واحدة ولأم أيمن حاضنته فى البيت ولحليمة السعدية مرضعته البدوية وأسرتها، الشعور بالجميل رغم كرور الأعوام والعقود حتى إن هناك حديثا يذكر تخفيف العذاب قليلا عن أبى لهب عمه صلى الله عليه وسلم لأنه أعتق ثويبة هذه حين بشرته بميلاد النبى عليه السلام. فكيف يقال إن مولده كان غير مرحَّب به بل مكروها، وهذا أبو لهب، الذى سوف ينقلب عليه شر منقلب عندما يأتيه الوحى، يهب مولاته حريتها فرحا بمقدمه؟ وكيف يرى بعض أهل الرسول فى المنام أن أبا لهب خُفِّف عنه العذاب لهذا السبب؟ وكيف يظل الرسول ذاكرا ثويبة، وبكل خير، بعد هذا العمر الطويل لو كانت تؤذيه أو تتبرم به أو تفقد صبرها معه أو تنهره أو تبعده عنها؟ كما كان ينادى أم أيمن وهو نبى بـ"يا

أَمَّهْ"، ويقولُ : "هذه بقيةُ أهلِ بيتى"، ويقول أيضا: "أم أيمن أمى بعد أمى". بل لقد بلغ من إدلالها عليه وشعورها بأمومتها نحوه حتى بعدما كبر أنْ قدمت له ماء ذات مرة فلم يشربه لأنه كان صائما أو لم يكن عطشان ساعتئذ، فجعلت تصخب وتَذْمُر عليه دون أن يحس صلى الله عليه وسلم بأية غضاضة. كما أن الشيماء بنت حليمة السعدية، وهى أخته من الرضاع، حين سُبِيتْ يوم هوازن من قِبَل المسلمين وقالت لمن سباها: "أنا أخت صاحبكم"، وحملوها إليه، وقالت: يا رسول الله، "أنا أختك"، قال مستفسرا: وما علامة ذلك؟ قالت: "عضة منك فى ظهرى". فعرفها صلى الله عليه وسلم ثم قام بنفسه، وهو النبى والحاكم والقائد والزعيم، وبسط رداءه وأجلسها عليه، ودمعت لها عيناه. فهل هذا تصرف رجل ذاق على أيدى هؤلاء الناس القسوة والإهمال والكراهة؟ خيبة الله على كل متهوس!

إن هذا الرجل الذى يزعم أن أم محمد ومرضعاته وكافلاته كن يكرهنه يرتب على تلك الكراهية المدعاة أنه نشأ ساديا يتلذذ بتعذيب نفسه. وتتجسد هذه السادية عنده فى أنه كان يقسو على نفسه بالصلاة ليلا فى بداية الوحى والقيام أثناء ذلك على قدم واحدة أحيانا، ولا أدرى كيف، إذ لسنا فى سيرك بهلوانات. كما أنه من الصعب جدا جدا أن يبقى الشخص طوال الليل قائما على قدم واحدة يناجى ربه دون أن يتراقص ويفقد توازنه ويسقط بعد قليل. والحق أنه لو كان صلى الله عليه وسلم مكروها كما يزعم كذبا هذا المدلس لتولد لديه شعور الحقد والمرارة والقسوة على الآخرين لا على نفسه. أليس كذلك؟ لكن على من تتلو مزاميرك يا داوود؟ كذلك لو كان مكروها أو على الأقل: مزهودا فيه أكان أهله يختارون له أجمل الأسماء؟ لقد كانوا أحرياء أن يطلقوا عليه اسما قبيحا يشى بما يكنونه له من مشاعر الضيق والازدراء بدلا من "محمد"، الذى يدل على أن صاحبه جد محبوب وجد محمود على كل الألسنة، وبخاصة أنه لم يكن من آبائه من كان اسمه محمدا، بل ولا كان محمد اسما شائعا بين العرب آنذاك، بخلافه الآن، فهو أكثر أسماء الأعلام انتشارا فى الأرض. بل لقد سمعنا مرارا فى الفترة الأخيرة أنه أكثر أسماء المواليد الجدد فى أوربا ذاتها.

ومن مظاهر السادية أيضا عند النبى الكريم صلى الله عليه وسلم، حسب دعاوى العفيف الأخضر البلهاء، كثرة الواجبات الدينية من صلاة وطهارة وصيام وحج وما إلى ذلك. والغريب أن يزعم أيضا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تخفف من تلك السادية وذلك التشديد فى المرحلة المدنية وانطلق فيها خفيف الضمير مما كان يثقله قبلا، بينما نرى أن تلك الواجبات الدينية فى الحقيقة لم تقلّ أو تضمحل، بل على العكس قد زادت، إذ لم يكن المسلمون فى مكة يحجون مثلا أو يصومون أو يغتسلون من الجنابة أو يحاربون وينفقون أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. فكيف يفسر المدلس هذا؟ ومع ذلك كله كان النبى عليه الصلاة والسلام، فيما تنبهت إليه وعجبت له عجبا شديدا من كثرة ما لاحظته فى نفسى وفى الناس من حولى من ضيق الصدر وشدة الانفعالات وسرعة الملل وتأثير الميول القوى فينا وما هو من هذا بسبيل، أنه كان متزن النفس معتدل الانفعالات متئدا هاشا باشا لا يمل ولا يضيق صدره إلا نادرا لو حصل. ولقد كان هذا هو السر الأعظم لنجاحه صلوات الله عليه وسلاماته فى نبوته ورئاسته وقيادته المتعددة الجوانب للمسلمين، وتأثيراته المذهلة على صعيد التاريخ الإنسانى والحضارة العالمية رغم ضآلة الوسائل فى يديه وبدائيتها.

يقول ألفونس دى لامارتين عنه صلى الله عليه وسلم فى الجزء الثانى من كتابه: " Histoire de la Turquie" مبرزا هذه النقطة، وملقيا الضوء على مواهبه العقلية والقيادية والروحية العظيمة التى تعلو به فوق المقارنة مع أى إنسان: "Si la grandeur du dessein, la petitesse des moyens, l'immensité du résultat sont les trois mesures du génie de l'homme, qui osera comparer humainement un grand homme de l'histoire moderne à Mahomet", "Philosophe, orateur, apôtre, législateur, guerrier, conquérant d'idées, restaurateur de dogmes rationnels d'un culte sans images, fondateur de vingt empires terrestres et d'un empire spirituel, voilà Mahomet. A toutes les échelles où l'on mesure la grandeur humaine, quel homme fut plus grand?". وهذا هو السبب فى أن مايكل هارت قد وضعه فى كتابه الشهير على رأس المائة الذين كان لهم تأثير قوى على مسيرة التاريخ الإنسانى:

" My choice of Muhammad to lead the list of the world's most influential persons may surprise some readers and may be questioned by others, but he was the only man in history who was supremely successful on both the religious and secular levels. Of humble origins, Muhammad founded and promulgated one of the world's great religions, and became an immensely effective political leader.

Today, thirteen centuries after his death, his influence is still powerful and pervasive. The majority of the persons in this book had the advantage of being born and raised in centers of civilization, highly cultured or politically pivotal nations". كما قرأت على المشباك السطور التالية عن المؤلف الأمريكى وسبب وضعه محمدا على القمة وتركه السيد المسيح عليهما معا السلام: " Surprenant les lecteurs, Muhamed, le prophète de l'Islam (qsssl), a été la première personne sur la liste de Hart, au lieu de Jessus ou de Moise. Hart émis également l'avis que le rôle de Muhammad dans le développement de l'Islam a été beaucoup plus influent que la collaboration de Jésus dans le développement de la Chrétieneté. Il attribue le développement du christianisme à Saint-Paul qui a joué un rôle essentiel dans sa diffusion".

ولقد توقف العفيف الأخضر عند العُصَاب والاكتئاب، اللذين يزعم أن رسول الله كان يعانى منهما عناء شديدا. وهذا كله كذب رخيص هو ثمرة نفسه المريضة، فهو يسقط ما عنده على سيد البشر! إن العُصَاب(Neurosis)، كما تقول كتب الطب، هو نوع من أنواع الخوف الذى يؤدى إلى اضطراب فى الشخصية وفى الاتزان النفسى. وهو اضطراب عصبى وظيفى غير مصحوب بتغير بنيوى فى الجهاز العصبى ترافقه فى كثير من الأحيان أعراضُ هستيريا، وحَصَرٌ نفسى، وهواجسُ مختلفة. إن مريض العُصَاب لا يعانى من الهلوسة أو من فقدان الصلة مع الواقع. وسلوك الأشخاص الذين يعانون من العصاب هو سلوك عادى وطبيعى (سلوك مقبول ضمن المعايير الاجتماعية السائدة). والعصاب هو مرض كغيره من الامراض، إذ لدى كثير من الناس انطباع بأن الإرادة يمكنها التغلب على العصاب. وهذا خطأ بصورة مطلقة. وثمة اعتقاد بأن المصاب بالعصاب شخص يفتقر للطاقة لأنه غير قادر أن يشفى نفسه بنفسه. وهذا خطأ لأن العقل أو الإرادة لا تستطيع شفاء شىء ما لاشعورى لا يبلغه هذا العقل أو هذه الإرادة. فالعُصَاب اضطراب من تضافر عدة عوامل على رأسها صراعات لاشعورية تبدو فى صورة أعراض جسمية ونفسية، ومنها القلق والوساوس والأفكار المتسلطة والمخاوف الشاذة واضطرابات جسمية وحركية وحسية متعددة تعوق الفرد عن ممارسة حياته السوية فى المجتمع الذى يعيش فيه، وقد يدفع الفرد إلى القتل أو الانتحار. كما يعانى الشخص المريض بالعصاب غالبا من الاكتئاب والخوف وغياب الشعور بالعواطف والأحاسيس وافتقاد الاتزان النفسى والعاطفى والقلق والوساوس والشكوك التى لا

أساس لها، أو قد يظهر المرض النفسى فى شكل حدوث شلل أو تيبس أو ارتعاش لعضو فى الجسم بدون أن يكون لها سبب فزيولوجى، أو قد تظهر أعراض داخلية كالشعور بألم فى أحد أجزاء الجسم كالمعدة دون سبب فزيولوجى. كذلك تتنوع الأعراض الجسمية بشكل كبير حسب استجابات كل شخص. ووفقا للدكتور George Boeree يمكن أن تتضمّن آثارُ العصاب القلقَ والحزن والاكتئاب والغضب والتشوش الذهنى وانخفاض التقييم الذاتى، فضلا عن ظهور أعراض سلوكية معينة كالتجنب الرُّهَابِى واليقظة والأعمال المتهوّرة والخمول وغيرها، وكذلك المشاكل المعرفية مثل الأفكار المزعجة وتكرار الأفكار والهوس والتخيلات المعتادة والسلبية والسخرية... إلخ. كما يؤدى العصاب إلى التبعية والعدوانية والكمالية والعزلة الاجتماعية والسلوك غير المناسب بين الأفراد وغير ذلك.

أما الاكتئاب فحالة من الشعور بالقلق والحزن والتشاؤم والذنب مع انعدام وجود هدف للحياة. وأهم ما يميزه هو الانخفاض فى المزاج والنفور من الأنشطة التى يمكن أن يكون لها تأثير سلبى على أفكار الشخص وسلوكه ومشاعره ونظرته إلى العالم والرفاهية المادية. وقد يشعر المصابون بالكآبة بالحزن والقلق والفراغ وانعدام الأمل والقيمة وقلة الحيلة والشعور بالذنب وتعكُّر المزاج والألم المعنوى والاضطراب: فقد يفقدون الاهتمام بنشاطات كانت محببة لهم، وقد يعانون أيضا من فقدان الشهية أو الإفراط فى الأكل. كذلك تكون لديهم مشاكل فى التركيز و تذكُّر التفاصيل واتخاذ القرارات، وقد يقدمون على محاولة الانتحار أو التفكير فيه أيضًا. وأعراض الاكتئاب الظاهرية هى الأرق والنوم المفرط والتعب وقلة الطاقة والآلام والأوجاع ومشاكل الهضم وغيرها من الأعراض التى لا تستجيب للعلاج التقليدى.

هذه هى أعراض العُصَاب والاكتئاب، وهذه هى آثارهما. وليس هناك فى حياة محمد وشخصيته ما يمكن أن يدعونا إلى وصفه بهذا أو بذاك أبدا. لقد كان، على النقيض من ذلك تماما، متزن العقل والتفكير، قوى الذاكرة، معتدل النوم واليقظة، لا يشكو شيئا فى معدته أو فى صحته إلا الصداع مرة فى آخر حياته. ولم يكن يعانى من أية أوجاع فى جسده أو فى نفسه ومشاعره إلا بعض

الآلام البدنية قبيل وفاته. وكانت شهيته إلى الطعام مثالية، فلم يكن أكولا ولا مشغولا بالطعام بل كان يأكل ما حضر، وإذا لم يجد كان يصوم دون تبرم. وإذا لم يعجبه لون من ألوان الطعام كان يمسك عنه بلا تحقير أو شكوى. ومن ناحية الذنب كان يستغفر الله كثيرا كلون من ألوان الإقرار بالعبودية له سبحانه دون أى رعب أو قلق أو تشاؤم. وأحاديثه عن رحمة الله وكرمه وحبه لعباده ورغبته لغفران ذنوبهم والحسنات الكثيرة التى يمكن اكتسابها بسهولة عجيبة هى أحاديث مذهلة تفتح دائما أبواب الأمل مشرعةً أمام العباد. وفى القرآن أن الله لن يفعل شيئا بعذابنا إن شكرْنا وآمنّا، وأن التوبة مفتوحة أبدا، وأن الذنوب جميعا يمكن غفرانها بمنتهى السهولة مهما كان حجمها وطبيعتها. وكان أنس يقول رضى الله عنه إنه خدم رسول الله أعواما طوالا، فما نهره يوما ولا عاقبه ولا سمع منه كلمة سيئة. وكان يحب مداعبة الأطفال ويتعاطف مع أحزانهم الصغيرة، ولم يؤذ أحدا من زوجاته أو ينفعل عليهن رغم تغايرهن بعضهن من بعض ورغم اختلافهن فى السن والبيئة، وحين استعاذت بالله منه مخدوعةً إحدى زوجاته، بعدما عقد عليها وقبل الدخول بها، نزل على رغبتها ولم يفكر فى استبقائها بل أرسلها إلى قومها معززة مكرمة مطيبة الخاطر، ولم ينظر إلى الأمر على أنه إهانة له وهو النبى الزعيم الحاكم القائد. وهنا أود أن أشير إلى ما قاله الكولونيل رونالد ڤكتور بودلى فى كتابه عن الرسول عليه الصلاة والسلام: "The Messenger- The Life of Mohammed" من أنه قد فهم طبيعة المرأة كما لم يفهمها أحد، إذ نصح الأزواج ألا يحاولوا تغيير طبيعتها حتى لا يكسروها، بل عليهم الاستمتاع بها على عوجها، إذ هو جزء من طبيعتها التى خُلِقَتْ عليها لا مَعْدَى لها عن ذلك.

وكان واسع الصدر والصبر، يتعامل مع كل الطبقات والفئات والمستويات الفكرية والنفسية والخلقية، فما فشل يوما فى ذلك التعامل. ولم يكن يعرف التغيرات المزاجية المباغتة أو الحادة، كما لم يمر به يوما شعور بالاكتئاب أو القلق والتبرم، وكان متفائلا دائما حتى إنه ظل يتحدى المشركين وغيرهم بأنه منتصر عليهم مهما تكن الظروف، وهو ما حدث، ومع هذا لم يزدهه النصر مثلما لم يكسره وقوف الناس ضده ولا عداوتهم له، وكان كذلك منبسط النفس يحب الاجتماع بالناس

والتواصل معهم، وظل ينتقل من نصر إلى نصر حتى أدى مهمته كأحسن ما يكون لم يتفوق عليه أحد من عظماء العالم قديما أو حديثا. ولقد أذكر الآن شهادة وليم مونتجمرى وات فى حقه صلى الله عليه وسلم، التى قرأتها فى كتاب له فى أكسفورد منذ عشرات السنين، وهو " Muhammad Prophet and Statesman"، فهالتنى إعجابا قائمة الصفات الطويلة والنبيلة التى ذكرها ذلك المستشرق له عليه السلام فى آخر الكتاب، وكل شىء فيها أروع من صاحبه، ومع ذلك يقول فى نهاية الشهادة ما معناه أن محمدا ليس هو الشخص الذى يرضى تطلعاته، فقلت له: يا للعناد يا وات! أوأنت تستطيع أن تجد له بين عظماء العالم نظيرا يا رجل؟

كما أن حياته صلى الله عليه وسلم كانت مفعمة بالنشاط الدعوى لم يفتر يوما ولم ييأس أو يفكر فى النكوص على عقبيه، وكان بعيد مطارح الأمل، إذ بعثه الله لا لقومه فحسب بل للعالم أجمع. وظل يعمل من أجل هذه الغاية، وقطع فيها شوطا عظيما ممهدا الطريق لأتباعه، الذى أكملوا المسيرة ونشروا نور الإسلام ساطعا وهاجا فى أرجاء الأرض. ومعروف أن كل قائد ما إن يموت حتى تنفجر الأحقاد التى كانت متراكمة فى الصدور نحوه يحبسها الخوف والرعب، إلا محمدا، فقد ازدادت محبة أتباعه له بعد موته، ولم تصدر عن أحد منهم ولو كلمة تشى ببغض له أو ضيق به أو ملل منه. وكان صلى الله عليه وسلم متواضعا لين الجانب مع الجميع، وبخاصة المسحوقون والمهمشون حتى لقد كان ينزل قبور الفقراء يوسدهم التراب بيديه الحنونتين، ويحزن إذا علم أن أحدهم قد مات ودُفِن دون أن يؤاذنه أصحابه بالأمر.

ولقد تبدت عظمته فى أجلى بريقها وسطوعها يوم فَتْح مكة حين تكأكأت عند البيت الحرام جموع قريش عقب هزيمتها النهائية، إذ ظنوا أن تلك فرصة له كى يذلهم ويسحقهم، لكنهم بوغتوا به يقول لهم بكل سلاسة: اذهبوا، فأنتم الطلقاء. ثم لم يحدث قط أن فتح لهم صفحتهم الماضية معه التى كانت كلها هبابا وسخاما، بل طوى تلك الصفحة إلى الأبد. وكان شعاره دائما أن الإسلام يجبّ ما قبله. وفى أيامه الأخيرة وضعت نساؤه فى فمه دواء مرا، فطلب أن يوضع نفس الدواء فى فم كل من فى البيت على سبيل الدعابة، ولم يصدر منه فى تلك الأيام والساعات العصيبة ما يمكن أن

يسْتَشَفّ منه سخط على ما ابْتُلِيَ به من مرض وألم أو ما يومئ إلى أنه نبى غير صادق، بل كان آخر ما تفوه به: "إلى الرفيق الأعلى"، فكان هذا دليلا على صدقه المطلق! فأية عظمة نفسية تلك يا إلهى؟

ويقترح العفيف الأخضر أن يسْتَبْدَل بإله الإسلام القاسى السادى، حسب تعبيره، الإله الكاثوليكى الرحيم: "تغيير صورة الله من إلاه- أب سادى، يعذب أبناءه العاصين لأوامره ونواهيه بشوائهم فى نار جهنم: "كلما نضجتْ جلودُهم بَدَّلْناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب" (٥٦، النساء) ليتلذذ بمواصلة تعذيبهم! يا له من إلاه جلاد! لا ينبغى بعد اليوم أن يكون الله هو هذا الأب الجبار القاسى الخاصى الذى يحقننا بالشعور الساحق بالذنب، كشهادة قاطعة على طاعته طاعة عمياء وتكريس معظم وقتنا لأداء شعائره. هذه الصورة الشبيهة بصورة الوالدين الغاشمين فى العائلة الإسلامية التقليدية جديرة بالتجاوز إلى نموذج إلاهى أرقّ قلبًا: إلى إلاه- أب كلُّه حُبّ كالإلاه الكاثوليكى اليوم"، لينسى بعد قليل فى نفس الحوار فيقول، عن الكاثوليكية التى يدعو المسلمين إلى استيحائها والاستفادة منها، إن المذبحة التى أوقعها المسلمون ببنى قريظة وهَوَّل هو فيها وأظهرهم أهل براءة مظلومين لا خونة غدارين أرادوا القضاء على المسلمين ودينهم ونبيهم بتآمرهم مع المشركين على خنق المدينة على أن يقوموا هم بمهمة الطابور الخامس وحصان طروادة، إنها "طبعةٌ أولى من مذابح الكنيسة الكاثوليكية التفتيشية لهم" دون أن يشعر بخجل مما يدعو المسلمين إليه. وهو هنا يدلس أيضا فيذكر ما صنعه الكاثوليك فى أسبانيا باليهود، ويتجاهل ما صنعوه بالمسلمين من إبادة وتنصير بالإكراه وتعذيب وقتل واعتقال ومصادرة أملاك إلى أن قضوا تماما على الإسلام والمسلمين فى الأندلس. كل ذلك رحمة من الإله الكاثوليكى الرقيق!

وهذا الإله الكاثوليكى الرحيم هو نفسه الإله الذى ألهم الصليبيين من قبل بقتل عشرات الآلاف من المسلمين فى بيت المقدس حتى كانوا يخوضون فى دمائهم إلى منتصف سيقانهم ويأكلون جثثهم. وهو نفسه الإله الرحيم الذى أوحى لأتباعه فى فرنسا أن يقتلوا سبعين ألفا من الهوجنوت المخالفين لهم فى المذهب فى ليلة واحدة فى أغسطس ١٥٧٢م، بالإضافة إلى الملايين الذين سقطوا قتلى فى حرب الثلاثين عاما بألمانيا بين البروتستانت والكاثوليك من ١٦١٨ إلى ١٦٤٨م. وهو ذاته

الإله الرحيم الذى أوحى لفاتحى أمريكا بسلخ جلود الهنود الحمر وشيهم أحياء على النار ونشر الأمراض القاتلة بينهم واصطيادهم بالرصاص كالحيوانات وقَشْر جلود جماجمهم وعمل المحافظ الجلدية من بشرتهم، إلى أن استأصلوهم استئصالا تاما حاشا بقية شحيحة لا قيمة لها ولا خشية منها احتفظوا بها فى معازل وكأنهم بقايا حيوانات منقرضة يأتى الناس ليتفرجوا عليها للتسلية. وهو نفسه الإله الرحيم الذى قضى الفرنسيون المؤمنون به على مليون فى الجزائر فقط، ودعك مما قتلوه فى تونس بلده وفى المغرب وغيرها من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية التى احتلوها واستعمروها واستنزفوا ثرواتها وحملوها إلى بلادهم ليعيشوا عيشة الترف بينما يتمرغ أهل تلك البلاد فى الفقر والبؤس والأمراض والتعاسة والجوع والأسمال البالية، فضلا عن محاولتهم القضاء على هوية الجزائريين المسلمة وعملهم الدائب على استلحاق بلادهم بفرنسا بوصفها جزءا منها. وهو ذاته الإله الرحيم الذى سول للإيطاليين التنكيل الوحشى والتقتيل بإخواننا فى ليبيا وإلقائهم من الطائرات على الأرض. وهو هو الإله الرحيم الذى أشعل المعارك الطاحنة بين الكاثوليك والبروتستانت فى أيرلندا، تلك التى سقط بسببها عشرات الآلاف من القتلى، وما زال الحبل على الجرار! وهو نفسه الإله الذى ترك النصارى الأوربيين فى الحربين العالميتين يتقاتلون ويتفانَوْن حتى هلكت الملايين فى أوربا وحدها. فلم يا ترى لم يوح لهم أنْ: حرامٌ ما يصنعه بعضكم ببعض؟ وهو نفس الإله الذى يعتدى قساوسته فى الفاتيكان على الأطفال اغتصابا وهتكا جنسيا دنيئا لأجسادهم الصغيرة البريئة مما تتكشف عنه الفضائح بين الحين والحين هذه الأيام!

ومن مظاهر قسوة إله الإسلام عنده كثرة الأمور التى تستوجب النظافة والطهارة. وهذه بعضها كما أوردها بقلمه المهذب: "فى شعائر الطهارة للصلاة ولقراءة القرآن أو حتى لمجرد مسه: "لا يمسه إلا المطهرون"، (٧٩، الواقعة). وللصلاة الإغتسال الأكبر بعد الجماع أو الإحتلام أو خروج المنى بأية وسيلة كانت. الوضوء، أى غسل اليدين والرجلين والوجه والمسح على الرأس، بعد التبول والتغوط والضراط والفساء وحتى مجرد مس الذكر سهوا، وشعيرة الحج الطويلة المكلفة والخطرة، وشعيرة رمضان المؤذية للصحة والاقتصاد... وقد أكون نسيت". ولا أدرى كيف أُفْهِم

ذلك المبغض للتطهر أن المقصود هو مراعاة المسلم دائما للنظافة فى حياته وجسده وملابسه. ومن ثم يهتبل الإسلام أية فرصة لدفعه إلى النظافة والطهارة. وقد تكون هناك حكم أخرى لاهتمام الإسلام بتلك الشعيرة. لكن ألا يكفى أن يحرص دين محمد على النظافة والطهارة حتى يحظى بالمديح والثناء؟ بلى، ولكن أمثال العفيف الأخضر من المغرمين بالخمر والعهر وسائر القاذورات لا يمكن أن يحبوا النظافة. وبالمناسبة فإنه يقلد هنا أيضا سلمان رشدى، الذى نراه فى روايته: "الآيات الشيطانية" يسخر من كلام الإسلام فى ذلك الموضوع، موضوع الريح والفضلات التى يخرجها الإنسان، ويأمر الإسلام أتباعه بالتطهر منها، بينما على الناحية الأخرى يبدى رونالد ڤكتور بودلى إعجابه الشديد بشعيرة الطهارة فى الإسلام مؤكدا أن "هذا التشريع قد جعل العرب من أكثر الناس اغتسالا فى العالم. فبينما الأجناس الأخرى يهيمون قذرين إذا ما ابتعدوا عن الماء فإن العرب يستمرون فى المحافظة على نظافتهم" حسبما جاء فى الترجمة العربية لكتابه: " The Meesenger- The Life of Mohammed".

وأنا، كما أشرت آنفا، أرى فى هذا حرصا من الإسلام على إلزام المسلم بالحد الأدنى من مراعاة النظافة. أما إن كان من الذين يراعونها أصلا فزيادة الخير خيران. وهل هناك من يكره المزيد من الخير إلا منكوس الطبع؟ وأخبرنى ذات مرة تلميذ سابق لى يدرّس بإحدى الجامعات الإيطالية أن مستشرقا إيطاليا كان يحدثه ذات مرة عن الرسول محمد مبديا إعجابه بالدور العظيم المذهل الذى نهض به مع أتباعه، إذ قال له إنه كان يعلمهم كل شىء بدءا من ألف باء الحياة والتحضر حتى إنه حين رأى طفلا لا يلتزم بالأكل مما أمامه نبهه إلى ذلك قائلا: يا غلام، كل مما يليك! فحتى هذه لم يتركها الرسول تمضى دون أن يشفعها بأصول اللياقة التى ينبغى مراعاتها فى تناول الطعام مع الآخرين. ولكن كيف يفهم العفيف ما نقول؟ وعلى كل حال فالطهارة والصلاة كلتاهما لا تأخذ من الفرد أكثر من ساعة طوال اليوم ليله ونهاره. فهو، كما يرى القارئ، يهوّل تهويلا كاذبا.

وأما حملته على الصيام وقوله بضرره الشديد على صحة الإنسان فهو يردد كلام الزرادشتية، التى ترى أن العالم المادى يحيا على التغذية، فإذا صام هلك، ولم يستطع البشر ساعتئذ العمل فى

الحقول، مع أننا نحن المسلمين نصوم صياما كاملا طوال النهار طوال أكثر من أربعة شعر قرنا، ومع هذا لم نمت، بل نصحّ، ونشعر بقرصة الجوع والعطش فى بطوننا، وهى قرصة إرادية من شأنها أن تعطفنا على من يقرصهم الجوع والعطش بغير إرادتهم لما يعانونه من فقر ومسكنة وذلة حاجة. ونحب أن نسأله: ترى كيف انتصر المسلمون كل انتصاراتهم المذهلة على أعدائهم وحققوا جميع تلك الإنجازات الحضارية التى جعلت منهم فى مدى زمنى قياسى سادة العالم رغم تمسكهم بشريعة الصيام؟ ثم هل سمع أحد أن أحدا مات بسبب الصيام؟ ثم إن الإسلام، حين يشعر الصائم بالإرهاق، يجيز له الإفطار مع إطعام عدد من المساكين بحيث يتحقق أحد أهداف الصيام حتى أثناء إفطاره، ألا وهو الإحسان إلى المحتاجين. أما خليل عبد الكريم فيقول، فى مقال بجريدة "الأهالى" المصرية عنوانه: "مجرد اجتهاد: الصيام فريضة المجتمع المعسكر" منشور بتاريخ ٧/ ٢/ ١٩٦٩م، إن الصيام قد شُرِع لإنجاح عسكرة المجتمع الإسلامى، التى وضعها الرسول نصب عينيه فى المدينة حتى يتعود المسلمون الشدة والتقشف والجوع والعطش فيصيروا أقدر على تحمل ويلات الحروب وما فيها من حرمان. أى أن الصوم يقوّى الإنسان ولا يضعفه، ويهيئه لتحمل الشدائد لا الانهيار تحت ثقلها كما يزعم العفيف الأخضر. ومع هذا فعند خليل عبد الكريم لا يوجد وحى ولا خلافه، بل الأمر لا يزيد عن طموح محمد إلى إقامة دولة هاشمية. ومعروف أن الصيام موجود فى كثير من الأديان كالإسلام والنصرانية واليهودية والطاوية والچينية وغيرها وفى عدد من شعائر البدائيين أيضا، وإن كان يختلف نوعا وباعثا وغاية، وطولا وقصرا، وكيفيةً كما تذكر مادة "Jeûne- Fasting" فى كل من "Encyclopaedia Britannica" و"Encyclopaedia of Religion and Ethics" و"Encarta" بنسختيها: الإنجليزية والفرنسية مثلا. كما يستعان به فى الطب كعلاج لكثير من الأمراض ووسيلة لتحسين الصحة والحفاظ على الجمال. بل إن المساجين والمعتقلين قد يمارسون الامتناع التام عن الطعام احتجاجا على أوضاعهم أو أوضاع طائفتهم أو أمتهم المزرية أو تعبيرا عن موقفهم الرافض لبعض الأمور كالحرب مثلا، وهو ما يسمى: الإضراب عن الطعام. لكن ذلك الحاقد لا يحاول النيل والتحقير إلا من الصوم الإسلامى.

وأما ما يدعو إليه من وجوب قيام الزواج على حرية الاختيار والحب لا على الإكراه فمن الواضح أنه لم يكن فى وعيه وهو يكتب هذا الكلام، إذ إن الإسلام، الذى يعيبه ويحاول النيل منه ومن رسوله بغشم عجيب، قد نَهَى بكل حسم عن إجبار المرأة على التزوج ممن لا تريد، سواء كانت بكرا أو ثيبا، كما يعرف ذلك كل مسلم. وقد تشدد النبى فى تلك النقطة تشددا كبيرا حرصا على سعادة الفتيات والنساء فى بيوتهن الجديدة. ومن كلامه العظيم فى ذلك الصدد أنه لا بد من استئذان الفتاة البكر واستئمار المرأة الثيب فى هذا الشأن والحصول على موافقتهما قبل المضى فى إجراءات الزواج. وأتت فتاة إلى النبى عليه السلام تعلن اعتراضها على عزم أبيها تزويجها من ابن عمها دون مشورتها. فوافقها النبى على موقفها تماما، وهو ما جعلها تغير ذلك الموقف فى الحال معلنة أنها لا تعترض على ابن عمها فى ذاته، بل على أن أباها لم يستشرها وأراد إمضاء العقد دون الحصول على رضاها لأنه كان يريد رفع شأنه عن طريق هذا الزواج بسبب علو منزلة أخيه الاجتماعية، ومؤكدة أنها إنما أرادت أن تنبه الفتيات اللاتى فى مثل وضعها إلى حقوقهن الاجتماعية فى هذا الصدد. وحين قالت له عليه السلام امرأة كان قد عَقَد عليها لكنه لم يدخل بها بعد: "أعوذ بالله منك" ظنا منها، حسبما أفهمها بعض زوجاته الأخريات، أنها ستزداد غلاوة عنده كَفَّ يده عنها فى الحال وسرَّحها معززة مكرمة مطيبة الخاطر إلى أهلها، ولم يفكر فى المضى فى إتمام الزواج. ولدينا أيضا بريرة، وكانت هى وزوجها من الرقيق، لكن أسيادها أعتقوها، وبقى هو يرسف فى العبودية، وأراد أن يستمر الزواج بينهما، لكنها رفضت ذلك، ولم تبال ببكائه الحاد وتعلقه الشديد بها ولا تشفُّع النبى له، فكان لها ما أرادت. وهناك أيضا الخُلْع، وهو حق المرأة فى طلب الطلاق حين تجد نفسها نافرة من الاستمرار فى عش الزوجية. وكل ما عليها فى هذه الحالة أن ترد المهر لمن صارت تبغض العيش معه. وإذن فكلام العفيف الأخضر هو تنطع عديم الذوق والعقل.

وما دمنا فى سياق الحديث عن مزاعم العفيف الأخضر الخاصة بما فى العبادات الإسلامية من إعنات ها هى ذى بعض الشعائر اليهودية الفظيعة الإعنات، وهى بعض ما ينبغى عمله لدن تقديم بعض القرابين: بعض القرابين لا كلها. فهل يستطيع العفيف أو غيره أن يفتح فمه بكلمة انتقاد لها؟:

١وَدَعَا الرَّبُّ مُوسَى وَكَلَّمَهُ مِنْ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ قَائِلًا: ٢«كَلِّمْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِذَا قَرَّبَ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ تُقَرِّبُونَ قَرَابِينَكُمْ. ٣إِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مُحْرَقَةً مِنَ الْبَقَرِ، فَذَكَرًا صَحِيحًا يقَرِّبْهُ. إِلَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ يقَدِّمُهُ لِلرِّضَا عَنْهُ أَمَامَ الرَّبِّ. ٤وَيضَعُ يدَهُ عَلَى رَأْسِ الْمُحْرَقَةِ، فَيرْضَى عَلَيهِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْهُ. ٥وَيذْبَحُ الْعِجْلَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيقَرِّبُ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الدَّمَ، وَيرُشُّونَهُ مُسْتَدِيرًا عَلَى الْمَذْبَحِ الَّذِى لَدَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٦وَيسْلَخُ الْمُحْرَقَةَ وَيقَطِّعُهَا إِلَى قِطَعِهَا. ٧وَيجْعَلُ بَنُو هَارُونَ الْكَاهِنِ نَارًا عَلَى الْمَذْبَحِ، وَيرَتِّبُونَ حَطَبًا عَلَى النَّارِ. ٨وَيرَتِّبُ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الْقِطَعَ مَعَ الرَّأْسِ وَالشَّحْمِ فَوْقَ الْحَطَبِ الَّذِى عَلَى النَّارِ الَّتِى عَلَى الْمَذْبَحِ. ٩وَأَمَّا أَحْشَاؤُهُ وَأَكَارِعُهُ فَيغْسِلُهَا بِمَاءٍ، وَيوقِدُ الْكَاهِنُ الْجَمِيعَ عَلَى الْمَذْبَحِ مُحْرَقَةً، وَقُودَ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ.

١٠«وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مِنَ الْغَنَمِ الضَّأْنِ أَوِ الْمَعْزِ مُحْرَقَةً، فَذَكَرًا صَحِيحًا يقَرِّبُهُ. ١١وَيذْبَحُهُ عَلَى جَانِبِ الْمَذْبَحِ إِلَى الشِّمَالِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيرُشُّ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ دَمَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ مُسْتَدِيرًا. ١٢وَيقَطِّعُهُ إِلَى قِطَعِهِ، مَعَ رَأْسِهِ وَشَحْمِهِ. وَيرَتِّبُهُنَّ الْكَاهِنُ فَوْقَ الْحَطَبِ الَّذِى عَلَى النَّارِ الَّتِى عَلَى الْمَذْبَحِ. ١٣وَأَمَّا الأَحْشَاءُ وَالأَكَارِعُ فَيغْسِلُهَا بِمَاءٍ، وَيقَرِّبُ الْكَاهِنُ الْجَمِيعَ، وَيوقِدُ عَلَى الْمَذْبَحِ. إِنَّهُ مُحْرَقَةٌ، وَقُودُ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ.

١٤«وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ لِلرَّبِّ مِنَ الطَّيرِ مُحْرَقَةً، يقَرِّبُ قُرْبَانَهُ مِنَ الْيمَامِ أَوْ مِنْ أَفْرَاخِ الْحَمَامِ. ١٥يقَدِّمُهُ الْكَاهِنُ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَيحُزُّ رَأْسَهُ، وَيوقِدُ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَيعْصَرُ دَمُهُ عَلَى حَائِطِ الْمَذْبَحِ. ١٦وَينْزِعُ حَوْصَلَتَهُ بِفَرْثِهَا وَيطْرَحُهَا إِلَى جَانِبِ الْمَذْبَحِ شَرْقًا إِلَى مَكَانِ الرَّمَادِ. ١٧وَيشُقُّهُ بَينَ جَنَاحَيهِ. لاَ يفْصِلُهُ. وَيوقِدُهُ الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ الَّذِى عَلَى النَّارِ. إِنَّهُ مُحْرَقَةٌ، وَقُودُ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ.

«وَإِذَا قَرَّبَ أَحَدٌ قُرْبَانَ تَقْدِمَةٍ لِلرَّبِّ، يكُونُ قُرْبَانُهُ مِنْ دَقِيقٍ. وَيسْكُبُ عَلَيهَا زَيتًا، وَيجْعَلُ عَلَيهَا لُبَانًا. ٢وَيأْتِى بِهَا إِلَى بَنِى هَارُونَ الْكَهَنَةِ، وَيقْبِضُ مِنْهَا مِلْءَ قَبْضَتِهِ مِنْ دَقِيقِهَا وَزَيتِهَا مَعَ كُلِّ لُبَانِهَا، وَيوقِدُ الْكَاهِنُ تَذْكَارَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ، وَقُودَ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ. ٣وَالْبَاقِى مِنَ التَّقْدِمَةِ هُوَ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ، قُدْسُ أَقْدَاسٍ مِنْ وَقَائِدِ الرَّبِّ.

٤«وَإِذَا قَرَّبْتَ قُرْبَانَ تَقْدِمَةٍ مَخْبُوزَةٍ فِي تَنُّورٍ، تَكُونُ أَقْرَاصًا مِنْ دَقِيقٍ، فَطِيرًا مَلْتُوتَةً بِزَيْتٍ، وَرِقَاقًا فَطِيرًا مَدْهُونَةً بِزَيْتٍ. ٥وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُكَ تَقْدِمَةً عَلَى الصَّاجِ، تَكُونُ مِنْ دَقِيقٍ مَلْتُوتَةً بِزَيْتٍ، فَطِيرًا. ٦تَفُتُّهَا فُتَاتًا وَتَسْكُبُ عَلَيْهَا زَيْتًا. إِنَّهَا تَقْدِمَةٌ.

٧«وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُكَ تَقْدِمَةً مِنْ طَاجِنٍ، فَمِنْ دَقِيقٍ بِزَيْتٍ تَعْمَلُهُ. ٨فَتَأْتِي بِالتَّقْدِمَةِ الَّتِي تُصْطَنَعُ مِنْ هذِهِ إِلَى الرَّبِّ وَتُقَدِّمُهَا إِلَى الْكَاهِنِ، فَيَدْنُو بِهَا إِلَى الْمَذْبَحِ. ٩وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنَ التَّقْدِمَةِ تَذْكَارَهَا وَيُوقِدُ عَلَى الْمَذْبَحِ وَقُودَ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ. ١٠وَالْبَاقِي مِنَ التَّقْدِمَةِ هُوَ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ، قُدْسُ أَقْدَاسٍ مِنْ وَقَائِدِ الرَّبِّ.

١١«كُلُّ التَّقْدِمَاتِ الَّتِي تُقَرِّبُونَهَا لِلرَّبِّ لاَ تُصْطَنَعُ خَمِيرًا، لأَنَّ كُلَّ خَمِيرٍ، وَكُلَّ عَسَلٍ لاَ تُوقِدُوا مِنْهُمَا وَقُودًا لِلرَّبِّ. ١٢قُرْبَانَ أَوَائِلَ تُقَرِّبُونَهُمَا لِلرَّبِّ. لكِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ لاَ يَصْعَدَانِ لِرَائِحَةِ سَرُورٍ. ١٣وَكُلُّ قُرْبَانٍ مِنْ تَقَادِمِكَ بِالْمِلْحِ تُمَلِّحُهُ، وَلاَ تُخْلِ تَقْدِمَتَكَ مِنْ مِلْحِ عَهْدِ إِلهِكَ. عَلَى جَمِيعِ قَرَابِينِكَ تُقَرِّبُ مِلْحًا.

١٤«وَإِنْ قَرَّبْتَ تَقْدِمَةَ بَاكُورَاتٍ لِلرَّبِّ، فَفَرِيكًا مَشْوِيا بِالنَّارِ. جَرِيشًا سَوِيقًا تُقَرِّبُ تَقْدِمَةَ بَاكُورَاتِكَ. ١٥وَتَجْعَلُ عَلَيْهَا زَيْتًا وَتَضَعُ عَلَيْهَا لُبَانًا. إِنَّهَا تَقْدِمَةٌ. ١٦فَيُوقِدُ الْكَاهِنُ تَذْكَارَهَا مِنْ جَرِيشِهَا وَزَيْتِهَا مَعَ جَمِيعِ لُبَانِهَا وَقُودًا لِلرَّبِّ.

١«وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ ذَبِيحَةَ سَلاَمَةٍ، فَإِنْ قَرَّبَ مِنَ الْبَقَرِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، فَصَحِيحًا يُقَرِّبُهُ أَمَامَ الرَّبِّ. ٢يَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ قُرْبَانِهِ وَيَذْبَحُهُ لَدَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، وَيَرُشُّ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الدَّمَ عَلَى الْمَذْبَحِ مُسْتَدِيرًا. ٣وَيُقَرِّبُ مِنْ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ وَقُودًا لِلرَّبِّ: الشَّحْمَ الَّذِي يُغَشِّي الأَحْشَاءَ، وَسَائِرَ الشَّحْمِ الَّذِي عَلَى الأَحْشَاءِ، ٤وَالْكُلْيَتَيْنِ، وَالشَّحْمَ الَّذِي عَلَيْهِمَا الَّذِي عَلَى الْخَاصِرَتَيْنِ، وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ مَعَ الْكُلْيَتَيْنِ يَنْزِعُهَا. ٥وَيُوقِدُهَا بَنُو هَارُونَ عَلَى الْمَذْبَحِ عَلَى الْمُحْرَقَةِ الَّتِي فَوْقَ الْحَطَبِ الَّذِي عَلَى النَّارِ، وَقُودَ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ.

٦«وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مِنَ الْغَنَمِ ذَبِيحَةَ سَلاَمَةٍ لِلرَّبِّ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، فَصَحِيحًا يُقَرِّبُهُ. ٧إِنْ قَرَّبَ قُرْبَانَهُ مِنَ الضَّأْنِ يُقَدِّمُهُ أَمَامَ الرَّبِّ. ٨يَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ قُرْبَانِهِ وَيَذْبَحُهُ قُدَّامَ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ. وَيَرُشُّ

بَنُو هَارُونَ دَمَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ مُسْتَدِيرًا. ٩وَيقَرِّبُ مِنْ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ شَحْمَهَا وَقُودًا لِلرَّبِّ: الأَلْيَةَ صَحِيحَةً مِنْ عِنْدِ الْعُصْعُصِ ينْزِعُهَا، وَالشَّحْمَ الَّذِى يغَشِّى الأَحْشَاءَ، وَسَائِرَ الشَّحْمِ الَّذِى عَلَى الأَحْشَاءِ، ١٠وَالْكُلْيتَينِ، وَالشَّحْمَ الَّذِى عَلَيهِمَا الَّذِى عَلَى الْخَاصِرَتَينِ، وَزِيادَةَ الْكَبِدِ مَعَ الْكُلْيتَينِ ينْزِعُهَا. ١١وَيوقِدُهَا الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ طَعَامَ وَقُودٍ لِلرَّبِّ.

١٢«وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مِنَ الْمَعْزِ يقَدِّمُهُ أَمَامَ الرَّبِّ. ١٣يضَعُ يدَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَيذْبَحُهُ قُدَّامَ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، وَيرُشُّ بَنُو هَارُونَ دَمَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ مُسْتَدِيرًا. ١٤وَيقَرِّبُ مِنْهُ قُرْبَانَهُ وَقُودًا لِلرَّبِّ: الشَّحْمَ الَّذِى يغَشِّى الأَحْشَاءَ، وَسَائِرَ الشَّحْمِ الَّذِى عَلَى الأَحْشَاءِ، ١٥وَالْكُلْيتَينِ وَالشَّحْمَ الَّذِى عَلَيهِمَا الَّذِى عَلَى الْخَاصِرَتَينِ، وَزِيادَةَ الْكَبِدِ مَعَ الْكُلْيتَينِ ينْزِعُهَا. ١٦وَيوقِدُهُنَّ الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ طَعَامَ وَقُودٍ لِرَائِحَةِ سَرُورٍ. كُلُّ الشَّحْمِ لِلرَّبِّ. ١٧فَرِيضَةً دَهْرِيةً فِى أَجْيالِكُمْ فِى جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ: لاَ تَأْكُلُوا شَيئًا مِنَ الشَّحْمِ وَلاَ مِنَ الدَّمِ».

١وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢«كَلِّمْ بَنِى إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: إِذَا أَخْطَأَتْ نَفْسٌ سَهْوًا فِى شَىءٍ مِنْ جَمِيعِ مَنَاهِى الرَّبِّ الَّتِى لاَ ينْبَغِى عَمَلُهَا، وَعَمِلَتْ وَاحِدَةً مِنْهَا: ٣إِنْ كَانَ الْكَاهِنُ الْمَمْسُوحُ يخْطِئُ لإِثْمِ الشَّعْبِ، يقَرِّبُ عَنْ خَطِيتِهِ الَّتِى أَخْطَأَ ثَوْرًا ابْنَ بَقَرٍ صَحِيحًا لِلرَّبِّ، ذَبِيحَةَ خَطِيةٍ. ٤يقَدِّمُ الثَّوْرَ إِلَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيضَعُ يدَهُ عَلَى رَأْسِ الثَّوْرِ، وَيذْبَحُ الثَّوْرَ أَمَامَ الرَّبِّ. ٥وَيأْخُذُ الْكَاهِنُ الْمَمْسُوحُ مِنْ دَمِ الثَّوْرِ وَيدْخُلُ بِهِ إِلَى خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، ٦وَيغْمِسُ الْكَاهِنُ إِصْبَعَهُ فِى الدَّمِ وَينْضِحُ مِنَ الدَّمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَمَامَ الرَّبِّ لَدَى حِجَابِ الْقُدْسِ. ٧وَيجْعَلُ الْكَاهِنُ مِنَ الدَّمِ عَلَى قُرُونِ مَذْبَحِ الْبَخُورِ الْعَطِرِ الَّذِى فِى خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَسَائِرُ دَمِ الثَّوْرِ يصُبُّهُ إِلَى أَسْفَلِ مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ الَّذِى لَدَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٨وَجَمِيعُ شَحْمِ ثَوْرِ الْخَطِيةِ ينْزِعُهُ عَنْهُ. الشَّحْمَ الَّذِى يغَشِّى الأَحْشَاءَ، وَسَائِرَ الشَّحْمِ الَّذِى عَلَى الأَحْشَاءِ، ٩وَالْكُلْيتَينِ وَالشَّحْمَ الَّذِى عَلَيهِمَا الَّذِى عَلَى الْخَاصِرَتَينِ، وَزِيادَةَ الْكَبِدِ مَعَ الْكُلْيتَينِ ينْزِعُهَا، ١٠كَمَا تُنْزَعُ مِنْ ثَوْرِ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ. وَيوقِدُهُنَّ الْكَاهِنُ عَلَى مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ. ١١وَأَمَّا جِلْدُ الثَّوْرِ وَكُلُّ لَحْمِهِ مَعَ رَأْسِهِ وَأَكَارِعِهِ وَأَحْشَائِهِ وَفَرْثِهِ ١٢فَيخْرِجُ سَائِرَ

الثَّوْرِ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ إِلَى مَكَانٍ طَاهِرٍ، إِلَى مَرْمَى الرَّمَادِ، وَيُحْرِقُهَا عَلَى حَطَبٍ بِالنَّارِ. عَلَى مَرْمَى الرَّمَادِ تُحْرَقُ.

١٣«وَإِنْ سَهَا كُلُّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ، وَأُخْفِيَ أَمْرٌ عَنْ أَعْيُنِ الْمَجْمَعِ، وَعَمِلُوا وَاحِدَةً مِنْ جَمِيعِ مَنَاهِي الرَّبِّ الَّتِي لاَ يَنْبَغِي عَمَلُهَا، وَأَثِمُوا، ١٤ثُمَّ عُرِفَتِ الْخَطِيَّةُ الَّتِي أَخْطَأُوا بِهَا، يُقَرِّبُ الْمَجْمَعُ ثَوْرًا ابْنَ بَقَرٍ ذَبِيحَةَ خَطِيَّةٍ. يَأْتُونَ بِهِ إِلَى قُدَّامِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، ١٥وَيَضَعُ شُيوخُ الْجَمَاعَةِ أَيدِيَهُمْ عَلَى رَأْسِ الثَّوْرِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيَذْبَحُ الثَّوْرَ أَمَامَ الرَّبِّ. ١٦وَيَدْخِلُ الْكَاهِنُ الْمَمْسُوحُ مِنْ دَمِ الثَّوْرِ إِلَى خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، ١٧وَيَغْمِسُ الْكَاهِنُ إِصْبَعَهُ فِي الدَّمِ، وَيَنْضِحُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَمَامَ الرَّبِّ لَدَى الْحِجَابِ. ١٨وَيَجْعَلُ مِنَ الدَّمِ عَلَى قُرُونِ الْمَذْبَحِ الَّذِي أَمَامَ الرَّبِّ فِي خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، وَسَائِرَ الدَّمِ يَصُبُّهُ إِلَى أَسْفَلِ مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ الَّذِي لَدَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ. ١٩وَجَمِيعَ شَحْمِهِ يَنْزِعُهُ عَنْهُ وَيُوقِدُهُ عَلَى الْمَذْبَحِ. ٢٠وَيَفْعَلُ بِالثَّوْرِ كَمَا فَعَلَ بِثَوْرِ الْخَطِيَّةِ. كَذلِكَ يَفْعَلُ بِهِ. وَيُكَفِّرُ عَنْهُمُ الْكَاهِنُ، فَيُصْفَحُ عَنْهُمْ. ٢١ثُمَّ يُخْرِجُ الثَّوْرَ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَيُحْرِقُهُ كَمَا أَحْرَقَ الثَّوْرَ الأَوَّلَ. إِنَّهُ ذَبِيحَةُ خَطِيَّةِ الْمَجْمَعِ.

٢٢«إِذَا أَخْطَأَ رَئِيسٌ وَعَمِلَ بِسَهْوٍ وَاحِدَةً مِنْ جَمِيعِ مَنَاهِي الرَّبِّ إِلهِهِ الَّتِي لاَ يَنْبَغِي عَمَلُهَا، وَأَثِمَ، ٢٣ثُمَّ أُعْلِمَ بِخَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ بِهَا، يَأْتِي بِقُرْبَانِهِ تَيْسًا مِنَ الْمَعْزِ ذَكَرًا صَحِيحًا. ٢٤وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ التَّيْسِ وَيَذْبَحُهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَذْبَحُ فِيهِ الْمُحْرَقَةَ أَمَامَ الرَّبِّ. إِنَّهُ ذَبِيحَةُ خَطِيَّةٍ. ٢٥وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنْ دَمِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيَّةِ بِإِصْبَعِهِ وَيَجْعَلُ عَلَى قُرُونِ مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ، ثُمَّ يَصُبُّ دَمَهُ إِلَى أَسْفَلِ مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ. ٢٦وَجَمِيعَ شَحْمِهِ يُوقِدُهُ عَلَى الْمَذْبَحِ كَشَحْمِ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ، وَيُكَفِّرُ الْكَاهِنُ عَنْهُ مِنْ خَطِيَّتِهِ فَيُصْفَحُ عَنْهُ.

٢٧«وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ مِنْ عَامَّةِ الأَرْضِ سَهْوًا، بِعَمَلِهِ وَاحِدَةً مِنْ مَنَاهِي الرَّبِّ الَّتِي لاَ يَنْبَغِي عَمَلُهَا، وَأَثِمَ، ٢٨ثُمَّ أُعْلِمَ بِخَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ بِهَا، يَأْتِي بِقُرْبَانِهِ عَنْزًا مِنَ الْمَعْزِ أُنْثَى صَحِيحَةً عَنْ خَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ. ٢٩وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيَّةِ، وَيَذْبَحُ ذَبِيحَةَ الْخَطِيَّةِ فِي مَوْضِعِ الْمُحْرَقَةِ. ٣٠وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنْ دَمِهَا بِإِصْبَعِهِ وَيَجْعَلُ عَلَى قُرُونِ مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ، وَيَصُبُّ سَائِرَ دَمِهَا إِلَى أَسْفَلِ الْمَذْبَحِ.

٣١وَجَمِيعَ شَحْمِهَا ينْزِعُهُ كَمَا نُزِعَ الشَّحْمُ عَنْ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ، وَيوقِدُ الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ رَائِحَةَ سَرُورٍ لِلرَّبِّ وَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ فَيصْفَحُ عَنْهُ.

٣٢«وَإِنْ أَتَى بِقُرْبَانِهِ مِنَ الضَّأْنِ ذَبِيحَةَ خَطِيةٍ، يأْتِى بِهَا أُنْثَى صَحِيحَةً. ٣٣وَيضَعُ يدَهُ عَلَى رَأْسِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيةِ، وَيذْبَحُهَا ذَبِيحَةَ خَطِيةٍ فِى الْمَوْضِعِ الَّذِى يذْبَحُ فِيهِ الْمُحْرَقَةَ. ٣٤وَيأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنْ دَمِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيةِ بِإِصْبَعِهِ وَيجْعَلُ عَلَى قُرُونِ مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ، وَيصُبُّ سَائِرَ الدَّمِ إِلَى أَسْفَلِ الْمَذْبَحِ. ٣٥وَجَمِيعَ شَحْمِهِ ينْزِعُهُ كَمَا ينْزَعُ شَحْمُ الضَّأْنِ عَنْ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ، وَيوقِدُهُ الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ عَلَى وَقَائِدِ الرَّبِّ. وَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ مِنْ خَطِيتِهِ الَّتِى أَخْطَأَ فَيصْفَحُ عَنْهُ.

«وَإِذَا أَخْطَأَ أَحَدٌ وَسَمِعَ صَوْتَ حَلْفٍ وَهُوَ شَاهِدٌ يبْصِرُ أَوْ يعْرِفُ، فَإِنْ لَمْ يخْبِرْ بِهِ حَمَلَ ذَنْبَهُ. ٢أَوْ إِذَا مَسَّ أَحَدٌ شَيئًا نَجِسًا: جُثَّةَ وَحْشٍ نَجِسٍ، أَوْ جُثَّةَ بَهِيمَةٍ نَجِسَةٍ، أَوْ جُثَّةَ دَبِيبٍ نَجِسٍ، وَأُخْفِى عَنْهُ، فَهُوَ نَجِسٌ وَمُذْنِبٌ. ٣أَوْ إِذَا مَسَّ نَجَاسَةَ إِنْسَانٍ مِنْ جَمِيعِ نَجَاسَاتِهِ الَّتِى يتَنَجَّسُ بِهَا، وَأُخْفِى عَنْهُ ثُمَّ عُلِمَ، فَهُوَ مُذْنِبٌ. ٤أَوْ إِذَا حَلَفَ أَحَدٌ مُفْتَرِطًا بِشَفَتَيهِ لِلإِسَاءَةِ أَوْ لِلإِحْسَانِ مِنْ جَمِيعِ مَا يفْتَرِطُ بِهِ الإِنْسَانُ فِى الْيمِينِ، وَأُخْفِى عَنْهُ، ثُمَّ عُلِمَ، فَهُوَ مُذْنِبٌ فِى شَىءٍ مِنْ ذلِكَ. ٥فَإِنْ كَانَ يذْنِبُ فِى شَىءٍ مِنْ هذِهِ، يقِرُّ بِمَا قَدْ أَخْطَأَ بِهِ. ٦وَيأْتِى إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةٍ لإِثْمِهِ عَنْ خَطِيتِهِ الَّتِى أَخْطَأَ بِهَا: أُنْثَى مِنَ الأَغْنَامِ نَعْجَةً أَوْ عَنْزًا مِنَ الْمَعْزِ، ذَبِيحَةَ خَطِيةٍ، فَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ مِنْ خَطِيتِهِ. ٧وَإِنْ لَمْ تَنَلْ يدُهُ كِفَايةً لِشَاةٍ، فَيأْتِى بِذَبِيحَةٍ لإِثْمِهِ الَّذِى أَخْطَأَ بِهِ: يمَامَتَينِ أَوْ فَرْخَى حَمَامٍ إِلَى الرَّبِّ، أَحَدُهُمَا ذَبِيحَةُ خَطِيةٍ وَالآخَرُ مُحْرَقَةٌ. ٨يأْتِى بِهِمَا إِلَى الْكَاهِنِ، فيقَرِّبُ الَّذِى لِلْخَطِيةِ أَوَّلًا. يحُزُّ رَأْسَهُ مِنْ قَفَاهُ وَلاَ يفْصِلُهُ. ٩وَينْضِحُ مِنْ دَمِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيةِ عَلَى حَائِطِ الْمَذْبَحِ، وَالْبَاقِى مِنَ الدَّمِ يعْصَرُ إِلَى أَسْفَلِ الْمَذْبَحِ. إِنَّهُ ذَبِيحَةُ خَطِيةٍ. ١٠وَأَمَّا الثَّانِى فَيعْمَلُهُ مُحْرَقَةً كَالْعَادَةِ، فَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ مِنْ خَطِيتِهِ الَّتِى أَخْطَأَ، فَيصْفَحُ عَنْهُ. ١١وَإِنْ لَمْ تَنَلْ يدُهُ يمَامَتَينِ أَوْ فَرْخَى حَمَامٍ فَيأْتِى بِقُرْبَانِهِ عَمَّا أَخْطَأَ بِهِ عُشْرَ الإِيفَةِ مِنْ دَقِيقٍ، قُرْبَانَ خَطِيةٍ. لاَ يضَعُ عَلَيهِ زَيتًا، وَلاَ يجْعَلُ عَلَيهِ لُبَانًا لأَنَّهُ قُرْبَانُ خَطِيةٍ. ١٢يأْتِى بِهِ إِلَى الْكَاهِنِ فَيقْبِضُ الْكَاهِنُ مِنْهُ مِلْءَ قَبْضَتِهِ تَذْكَارَهُ، وَيوقِدُهُ عَلَى الْمَذْبَحِ عَلَى وَقَائِدِ الرَّبِّ. إِنَّهُ قُرْبَانُ خَطِيةٍ. ١٣فَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ مِنْ خَطِيتِهِ الَّتِى أَخْطَأَ بِهَا فِى وَاحِدَةٍ مِنْ ذلِكَ، فَيصْفَحُ عَنْهُ. وَيكُونُ لِلْكَاهِنِ كَالتَّقْدِمَةِ».

١٤وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ١٥«إِذَا خَانَ أَحَدٌ خِيانَةً وَأَخطَأَ سَهْوًا فِى أَقْدَاسِ الرَّبِّ، يأْتِى إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةٍ لإِثْمِهِ: كَبْشًا صَحِيحًا مِنَ الْغَنَمِ بِتَقْوِيمِكَ مِنْ شَوَاقِلِ فِضَّةٍ عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، ذَبِيحَةَ إِثْمٍ. ١٦وَيعَوِّضُ عَمَّا أَخطَأَ بِهِ مِنَ الْقُدْسِ، وَيزِيدُ عَلَيهِ خُمْسَهُ، وَيدْفَعُهُ إِلَى الْكَاهِنِ، فَيكَفِّرُ الْكَاهِنُ عَنْهُ بِكَبْشِ الإِثْمِ، فَيصْفَحُ عَنْهُ.

١٧«وَإِذَا أَخطَأَ أَحَدٌ وَعَمِلَ وَاحِدَةً مِنْ جَمِيعِ مَنَاهِى الرَّبِّ الَّتِى لاَ ينْبَغِى عَمَلُهَا، وَلَمْ يعْلَمْ، كَانَ مُذْنِبًا وَحَمَلَ ذَنْبَهُ. ١٨فَيأْتِى بِكَبْشٍ صَحِيحٍ مِنَ الْغَنَمِ بِتَقْوِيمِكَ، ذَبِيحَةَ إِثْمٍ، إِلَى الْكَاهِنِ، فَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ مِنْ سَهْوِهِ الَّذِى سَهَا وَهُوَ لاَ يعْلَمُ، فَيصْفَحُ عَنْهُ. ١٩إِنَّهُ ذَبِيحَةُ إِثْمٍ. قَدْ أَثِمَ إِثْمًا إِلَى الرَّبِّ».

١وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢«إِذَا أَخْطَأَ أَحَدٌ وَخَانَ خِيانَةً بِالرَّبِّ، وَجَحَدَ صَاحِبَهُ وَدِيعَةً أَوْ أَمَانَةً أَوْ مَسْلُوبًا، أَوِ اغْتَصَبَ مِنْ صَاحِبِهِ، ٣أَوْ وَجَدَ لُقَطَةً وَجَحَدَهَا، وَحَلَفَ كَاذِبًا عَلَى شَيءٍ مِنْ كُلِّ مَا يفْعَلُهُ الإِنْسَانُ مُخْطِئًا بِهِ، ٤فَإِذَا أَخْطَأَ وَأَذْنَبَ، يرُدُّ الْمَسْلُوبَ الَّذِى سَلَبَهُ، أَوِ الْمُغْتَصَبَ الَّذِى اغْتَصَبَهُ، أَوِ الْوَدِيعَةَ الَّتِى أُودِعَتْ عِنْدَهُ، أَوِ اللُّقَطَةَ الَّتِى وَجَدَهَا، ٥أَوْ كُلَّ مَا حَلَفَ عَلَيهِ كَاذِبًا. يعَوِّضُهُ بِرَأْسِهِ، وَيزِيدُ عَلَيهِ خُمْسَهُ. إِلَى الَّذِى هُوَ لَهُ يدْفَعُهُ يوْمَ ذَبِيحَةِ إِثْمِهِ. ٦وَيأْتِى إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةٍ لإِثْمِهِ: كَبْشًا صَحِيحًا مِنَ الْغَنَمِ بِتَقْوِيمِكَ، ذَبِيحَةَ إِثْمٍ إِلَى الْكَاهِنِ. ٧فَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ أَمَامَ الرَّبِّ، فَيصْفَحُ عَنْهُ فِى الشَّيءِ مِنْ كُلِّ مَا فَعَلَهُ مُذْنِبًا بِهِ».

٨وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٩«أَوْصِ هَارُونَ وَبَنِيهِ قَائِلًا: هذِهِ شَرِيعَةُ الْمُحْرَقَةِ: هِى الْمُحْرَقَةُ تَكُونُ عَلَى الْمَوْقِدَةِ فَوْقَ الْمَذْبَحِ كُلَّ اللَّيلِ حَتَّى الصَّبَاحِ، وَنَارُ الْمَذْبَحِ تَتَّقِدُ عَلَيهِ. ١٠ثُمَّ يلْبَسُ الْكَاهِنُ ثَوْبَهُ مِنْ كَتَّانٍ، وَيلْبَسُ سَرَاوِيلَ مِنْ كَتَّانٍ عَلَى جَسَدِهِ، وَيرْفَعُ الرَّمَادَ الَّذِى صَيرَتِ النَّارُ الْمُحْرَقَةَ إِياهُ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَيضَعُهُ بِجَانِبِ الْمَذْبَحِ. ١١ثُمَّ يخْلَعُ ثِيابَهُ وَيلْبَسُ ثِيابًا أُخْرَى، وَيخْرِجُ الرَّمَادَ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ، إِلَى مَكَانٍ طَاهِرٍ. ١٢وَالنَّارُ عَلَى الْمَذْبَحِ تَتَّقِدُ عَلَيهِ. لاَ تَطْفَأُ. وَيشْعِلُ عَلَيهَا الْكَاهِنُ حَطَبًا كُلَّ صَبَاحٍ، وَيرَتِّبُ عَلَيهَا الْمُحْرَقَةَ، وَيوقِدُ عَلَيهَا شَحْمَ ذَبَائِحِ السَّلاَمَةِ. ١٣نَارٌ دَائِمَةٌ تَتَّقِدُ عَلَى الْمَذْبَحِ. لاَ تَطْفَأُ.

١٤«وَهذِهِ شَرِيعَةُ التَّقْدِمَةِ: يقَدِّمُهَا بَنُو هَارُونَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلَى قُدَّامِ الْمَذْبَحِ، ١٥وَيأْخُذُ مِنْهَا بِقَبْضَتِهِ بَعْضَ دَقِيقِ التَّقْدِمَةِ وَزَيتِهَا وَكُلَّ اللُّبَانِ الَّذِى عَلَى التَّقْدِمَةِ، وَيوقِدُ عَلَى الْمَذْبَحِ رَائِحَةَ سَرُورٍ تَذْكَارَهَا لِلرَّبِّ. ١٦وَالْبَاقِى مِنْهَا يأْكُلُهُ هَارُونُ وَبَنُوهُ. فَطِيرًا يؤْكَلُ فِى مَكَانٍ مُقَدَّسٍ. فِى دَارِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ يأْكُلُونَهُ. ١٧لاَ يخْبَزُ خَمِيرًا. قَدْ جَعَلْتُهُ نَصِيبَهُمْ مِنْ وَقَائِدِى. إِنَّهَا قُدْسُ أَقْدَاسٍ كَذَبِيحَةِ الْخَطِيةِ وَذَبِيحَةِ الإِثْمِ. ١٨كُلُّ ذَكَرٍ مِنْ بَنِى هَارُونَ يأْكُلُ مِنْهَا. فَرِيضَةً دَهْرِيةً فِى أَجْيالِكُمْ مِنْ وَقَائِدِ الرَّبِّ. كُلُّ مَنْ مَسَّهَا يتَقَدَّسُ».

١٩وكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢٠«هذَا قُرْبَانُ هَارُونَ وَبَنِيهِ الَّذِى يقَرِّبُونَهُ لِلرَّبِّ يوْمَ مَسْحَتِهِ: عُشْرُ الإِيفَةِ مِنْ دَقِيقٍ تَقْدِمَةً دَائِمَةً، نِصْفُهَا صَبَاحًا، وَنِصْفُهَا مَسَاءً. ٢١عَلَى صَاجٍ تُعْمَلُ بِزَيتٍ، مَرْبُوكَةً تَأْتِى بِهَا. ثَرَائِدَ تَقْدِمَةٍ، فُتَاتًا تُقَرِّبُهَا رَائِحَةَ سَرُورٍ لِلرَّبِّ.

٢٢وَالْكَاهِنُ الْمَمْسُوحُ عِوَضًا عَنْهُ مِنْ بَنِيهِ يعْمَلُهَا فَرِيضَةً دَهْرِيةً لِلرَّبِّ. تُوقَدُ بِكَمَالِهَا. ٢٣وَكُلُّ تَقْدِمَةِ كَاهِنٍ تُحْرَقُ بِكَمَالِهَا. لاَ تُؤْكَلُ».

٢٤وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢٥«كَلِّمْ هَارُونَ وَبَنِيهِ قَائِلًا: هذِهِ شَرِيعَةُ ذَبِيحَةِ الْخَطِيةِ: فِى الْمَكَانِ الَّذِى تُذْبَحُ فِيهِ الْمُحْرَقَةُ، تُذْبَحُ ذَبِيحَةُ الْخَطِيةِ أَمَامَ الرَّبِّ. إِنَّهَا قُدْسُ أَقْدَاسٍ. ٢٦الْكَاهِنُ الَّذِى يعْمَلُهَا لِلْخَطِيةِ يأْكُلُهَا. فِى مَكَانٍ مُقَدَّسٍ تُؤْكَلُ فِى دَارِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٢٧كُلُّ مَنْ مَسَّ لَحْمَهَا يتَقَدَّسُ. وَإِذَا انْتَثَرَ مِنْ دَمِهَا عَلَى ثَوْبٍ تَغْسِلُ مَا انْتَثَرَ عَلَيهِ فِى مَكَانٍ مُقَدَّسٍ. ٢٨وَأَمَّا إِنَاءُ الْخَزَفِ الَّذِى تُطْبَخُ فِيهِ فَيكْسَرُ. وَإِنْ طُبِخَتْ فِى إِنَاءِ نُحَاسٍ، يجْلَى وَيشْطَفُ بِمَاءٍ. ٢٩كُلُّ ذَكَرٍ مِنَ الْكَهَنَةِ يأْكُلُ مِنْهَا. إِنَّهَا قُدْسُ أَقْدَاسٍ. ٣٠وَكُلُّ ذَبِيحَةِ خَطِيةٍ يدْخَلُ مِنْ دَمِهَا إِلَى خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ لِلتَّكْفِيرِ فِى الْقُدْسِ، لاَ تُؤْكَلُ. تُحْرَقُ بِنَارٍ.

١«وَهذِهِ شَرِيعَةُ ذَبِيحَةِ الإِثْمِ: إِنَّهَا قُدْسُ أَقْدَاسٍ. ٢فِى الْمَكَانِ الَّذِى يذْبَحُونَ فِيهِ الْمُحْرَقَةَ، يذْبَحُونَ ذَبِيحَةَ الإِثْمِ، وَيرُشُّ دَمَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ مُسْتَدِيرًا، ٣وَيقَرِّبُ مِنْهَا كُلَّ شَحْمِهَا: الأَلْيةَ، وَالشَّحْمَ الَّذِى يغَشِّى الأَحْشَاءَ، ٤وَالْكُلْيتَينِ وَالشَّحْمَ الَّذِى عَلَيهِمَا، الَّذِى عَلَى الْخَاصِرَتَينِ، وَزِيادَةَ الْكَبِدِ مَعَ الْكُلْيتَينِ ينْزِعُهَا. ٥وَيوقِدُهُنَّ الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ وَقُودًا لِلرَّبِّ. إِنَّهَا ذَبِيحَةُ إِثْمٍ. ٦كُلُّ ذَكَرٍ مِنَ الْكَهَنَةِ

يأْكُلُ مِنْهَا. فِي مَكَانٍ مُقَدَّسٍ تُؤْكَلُ. إِنَّهَا قُدْسُ أَقْدَاسٍ. ٧ذَبِيحَةُ الإِثْمِ كَذَبِيحَةِ الْخَطِيةِ، لَهُمَا شَرِيعَةٌ وَاحِدَةٌ. الْكَاهِنُ الَّذِى يكَفِّرُ بِهَا تَكُونُ لَهُ. ٨وَالْكَاهِنُ الَّذِى يقَرِّبُ مُحْرَقَةَ إِنْسَانٍ فَجِلْدُ الْمُحْرَقَةِ الَّتِى يقَرِّبُهَا يكُونُ لَهُ. ٩وَكُلُّ تَقْدِمَةٍ خُبِزَتْ فِي التَّنُّورِ، وَكُلُّ مَا عُمِلَ فِي طَاجِنٍ أَوْ عَلَى صَاجٍ يكُونُ لِلْكَاهِنِ الَّذِى يقَرِّبُهُ. ١٠وَكُلُّ تَقْدِمَةٍ مَلْتُوتَةٍ بِزَيتٍ أَوْ نَاشِفَةٍ تَكُونُ لِجَمِيعِ بَنِى هَارُونَ، كُلِّ إِنْسَانٍ كَأَخِيهِ.

١١«وَهذِهِ شَرِيعَةُ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ. الَّذِى يقَرِّبُهَا لِلرَّبِّ: ١٢إِنْ قَرَّبَهَا لأَجْلِ الشُّكْرِ، يقَرِّبُ عَلَى ذَبِيحَةِ الشُّكْرِ أَقْرَاصَ فَطِيرٍ مَلْتُوتَةً بِزَيتٍ، وَرِقَاقَ فَطِيرٍ مَدْهُونَةً بِزَيتٍ، وَدَقِيقًا مَرْبُوكًا أَقْرَاصًا مَلْتُوتَةً بِزَيتٍ، ١٣مَعَ أَقْرَاصِ خُبْزٍ خَمِيرٍ يقَرِّبُ قُرْبَانَهُ عَلَى ذَبِيحَةِ شُكْرِ سَلاَمَتِهِ. ١٤وَيقَرِّبُ مِنْهُ وَاحِدًا مِنْ كُلِّ قُرْبَانٍ رَفِيعَةً لِلرَّبِّ، يكُونُ لِلْكَاهِنِ الَّذِى يرُشُّ دَمَ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ. ١٥وَلَحْمُ ذَبِيحَةِ شُكْرِ سَلاَمَتِهِ يؤْكَلُ يوْمَ قُرْبَانِهِ. لاَ يبْقِى مِنْهُ شَيئًا إِلَى الصَّبَاحِ. ١٦وَإِنْ كَانَتْ ذَبِيحَةُ قُرْبَانِهِ نَذْرًا أَوْ نَافِلَةً، فَفِى يوْمِ تَقْرِيبِهِ ذَبِيحَتَهُ تُؤْكَلُ. وَفِى الْغَدِ يؤْكَلُ مَا فَضَلَ مِنْهَا. ١٧وَأَمَّا الْفَاضِلُ مِنْ لَحْمِ الذَّبِيحَةِ فِي الْيوْمِ الثَّالِثِ فَيحْرَقُ بِالنَّارِ. ١٨وَإِنْ أُكِلَ مِنْ لَحْمِ ذَبِيحَةِ سَلاَمَتِهِ فِي الْيوْمِ الثَّالِثِ لاَ تُقْبَلُ. الَّذِى يقَرِّبُهَا لاَ تُحْسَبُ لَهُ، تَكُونُ نَجَاسَةً، وَالنَّفْسُ الَّتِى تَأْكُلُ مِنْهَا تَحْمِلُ ذَنْبَهَا. ١٩وَاللَّحْمُ الَّذِى مَسَّ شَيئًا مَا نَجِسًا لاَ يؤْكَلُ. يحْرَقُ بِالنَّارِ. وَاللَّحْمُ يأْكُلُ كُلُّ طَاهِرٍ مِنْهُ. ٢٠وَأَمَّا النَّفْسُ الَّتِى تَأْكُلُ لَحْمًا مِنْ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ الَّتِى لِلرَّبِّ وَنَجَاسَتُهَا عَلَيهَا فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. ٢١وَالنَّفْسُ الَّتِى تَمَسُّ شَيئًا مَا نَجِسًا نَجَاسَةَ إِنْسَانٍ أَوْ بَهِيمَةً نَجِسَةً أَوْ مَكْرُوهًا مَا نَجِسًا، ثُمَّ تَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ الَّتِى لِلرَّبِّ، تُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا».

٢٢وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢٣«كَلِّمْ بَنِى إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: كُلَّ شَحْمِ ثَوْرٍ أَوْ كَبْشٍ أَوْ مَاعِزٍ لاَ تَأْكُلُوا. ٢٤وَأَمَّا شَحْمُ الْمَيتَةِ وَشَحْمُ الْمُفْتَرَسَةِ فَيسْتَعْمَلُ لِكُلِّ عَمَلٍ، لكِنْ أَكْلًا لاَ تَأْكُلُوهُ. ٢٥إِنَّ كُلَّ مَنْ أَكَلَ شَحْمًا مِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِى يقَرِّبُ مِنْهَا وَقُودًا لِلرَّبِّ تُقْطَعُ مِنْ شَعْبِهَا، النَّفْسُ الَّتِى تَأْكُلُ. ٢٦وَكُلَّ دَمٍ لاَ تَأْكُلُوا فِي جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ مِنَ الطَّيرِ وَمِنَ الْبَهَائِمِ. ٢٧كُلُّ نَفْسٍ تَأْكُلُ شَيئًا مِنَ الدَّمِ تُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا».

٢٨وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢٩«كَلِّمْ بَنِى إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: الَّذِى يقَرِّبُ ذَبِيحَةَ سَلاَمَتِهِ لِلرَّبِّ، يأْتِى بِقُرْبَانِهِ إِلَى الرَّبِّ مِنْ ذَبِيحَةِ سَلاَمَتِهِ. ٣٠يداهُ تَأْتِيانِ بِوَقَائِدِ الرَّبِّ. الشَّحْمُ يأْتِى بِهِ مَعَ الصَّدْرِ. أَمَّا الصَّدْرُ فَلِكَى يرَدِّدَهُ تَرْدِيدًا أَمَامَ الرَّبِّ. ٣١فيوقِدُ الْكَاهِنُ الشَّحْمَ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَيكُونُ الصَّدْرُ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ. ٣٢وَالسَّاقُ الْيمْنَى تُعْطُونَهَا رَفِيعَةً لِلْكَاهِنِ مِنْ ذَبَائِحِ سَلاَمَتِكُمْ. ٣٣اَلَّذِى يقَرِّبُ دَمَ ذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ وَالشَّحْمَ مِنْ بَنِى هَارُونَ، تَكُونُ لَهُ السَّاقُ الْيمْنَى نَصِيبًا، ٣٤لأَنَّ صَدْرَ التَّرْدِيدِ وَسَاقَ الرَّفِيعَةِ قَدْ أَخَذْتُهُمَا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ ذَبَائِحِ سَلاَمَتِهِمْ وَأَعْطَيتُهُمَا لِهَارُونَ الْكَاهِنِ وَلِبَنِيهِ فَرِيضَةً دَهْرِيةً مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ». ٣٥تِلْكَ مَسْحَةُ هَارُونَ وَمَسْحَةُ بَنِيهِ مِنْ وَقَائِدِ الرَّبِّ يوْمَ تَقْدِيمِهِمْ لِيكْهَنُوا لِلرَّبِّ، ٣٦الَّتِى أَمَرَ الرَّبُّ أَنْ تُعْطَى لَهُمْ يوْمَ مَسْحِهِ إِياهُمْ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ، فَرِيضَةً دَهْرِيةً فِى أَجْيالِهِمْ. ٣٧تِلْكَ شَرِيعَةُ الْمُحْرَقَةِ، وَالتَّقْدِمَةِ، وَذَبِيحَةِ الْخَطِيةِ، وَذَبِيحَةِ الإِثْمِ، وَذَبِيحَةِ الْمِلْءِ، وَذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ، ٣٨الَّتِى أَمَرَ الرَّبُّ بِهَا مُوسَى فِى جَبَلِ سِينَاءَ، يوْمَ أَمْرِهِ بَنِى إِسْرَائِيلَ بِتَقْرِيبِ قَرَابِينِهِمْ لِلرَّبِّ فِى بَرِّيةِ سِينَاءَ".

وقد جاء الإسلام ليخلص اليهود من كل هذا العنت. قال تعالى عن رسوله وما أتى ليقدمه من خير لبنى إسرائيل: "ويضَعُ عنهم إِصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم". ولو عرف القارئ ما يجب على المرأة الحائض والنُّفَساء عمله، وما يجب على الأسرة التى تكون فيها الحائض والنفساء مراعاته، لأصابه دوار أزلى. كل هذا وأنت لست منهم بل مجرد قارئ تقرأ عما يجب عليهم عمله أو الامتناع عن عمله فى تلك الظروف. فما بالك لو كنت منهم؟ ومع هذا لا يجرؤ العفيف ولا غير العفيف من كارهى الإسلام من أبناء جلدتنا أن يصدر ولو أنينا خافتا على سبيل الإيماء إلى شىء من هذا العذاب الذى ما بعده عذاب!

وهذه بضعة نصوص خاصة بنجاسات الرجل والمرأة: "١وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢«كَلِّمْ بَنِى إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: إِذَا حَبِلَتِ امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَرًا، تَكُونُ نَجِسَةً سَبْعَةَ أَيامٍ. كَمَا فِى أَيامِ طَمْثِ عِلَّتِهَا تَكُونُ نَجِسَةً. ٣وَفِى الْيوْمِ الثَّامِنِ يخْتَنُ لَحْمُ غُرْلَتِهِ. ٤ثُمَّ تُقِيمُ ثَلاَثَةً وَثَلاَثِينَ يوْمًا فِى دَمِ تَطْهِيرِهَا. كُلَّ شَىءٍ مُقَدَّسٍ لاَ تَمَسَّ، وَإِلَى الْمَقْدِسِ لاَ تَجِئْ حَتَّى تَكْمُلَ أَيامُ تَطْهِيرِهَا. ٥وَإِنْ وَلَدَتْ أُنْثَى، تَكُونُ نَجِسَةً أُسْبُوعَينِ كَمَا فِى طَمْثِهَا. ثُمَّ تُقِيمُ سِتَّةً وَسِتِّينَ يوْمًا فِى دَمِ تَطْهِيرِهَا. ٦وَمَتَى كَمُلَتْ أَيامُ تَطْهِيرِهَا

لأَجْلِ ابْنٍ أَوِ ابْنَةٍ، تَأْتِي بِخَرُوفٍ حَوْلِيٍ مُحْرَقَةً، وَفَرْخِ حَمَامَةٍ أَوْ يَمَامَةٍ ذَبِيحَةَ خَطِيةٍ إِلَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، إِلَى الْكَاهِنِ، [٧]فَيقَدِّمُهُمَا أَمَامَ الرَّبِّ وَيكَفِّرُ عَنْهَا، فَتَطْهُرُ مِنْ ينْبُوعِ دَمِهَا. هذِهِ شَرِيعَةُ الَّتِي تَلِدُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى. [٨]وَإِنْ لَمْ تَنَلْ يدُهَا كِفَايةً لِشَاةٍ تَأْخُذُ يمَامَتَينِ أَوْ فَرْخَي حَمَامٍ، الْوَاحِدَ مُحْرَقَةً، وَالآخَرَ ذَبِيحَةَ خَطِيةٍ، فَيكَفِّرُ عَنْهَا الْكَاهِنُ فَتَطْهُرُ»...

[١]وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا: [٢]«كَلِّمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُولاَ لَهُمْ: كُلُّ رَجُلٍ يكُونُ لَهُ سَيلٌ مِنْ لَحْمِهِ، فَسَيلُهُ نَجِسٌ. [٣]وَهذِهِ تَكُونُ نَجَاسَتُهُ بِسَيلِهِ: إِنْ كَانَ لَحْمُهُ يبْصُقُ سَيلَهُ، أَوْ يحْتَبِسُ لَحْمُهُ عَنْ سَيلِهِ، فَذلِكَ نَجَاسَتُهُ. [٤]كُلُّ فِرَاشٍ يضْطَجِعُ عَلَيهِ الَّذِي لَهُ السَّيلُ يكُونُ نَجِسًا، وَكُلُّ مَتَاعٍ يجْلِسُ عَلَيهِ يكُونُ نَجِسًا. [٥]وَمَنْ مَسَّ فِرَاشَهُ يغْسِلُ ثِيابَهُ وَيسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [٦]وَمَنْ جَلَسَ عَلَى الْمَتَاعِ الَّذِي يجْلِسُ عَلَيهِ ذُو السَّيلِ، يغْسِلُ ثِيابَهُ وَيسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [٧]وَمَنْ مَسَّ لَحْمَ ذِي السَّيلِ يغْسِلُ ثِيابَهُ وَيسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [٨]وَإِنْ بَصَقَ ذُو السَّيلِ عَلَى طَاهِرٍ، يغْسِلُ ثِيابَهُ وَيسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [٩]وَكُلُّ مَا يرْكَبُ عَلَيهِ ذُو السَّيلِ يكُونُ نَجِسًا. [١٠]وَكُلُّ مَنْ مَسَّ كُلَّ مَا كَانَ تَحْتَهُ يكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ، وَمَنْ حَمَلَهُنَّ يغْسِلُ ثِيابَهُ وَيسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [١١]وَكُلُّ مَنْ مَسَّهُ ذُو السَّيلِ وَلَمْ يغْسِلْ يدَيهِ بِمَاءٍ، يغْسِلُ ثِيابَهُ وَيسْتَحِمُّ بِمَاءٍ وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [١٢]وَإِنَاءُ الْخَزَفِ الَّذِي يمَسُّهُ ذُو السَّيلِ يكْسَرُ. وَكُلُّ إِنَاءِ خَشَبٍ يغْسَلُ بِمَاءٍ. [١٣]وَإِذَا طَهُرَ ذُو السَّيلِ مِنْ سَيلِهِ، يحْسَبُ لَهُ سَبْعَةُ أَيامٍ لِطُهْرِهِ، وَيغْسِلُ ثِيابَهُ وَيرْحَضُ جَسَدَهُ بِمَاءٍ حَي فَيطْهُرُ. [١٤]وَفِي الْيوْمِ الثَّامِنِ يأْخُذُ لِنَفْسِهِ يمَامَتَينِ أَوْ فَرْخَي حَمَامٍ، وَيأْتِي إِلَى أَمَامِ الرَّبِّ، إِلَى بَابِ خَيمَةِ الاجْتِمَاعِ، وَيعْطِيهِمَا لِلْكَاهِنِ، [١٥]فَيعْمَلُهُمَا الْكَاهِنُ: الْوَاحِدَ ذَبِيحَةَ خَطِيةٍ، وَالآخَرَ مُحْرَقَةً. وَيكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ أَمَامَ الرَّبِّ مِنْ سَيلِهِ.

[١٦]«وَإِذَا حَدَثَ مِنْ رَجُلٍ اضْطِجَاعُ زَرْعٍ، يرْحَضُ كُلَّ جَسَدِهِ بِمَاءٍ، وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [١٧]وَكُلُّ ثَوْبٍ وَكُلُّ جِلْدٍ يكُونُ عَلَيهِ اضْطِجَاعُ زَرْعٍ يغْسَلُ بِمَاءٍ، وَيكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. [١٨]وَالْمَرْأَةُ الَّتِي يضْطَجِعُ مَعَهَا رَجُلٌ اضْطِجَاعَ زَرْعٍ، يسْتَحِمَّانِ بِمَاءٍ، وَيكُونَانِ نَجِسَينِ إِلَى الْمَسَاءِ.

١٩«وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ لَهَا سَيْلٌ، وَكَانَ سَيْلُهَا دَمًا فِي لَحْمِهَا، فَسَبْعَةَ أَيَّامٍ تَكُونُ فِي طَمْثِهَا. وَكُلُّ مَنْ مَسَّهَا يَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٠وَكُلُّ مَا تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ فِي طَمْثِهَا يَكُونُ نَجِسًا، وَكُلُّ مَا تَجْلِسُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا. ٢١وَكُلُّ مَنْ مَسَّ فِرَاشَهَا يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٢وَكُلُّ مَنْ مَسَّ مَتَاعًا تَجْلِسُ عَلَيْهِ، يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٣وَإِنْ كَانَ عَلَى الْفِرَاشِ أَوْ عَلَى الْمَتَاعِ الَّذِي هِيَ جَالِسَةٌ عَلَيْهِ عِنْدَمَا يَمَسُّهُ، يَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٤وَإِنِ اضْطَجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا.

٢٥«وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ يَسِيلُ سَيْلُ دَمِهَا أَيَّامًا كَثِيرَةً فِي غَيْرِ وَقْتِ طَمْثِهَا، أَوْ إِذَا سَالَ بَعْدَ طَمْثِهَا، فَتَكُونُ كُلَّ أَيَّامِ سَيَلاَنِ نَجَاسَتِهَا كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِهَا. إِنَّهَا نَجِسَةٌ. ٢٦كُلُّ فِرَاشٍ تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ كُلَّ أَيَّامِ سَيْلِهَا يَكُونُ لَهَا كَفِرَاشِ طَمْثِهَا. وَكُلُّ الأَمْتِعَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَيْهَا تَكُونُ نَجِسَةً كَنَجَاسَةِ طَمْثِهَا. ٢٧وَكُلُّ مَنْ مَسَّهُنَّ يَكُونُ نَجِسًا، فَيَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٨وَإِذَا طَهُرَتْ مِنْ سَيْلِهَا تَحْسُبُ، لِنَفْسِهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَطْهُرُ. ٢٩وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ تَأْخُذُ لِنَفْسِهَا يَمَامَتَيْنِ أَوْ فَرْخَيْ حَمَامٍ، وَتَأْتِي بِهِمَا إِلَى الْكَاهِنِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٣٠فَيَعْمَلُ الْكَاهِنُ: الْوَاحِدَ ذَبِيحَةَ خَطِيَّةٍ، وَالآخَرَ مُحْرَقَةً. وَيُكَفِّرُ عَنْهَا الْكَاهِنُ أَمَامَ الرَّبِّ مِنْ سَيْلِ نَجَاسَتِهَا. ٣١فَتَعْزِلاَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ نَجَاسَتِهِمْ لِئَلاَّ يَمُوتُوا فِي نَجَاسَتِهِمْ بِتَنْجِيسِهِمْ مَسْكَنِي الَّذِي فِي وَسَطِهِمْ.

٣٢«هذِهِ شَرِيعَةُ ذِي السَّيْلِ، وَالَّذِي يَحْدُثُ مِنْهُ اضْطِجَاعُ زَرْعٍ فَيَتَنَجَّسُ بِهَا، ٣٣وَالْعَلِيلَةِ فِي طَمْثِهَا، وَالسَّائِلِ سَيْلُهُ: الذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالرَّجُلِ الَّذِي يَضْطَجِعُ مَعَ نَجِسَةٍ»".

أما فى النصرانية فيكفى أن نقف فقط أمام سر الميرون أو سر التثبيت، وهو سر من الأسرار السبعة فى الكنيسة المسيحية. والميرون كلمة يونانية معناها الدهن أو الطيب أو الرائحة العطرة، وهو بديل لوضع اليد لحلول الروح القدس على المعمَّدين (أع ١٩: ٨– ١٤). وهذه الكلمة تطلقها الكنائس الرسولية الشرقية والغربية منذ القرن الأول الميلادى على سر المسحه المقدسة. وهو يتم بعد سر التعميد. وطبقا لإيمان الكنيسة، كما ذكر الأنبا بنيامين فى كتاب "اللاهوت الطقسى"، فإنه "بالمعمودية يتم طرد الشيطان من الإنسان، لا يكون الإنسان مِلكا للشيطان. الإنسان يولَد ملك

للشيطان، وفى المعمودية يخرج من مملكة الشيطان، وعن طريق الميرون تغلق كل المنافذ التى من الممكن أن يدخل الشيطان مرة أخرى عبرها.

ولذلك يتم بعد التعميد رشم الشخص فى "جميع منافذ" جسمه بزيت الميرون. كما أجاب الأنبا بنيامين فى كتابه ردا على سؤال ‘‘أى أجزاء الجسم التى ترشم؟’’ قائلا: ‘‘هى تشمل كل منافذ الجسم بدءا من النافوخ والمنخرين والفم والأذنين والعينين. والكاهن يرشم هؤلاء فى الأول على شكل صليب، ثم يرشم عند القلب والسرة وأمام القلب من الظهر حتى آخر العمود الفقرى، وهو صلب الإنسان والذراعين (الكتف وتحت الإبط) والرجلين والركبة من فوق ومن تحت ومفصل المشط من الناحيتين". ومجموع هذه الرشوم ٣٦ رشمة بحسب طقس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. وهذا كله غير المواد التى يصنع منها الميرون، وتبلغ ٢٦ صنفا، بالإضافة إلى الطبخات المختلفة التى يخضع لها الميرون والقراءات والألحان والأدعية والصلوات المعقدة المصاحبة لعملية الطبخ والتى يشترك فيها كبار القساوسة وتستغرق وقتا طويلا، ثم رشم الأوانى ذاتها التى يوضع فيها الميرون. فهل يمكن العفيف الأخضر أو غيره أن يتناول مثلا موضوع رشم "منافذ الجسم كلها" بالإشارة فحسب، ولا أقول: بالهجوم والتسفيه والسباب؟ وهذا مجرد مثال بسيط.

وهو يمضى فيصف الإله فى الإسلام بأنه إلهٌ سادىٌّ لأنه جعل نارا فى الآخرة إلى جانب الجنة. فهل المسلمون وحدهم هم من يؤمنون بهذا؟ إن عند النصارى مثلا جنة ونارا، وإلههم يعذب ويعاقب كما يثيب ويسعد. وفى موقع إحدى الكنائس نقرأ الآتى: "نحن المسيحيين لا نؤمن بالجنة المفهومة عند المسلمين، بل نؤمن بالحياة الأبدية بجوار الرب، فنحن لانتظر فردوسا مفقودا بل فردوسا مردودا. ولك ياعزيزى بعض الشواهد: "الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بى فله حياة أبدية" (يوحنا ٦: ٤٧)، "الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة" (يوحنا ٥: ٢٤). كل من آمن بالمسيح ربا وفاديا وجعل الروح القدس شراع مركبته فذاك ليس له دينونة بل مكافأة، أما النار نحن أيضا نؤمن أنها موجودة، ولكن ليست لنا بل هى معدة لإبليس وملائكته وكل من لايؤمن بخطة الله

الآب تجاهه". إذن ففى النصرانية نار سوف يصلاها من البشر الأشرار ويبْقَوْن فيها إلى الأبد، وهؤلاء الأشرار هم كل من لم يؤمن بالسيد المسيح على النحو الذى يؤمن به النصارى الآن. أى أننا نحن المسلمين ذاهبون فى داهية، وبئس المصير. ونفسَ الشىء قُلْ عن كل من ليس نصرانيا. وليس فى هذا ما يزعجنا، فكل دين له عقائده ومفاهيمه ورؤيته.

وتقول مادة "فردوس" بـ"دائرة المعارف الكتابية" عما جاء فى العهد الجديد عن هذا الموضوع: "(١) عندما قال اللص التائب للرب يسوع وهو معلق على الصليب: "اذكرنى يا رب متى جئتَ فى ملكوتك. فقال له يسوع: "الحق أقول لك: اليوم تكون معى فى الفردوس" (لو ٢٣: ٤٢ و٤٣). وواضح من هذا أن الرب استخدم كلمة "فردوس" للدلالة على المكان الذى تذهب إليه أرواح المؤمنين عقب الموت مباشرة، وهو ما يتفق تماما مع المثل الذى ذكره الرب يسوع المسيح عن الغنى ولعازر حيث نقرأ أن الملائكة "حملت لعازر إلى حضن إبراهيم، وهو تعبير آخر عن الفردوس، أما الغنى فذهب إلى مكان العذاب" (لو ١٦: ١٩– ٢٢). (٢) ويقول الرسول بولس: "إنه اختُطِف إلى الفردوس وسمع كلمات لا ينطق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها" (٢كو ١٢: ٤). وقد ذكر قبل ذلك مباشرة أن هذا الاختطاف كان "إلى السماء الثالثة" (٢كو ١٢: ٢). (٣). ويقول الرب لملاك كنيسة أفسس: "من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التى فى وسط فردوس الله" (رؤ ٢: ٧) فى إشارة واضحة إلى رد الإنسان إلى مكان الراحة والسلام والشركة مع الله التى فقدها آدم وحواء بالسقوط، فطُرِدا من "جنة عدن"، ومعناها "جنة المسرة" (تك ٣: ٢٤).

ونجد وصفا لهذا الفردوس المستَرَدّ فى الإصحاح الأخير من سفر "الرؤيا" حيث نقرأ: "وأرانى نهرا صافيا من ماء حياة لامعا كبِلَّوْرٍ خارجا من عرش الله والخروف. وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع اثنتى عشرة ثمرة، وتعطى كل شهر ثمرها. وورق الشجرة لشفاء الأمم. ولا تكون لعنة ما فيها بعد. وعرش الله والخروف يكون فيها، وعبيده يخدمونه. وهم سينظرون وجهه، واسمه على جباههم. ولا يكون ليل هناك، ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس لأن الرب الإله ينير عليهم، وهم سيملكون إلى أبد الآبدين" (رؤ ٢٢: ١–٥)".

أما عقيدة "الجحيم" حسب العهد الجديد فهى على النحو التالى كما شرحته لنا دائرة المعارف المذكورة ذاتها: "لا ترد هذه الكلمة فى الترجمة العربية للكتاب المقدس (فانديك) إلا مرة واحدة فى العهد الجديد فى قول الرب لبطرس ردا على إعلانه الصريح بأنه هو "المسيح ابن الله الحى": "سيبنى على هذه الصخرة كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها " (مت ١٦: ١٥ـ ١٨)، ولكنها ترجمة للكلمة اليونانية: "هادز" (Hades) التى يتكرر ذكرها فى العهد الجديد باليونانية إحدى عشر مرة، و تترجم فى سائر هذه المواضع بكلمة "الهاوية"، وقد جاءت فى الترجمة الكاثوليكية فى جميع مواضعها "الجحيم". وتقابلها فى العبرية كلمة "شئول"، التى تذكر خمسا وستين مرة فى العهد القديم، وتترجم جميعها فى العربية إلى " الهاوية ". و "جحيم" فى اللغة العربية هى النار الشديدة الاضطرام والتأجج، فهى نار بعضها فوق بعض، وكل نار عظيمة فى مهواة هى جحيم. فـ"الجحيم" هو مكان العذاب للأشرار حيث نقرأ، فى مَثَل الغنى ولَعَازَر، أن الغنى "رفع عينيه فى الهاوية (الجحيم) وهو فى العذاب... وقال: يا أبى إبراهيم، ارحمنى وأرسل لعازر ليبلّ طرف أصبعه بماء ويبرّد لسانى لأنى معذَّب فى هذا اللهيب" (لو ١٦: ٢٣ و٢٤). و"أبواب الجحيم" (مت ١٦: ١٨) تعنى كل قوات الشر مجتمعة معا من شيطانية وبشرية. فمهما احتشدتْ قوات الشر فإنها لن تقوى على تقويض الكنيسة التى اقتناها الرب بدمه (أع ٢٠: ٢٨)، وبناها على شخصه (١ كو ٣: ١١)، وهو الممسك بها فى يده (يو ١٠ : ٢٨ و ٢٩)، وهو الذى يحرسها ويحفظها بقوته (١ بط ١ : ٥، يهوذا ٢٤). وكلمة "الجحيم" مرادفة لكلمة "جهنم"، التى سيأتى الكلام عنها فى موضعها من هذا الفصل من دائرة المعارف". وهذا ما نقرؤه عن جهنم فى المادة المذكورة: "يظهر اسم "جهنم" فى العهد الجديد ١٣ مرة (مت ٥: ٢٢ ٢٩ و٣٠، ١٠: ٢٨، ١٨: ٩، ٣٣: ١٥ و ٣٣ مرقس ٩: ٤٣ و٤٥ و٤٧ لو ١٢: ٥ يع ٣: ٦٢ بط ٢: ٤). وفى كل هذه المواضع تدل الكلمة على مكان العقاب الأبدى للأشرار بالارتباط مع الدينونة النهائية. وترتبط جهنم بالنار كوسيلة العذاب فيها. وفيها يلْقَى الجسد والنفس معا. ويجب عدم تفسير هذا على أساس أن العهد الجديد يتكلم مجازيا عن الحالة بعد الموت فيما يتلعق بالجسد لأنه باستمرار يفترض القيامة مسبقا".

وفى "قاموس الكتاب المقدس": "تتضمن القيامة، بحسب تعليم الكتاب المقدس، قيامة الأجساد وتغيير هذه الأجساد وبقاءها إلى الأبد... ولقد عَلَّم المسيحُ بوضوح بأن الموتى سيقومون". وجاء فى "إنجيل متى" (٢٥/٣٤): "ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالَوْا يا مبارَكى أبى رِثُوا الملكوت المُعَدَّ لكم منذ تأسيس العالم. ثم يقول أيضا للذين عن اليسار: اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته... فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى، والأبرار إلى حياة أبدية". وفى إنجيل متى أيضا عن العصاة: "ويطرحونهم فى أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان" (١٣/ ٤٢، ٥٠)، "فإن أعثرتْك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تُلْقَى فى النار الأبدية ولك يدان أو رجلان" (١٣/ ٨- ٩). وفى مرقس: "وإن أعثرتك رجلك فاقطعها. خير لك أن تدخل الحياة أعرج من أن تكون لك رجلان وتطرح فى جهنم فى النار التى لا تطفأ... وإن أعثرتك عينك فاقلعها. خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح فى جهنم النار" (٩/ ٤٥، ٤٧). وهناك أيضا بحيرة الكبريت المتلظية دوما فى "رؤيا يوحنا". إذن فهناك نار وعذاب وخلود فى هذا العذاب عند النصارى. وهذه النار لا تنطفئ أبدا كما نرى. كما لا يتوقف الدود فيها عن نخر أجساد المعذَّبين (مرقس/ ٩/ ٤٤، ٤٦). ومع هذا لا يتطاول العفيف الأخضر إلا على الإسلام فيصف الله فيه بأنه إله سادى مع أنه لا يفعل شيئا لا يفعله الإله الرحيم عند النصارى.

وتقول مادة "Gehenna"، أى جهنم الحمراء، فى "Jewish Encyclopedia" تحت عنوان "Judgment":

"It is assumed in general that sinners go to hell immediately after their death. The famous teacher Johanan b. Zakkai wept before his death because he did not know whether he would go to paradise or to hell (Ber. 28b). The pious go to paradise, and sinners to hell (B. M. 83b). To every individual is apportioned two shares, one in hell and one in paradise. At death, however, the righteous man's portion in hell is exchanged, so that he has two in heaven, while the reverse is true in the case of sinners (Ḥag. 15a). Hence it would have been better for the latter not to have lived at all (Yeb. 63b). They are cast into Gehenna to a depth commensurate with their sinfulness. They say: "Lord of the world, Thou hast done well; Paradise for the pious, Gehenna for the wicked" ('Er. 19a).

There are three categories of men; the wholly pious and the arch-sinners are not purified, but only those between these two classes (Ab. R. N. 41). A similar view is expressed in the Babylonian Talmud, which adds that those who have sinned themselves but have not led others into sin remain for twelve months in Gehenna; "after twelve months their bodies are destroyed, their souls are burned, and the wind strews the ashes under the feet of the pious. But as regards the heretics, etc., and Jeroboam, Nebat's son, hell shall pass away, but they shall not pass away" (R. H. 17a; comp. Shab. 33b). All that descend into Gehenna shall come up again, with the exception of three classes of men: those who have committed adultery, or shamed their neighbors, or vilified them (B. M. 58b). The felicity of the pious in paradise excites the wrath of the sinners who behold it when they come from hell (Lev. R. xxxii.). The Book of Enoch (xxvii. 3, xlviii. 9, lxii. 12) paraphrases this thought by saying that the pious rejoice in the pains of hell suffered by the sinners. Abraham takes the damned to his bosom ('Er. 19a; comp. Luke xvi. 19-31). The fire of Gehenna does not touch the Jewish sinners because they confess their sins before the gates of hell and return to God ('Er. 19a). As mentioned above, heretics and the Roman oppressors go to Gehenna, and the same fate awaits the Persians, the oppressors of the Babylonian Jews (Ber. 8b). When Nebuchadnezzar descended into hell, all its inhabitants were afraid that he was coming to rule over them (Shab. 149a; comp. Isa. xiv. 9-10). The Book of Enoch also says that it is chiefly the heathen who are to be cast into the fiery pool on the Day of Judgment (x. 6, xci. 9, et al.). "The Lord, the Almighty, will punish them on the Day of Judgment by putting fire and worms into their flesh, so that they cry out with pain unto all eternity" (Judith xvi. 17)".

وقد قرأت منذ قريب كتابا لصحفية أمريكية اسمها كارلا باور عن أستاذ جامعى هندى مسلم يعمل فى "مركز أكسفورد للدراسات العربية والإسلامية" هو الدكتور أكرم ندوى، وفيه تُوَجِّه الصحفية المذكورة للشيخ الهندى ما يعِنّ لها من أسئلة حول الإسلام، فيجيبها. وكان منها السؤال التالى: ما الذى سوف يحدث فى الآخرة لواحدة مثلى لا تؤمن بدين، بل تعتقد فقط فى وجود إله على نحو ما؟ والإجابة الجاهزة هى: طبعا ستدخل النار. وهذا فعلا ما قاله لها الشيخ أكرم، وإن حاول تلطيف الكلام بقدر ما وسعه التلطيف.

هذا ما قاله الشيخ، لكنى أحب أن أفصل الكلام فى تلك القضية بعض التفصيل حتى تتضح الصورة من كل جوانبها. يقول سبحانه وتعالى: "لا يكلِّف الله نفسها إلا وُسْعَها". وأنا أرى فى الآية بُعْدَين للوسع: فالله سبحانه قد راعى فى تشريعاته الوسع الإنسانى العام، فلا يطلب من عباده شيئا فوق طاقة البشر، فهو لا يطلب منهم الامتناع عن الطعام ولا عن الزواج إلى الأبد، ولا يكلفهم

الطيران بأجسادهم فى الفضاء ولا العيش مدفونين فى أطواء الأرض... وهكذا. ثم بعد ذلك هناك الوسع الفردى، وهو يختلف من إنسان لإنسان، إذ ليس من المتوقع مثلا أن يفهم الطلاب جميعا كل ما فى الكتاب المقرر بنفس الدرجة من العمق والصحة، مثلما لا نتوقع من الأعشى أن يبصر الألوان إبصارا صحيحا كسليم العينين، أو من المريض العليل الهزيل أن يرفع من الأثقال ما يرفعه بطل الحديد فى هذا المضمار. وعلى نفس الشاكلة لا نتوقع من الناس جميعا، رغم اختلافهم فى الذكاء وسعة الاطلاع وعمق التفكير والمرونة العقلية والنفسية والخلفية الحضارية والدينية والاجتماعية والقومية، أن ينتهوا إلى الإيمان بالإسلام وأن يؤمنوا به الإيمان الصحيح متى ما عُرِض عليهم.

ترى هل الأوربى الذى ملأه القساوسة والمبشرون والحاخامات والمستشرقون تعصبا ضد الإسلام ونبيه وعاش طول عمره يسمع عن سيدنا رسول الله الأكاذيب يكون إيمانه بالإسلام بنفس السهولة التى يؤمن بها من أتى من بيئة ثقافية وحضارية وعقلية غير مبغضة لسيدنا رسول الله، ووجد من أبيه أو أخيه أو صديقه أو أستاذه مثلا تفهما وتشجيعا على تتبع الحق والاستمساك به متى تبين له أنه هو الحق؟ هل اليهودية الأمية العجوز التى لا يمكن أن تشك طرفة عين فى صحة دينها حسبما تربت ونشأت سوف تحاسب يوم القيامة على عدم مسارعتها إلى اعتناق الإسلام عند عرضه عليها بنفس الصرامة التى يحاسب بها مسلم باع نفسه للشيطان عمدا مع سبق الإصرار لقاء منصب أو مال أو خوفا من فضيحة مخزية أمسكها عليه شياطين الإنس، وترك دينه وارتد عنه؟ بطبيعة الحال لا.

ولا ينبغى أن ننسى قوله عز من قائل: "ومن يشاقِقِ الرسولَ من بعدما تَبَيَنَ له الهُدَى ويتَّبِعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جهنمَ، وساءت مصيرا" مما يفهم منه أنه، لكى يصْلَى الإنسان جهنم، لا بد أن يتبين له الحق لكنه يعاند ويتمرد ويصر على الكفر، وإلا فلا. وكذلك لدينا قول رسولنا العظيم: "من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد". معنى ذلك أن المجتهد، أى الباحث الذى لم يأْلُ جهدا ولم يدخر وسعا وأخلص فى التحقيق والتدقيق والتقصى، ولم

يتيبس مخه عنادا وعصيانا بل كان مرنا منفتحا، لن يعدم الأجر إن شاء رب العباد. فماذا يريد الواحد أعظم من هذا؟

وأنا من الذين يعتقدون أن رحمة الله واسعة لدرجة مذهلة بشرط أن يبذل الإنسان كل ما فى وسعه بحثا عن الحق وعملا للخير، فرحمته وسعت كل شىء كما جاء فى القرآن، ورحمته سبقت غضبه كما يقول الحديث القدسى، والله سبحانه يغفر الذنوب جميعا كما ورد فى سورة "الزُّمَر"، والذين فعلوا الفاحشة وتابوا مما اقترفوه ولم يصروا عليه فإن الله يجزيهم مغفرة منه وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها حسبما جاء فى سورة "آل عمران"، ومن عمل سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وآمن فإن الله قد تكفل له بالرحمة والغفران طبقا لما تقوله سورة "الأنعام". وإذا كان القرآن يحكى عن جهنم على لسان المولى سبحانه: "يومَ نقول لجهنم: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل من مَزِيد؟" ويقول جل وعلا: "لأملأن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين" مما يفهم منه أنها تطلب دائما المزيد فإنه سبحانه هو نفسه القائل فى كتابه العزيز أيضا وصفا للجنة: "جنةٍ عَرْضُها السماواتُ والأرضُ" مما يفهم منه أن جهنم رغم طلبها المزيد دائما ليست بالنسبة إلى سعة الجنة شيئا يذكر (فى التلمود أن الجنة مأوى الأرواح الزكية لا يدخلها إلا اليهود، والجحيم مأوى الكفار، ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين، وأن الجحيم أوسع من النعيم ستين مرَّة. ياساتر، استر!). على أن يكون واضحا أننى لا أتكلم عن شخص بعينه، بل أكتفى برسم الخطوط العامة.

إلا أن الذى لا أفهمه هو أن كارلا باور، حسبما تخبرنا فى كتابها، قد وجدت نفسها وعزاء قلبها فى القرآن وألفت صورة الله فيه جليلة عظيمة، بل استولى عليها القرآن استيلاء، لكنها رغم ذلك لم تُسْلِم، أى لم تقم بالقفزة اللازمة من عدم الإيمان إلى الإيمان. إنه موقف غير مفهوم لأنها، فيما يبدو لى، ليس لها عذر فى اتخاذ هذا الموقف، وبخاصة أنها قضت ردحا طويلا من الزمن استفسرت فيه عن كل شىء فى الإسلام. لكن هذا هو مصيرها هى لا مصير أحد آخر، وهى حرة فى اتخاذ القرار الذى يرضيها، وهى الوحيدة التى سوف تتحمل جريرته.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد كان عندى طالب فى تسعينات القرن الماضى يأتى إلىَّ فى مكتبى بالكلية ويسألنى عن مصير الجاحظ يوم القيامة، وهل سيدخل الجنة أو لا؟ فأعاجله بدورى ضاحكا: ولكن لم الجاحظ بالذات؟ فيقول لى: لأنه معتزلى! فأغرق فى الضحك وأقهقه ملء صدرى وملء جيوبى وأكمامى وشنطتى وأدراج مكتبى، وملء الغرفة وباحات الجامعة كلها، بل ملء الكون أجمع. وهنا يعيد السؤال، فأجيبه وأنا لا أزال أضحك: وهل قالوا لك إننى سوف أقف على باب الجنة أنظم الدخول إليها، فأسمح لهذا بالولوج، وأحرم ذاك وأرده خائب المسعى؟ بل هل أستطيع أنا أن أعرف مصيرى فى ذلك اليوم؟ إننى سأكون أسعد السعداء لو نجوتُ من النار ولو بلجنة رأفة. ثم أكر عليه مهاجما هجوم الدعابة وأنا أنظر إلى أسنانه البنية: طبعا أنت تدخن؟ فيقول: نعم، وأنت تعرف ذلك. فأعقِّب قائلا: لكن عمنا الجاحظ لم يكن يدخن. ثم أسأله كرة أخرى: وهل تصلى دائما؟ فيقول لى فى انكسار: أحيانا وأحيانا. فأعلق بقولى: لكن عمنا الجاحظ، فيما أتصور، كان يصلى كل الصلوات. ثم أضيف السؤال التالى: وهل تقرأ كثيرا كما ينبغى أن يفعل طالب ناضج مثلك طبقا لما يريد الإسلام من أتباعه؟ فيقول وقد أخذ القلق يداخله: لا، بل قراءتى قليلة. فأقول: أعرف هذا الذى تقول، بينما عمنا الجاحظ كان يكترى دكاكين الوراقين ويقضى فيها يومه وليله يقرأ ويقرأ ويقرأ حتى لتقول الرواية إن الكتب سقطت عليه ذات ليلة فمات. ثم أعاجله بسؤال آخر: وهل تكتب مدافعا عن الإسلام كما كان يفعل الجاحظ؟ بل هل تكتب شيئا أصلا تنوّر به العقول وتروّح به عن القلوب؟ فيبسط كفيه إلى الأمام كأنه يقول: أنا، يا مولاى، كما خلقتنى! فيرتفع صوتى بالقهقهة قائلا له: ثم تطاوعك نفسك يا منحوس أن تأتى فتسألنى عن مصير الجاحظ متصورا أنه لن يريح رائحة الجنة بعد هذا كله؟ اغرب عن وجهى يا ولد! فيبتسم من مداعبتى ويجلس إلى جوارى صامتا، وأستمر أنا فى الضحك!

لكن لماذا ينظر هذا الطالب إلى الجاحظ على هذا النحو؟ لقد أفهمه هو وأمثالَه بعضُ المشايخ أن العقيدة الإسلامية الصحيحة التى لا يقبل الله سبحانه أبدا سواها هى عقيدة أهل السنة والجماعة. وعلى هذا فقد احتكر أهل السنة الجنة والفردوس وحجزوا كل الأماكن، ولم يعد هناك

ولا خرم إبرة لغيرهم. فالشيعة والخوارج والمعتزلة ولا أدرى مَنْ أيضا من الفرق والمذاهب مصيرهم جهنم الحمراء بلا مثنوية ولا تردد. إن الأمور عندهم مجرد قوالب كلامية محفوظة يرددونها آليا كما سمعوها من أولئك المشايخ. وعبثا أفهم أمثال هؤلاء أن الإسلام عبارة عن أوتوستراد رحيب شديد الاتساع يضم مسارات كثيرة مَنْ يسلك أحدها مجتهدا مخلصا لا يفتئت على غيره ولا يظلمه ولا يفكر فى إيذائه فهو ناجٍ بمشيئة الله وكرمه ورحمته. وليس من المعقول أن نحول هذا الأوتوستراد إلى خيط عنكبوت معلق فى الهواء عبر جهنم، وعلى من يريد دخول الجنة أن يعدو عدوا فوق هذا الحبل من غير استعانة بزانة خشب يحفظ بها توازنه، ودون أن يتطوح جسمه يمينا أو شمالا بل دون أن يهتز له جفن أو يضطرب له قلب، وإلا سقط فى الحال فى الهوة الفاغرة فاها تحته تتلظى فيها ألسنة اللهب تلمظا لأى عابر من غير أهل السنة والجماعة. ثم أقول لهم: إن كل فرقة من فرق المسلمين ترى فى نفسها أنها الفرقة الوحيدة الناجية، والباقون ضائعون لا محالة، لكن الله أرحم بعباده من أن يلزمهم خطا واحدا مَنْ خرج عنه قِيدَ أنملة هلك هلاكا أبديا، وإن الناس مختلفة فى العقول والأذواق والمشارب والاقتناعات. وبعض معارفى يظنون أننى معتزلى رغم ما يقرأونه فى كتبى من انتقادات لبعض آراء المعتزلة، مثلهم فى هذا مثل سواهم من الفرق، إذ أبين ما فى كل فرقة من حسنات وعيوب حسب اجتهاداتى، مردفا أننى أنا أيضا عرضة للوقوع فى الأخطاء، وأنه سوف يأتى من يكتشف فى كتاباتى عيوبا ويدل الناس عليها مثلما أصنع أنا مع الآخرين.

وأذكر فى هذا المجال أنى كتبت منذ سنوات بحثا من عشرات الصفحات تناولت فيه التهمة المعلقة فوق رأس ابن المقفع بأنه زنديق، وطالعت كل كتاب له صلة بالموضوع، وحللت تحليلا مفصلا مرهقا جميع ما وصلنا من مؤلفات الرجل وما قيل عنه وعن حياته وأخلاقه وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين وما عُزِيَ له من أقوال، وسافرت بعقلى وفكرى عبر الأزمان والأمكنة المختلفة، بعد أن استعنت بكل صديق يمكنه مساعدتى، ومنهم صديق مصرى فى سويسرا أمدنى بصورة من كتاب "الرد على ابن المقفع الزنديق اللعين" بتحقيق المستشرق الإيطالى جويدى سنة ١٩٢٨م، الذى كنت أبحث عنه منذ أكثر من عشرين سنة حتى حصلت أخيرا على تلك الصورة منه بعد محاولات

مضنية قبل ذلك ذهبتْ عبثا، ليأتى فى نهاية المطاف أحد المعلقين فى المنتدى العلمى المشباكى (الإنترنتى) الذى نشرت فيه البحث المذكور فيكتب أربعة أسطر لا غير أصدر فيها حكمه الجازم الحاسم على البحث بأننى ضيعت وقتى إذ دخلت مجالا لست متخصصا فيه وخالفت ما يقوله علماء السنة والجماعة فى زندقة الرجل. ولم يفكر المعلق الظريف فى أن يعمل عقله فيما كتبت ويقلب براهينى وتحليلاتى واستنتاجاتى، بل اكتفى بترديد ما حفظه كأنه آلة صماء، غافلا عن أن الطباطبائى الذى اتهم ابن المقفع بالزندقة ومعارضة القرآن ليس من أهل السنة والجماعة بل من الشيعة، وأن الباقلانى مثلا لم يشارك فى ذلك الاتهام، وكان أقرب إلى تبرئة الرجل. ودعنا من بعض الكتاب الكبار المحدثين ممن لا يرون فى الرجل زنديقا ولا فكَّر قط فى معارضة القرآن.

وأترك القارئ الآن مع هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تصور رحمة الله تعالى بعباده: قال تعالى: "إنما التوبةُ على الله للذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب. فأولئك يتوب اللهُ عليهم. وكان الله غفورا رحيما". "إن الله لا يظلم مثقالَ ذَرَّة. وإنْ تَكُ حسنةً يضاعفْها ويؤْتِ مِنْ لَدُنْه أجرا عظيما". "قل: يا عبادىَ الذين أسرفواعلى أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا. إنه هو الغفور الرحيم". "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مِثْلَها، وهم لا يظْلَمون". "مَثَلُ الذين ينْفِقُونَ أموالَهم فِى سبيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبعَ سنابلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. واللَّهُ يضَاعِفُ لمن يشاءُ. واللَّهُ واسعٌ عليمٌ". "والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا اللهَ فاستغفَروا لذنوبهم، ومَنْ يغفرُ الذنوبَ إلا الله؟ ولم يصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها. ونِعْمَ أجرُ العاملين". "إن الحسناتِ يذْهِبْن السيئاتِ. ذلك ذكرَى للذاكرين". "من تاب وآمنَ وعمل صالحا فأولئك يبَدِّلُ اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ. وكان الله غفورا رحيما". "ورحمتى وسِعَتْ كلَّ شىْءٍ. فسأكتبُها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون". "الذين يحملون العرشَ ومَنْ حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا: ربَّنا، وَسِعْتَ كلَّ شَىْءٍ رحمةً وعلمًا، فاغفر للذين تابوا واتَّبَعوا سبيلَك وقِهِمْ عذابَ الجحيم * رَبَّنا، وأَدْخِلْهُم جناتِ

عَدْنٍ التى وَعَدْتَهم ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. إنك أنت العزيزُ الحكيمُ * وقِهِمُ السيئاتِ. ومَنْ تَقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رحمتَه. وذلك هو الفوزالعظيم".

وفى الحديث النبوى: "لَلَّهُ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل بأرض فلاة دوِّية مهلكة معه راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه وما يصلحه فأَضَلَّها، فخرج فى طلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكانى الذى أضللتُها فيه فأموت فيه، فرجع إلى مكانه، فغلبته عينه، فاستيقظ، فإذا راحلته عند رأسه، عليها طعامه وشرابه وما يصْلِحه". "يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرَّب منى شبرا تقربت منه ذراعا. ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا. ومن أتانى يمشى أتيتُه هرولة. ومن لقينى بقُرَاب الأرض خطيئةً لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة". "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة". "من سَنَّ فى الإسلام سُنّةً حسنةً فعُمِل بها بعده كُتِب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شىء. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعُمِل بها بعده كُتِب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شىء". "ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشَاكُها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه". "كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذ أنا مِتُّ فأحرقونى ثم اطحنونى ثم ذَرُونى فى الريح، فوالله لئن قدر على ربى ليعذبنِّى عذابا ما عُذِّبَه أحد. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: "اجمعى ما فيك منه"، ففعلتْ، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: "يا رب، خشيتك"، فغفر له". "لا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى: يدعون له الصاحبة والولد، وهو يعافيهم ويرزقهم".

"أَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا". "عن عامر أخى الخضر بن محارب: إنى لببلادنا إذ رُفِعَتْ لنا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتيته وهو تحت

شجرة قد بُسِط له كساء، وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسقام فقال: إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض ثم أُعْفِى كان كالبعير عَقَله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضتُ قط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم عنا، فلستَ منا. فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء، وفى يده شىء قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إنى لما رأيتك أقبلتُ إليك فمررت بغَيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن فى كسائى، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسى، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائى، فهن أولاء معى. قال: ضعهن عنك. فوضعهن وأَبَتْ أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فوالذى بعثنى بالحق لَلّهُ أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها. ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتَهن، وأمّهن معهن. فرجع بهن".

"قُدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَبْى، فإذا امرأة من السبى تسعى، إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتَرَوْن هذه طارحةً ولدها فى النار؟ قلنا: لا والله، وهى تقدر ألا تطرحه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أرحم بعباده من المرأة بولدها". "جعل الله الرحمة فى مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه". "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها". "إن الله يمهل حتى يذهب شطر الليل الأول، ثم ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشقّ الفجر".

"أذنب عبد ذنبا، فقال: اللّهم اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أَى ربِّ، اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب، اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك". "والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم". "إن الله تعالى يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أَى رَبِّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطيه كتاب حسناته بيمينه. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ألا لعنة الله على الظالمين".

"إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادى؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رَأَوْنى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: وكيف لو رَأَوْنى؟ قال: يقولون: لو رأوْك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول: فما يسألوننى؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشدّ عليها حرصا، وأشدّ لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: يقول: فمِمَّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رَأَوْها؟ قال: يقولون: لو رَأَوْها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأُشْهِدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم. إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشْقَى بهم جَلِيسُهم".

"قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم تَرَوْنه يوم القيامة كذلك. يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة... ويضْرَب جسر جهنم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللّٰهم سَلِّمْ سَلِّمْ. وبه كلاليبُ مثل شوك السعدان. أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قَدْر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم: منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخْرِج من النار من أراد أن يخْرِج ممن كان يشهد ألا إله إلا الله، أَمَر الملائكةَ أن يخرجوهم، فيعْرِفونهم بعلامة آثار السجود، وحَرَّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتُحِشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يا رب، قد قشبنى ريحها، وأحرقنى ذُكَاؤها، فاصرف وجهى عن النار. فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتُك أن تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب، قَرِّبْنى إلى باب الجنة. فيقول: أليس قد زعمتَ ألاّ تسألنى غيره؟ ويلك ابن آدم! ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعلى إن أعطيتك ذلك تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيعطى اللهَ من عهودٍ ومواثيقَ ألا يسأله غيره، فيقرّبه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب، أدخلنى الجنة. ثم يقول: أوليس قد زعمتَ ألا تسألنى غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: يا رب، لا تجعلنى أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها. فإذا دخل فيها قيل: تمنَّ مِنْ كذا. فيتمنى، ثم يقال له: تمنَّ مِنْ كذا. فيتمنى حتى تنقطع به الأمانى، فيقول له: هذا لك، ومثله معه. قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا. قال: وأبو سعيد الخدرى جالس مع أبى هريرة لا يغير عليه شيئا من حديثه، حتى انتهى إلى

قوله: هذا لك ومثله معه. قال أبو سعيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هذا لك وعشرة أمثاله".

وفى ضوء هذا يمكن قراءة الآية التى أوردها العفيف الأخضر واتهم الله سبحانه بأنه إله سادى. تقول الآية: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء/ ٥٦). فأول كل شىء لا تتحدث الآية عن المؤمنين كما يقول هو ويريد أن يوهمنا به بل عن الكافرين. ثانيا ينبغى أن يكون هناك تمييز بين المستقيم والمنحرف، بين المؤمن والكافر، بين الطيب والخبيث، وإلا لم يكن هناك معنى لأى شىء ولفترت همم البشر ولم يجدوا باعثا على الاجتهاد والعمل والإبداع والنجاح ما دامت النتيجة فى نهاية الأمر هى هى للكافر والمؤمن، للطيب والخبيث، للخير والشرير، للعاملين المجتهدين وتنابلة السلطان، للص والرجل الحقانى، للقاتل والمسالم... إلخ. نعم ينبغى أن يكون هناك تفرقة بين رجل شهم كريم يحب أمته ويعتز بإسلامه ورسوله العظيم وبين شخص خائن لأمته منحاز لأعدائها يدعو إلى استئصال دينها ويحقرها ويحقر هويتها ويختلق الأكاذيب عليها وعلى عقيدتها وتاريخها، ويدعو قوى الشر فى العالم إلى العدوان عليها، وإلا فلا معنى لأى شىء كما قلت.

وهذا الكافر الذى تهدده الآية هو مَنْ بلغه الإسلام على صورته الصحيحة، وأتيحت له الفرصة ليفكر فيه ويقلبه فى عقله، وأخذ الوقت الكافى فى ذلك، وتبين له أنه هو الدين الحق، ولم يكن ثمة ما يخيفه من إعلان موقفه هذا، ثم أصر على الكفر وآثر البقاء على وثنيته وضلاله وزناه وخمره ورباه وبطشه بالفقراء والمساكين، وآذى المسلمين رغم رفعهم راية السلام والمودة. فهذا هو الذى سوف يصلى نارا حامية كلما نضج جلده بُدِّل جلدا آخر غيره ليذوق العذاب. والغريب أن العفيف الأخضر الذى يدافع عن هذا الكافر المنكوس العقل والضمير، وينادى بقبوله والترحيب به، ويدافع عن حقه فى الكفر والتخلف والانحطاط، هو نفسه العفيف الأخضر الذى ينادى باستئصال الإسلام ومحوه وتحويله إلى شىء آخر مختلف تماما، وعن طريق القوة والاستبداد والقهر والإكراه والسباب والإجرام. فكيف؟

وبعد فإن العفيف الأخضر وأشباهه يعملون بكل ما فى طاقتهم ووسعهم للتعمية على محاسن الإسلام بإثارة تلك المعايب الكاذبة بغية شغل المسلمين عن تقديم جوانب العظمة فى دينهم. وديننا كله عظمة فى عظمة بحمد الله. فهو الدين الوحيد فى العالم الذى يحض على نحو فريد مذهل على العلم والعمل والإتقان والإبداع والذوق الراقى والنظام والنظافة وتوفير مستوى معيشة مريح يليق ببنى البشر. ويكفى فى مجال الحض على الإبداع أن يقول الرسول الكريم الذى يرميه ذلك الرجل بالعصابية: "من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران". ومعنى ذلك بكل بساطة: يا مسلمون، لا تتوقفوا لحظة عن التفكير والإبداع، ولا تخشَوُا الخطأ، فهو أمر وارد، ولا عيب فيه ولا حرج، فضلا عن أنكم سوف تُؤْجَرون على التفكير والإبداع سواء أصبتم الغرض أو أخطأتموه. واللهِ لو لم يكن لمحمد سوى هذا الحديث لكفاه دليلاعلى أنه رسول من عند رب العالمين. ويقول صلى الله عليه وسلم حاثا على طلب العلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، و"اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، "العلماء ورثة الأنبياء"، و"إن الحيتان فى البحر لتستغفر لطالب العلم"، و"إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع"... إلى آخر تلك الأحاديث النبوية التى تستحث المسلم على السعى وراء العلم وتحصيل المعرفة والإضافة إليها، والتى لا وجود لها على هذا النحو فى الأديان الأخرى.

وفى موقف القرآن من العلم والقلم والقراءة والسعى وراء المعرفة يقول فيرجيل جيورجيو الكاتب والروائى الرومانى المشهور صاحب "La Vie de Mahomet" مشيرا إلى الآيات الأولى من سورة "العَلَق" التى يَعُدّها كثير من العلماء أول ما نزل من الوحى الإلهى على رسول الله صلى الله عليه وسلم: " Quoiqu'il fut illettré, les premiers versets révélés mettent en valeur la plume, la science, l'éducation et l'enseignement. On ne connaît pas de doctrines qui se sont intéressées à la science et à la connaissance à un tel point. Si Mohammad avait été un savant, la révélation, réalisée dans la caverne de ‘‘Hirra" n'aurait pas causé d'étonnement parce que le savant connaît la valeur de la science. Mais il était illettré, n'avait pas appris chez aucun maître. Je félicite les musulmans du fait que leur religion s'intéresse dès son début à l'acquisition de la connaissance et lui prête une grande importance".

إن دين محمد نظيف، ومعلوم أن من البشر من لا يحبون النظافة! والحداثة التى يدعونا إليها هؤلاء هى التى أفرزت، على نطاق واسع ودون اعتراض من أحد، الزنا واللواط والسحاق ومسافدة الآلات الكهربية وزنا المحارم والمناداة بتقنين مضاجعة الحيوانات وشرب الخمر والانتحار. إننا لا نغمط أوربا علمها وإبداعها ونظامها ونظافة شوارعها ومبانيها وجمال حدائقها وكل شىء فيها، لكن هذا موجود فى الإسلام وتاريخه الحضارى، وإن كات غالبية المسلمين فى القرون الأخيرة قد أخلدوا إلى الكسل والتنبلة العقلية وصاروا يكرهون القراءة وطلب العلم كما يكرهون العمى والبرص، وتكلست عقولهم وأمخاخهم، فلم يعودوا يفكرون إلا فى إشباع بطونهم. ويا ليتهم أفلحوا فى هذا، ويا ليتهم يأكلون طعاما سليما من الآفات والغش. وكثيرا ما أؤنب طلابى ومن حولى على هذا مبينا لهم أن الجنة لا يدخلها سوى الناس الراقين، أما الجهلاء الذين أتيحت لهم فرصة التعلم والتثقف وبلوغ الدرجات العلا فى سلم المعرفة فأهملوها وآثروا الجهل والانحطاط الفكرى والبلادة العقلية والتنطع والسطحية والبلاهة الثقافية والحضارية فأتصور أن دخولهم الجنة من أصعب الأمور على عكس ما يظن كثير من المسلمين من أن الجنة سوف تكون مفتحة الأبواب فى وجوههم: تناديهم وترحب بهم وتهش لهم وتأخذهم بالأحضان، وكأن الجنة "تَلُمّ"! لكن هذا كله شىء، وما يريده منا العفيف الأخضر شىء آخر. إن عينه طول الوقت على الخمور والانحلال الجنسى وما إليه. وما من واحد من أمثاله إلا ويدعو إلى انتشار الحانات فى بلاد المسلمين وعدم النكير على مرتاديها وسكيريها.

ومما يريده العفيف الأخضر أيضا حذف كثير من الآيات القرآنية حتى يتناغم المسلمون مع الحداثة الأوربية، ومنها تلك الآيات التى يتصور أنها تحض على الإيمان بالجبرية. فهو يدعو، بنص كلامه، إلى "التوقف عن تدريس آيات الإيمان بالقدر: خيره وشره، أى الإيمان المازوشى بأن "المكتوب" على الجبين تراه العين، وتاليا الانتهاء من تدريس وترويج آيات التسيير المخربة لثقة المسلمين فى أنفسهم وتقديرهم لها، وبدلًا منها تدريس آيات التخيير، التى تمسَّك بها المعتزلة، والتى تجعل من المسلم منذ نعومة أظفاره يؤمن بأنه هو، وليس الله، خالق أفعاله وصانع حاضره ومستقبله

بالقرار الصائب الذى يصنعه العلم". ثم يختم مقترحه الإجرامى هذا قائلا: "لقد أخذ محمد من اليهودية آيات التسيير، وأخذ من الماجوسية آيات التخيير، فجاء القرآن شكشوكة تونسية".

وهو، فى اتهامه للرسول، بأنه أخذ آيات التخيير من المجوسية وآيات التسيير من اليهودية، إنما يهلوس ويتهوس، إذ أين كان المجوس منه طوال حياته؟ وأين كان اليهود منه طوال العهد المكى على الأقل، وهو العهد الذى نزل فيه كثير من الآيات التى تتعلق بهذه القضية، حتى يقال إنه أخذ منهم هذا المعتقد أو ذاك؟ بل إن الرسول، رغم أنه قد ساكن اليهود فى المدينة بعد الهجرة عددا من السنين، لم يكن متصلا بهم بحيث يسمع منهم عقائدهم أو يطلع على شىء من كتبهم. ثم لماذا لم يتكلم واحد من هؤلاء أو أولئك ويفضحه ويضع نهاية له ولنبوته؟ اللّٰهم إلا إذا قال الحمقى إنه كانت له مكتبة كبيرة مملوءة بكتب الأديان الأخرى يستقى منها كل ما يريد ويدسه فى دينه. فأين كانت تلك المكتبة يا ترى؟ لو كان صلى الله عليه وسلم يعيش فى وقتنا الحالى لكان من الممكن للحمقى أن يقولوا إنه كانت معه ميكرو فلاشة سعتها آلاف الجيجابايتات مسجل عليها مكتبة دينية عالمية هائلة فيها كل ما يحتاجه، من كتب ودراسات، من يريد أن يجعل من نفسه نبيا مع تابلت ظريف صغير يمكن إخفاؤه هو والفلاشة عن الأنظار تماما فلا يعرف حتى الذِّبَّان الأزرق أنه يستعين بأفكار الآخرين. هل يظن عاقل أن المشركين والمنافقين واليهود، وقد لجأوا إلى أحط الوسائل وأكذبها فى محاربته ومحاربة دينه، كانوا ليهملوا هذه الوسيلة الناجعة فى آن؟

وهذا لو كانت اليهودية تقول بالجبرية قولا واحدا كما يدعى أبو جهل. فعلى سبيل المثال يكتب د. إبراهيم البحراوى الأستاذ المتخصص فى الدراسات العبرية، فى مقال له بعنوان "الجبر والاختيار فى التلمود" منشور فى صحيفة "الاتحاد" الإماراتية فى ١١ ديسمبر ٢٠١٥م، مستعرضا كتاب د. حنان كامل أستاذة الفكر اليهودى: "إشكالية العلاقة بين العناية الإلهية وحرية الإرادة فى الفلسفة اليهودية فى العصر الوسيط": "تُبَين المؤلفة فى الجزء الخاص بالتلمود (الكتاب اليهودى المقدس الثانى فى الأهمية بعد التوراة، وهو عبارة عن تفسير الحاخامات لها، ويصل الاهتمام به إلى درجة أن البعض يعتبره التوراة الشفوية كما يقول د. البحراوى) أن هناك ثلاثة اتجاهات حول قضية

حرية اختيار الإنسان لمصيره وقضية الجبر والقدر: اتجاه يرى أن الإنسان اليهودى مجبر حيث إن ما يحدث لليهودى هو أمر موجه من إرادة الرب وعلمه وأنه لا توجد أى أسباب خارجية أو تدخل لليهودى فيما يحدث له أو ما يحدث للعالم. بالتالى فهذا الاتجاه ينكر حرية إرادة الإنسان اليهودى ويردّ كل حدث فى حياته إلى العناية الإلهية. نجد، فى نصوص التلمود التى اختارتها المؤلفة، نصًّا يقول إن الإنسان لا يحرك ساكنًا فى الأرض إلا بأمر من السماء، ونصًّا آخر يقول إنه، قبل ولادة المولود بأربعين يومًا، ينادى مناد قائلًا: ابن فلانة لفلان، وابنة فلان لفلان، وزرع فلان لفلان. وهو نص يعنى أن مصير الإنسان وحياته محددان من قبل مولده. فعناية الرب، كما تقول المؤلفة، تقدِّر مَنْ سيتزوج مَنْ، وذلك لأن علم الرب سابق على ميلاد الإنسان. وعلى هذا الأساس لا يكون للإنسان أى دخل فى اختياره. ويؤيد هذا الفهم من نصوص التلمود قول الحاخام إسماعيل إن الرب يسيطر على كل أرواح البشر، وقول الحاخام إليعازر بن يوسى الجليلى: أعلم جيدًا أنه طالما أن الإنسان على قيد الحياة فإن نفسه تكون فى يد خالقه.

أما الاتجاه الثانى فى التلمود فى قضيتى الجبر والاختيار فيعتمد على الإيمان بقوانين الطبيعة والحظ فى تحديد مصير اليهودى. وترى المؤلفة أنه اتجاه يذهب إلى أن العناية من جانب الرب لا دخل لها فيما يحدث للإنسان، وإنما قوانين الطبيعة والحظ أو حتى البرج الذى ولد فيه الإنسان هى المسؤولة عما يحدث له وللعالم. وهو اتجاه لا يؤمن بالقضاء والقدر، ويعتبر أن ما يحدث للإنسان يخضع للصدفة. وتقتبس المؤلفة من التلمود فقرة تشير إلى اعتقاد فريق من الحاخامات التلموديين أن قوانين الطبيعة مستقلة وأنها تعمل بمعزل عن إرادة الرب. تقول الفقرة: إنّ حُكْم من سرق مكيالًا من الحنطة وزَرَعها فى الأرض ألا تثمر، وإنما وفقًا لقوانين الطبيعة فإنها ستنمو، أما الجهلاء فسيحاسَبون فى الآخرة، وإنّ حُكْم من دخل بزوجة صديقه ألا تحمل، وإنما وفقًا لقوانين الطبيعة أنها ستحمل، والجهلاء سيحاسبون فى الآخرة.

أما الاتجاه الثالث فيحاول التوفيق بين الاتجاهين، فيؤمن بالعناية الإلهية وحرية الإرادة فى ذات الوقت. ومن أقوال حاخامات التلمود لإثبات هذا الاتجاه قول الحاخام عقيبا: كل الأمور

مقدرة وفقًا للعلم الإلهى والعناية الإلهية، والحرية مكفولة، أى حرية الاختيار للإنسان، ويحكم العالم بالخير، وكل حسب عمله. أى أن الثواب والعقاب يكونان حسب اختيار الإنسان". وبهذا يتبين أن اليهودية تضم ثلاثة اتجاهات فى ذلك الموضوع، وهو ما نجده فى كل الفلسفات والعقائد. فما يقوله الجاهل إذن خطأ أبلق يدل على أنه يلقى الكلام على عواهنه.

اما الزرادشتية فنجد فيها الكلام عن تحكم الله فى كل أمور الحياة بما يعنى أنها قدر محتوم، وأن معظم حظوظ الإنسان مقدَّرة له أو عليه من قبل ميلاده، بل ربما من قبل خلق الكون ذاته، وإن كانت هناك إيماءات إلى أن الأمور فى عالم الروح تجرى على أساس من حرية الإنسان، إلا أنها حرية تخضع للقضاء المحتوم رغم ذلك، فضلا عن أن للعشوائية دورا كبيرا فى حياة الإنسان وما يفوز به من الطيبات. ويمكن الرجوع فى ذلك إلى مادة "Bakt" بـ"Encyclopaedia Iranica".

إن البشر منقمسون منذ أقدم العصور إلى جَبْريين وحُرِّيين بما فيهم الفلاسفة والعلماء. وقد اتخذ القرآن سبيلا وسطا، فلا هو قال بالجبرية المطلقة ولا هو أثبت للإنسان الحرية المطلقة، بل ذكر فى بعض النصوص هذا، وفى بعض النصوص ذاك. وهو حين فعل ذلك إنما أراد أن يلفت النظر إلى أن للمسألة زاويتى نظر: فمن جهة يركز على أن كل شىء هو فى يد الله، وبخاصة حين يتجه بالخطاب إلى الكفار أو يريد أن يبث العزاء فى قلب المؤمن. وهذا صحيح صحة مطلقة، إذ الله سبحانه هو خالق الإنسان والكون كله، وهو الذى أفاض على الإنسان إمكاناته ومواهبه، وأعطاه القدرة على التعلم والفهم والاستيعاب، وزوده بالعقل والإرادة والنطق والنظر والسمع واللمس والشعور والذاكرة والتفكير والتجميع والتحليل، وهيأ له الوسائل التى تعينه على التعلم والاستفادة من عناصر الطبيعة وأشيائها، فى الوقت الذى نظَّم كونه على قوانين معينة، وسهّل للإنسان استنباط تلك القوانين ومراعاتها فى تصرفاته وتفكيره وعمله. فمن هنا يمكنك بكل ارتياح أن تقول إن الله هو خالق كل شىء ومريد كل شىء. لكنه عز وجل أعطى الإنسان فى ذات الوقت شيئا من حرية الإرادة وإمكان التعامل مع عدد من البدائل والاختيارات فى المواقف المختلفة. ومن هنا يمكنك أيضا القول بأن الإنسان ليس مجبرا فى عمله إجبارا مطلقا.

والنظر الصحيح للمسألة يقودنا إلى أن الإنسان له إرادة، لكنها ليست إرادة مطلقة. وكيف تكون مطلقة، وفى مواجهة إرادته تقوم شهواته وميوله وضعفه وجوانب نقصه وإرادات الآخرين وطمعهم وشهواتهم، كما تقوم فى وجهه قوانين الكون وأحداث الحياة وعناصر الطبيعة وأشياؤها، ويشكِّله ذلك على نحو يختلف من إنسان إلى آخر. ولكن تلك الإرادة النسبية، رغم تأثرها بعيوب الشخص وأطماعه ونقصه وبإرادات الآخرين وأطماعهم وبقوانين الكون وعناصره وأشيائه، تظل قادرة على التحرر من تلك الضغوط واستخدام بعضها ضد بعض إذا ما أرادت، ولكن على نحو محدود. ودعنا من أن هناك أمورا لا دخل لإرادة الشخص فيها كولادته مثلا، إذ هى أمر يقع قبل وجوده وإدراكه وقبل أن تكون له إرادة من ثم. كما أن الموت والمرض والتقدم فى العمر والشيخوخة والعجز عن بلوغ المثل الأعلى، وكذلك المعاناة بألوانها المختلفة من قلق وشك وملل وفشل وغيرة وعداوات وسوء فهم وقصور علم وغير ذلك أمور مفروغ منها لا محيص عنها أيا كانت الاحتياطات التى نتخذها لتجنبها والتزمنا الصراط المستقيم، إن أمكن التزام الصراط المستقيم دائما. ولأن الإرادة البشرية محدودة وتختلف من شخص إلى آخر فإن أحد مبادئ الإسلام هو "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها". وهو ما يقتضيه العدل الإلهى ورحمته عز وجل بعباده. وهذه الإرادة النسبية المحدودة هى التى أبدعت رغم هذا كل ما نراه من مظاهر الحضارة المختلفة من سفن وقطارات وطيارات وغواصات وصواريخ وبيوت ومعابد ولغات وكتابة وكتب وأقلام ودفاتر وعلوم ومعارف وفنون وآداب وأطعمة وأدوية وأساليب علاجية وكواتيب (كمبيوترات) ومشباك (إنترنت) وآلات تصوير وهواتف وآلات طبخ وملابس وأحذية وملايين المخترعات الأخرى. على أن علم الله مسبقا بما سوف يقع فى دنيانا لا يعنى الجبرية إلا فيى عقول البسطاء السذج. ذلك أن القبلية والبعدية غير متصورة فى حق الله، إذ هو خالق الزمن، ومن ثم لا يمكن أن يحتويه الزمن كما يحتوينا نحن المخلوقين، بل ينطوى سبحانه على كل شىء منذ الأزل إلى الأبد بأمكنته وأزمنته، بمعنى أن كل شىء حاضر فى إدراكه حضورا أزليا أبديا على خلاف الحال بالنسبة لنا حيث تتجلى الحوادث والأشياء واحدا بعد الآخر، فى الوقت الذى هى عند الله موجودة طوال

الوقت. إنهما أفقان مختلفان تماما: أفق المطلق، وأفق النسبى المحدود. أفق الله، وأفق البشر. فإشارة الغبى الأحمق إلى الشكشوكة التونسية علامة على سطحية تفكيره وحماقة عقله! أما محاولته إلغاء عمل الله فى دنيا الإنسان فهذا كلامُ كافرٍ به سبحانه لا يقر بوجوده، بل يقر فقط بوجود الأمريكان والصهاينة والعمالة والخيانة، ولا يؤمن بشىء آخر.

ونهتبل الفرصة فننقل الفقرة التالية من ترجمة كتاب إيميل درمنجم: " La Vie de Mahomet" إلى الإنجليزية لمناسبتها التامة للسياق الذى نحن فيه: " We may find texts both for and against free will; these are the two ends of the chain of which the human spirit has never seized the intermediary links. If the Mussulmans, especially during the decadent periods, seem to lean towards "Oriental fatalism", there is nothing in the Koran to compel this, contrary to what Leibnitz and current opinion believe. When a Bedouin asked Mahomet whether it was necessary to tie up his camel, the Prophet replied: "Tie up your camel and trust yourself to God." But when someone said it was useless to act when all was already known in advance by God, he replied: "Act; the task will be made easy for you." Which is the same as saying: "Heaven helps them who help themselves." "At the same time act, as regards this world, as if you were going to live for ever; and as regards the other world as if you were going to die tomorrow," the Prophet is supposed to have said. This, truly, is the wisdom and the solution of all ethics".

وخلاصة ما قال أن القرآن يشتمل على نصوص تثبت الإرادة البشرية، وأخرى عكس ذلك، وإن كان المسلمون قد مالوا أيام تدهورهم إلى الإيمان بالجبرية، وهو ما لا نجد له صدى فى القرآن الكريم رغم جَرْى ليبنتز وغيره على القول الشائع الحالى لدى الغربيين بأن القرآن يتبنى الإجبار. ثم ساق قوله صلى الله عليه وسلم: "اعقلها وتوكل" كدليل على خطإ هذا التصور، وأنهى الفقرة بإيراد الأثر المشهور: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا"، قائلا إن هذا أفضل حل للمسألة الأخلاقية.

القمنى فى محاضرته بمنظمة "أدهوك" بلندن

قرأت فى موقع "النبأ" الألكترونى بتاريخ ٣٠ يوليه ٢٠١٦م وتحت عنوان "سيد القمنى من لندن: أنا كافر يا أزهر... ونفسى الاستعمار يجى مصر" ما يلى: "رغم اعتياد الكاتب والمثقف المصرى على مهاجمة الإسلام وإظهار العداء الواضح لكل ما له علاقة بالدين حتى إنه يعتبر الأزهر الشريف منظمة إرهابية، فإن الجميع على علم بأنه سرعان ما يتراجع عند أول بادرة تهديد بمقاضاته حتى أنه يبدى استعداده للتنصل من كل آرائه التى يبديها فى الظروف العادية.

ومؤخرا ارتدى القمنى ثوب الشجاعة عقب مغادرته مصر إلى العاصمة البريطانية لندن، وألقى محاضرة بمقر منظمة مدنية إنجليزية يطلق عليها: "أدهوك" تحرَّش فيها بكل ما هو إسلامى، وشن هجوما شرسا على مصر وعلى الإسلام فى حين غازل القوى الإلحادية الغربية، مدعيا أن المسيحيين هم أصحاب البلد الحقيقيون والأَوْلَى بقيادتها، وأن مصر لم تعرف الحداثة إلا مع الاستعمار الأوروبى، زاعما أن الخطر الحقيقى على العالم هو الإسلام، ومطالبا بفرض العلمانية على المجتمع المصرى لإنقاذه من الإسلام.

"النبأ" حصلت على فيديو "المحاضرة الفضيحة"، التى حملت عنوان "جذور وأسباب العنف الإسلامى- العلمانية هى الحل" للدكتور سيد القمنى (لا دكتور ولا يحزنون!)، والتى أعلن خلالها كفره بالإسلام من داخل مقر المنظمة التى تعرّف نفسها بأنها منظمة دولية مدنية حداثية تعددية غير حكومية مقرها الرئيسى لندن، ولها فروع فى عدد من الدول من بينها مصر.

وتأسست هذه المنظمة، بحسب ما تذكره على موقعها الإلكترونى، من أجل مواجهة التطرف والإرهاب، ونشر ثقافة الحرية والعقل والاختلاف عبر عملها الميدانى على أرض الواقع، والنظرى عبر مراكزها المتعددة. وأغلب المنضمين لهذه المنظمة من الشباب الملحدين من الدول العربية والإسلامية، وعلى رأسها مصر والسعودية.

أما أهم شىء تم اكتشافه فهو أن هذه المنظمة الإلحادية ترتبط بشراكة مع مؤسسة "الأهرام" المصرية. وهذه الشراكة تنص طبقا لما هو منشور على موقع المنظمة: "بعد مشاورات ومداولات

للعمل والتنسيق المشترك، ولما تحظى به مؤسسة "الأهرام" المصرية من حضور وازن فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ولتاريخها العريق وعدد مطبوعاتها الإعلامية من جرائد ومجلات، ولقيمة الأسماء الفكرية والعلمية والصحافية التى عملت وتعمل بها حيث لم تخل صفحاتها من ١٤٠ سنة من تأسيسها من حضور أقلام كبار الكتاب كطه حسين ويحيى حقى ونجيب محفوظ ومحمد حسنين هيكل وغيرهم، فقد تم إبرام شراكة بين مؤسسة "الأهرام" المصرية عبر مجلتها "ديوان الأهرام"، التى يرأس تحريرها الشاعر إبراهيم داوود، وبين مؤسسة "أدهوك" عبر مجلة "الموجة" الثقافية. وقد نص عقد الشراكة على أن تشمل هذه الشراكة العديد من مجالات التعاون كالبحوث المشتركة وتبادل المعلومات والخبرات بين مركز دراسات "الأهرام" وبين مركز دراسات منظمة "أدهوك"، وكذا تنظيم مؤتمرات وندوات مشتركة ووضع، رهن إشارة كل طرف، كل الإمكانيات المتاحة لإنجاح مختلف الأنشطة التى يسعى القيام بها كل من الطرفين".

وشهدت محاضرة القمنى سخرية شديدة من الآيات القرآنية، ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، مشيرا إلى أن الخطر الحقيقى على العالم هو الإسلام. وقال: "أنا هنا لتنبيه الإنسانية إلى خطر هائل يتمثل فيما نراه من حركات إرهابية إسلامية فى العالم".

وأضاف القمنى: "الإسلام نشأ فى منطقة من أفقر مناطق العالم. كان الناس يأكلون لحوم بعضهم البعض، ويضاجعون الحيوانات. هذه البيئة أفرزت أكلة لحوم البشر. الأرض، بالنسبة للبدو، شىء لا قيمة له. البدو هم الذين اخترعوا رب السماء حتى يصبح الوصول إليه مستحيلا، ثم اختاروا شخصا منهم (إشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) يتحدث إلى رب السماء مباشرة. وإن محمدا بالنسبة لهم ليس بملك، وإنما هو الوسيط القائم بينهم وبين رب السماء".

وحرض القمنى اتباعه والحاضرين قائلا: "من فضلكم زيدوا حقن الإسلاموفوبيا فى العالم. من فضلكم عرفوا العالم أنه فى خطر ساحق. أى مسلم يعتقد أن دينه صالح لكل زمان ومكان فهو إرهابى بالضرورة. أى مسلم يرى نفسه مختارا من الله وأن الجنة صنعت له وحده فهو إرهابى".

وزعم القمنى أن أفضل قربى إلى الله عند المسلمين هى فريضة الجهاد، وأن هذه الفريضة أهم عندهم من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وأن الجهاد عندهم هو "الإيغال فى قتل العدو".

وبعد وصلة سخرية من الحور العين فى الجنة قال القمنى: "كل الحور العين اللى فى الجنة لو اجتمعوا لن يساووا ذراع واحدة من الجالسات هنا"، مشيدا بالعلمانية التى "تعطى للمعتوه عقلا، وتعطى للإنسان أملا فى أن يكون صاحب رسالة" على حد زعمه.

وتطرق القمنى إلى قضية الفنان محمود الجندى بنوع من السخرية فقال: "محمود الجندى صديقى. كان يأتى ليسهر معى فى كل ليلة، ويشرب وينبسط. وفى أحد الأيام ذهب إلى منزله فوجده مشتعلا، واكتشف أن كتبى احترقت، والكتاب الوحيد الذى نجا هو المصحف. وعرف بعد ذلك أن الله أعطى له رسالة، فاطمأن وذهب ليعبده"، وتساءل: "كيف لإنسان مبدع أن يفعل ذلك؟!".

كما تطاول القمنى على مقام النبوة بشكل سافر وزعم أن الدواعش ليسوا أشد عنفا من محمد، الذى قتل فى ليلة واحدة ٨٦٠ بنى آدم وطفلا من بنى قريظة حتى صنع نهرا من الدم فى المدينة، بحسب زعمه، وعلى العالم أن ينتبه لهذا الوحش.

كما زعم القمنى أن كل الأديان حلت مشاكلها مع الحداثة إلا الإسلام لأنه يرفض التخلى عن فكرة الصلاحية لكل زمان ومكان، زاعما أن العلم هو الذى حل مشاكل البشرية وليس الأنبياء أو الرسل، ساخرا من المسلم الفقير قائلا: "المسلم الفقير الذى لا يجد قوت يومه يذهب إلى المسجد ويقول: اللّهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا".

كما زعم القمنى أن المسلم لديه الجنة فى جيبه، وإِنْ زنا وإِنْ سرق رغم أنف أبى ذَرّ، كما زعم أن البوس أو القبلات فى الإسلام ليست حراما، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم حلل ذلك من خلال حديث المرأة التى ذهبت للرسول صلى الله عليه وسلم واعترفت له بالزنا.

وقال القمنى: "داخل الوحش عقل يرفض فكرة المواطنة والانتماء والتراب والطين ويبخسها، ويكره العمل المنتج". كما زعم أن المسلم مكلف تكليفا ربانيا بكراهية غير المسلم، وأن الإسلام نسخ كل آيات السلم، مستشهدا بقول الله تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم

الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب". كما زعم أن قتل غير المسلم عند المسلمين أهم من فريضة الصلاة.

وزعم القمنى أن الإسلام يحرم الشفافية، مستشهدا فى ذلك ببعض الأقوال والأحاديث مثل: "وإذا بُلِيتُمْ فاستتِروا"، و"استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان" وأن المسلم يسأل الله ويستعين بالله ولا يسأل أو يستعين بالحكومة أو بالرئيس.

كما هاجم المملكة العربية السعودية قائلا: "النفط كان كارثة على العالم لأنه ظهر فى أسوأ منطقة يظهر فيها شىء"، مهاجما الأزهر وواصفا إياه بأنه معقل الإرهاب فى العالم، وأعلن أنه يسعى لاعتبار الأزهر منظمة إرهابية فى الأمم المتحدة. وخاطب الحضور قائلا: "علينا أن نقف على منصة الأمم المتحدة ونقول للعالم: ما هو الخطر الذى يواجهه؟ الأزهر منظمة متعددة الوجوه والماسْكات".

وقال: "جئت إلى هنا لأقول للأزهر: أنا كافر". وزعم قائلا: "الشباب المتمسك باسلامه شعر إنى أنا فهِّمْتُه إسلام جميل يتوافق مع الحداثة وبقى راضى مع المجتمع، وبيقابل إخوانه المسيحيين وبيسهر معاهم وبيشرب بيرة ومبسوط وبيقول لى: إزيك يا مولانا، والملحدين بيقولوا لى: يا بابا".

ولم يفوت القمنى أن يحرض على الفتنة الطائفية بالقول: "الجماعة المسيحيين اللى حسوا إنى أنا حطيت ايدهم على مشكلة لازم يتخلصوا منها، وأن الأسطورة لم تعد فاعلة، وكمسيحيين شرقيين يجب أن تقودوا المنطقة وانتوا أصحاب الأرض".

وواصل القمنى تطاوله على الإسلام بالقول: "مواجهة الإسلام لا تكون بقتلهم لأن ذلك مستحيل، لكن عن طريق قص أظافره وأنيابه وأشواكه"، كما أعلن كفره بالجن قائلا: "أنا انكر وجود الجن. نحن نؤمن بالإنسانية والعلم ونكفر بالجهل".

وزعم القمنى أن الإسلام يبيح للمسلم فى نهار رمضان أن يقضى شهوته الجنسية عن طريق الإيلاج فى القرد أو نحوه، ولا يجوز فى أنثى القرد، كما يجوز له أن يقضى شهوته بيد طفلة صغيرة أقل من ٤ سنوات.

وواصل القمنى تحريضه على الإسلام قائلا: "أرى أن محاربة الفكرة أقل تكلفة بكثير وأسرع فى التأثير وأقدر على الفعل. الحل فى عمل مدارس وعودة الحضارة الغربية للتواجد فى وسط بلادنا".

وزعم القمنى: "بلدنا لم تعرف الحداثة إلا بعد أن دخلت فرنسا مصر. مصر لم تعرف يعنى إيه سياسة وقانون ووطن إلا فى وجود الاستعمار الأوروبى الإنجليزى فى بلادنا. فالحل هو انغراس الحضارة الغربية فى المنطقة".

كما حذر القمنى العالم من الإسلام قائلا: "إما أن يقف العالم المتحضر أمام هذا الوحش لتحجيمه وفرض العلمانية فرضا أمميا على هذه البلاد مع مراقبين دوليين، وإلا فستخرج منها عليكم شرور تقضى على الإنسانية". وأكد القمنى أنه يتمنى احتلال مصر من جانب الغرب قائلا: "نفسى فى استعمار يجى مصر، بس مفيش".

هذا ملخص لما قاله القمنى حسب موقع "النبأ". والآن نبدأ مناقشة هذا الكلام. وستكون بداية المناقشة مع عبارة "أنا كافر يا أزهر!" التى قالها سيد القمنى فى الندوة اللندنية، وكأن مستقبل الكون متوقف على كفر القمنى، فهو حريص على إعلان هذا الكفر، مع أنه مسألة خاصة به، وأمر بينه وبين ضميره. وليكفر القمنى كما يشاء، ومن هنا حتى يوم الدين، فلن يؤثر ذلك فى أحوال أى أحد شيئا. ثم لِمَ يوجه القمنى هذا الكلام إلى الأزهر؟ هل الأزهر هو الله سبحانه، الذى يحاسب العباد؟ أم هل هو ضمير الشخص الذى يرضى عنه إذا ما أتى أمرا طيبا، أو يلذعه إذا ما فعل شيئا كريها؟ أبدا. إن الأزهر مجرد مؤسسة علمية من صناعة البشر، والمفروض أنها تبين للناس صحيح الدين أو ما تراه صحيح الدين. ورغم هذا فما يصدر عن الأزهر من فتاوى وأحكام ومواقف هو، فى نهاية المطاف، اجتهاد إنسانى يجوز عليه الصواب كما يجوز عليه الخطأ، وإن كان المفترض، تبعا لتخصص علماء الأزهر خريجى كليات أصول الدين والشريعة وما إلى ذلك، أنهم يفهمون الدين أفضل من كثيرين، ولكن دون أن يعنى هذا بالضرورة أنهم لا بد أن يكونوا كذلك فعلا، إذ هناك دائما فرق بين الكلام النظرى والواقع العملى.

ثم إن كل إنسان حر فى أن يؤمن أو يكفر: "وقل: الحقُّ من ربكم. فمن شاء فلْيؤمن، ومن شاء فلْيكفر". وليس لإنسان على أى إنسان سلطة فى هذا ولا للرسول نفسه عليه السلام: "وما أنت عليهم بجبار"، "وما أنت عليهم بمسيطر"، "وما أنت عليهم بوكيل"، "وما أنت عليهم بحفيظ"، "ليس لك من الأمر شىء أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم". بل إن الرسول ذاته مأمور فى القرآن أن يقول على مسمع من الدنيا كلها: "ما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وما أدرى ما يفْعَل بى ولا بكم. إنْ أَتَّبِعُ إلا ما يوحَى إلىَّ"، كما تكرر الأمر له بأن يقول: "وما أنا إلا نذير مبين"، وخاطبه ربه قائلا: "إن أنت إلا نذير"، "وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا"، وتردد ذلك فى القرآن فى مناسبات شتى، وبصيغ مختلفة كما يعرف ذلك كل من له أدنى ملامسة مع القرآن. بل إن الله نفسه لم يشأ أن يسُوق العباد سَوْقًا إلى الإيمان به: "ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلُّهم جميعا. أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين؟". وأعلنها القرآن مدوية لا تذبذب فيها ولا لجلجة ولا جمجمة: "لا إكراهَ فى الدين. قد تَبَيَنَ الرُّشْدُ من الغَىّ". وأكد سبحانه أن الحياة قائمة على الاختلاف بين البشر فى كل شىء بما فى ذلك الإيمان والكفر. سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا.

ليس ذلك فحسب، بل إن القرآن ليوصى الأبناء بإحسان معاملة آبائهم وأمهاتهم تمام الإحسان حتى لو كفروا بل حتى لو جاهدوهم على الإشراك بالله سبحانه: "وَوَصَّينَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَينِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيكَ إِلَى الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ". بل إذا كان للإنسان ولد على غير دينه فلا يصح له إجباره على اعتناق الإسلام: "عنِ ابنِ عباسٍ رضى الله عنهما قال: كانتِ المرأةُ تكونُ مِقْلاةً فتجعلُ على نفسِها إنْ عاش لها ولدٌ أنْ تُهَوِّدَهُ. فلمَّا أُجْلِيتْ بَنو النَّضيرِكانَ فيهِمْ أبناءُ الأنصارِ، فقالوا: لا نَدَعُ أبناءَنا. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ. قَدْ تَبَينَ الرُّشْدُ مِنَ الغَى". والمقلاةُ التى لا يعيشُ لها ولدٌ.

ومرة أخرى لا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الإسلام لا يحبذ مقاطعة أحد من غير ديننا ما دام لا يقاتلنا أو يخرجنا من ديارنا بل يأمرنا ببرهم والإحسان إليهم واستقبالهم لدن زيارتهم لنا استقبالا كريما: "لا ينْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيهِمْ إِنَّ اللَّهَ يحِبُّ الْمُقْسِطِينَ". وعند استجارة المشرك بالمسلم فعلى المسلم إجارته وإسماعه كلام الله ثم لُيبْلِغْه مأمنه بعد ذلك، أى يوصله إلى أهله معززا مكرما دون التعرض له بأى أذى أو سوء.

ومرة أخرى غير الأخرى لا يقف الأمر عند هذه النقطة، إذ لما فتح المسلمون مكة وصارت رقاب المشركين فى أيديهم، ومصائرهم تحت رحمتهم بل تحت أقدامهم، وتوقع المشركون أن يكون الانتقام رهيبا يطفئ غُلَل الغيظ التى تتلظى بها القلوب، فوقفوا عند الكعبة ينتظرون الحكم عليهم من فم محمد، ولم يدر فى خَلَد أَشَدِّهم أملا وتفاؤلا شىء غير أن يكون العقاب مخففا بعض الشىء، فوجئوا أعظم مفاجأة من حكم محمد عليهم، ألا وهو الرحمة الشاملة والعفو العام رغم كل ما أوقعوه بالمسلمين من أذى ومصادرات وقتل وضرب وتعذيب وإهانة وحصار مدمر وتجويع وتعطيش وغدر وخيانة للمعاهدات. لقد نظر الرسول الكريم إليهم قائلا: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا فى مثل براءة الأطفال ناسين الإجرام العاتى المتوحش الذى عاملوا به المسلمين طوال الوقت: خيرا! أخ كريم، وابن أخ كريم! (يا للأدب واللياقة العالية!). فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال لهم: اذهبوا، فأنتم الطُّلَقاء. ولم يعاقب من المكيين جميعا غير طائفة لا يصل عددها عدد أصابع اليد الواحدة لأن جرائمهم قد تجاوزت كل الحدود. فهل يحتفظ التاريخ فى صفحاته بشىء مثل هذا؟ إنه عليه الصلاة والسلام لم يفكر حتى فى اهتبال تلك السانحة فيكْرِههم على الدخول فى الإسلام، وهو ما لم يفعله ولا فكر فيه ولا مَرَّ له بخاطر.

ولا يقتصر موقف الإسلام من الإكراه فى الدين على هذه المناسبة، بل كان كل من يعتنق الدين الجديد يفعل ذلك بناء على تفكير وتحقيق وتقليب للأمر فى عقله ونفسه دون أن يتعرض لضغط أو إجبار: فمثلا كان أبو بكر يعرف النبى منذ أعوام قبل البعثة، إذ كانا صديقين، فكانت كل

جوانب شخصيته عليه السلام من صدق وحكمة وأمانة ووفاء وعفة وتواضع ونبل وطبع كريم وخلق سامق وطيب نفس وعلو همة واتزان عقل معلومة لديه دون أدنى خفاء، ومن ثم كان تقبُّله لدعوته ودخوله فى دينه. ويضاف إلى ذلك عظمة ما أتى به من توحيد وحث على إكرام المسحوقين والعطف عليهم والصدق والشهامة وغير ذلك من الخلق الكريم مما من شأنه اجتذاب مثل أبى بكر صاحب السجايا النبيلة والعلو على الدنيات. أما عمر بن الخطاب فكان اعتداده بنفسه يمنعه من الإصاخة فى البداية لصوت الحق، وكانت مقدرته على البطش تسول له التصلب فى موقفه الرافض للدين القشيب، إلى أن وقع منه العدوان على أخته وزوجها فى بيتهما وسال الدم من وجهها وتحدته دون خوف أو حساب للعواقب قائلة له إنها فعلا قد اعتنقت دين محمد، فليفعل ما يشاء، مما كانت نتيجته استيقاظ ضميره وتنبُّهه إلى بشاعة ما أتاه مع أخته وزوجها دون وجه حق، وكانت اللحظة السعيدة التى انبثق فى نفسه عندها أنه ينبغى له الاطلاع على ما جاء به محمد من وحى يعكف عليه ويفكر فيه، وهو ما حدث فى نفس الموضع الذى اعتدى فيه على أخته وختنه، وكان قلبه مهيأ آنذاك لقبول الحق، فكان أن سأل عن مكان الرسول وأصحابه، وذهب إليهم. وبدلا من أن الاعتداء الذى كان يبيته قبيل قليل أعلن إسلامه وانضم إلى الجماعة الناشئة بنفس حماسته القديمة فى محاربتها.

وأما أبو ذر العفارى فقد أرسل أخاه يستطلع له طِلْع ذلك الرجل الذى تواترت الأخبار بإعلانه النبوة فى مكة. ولما غاب أخوه لحق هو أيضا به، وهناك راقب أحوال محمد عن كَثَب حتى وجد ما يدعوه إلى تصديقه واعتناق دينه. أما خالد وعمرو بن العاص فقد أدى بهما الفشل المتلاحق للوثنية فى مواجهة الدين الجديد إلى التنبه لسخف موقفهما منه ومن صاحبه، فقررا الالتحاق به واعتناق دينه.

وأما أبو سفيان فقد شهد فى قصر هرقل، خلال اجتماع عقده العاهل البيزنطى لمناقشة الرسالة التى وصلته من محمد يدعوه فيها إلى الإسلام، ما دله على صدق دعواه النبوة، وإن كان العناد والحزازات التى كانت بين أسرتيهما قد منعته من اتخاذ الخطوة المنتظرة، فتأخر به الأمر حتى فَتْح مكة حين أيقن أنه لا أمل له ولا لجبهته فى الانتصار على محمد وعلى الإسلام. وفى فتح مكة كان للعفو

العام والنبل العظيم غير المتوقع الذى تصرف محمد بمقتضاه نحو قومه أثر نفسى مزلزل دفع تلك الجموع إلى الدخول فى الدين الذى أتى به والذى لم يدَعُوا وسيلة دون أن يجربوها فى حربه، لكنهم باؤوا بالفشل، وانتصر هو ورجاله مع فقر الأسباب التى فى يديه، وصدقت نبوءاته وتحدياته لهم ولوثنيتهم.

بل إن زوجته خديجة قد استندت إلى المنطق وتحكيم العقل فى تقويم ما حدث له فى الغار حين ظهر له جبريل أول مرة، إذ كان رأيها أن الله سبحانه لن يضيع زوجها الكريم الذى بَلَتْ سجاياه قبل الزواج وبعده فلم تُلْفِ منه سوى كل خير وبر ورحمة ورجولة وشهامة حتى لقد أكدت له أن الله لا يمكن أن يخزيه، إذ هو يصل الرحم ويحمل أثقال الضعيف ويغيث اللهيف ويعين صاحب الأعباء الشداد على أعبائه. وكان قد أتاها خائفا متوجسا يرجف جسده كله إثر ذلك اللقاء الذى لم يَخْبُره ولم يَخبُرْه أحد حوله ولا سمع عنه من قبل، وكان مرتعبا يظن أن شرا قد حاق به. ثم إنها لم تكتف بذلك بل تذكر الروايات أنها أرادت التحقق من خلال تجربة شخصية قامت بها من أن هذا الذى رآه لم يكن شيطانا بل روحا خيرة، فكانت النتيجة مطمئنة. ولم تكتف مرة أخرى بهذا الاختبار بل قصدت ورقة، ذلك الشيخ العجوز الذى كان لديه علم بما فى أيدى أهل الكتاب، فأكد لها أنه الناموس الذى كان ينزل على موسى.

ولو كان محمد دعيا كذابًا ما تصرف على ذلك النحو أبدا ولزعم دون تلجلج أو خوف أو ارتجاف أن ملاكا ظهر له عند الغار فأخذ يحدثه حديث الصديق للصديق ويحتضنه بود ومحبة ويعده الوعود الكبار ويؤكد له أنه نبى مقرب لا ريب فى ذلك وأنه يعلم الغيب ويأتى بالمعجزات. أما هذا الرعب الذى أخذه وزلزل كيانه فى البداية، وكذلك الرجفة التى اعترته وأحوجته إلى التلفف فى الثياب والالتحاف بالأغطية إنما يدلان على بساطة نفسه وصراحة قلبه ورغبته فى الوصول إلى بر اليقين بشأن هذا الذى رآه وسمعه عند الغار.

ومن هذا يتبين لنا أن مخاطبة القمنى للأزهر لإخباره أنه كافر بالإسلام شىء لا معنى ولا لزوم له. لكن من حق الأزهر وغير الأزهر رغم هذا أن يقول رأيه فيما يعلنه القمنى ضد الإسلام

رأيا فى مقابل رأى. وقد سبق أن رددتُ على هلوساته من قبل أنا وغيرى وفضحتُ ما فى كتاباته من أخطاء لغوية وتسيبات وسرقات وتدليسات وعبث بالنصوص المنقولة للتوصل بها إلى نتائج ما أنزل الله بها من سلطان، وانتهى الأمر عند هذا الحد. ويجد القارئ الكريم ما خطته يراعتى فى كتابى: "أفكار مارقة" تحت عنوان "القمنى بلبوصا".

أم ترى القمنى يريد ألا يرد عليه أحد لينفرد هو بالساحة يملؤها بالجهل والضلال، فيخيل للعامة وأشباههم أنه لا أحد يستطيع الرد على ما يقوله، وبخاصة أنه يصوَّر فى بعض الدوائر بوصفه مفكرا ضليعا. بل إنه قد حصل، بسبب ترشيحه من بعض تلك الجهات، على الجائزة التقديرية من مصر، وهو ما هو فكرا وأسلوبا. وكانت فضيحة بجلاجل. وقال هو، ردا على صدور حكم من المحكمة بوجوب رد الفلوس التى حصل عليها من الدولة، إنه إن جاءه من يسترد قيمة الجائزة منه فسوف يخلع ملابسه فى الشارع "بلبوصا" حتى اقترنت هذه الكلمة به وصارت عنوانا عليه ولقبا له، وكُتِبَتْ مقالات حملت فى عناوينها هذه الكلمة. وهذا هو مستوى الرجل فكريا وذوقيا وخلقيا.

ولا يقتصر الأمر على هذا بل يسود فكرَ القمنى اضطراباتٌ وتناقضاتٌ تدل على أن فهمه للأمور غير محكم ولا تنتظمه رؤية واحدة متسقة. ففى الوقت الذى يصرخ فيه بأنه كافر بالإسلام، ويشتم النبى والمسلمين والقرآن، ويفترى الكذب ويدلس ويزيف الحقائق نجده يقول أيضا: "الشباب المتمسك بإسلامه شعر إنى أنا فهّمته إسلام جميل يتوافق مع الحداثة وبقى راضى مع المجتمع، وبيقابل إخوانه المسيحيين وبيسهر معاهم وبيشرب بيرة ومبسوط وبيقول لى: إزيك يا مولانا. والملحدين بيقولوا لى: يا بابا". فهو يرى أنه ما زال يعمل من داخل الإسلام مقدما للشباب فهما خاصا لهذا الدين أحبوه وأقبلوا عليه وتعايشوا معه ووجدوا فيه أنفسهم. فهل هو يا ترى كافر بالإسلام؟ أم هل هو مسلم له رؤيته فى التدين بذلك الدين؟ ومما قاله تصويرا للأسلوب الذى يعيش به كلامه التالى عن الممثل محمود الجندى: "محمود الجندى صديقى. كان يأتى ليسهر معى فى كل ليلة، ويشرب وينبسط". وهو الكلام الذى كان يردد مثله هاشم صالح مترجم كتب محمد أركون، إذ كتب يقول إنه يتمنى أن تصير العواصم الإسلامية كباريس وغيرها من عواصم الغرب

ممتلئة بحانات الخمر التى يقصدها الناس دون حرج. وهذا ما يفهمه أمثالهما من العلمانية ومحادَّة الإسلام.

والغريب المريب أن هذا الذى يعيش حياته على حل شعره فيشرب وينبسط ويغرى مَنْ حوله بالشرب والانبساط مفهما إياهم، مع ما فى ذلك من كذب وتزييف، أن هذا هو الإسلام الصحيح، ويغازل النساء اللاتى كن حاضرات فى ندوة إعلانه الكفرى ويقول لهن إن ذراع أية واحدة منهن أجمل من الحور العين جميعا، قد واتته الجرأة فى ذات الوقت فاتهم الإسلام بأنه دين شهوانى يقنن الزنا والشذوذ الجنسى ومضاجعة الحيوانات وممارسة الجنس مع البنات ذوات الأعوام الأربعة... وواضح أن هذا كلام من لحست الخمر عقولهم وأفقدتهم رشدهم وصوابهم، فصاروا يهلوسون بكلام لا معقول له، وإلا فهذه هى أخلاق الغربيين الآن، فلماذا ينكرونها على المسلمين إن كان ما يقوله صحيحا، وهو غير صحيح؟

فالغربيون لا حرام عندهم ولا مانع يمنع أيا منهم من الزنا واللواط والسحاق والاعتداء على الأطفال حتى من جانب القساوسة والرهبان كما نعلم جميعا من الفضائح التى يتوالى انفجارها من داخل الكنيسة ذاتها حتى زكمت نتانتها الأنوف وغثيت منها النفوس والبطون. وإنى لأستغرب أن يتقبل حاضرو الندوة ذلك الكلام الساذج العبيط عن الإسلام والمسلمين، وكأن المسلمين يعيشون فى بلاد الواق واق فى الزمن القديم، فلا يمكن البريطانيين الوصول إليهم ومعرفة حقيقة أحوالهم، ومن ثم ليس أمامهم سوى تصديق ما يسمعونه عنهم من أخبار عجيبة. ثم فلنفترض أن عقولهم كانت مغيبة، فأين الذوق وما يسمونه فى لغتهم بالـ"common sense"؟ وإذا كان المتحدث هابط الذوق وبذيئا غاية البذاءة على هذا النحو غير المسبوق فليكن عند المستمع حصوة فى عينه ترفده بقليل من الذوق.

إننى دائما ما أقول: إن العقل الأوربى، إذا ما تعلق نشاطه بالعلوم الطبيعية والتكنولوجيا وما إلى ذلك، هو عقل مبدع عجيب، لكنه ليس على ذات المستوى فى علوم الإنسان، وإن كان متفوقا أيضا. إلا أن الأمر يتخذ منحى آخر مختلفا تماما متى ما جاءت سيرة الإسلام. إنه يرتبك وتعتريه

رجفة وتتشابك سلوكه الكهربية وتتراقص عقارب ساعته ويضطرب بداخله كل شىء فلا يستطيع تفكيرا منطقيا بل يغلبه الفساد وينطق بالسخافات والترهات فى معظم الأحيان. وهى ظاهرة تحتاج إلى دراسة، إذ ليس من المعقول أن ينحط ذلك العقل المتفوق المبدع كل تلك الدركات من الانحطاط كلما عرض الإسلام له فى الطريق. وأمثال القمنى يعرفون كَمَّ الكراهية والحقد الذى يكنه العقل الغربى للإسلام، فيعزفون على أوتار تلك البغضاء، وهم مطمئنون إلى أن كلامهم، مهما كان تافها وسخيفا وكاذبا ومزيفا، سوف يكون مقبولا بل ومهضوما، وسوف ترحب به المعدة الغربية وتستمتع بمذاقه الكريه أيما استمتاع.

ثم لماذا كان لا بد أن يعلن القمنى كفره فى لندن ومن داخل تلك المؤسسة المريبة؟ إن الإيمان والكفر شىء خاص بصاحبه. فلم إذن كان الذهاب إلى لندن وإعلان الكفر من المؤسسة المذكورة؟ هل هى جهة اختصاص جدت فى الآونة الأخيرة لتراقب الضمائر وتمنح صكوك الكفر والإيمان، والغفران والخسران؟ ومع هذا يضطرب الرجل ويوزع الاتهامات يمينا ويسارا على الإسلام والمسلمين مع أن الإسلام من اتهاماته الخرقاء براء، فى حين أن تلك التهم تنطبق بكل وضوح ويقين على تلك الجهة التى دوى منها صوت القمنى بالكفر محاولا أن يظهر بطلا أمام الناس. لكن من البين الجلىّ أنه ليس سوى بطل من ورق. واضح أن هذه ورقة من أوراق اعتماده التى يجب عليه وعلى أشباهه تقديمها إلى تلك الجهات حتى ينال رضاها وما يترتب على رضاها، وإلا فالناس المستقيمون يتخذون قرارهم بالإيمان أو الكفر أو تعتريهم الشكوك والحيرة، لكنهم لا يذهبون إلى لندن أو نيويورك أو باريس ليعلنوا ذلك من هناك. ولسوف يرى القارئ أن هناك أوراقا أخرى قد قدمها القمنى لتلك الجهات لا أدرى كيف واتته نفسه على إعلانها دون حياء أو خجل. وهى أوراق ذات صلة بالوطنية، بل بعدم الوطنية وخيانة الأوطان، وسوف نتعرض لها بعد قليل.

ومما جاء فى التقرير الخاص بالقمنى وندوته أيضا قوله إن "الإسلام نشأ فى منطقة من أفقر مناطق العالم. كان الناس يأكلون لحوم بعضهم البعض، ويضاجعون الحيوانات. هذه البيئة أفرزت أكلة لحوم البشر. الأرض، بالنسبة للبدو، شىء لا قيمة له. البدو هم الذين اخترعوا رب السماء

حتى يصبح الوصول إليه مستحيلا، ثم اختاروا شخصا منهم (إشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) يتحدث إلى رب السماء مباشرة. وإن محمدا بالنسبة لهم ليس بملك، وإنما هو الوسيط القائم بينهم وبين رب السماء".

ولست أفهم مغزى الإشارة إلى أن بلاد العرب التى ظهر فيها الإسلام من أفقر مناطق العالم، اللّهم إلا اتخاذها تكأة للقول بأنهم، من شدة الجوع، كانوا يأكل بعضهم بعضا. وهذا طبعا كلام كاذب، فلم يقل أحد قط إن العرب كانوا يأكلون لحوم البشر: لا لحومهم ولا لحوم غيرهم. وليس فى أشعارهم ولا خطبهم شىء من هذا ولا على سبيل الإشارة البعيدة ولا تحدث عنها القرآن ولا الحديث ولا ذكرها المؤرخون: لا المؤرخون المسلمون، ولا المؤرخون الآخرون الذين لو كان شىء من هذا الكلام صحيحا لطنطنوا به وطبلوا له وزمروا وضخموه ونفخوا فيه ونشروه فى الآفاق. ولدينا فى تاريخنا الإسلامى الشعوبيون، الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة فى حياة العرب وتصرفاتهم ومآكلهم ومشاربهم وأخلاقهم وأساليب عيشهم إلا سخروا منه وتهكموا به وحقروه ونالوا منهم بسببه. ومع هذا لم يحدث قط أن ألمح أحد منهم إلى مسألة أكل لحوم البشر هذه. ولو كان هناك شىء من ذلك لتكلم عنه القرآن الكريم وحذر منه النبى العظيم ونهى الإسلامُ أتباعه عن ممارسته مثلما نهاهم عن الزنا والخمر وتطفيف الكيل والميزان والربا مثلا. بل ليس فى أساطيرهم ذاتها شىء من هذا، على عكس أساطير اليونان، التى نجد فيها مثلا السيكلوبات المتوحشين الذين يأكلون البشر ويلتهمونهم التهاما. فانظر كيف يقلب القمنى الكلام قلبًا ويدلس ويكذب كذبا مفضوحا، وكيف ينتشى الغربيون من هذه الأكاذيب التافهة انتشاء ضخما ويتقبلونها ويفركون أيديهم حبورا بما يسمعون منها، ويشجعون الكذاب الذى اختلقها ويكافئونه ويعقدون له المؤتمرات والندوات ويدعونه إلى بلادهم ويضيفونه.

وفى هذا كله تأكيد لما أقوله دائما من أن الغربيين، الذين يشغّلون عقولهم جيدا فى ميدان العلوم الطبيعية والرياضية والتطبيقية فيأتون بالإبداعات المذهلة، ما إن تأتى أمامهم سيرة الإسلام حتى تضطرب عقولهم ويغيب عنها المنطق والحكمة، فنسمع منهم كلاما عجيبا لا يدخل عقول

الأطفال، ويسارعون إلى تصديق كل ما هو مستحيل عن دين محمد وعن أتباعه. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن بعض النصارى العرب يسيرون على نفس الدرب ويكذبون كذبا منحطا قائلين إن خالد بن الوليد قد وضع قائدا من القواد الذين هزمهم أثناء حرب الردة عقب وفاة النبى فى قِدْرٍ وطبخه وأكله. وهو ما يدل على أن الحرب التى تُشَنّ على الإسلام حرب فاجرة منحطة لا تعرف مروءة ولا رجولة ولا يحترم مُؤَجِّجوها من يخاطبونهم. بل إن من الغربيين أنفسهم من يشكك فيما يقال عن انتشار أكل اللحم البشرى بين المتوحشين مُرْجِعًا الشائعات المتعلقة بهذا الكلام إلى رغبة أبناء جنسه فى تسويغ استعمار البلاد المتخلفة خلال الهجمة الاستعمارية إذ يزعمون أنهم إنما أَتَوْا إليها لتمدين سكانها والأخذ بأيديهم فى مدارج الرقى والتحضر. ثم يأتى القمنى فيتقول على العرب هذه التقولات السافلة. ومع هذا فلنفترض أن العرب كانوا يمارسون هذه الرذيلة المتوحشة فما ذنب الإسلام؟ لكن ماذا تقول فى التخلف القمنى والحقد الأوربى؟

وها هو ذا ما تقوله "Encyclopaedia Britannica"، التى كتبها العلماء البريطانيون أنفسهم، فى مادة "Cannibalism": "Though many early accounts of cannibalism probably were exaggerated or in error, the practice prevailed until modern times in parts of West and Central Africa, Melanesia (especially Fiji), New Guinea, Australia, among the Maoris of New Zealand, in some of the islands of Polynesia, among tribes of Sumatra, and in various tribes of North and South America" (ط٢٠١٦م)، وهو ما يعززه النص التالى من نفس المادة: "Cannibalisme" فى النسخة الفرنسية من موسوعة "Encarta" (ط٢٠٠٩م): "À partir des récits des missionnaires et conquérants espagnols arrivés en Amérique du Sud, l'image des sauvages mangeurs d'hommes, en Afrique, en Amazonie ou en Océanie, imprègne l'imaginaire occidental et nourrit la description des peuples exotiques"، ومنه يتبين ألا صلة للعرب ولا لأحد فى منطقة الشرق الأوسط بهذه الوصمة، ومن ثم فكل ما قاله القمنى تدليس واطئ.

أما مضاجعة الحيوانات فكان ينبغى أن يوجه القمنى نظره إلى الغرب حيث صارت مضاجعة البشر والحيوانات، والآلات أيضا، أمرا اعتياديا لا يثير استنكارا ولا حتى استغرابا. والعجيب أنه يتقرب إلى الغربيين بهذا الكلام، فيصدقون أن العرب يفعلون هذا السلوك الشاذ المنحط ويلوون

أعطافهم اشمئزازا وتقززا، رغم أن هذا السلوك المفترى ينبغى على العكس أن يحظى برضاهم، إذ كثيرون منهم يمارسونه ولا يجدون فيه أدنى مشكلة. فما عدا مما بدا؟ وفى مادة "Zoophilia" (أى ممارسة البشر الجنس مع الحيوانات) بـ"Encyclopaedia Britannica" نقرأ ما يلى: " Sexual relations between a human being and an animal. Although the practice is illegal in most countries, occasional zoophilic encounters are fairly common, especially in rural areas, where 17 percent of U.S. males in the Kinsey report of 1948 acknowledged sexual experience with animals at least once. Sexual contacts between women and animals occur less frequently".

والعجيب أن فى الكتاب المقدس ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا يضاجعون الذكور والحيوانات: "٢٢وَلاَ تُضَاجِعْ ذَكَرًا مُضَاجَعَةَ امْرَأَةٍ. إِنَّهُ رِجْسٌ. ٢٣وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ بَهِيمَةٍ مَضْجَعَكَ فَتَتَنَجَّسَ بِهَا. وَلاَ تَقِفِ امْرَأَةٌ أَمَامَ بَهِيمَةٍ لِنِزَائِهَا. إِنَّهُ فَاحِشَةٌ" (اللاويون/ ١٨)، "١٣وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ، فَقَدْ فَعَلاَ كِلاَهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا... ١٥وَإِذَا جَعَلَ رَجُلٌ مَضْجَعَهُ مَعَ بَهِيمَةٍ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَالْبَهِيمَةُ تُمِيتُونَهَا. ١٦وَإِذَا اقْتَرَبَتِ امْرَأَةٌ إِلَى بَهِيمَةٍ لِنِزَائِهَا، تُمِيتُ الْمَرْأَةَ وَالْبَهِيمَةَ. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا" (اللاويون/ ٢٠)، ورغم هذا سكت القمنى عن هذا الموضوع الذى يثبت نقيض ما يريد تماما. وحتى لو كان العرب قبل الإسلام ينتهجون هذا الشذوذ البغيض فإن الإسلام دين نظيف يشدد أقوى التشديد فى تحريم أية ممارسات جنسية مع غير الزوجة على النحو الطبيعى؟

أما قوله إن "الأرض بالنسبة للبدو شىء لا قيمة له" فهو، ككل ما قاله، برهان كبير على أنه جاهل غليظ الجهل. لقد كانت المعارك تنفجر بين البدو فى الجاهلية بسبب الأرض، سواء كانت مرعى أو بئر ماء. وهذا من الأمور المعروفة لكل من لديه اتصال بحياة العرب. وعلى كل فلست أدرى لماذا أثار تلك النقطة. ولهذا ننتقل إلى النقطة التى بعدها، وهى أن "البدو هم الذين اخترعوا رب السماء حتى يصبح الوصول إليه مستحيلا، ثم اختاروا شخصا منهم (إشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) يتحدث إلى رب السماء مباشرة، وأن محمدا بالنسبة لهم ليس بملك، وإنما هو الوسيط القائم بينهم وبين رب السماء".

وعجيب أن يسمى الله: "رب السماء"، والله هو رب الأرض ورب السماء ورب الكون كله! إن هذا الشخص لعامى الفكر والتصور، إذ يظن أن الله متحيز فى السماء. والحق أنه، بعلمه السطحى، يصعب عليه معرفة أن الله أكبر من المكان والزمان لأنه هو خالق المكان والزمان، ومن ثم لا يمكن أن يحتويه سبحانه شىء. لكنه، بعقله العامى، يحسب الله ساكنا السماء. ثم كيف اخترع البدو (يقصد العرب) يا ترى رب السماء؟ ألم يكن الرب موجودا قبل البدو عند الأمم الأخرى؟ ألم يكن عند الفرس رب؟ ألم يكن عند اليهود رب؟ ألم يكن عند النصارى رب؟ ألم يكن عند أتباع إبراهيم رب؟ ألم يكن عند المؤمنين بنوح رب؟ وإذا كان الرب اختراعا بدويا عربيا كما يزعم فكيف يفسر لنا إيمان الأمم الأخرى غير البدوية بهذا الاختراع البدوى بما فيها كثير من الغربيين هذه الأيام من كل طبقات المجتمع، ومنهم الساسة والعلماء والصحافيون والمستشرقون والقسيسون والرياضيون والمؤلفون؟

ثم كيف يقول إن البدو (أى العرب) هم الذين اخترعوا الرب وأقاموا من محمد وسيطا لهم بينهم وبينه، وكل من على وجه البسيطة يعلم تماما أن العرب رفضوا الإيمان بمحمد وبما جاءهم به محمد إلا بعد اللَّتَيا والتى، وشنوا عليه الحروب بغية القضاء عليه وعلى دينه وأتباعه قبل أن يشعروا بالفشل وييأسوا من الوصول إلى غايتهم ويفيقوا من خمار الوثنية ويدخلوا فى دينه؟ لقد اتهموه صلى الله عليه وسلم بالكذب والسحر والجنون ونَسْخ أساطير الأولين، وآذَوْه وتآمروا على حياته وشنعوا عليه وحاربوه. ثم يأتى القمنى فيقول إنهم اتفقوا مع محمد على أن يكون وسيطا لهم عند الله! وا عجبا!

كما فاته أن الإسلام لا يقبل القول بأية وساطة بين الله وعباده، ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول، حسبما أَمَرَه ربُّه، إنه ليس له من الأمر شىء، وإنه لا يعرف الغيب، وإنه لا يدرى ما يفْعَل به. كما كان دائم الاستغفار والتذلل له عز شأنه. فكيف يقال إنه كان واسطة بين الرب والبدو؟ لقد كانت رسالة الإسلام فى جوهرها ثورة على الوساطة بين الله وعباده. وكان المشركون يقولون إنهم يعبدون الأوثان ليقربوهم إلى الله زلفى، فأتى الإسلام ليهدم هذه الوساطة وليفتح الطريق

والأبواب بين العباد وبين ربهم. وليس فى الإسلام ما فى بعض الأديان الأخرى من وجوب قيام الكاهن بقيادة الصلاة وتقديم القرابين وطقوس التعميد والزواج والموت، إذ المسلم لا يحتاج فى صلاته ولا قرابينه ولا اعتناقه الإسلام أو زواجه أو موته إلى كاهن، بل يستطيع أن يقوم أى مسلم بهذا كله. ولقد حَدَث أنْ صَلَّى أبو بكر بالمسلمين فى حياة النبى وفى مسجده صلى الله عليه وسلم إماما، ثم جاء النبى وائتم به رغم أن أبا بكر، مع فضله وعظمة نفسه وسمو خلقه، ليس إلا واحدا من أتباعه عليه السلام.

إن أمر العبادة وسائر الشعائر فى الإسلام لهو من البساطة والسلاسة بمكان. بل ليس شرطا أن يصلى المسلم بالضرورة فى مسجد كى تُتَقَبَّل صلاته، إذ الأرض كلها مسجد، وتربتها طَهُور له بنص كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أن استغفار المسلم ربه من أخطائه لا يستلزم تدخل الكاهن، بل يكفى شعوره بالندم وابتهاله لربه أن يغفر له. بل إن الله سبحانه لينادى الخطاة كل ليلة بنفسه مباشرة أن يبادروا بالغفران والتوبه حتى يتوب عليهم ويغفر لهم ما بدر منهم من ذنوب وآثام. وفى الذنب الذى ارتكبه أبوانا الأولان لم يستغرق الأمر أكثر من أن يرفعا أكفهما إلى ربهما ويطلبا غفرانه ورحمته. وليس هناك ما يدعو لنزول الله إلى الأرض ليقوم بنفسه بفداء البشر من خطيئتهم فيقْتَل ويصْلَب. فكيف يقلب هذا الجهول الحقائق على هذا النحو السافر الغشوم؟

ثم هل قيم الإسلام قيم بدوية؟ إن الإسلام دعوة إلى تشغيل العقل فى كل شىء، ودعوة إلى تقديس العمل والإنتاج، ودعوة إلى السعى وراء العلم واكتسابه من المهد إلى اللحد، ودعوة إلى القراءة، ودعوة إلى اللياقة والذوق الراقى البديع. فهل الحضارة سوى هذا؟ وأخيرا وليس آخرا كيف يتسق ما يقوله الجهول من أن البدو هم الذين اخترعوا فكرة الله مع ما يقوله أيضا من أنهم قد فعلوا ذلك كى يكون الوصول إليه مستحيلا؟ لو كان الأمر كذلك ما اخترعوه أصلا من العدم حتى لا يكون هناك إله، ومن ثم لا يكون هناك أى أمل فى الوصول إليه لأن ما لا يوجد لا يمكن الوصول إليه. وهو ما يذكرنى بالمثل القائل: أذنك من أين يا جحا؟

ولقد بلغ من تقدم قيم الإسلام المذهل فى مجال العلم مثلا أن البروفسير إ. ستيفن فى كتابه: "Muhammad and Learning" يبدى انبهاره وانشداهه بمكانة العلم فى الإسلام مؤكدا أن دين محمد قد تفوق على الحضارة الحديثة فى موقفها من العلم، إذ أقصى ما بلغته هذه الحضارة أَنْ جعلت التعلم حقا لكل إنسان، لكن محمدا قد جعله فرضا واجبا، وهو ما يعنى أن المسلم لا يمكنه أن يتهاون فى هذا الأمر، وإلا باء بغضب الله، بينما الإنسان فى العصر الحديث يمكنه بكل بساطة أن يهمل التعلم لأنه حق له، وليس على الإنسان أدنى حرج أو مؤاخذة إذا ما قرر التنازل عن حقه ولم يبال بالحصول عليه. كما استغرب البروفيسير المذكور أن يقول محمد ذلك فى الوقت الذى كانت الكنيسة فيه تحرم على أتباعها قراءة الكتاب المقدس ذاته. ويضاف إلى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد جعل العلماء ورثة الأنبياء، ووضع العالم فى مكانة أعلى كثيرا جدا من مكانة العابد، وأخبرنا أن الحيتان فى البحار تستغفر لطالب العلم، كما أمر سبحانه وتعالى نبيه بالدعاء له أن يزيده علما. وهو ما لم يأمره بالاستزادة من شىء غيره. كما أقسم سبحانه بالقلم والكتابة، ودعا إلى القراءة وأمر بأن ينْفِر من كل فرقة من المسلمين أثناء الحرب طائفة للتفقه فى الدين والعلم. ويطالب القرآن خصومه بالبرهان واستعمال العقل والتفكير.

ثم إن هؤلاء البدو الذين يتأفف منهم القمنى سرعان ما صاروا سادة الدنيا ثقافة وعلما وسياسة واقتصادا، وأضحَوْا كعبة القُصّاد وقِبْلة مريدى التحضر، فى الوقت الذى كانت أوربا فيه تغرق فى بحار الأمية والوحشية والتخلف: حكاما ومحكومين حتى إنه لم يكن فى القارة العجوز مكان تشع منه أنوار الثقافة والحضارة سوى بلاد الأندلس، التى كان يحكمها المسلمون. والحق أنى لا أتذكر أنى قرأت فى تاريخ الدول الإسلامية أثناء تربعها على عرش الحضارة والعلم عن وجود رجل أمى. لا أقول بالضرورة إنه لم يكن يوجد أميون قط بين المسلمين بل أقول إنى لا أستطيع أن أتذكر أنى قرأت خبرا يدل على أنه كانت هناك مشكلةُ أميةٍ كالتى نعانى منها الآن ونشكو مر الشكوى. الواقع أن أروبا فى ذلك الوقت كانت فى حال أسوأ من حال البداوة.

ويدلنا على المدى الشاسع الذى بلغه انتشار العلم والمعارف ببلاد المسلمين أن أحد الباحثين الهنود المسلمين المعاصرين، وهو د. أكرم ندوى الأستاذ بـ"مركز أكسفورد للدراسات العربية والإسلامية"، بدا له منذ سنوات أن يسجل أسماء النساء المسلمات اللاتى اشتغلن بعلم الحديث ظانا أن الأمر لن يستغرق أكثر من كراسة صغيرة، فإذا به ينفق فى هذا العمل سنوات، وتملأ أسماء السيدات المحدثات وحدهن أربعين مجلدا كبيرا. وهذا مذكور بالتفصيل الكبير فى فصل كامل من كتاب "If the Ocean Werw Ink" (ترجمة لقوله تعالى: "لوكان البحر مدادا") للصحفية الأمريكية الشهيرة كارلا باور اليهودية الأم الكويكرية الأب، التى سجلت إعجابها الشديد به رغم أنها لا تكن للإسلام، فيما شعرت وتنبهت، مودة كبيرة على عكس ما يظن من سمع باسم كتابها من المسلمين. بيد أن القمنى يهرف بما لا يعرف.

وما دمنا فى سياق الحديث عن ندوة فى بريطانيا فإلى ذلك الجاهل الحكاية التالية عن أحد ملوك بريطانيا حتى يعرف أن ما يقوله هو كلامٌ متخلفٌ، إذ بعث جورج الثانى ملك إنجلترا والنرويج والسويد برسالة إلى هشام الثالث فى الأندلس جاء فيها: "إلى صاحب العظمة خليفة المسلمين هشام الثالث الجليل المقام من جورج الثانى ملك إنجلترا والنرويج والسويد. بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الضافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة لاقتفاء أثركم لنشر العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة. وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف، وتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وفى حماية الحاشية الكريمة. وقد أرفقتُ الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص. من خادمكم المطيع جورج الثانى".

وهذه حكاية أخرى عن ملك إنجليزى آخر ليقرأها ذلك الذى يستصرخ المستعمرين ليأتوا ويحتلوا بلادنا مرة أخرى، فحق عليه ما يحق على أى مقترف لجريمة الخيانة العظمى، فلعلها تفيده

فهما، وإن كنت يائسا من ذلك. ففى عام ١٢١٣م أرسل جون لاكلاند ملك إنجلترا وفدا سريا مكونا من ثلاثة أشخاص إلى محمد الناصر حاكم المغرب وإفريقيا وإسبانيا جاء فيها أنه يسره أن يضع بريطانيا أمانة بين يديه ويتخلى عن الاعتقاد بالديانة المسيحية ويتمسك ويلتزم بكل إخلاص بدين وعقيدة محمد. ولكن محمدا الناصر، حسبما تقول الروايات، رفض هذا العرض لأنه لم ير ملك إنجلترا ممن يستحقون التحالف معهم.

ثم ها هى ذى حكاية ثالثة ترينا أسلوب تفكير هذا الجهول. وهى مستخلصة من كتاب "عصر أوفا ملك إنجلترا الأنجلو ساكسونى" للدكتور مصطفى حسن محمد الكنانى أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة أسيوط. فقد تولى الملك أوفا شؤون الحكم فى مملكة مرسيا، فحقق حلم وحدة الأنجلوساكسون، وتلقب بـ"ملك كل بلاد الإنجليز"، ودخل فى معاهدات مع شارلمان ملك فرنسا والبابا أدريان الأول. والأثر الباقى من عصره سور أوفا العظيم ذو الخندق الكبير على حدود مملكته مع ويلز البريطانية، ويبلغ طوله مائتين وواحدا وأربعين كيلومتر تقريبا، وهو أعظم عمل إنشائى أقيم على سطح الأرض فى أوروبا على امتداد تاريخها القديم والوسيط. ويعد باعث النهضة الإنجليزية وصاحب الدور الأوحد فى النهوض بالتعليم والثقافة والجيش وإصلاح النظم التشريعية والمالية والاقتصادية، كما اهتم بالتجارة الخارجية وتنشيطها بعقد الاتفاقيات التجارية مع الفرنسيين والخلافة العباسية. ولهذا السبب كان يتمتع بمكانة عظيمة وحب كبير. ورغم هذا كله فإن أغلب المؤرخين المهتمين بدراسة تاريخ إنجلترا الأنجلوساكسونية قد مروا على عصر الملك أوفا مرور الكرام بينما أهمل فريق آخر الإشارة إليه تماما. وأخطر من ذلك أن جميع وثائق عصره، دون وثائق غيره من الملوك الإنجليز، قد اختفت. وكانت ثالثة الأثافى أن المصادر المعاصرة له لم تشر إلى نهايته. وقد أكدت الوثائق أن البابا أدريان بابا روما ٧٧٢– ٧٩٥م، الذى عزز النفوذ البابوى فى الغرب عن طريق التحالف مع شارلمان ملك فرنسا، أرسل بعثة عاجلة إلى إنجلترا عام ٧٨٦م وضع على رأسها أسقف أوستيا المشهور بتجاربه العديدة فى مجال التبشير بالمسيحية، ومعه مجموعة من القساوسة ذوى التاريخ الطويل فى العمل الكنسى والتبشيرى. وفى نفس الوقت أغرى البابا أيثلبرت ملك

إيست، الذى جرده أوفا من أغلب اختصاصات الملك، بمواجهة أوفا، فكان النصر لأوفا وقتل أيثلبرت بعد أسره. ومن المفارقات العجيبة أن البابا أصدر قرارا باعتبار أيثلبرت قديسا شهيدا لا متمردا، وأمرت الكنيسة بحفظ جسده فى كاتدرائية هيرفورد، التى أقيمت تخليدا لذكراه، وخلافا لما اعتادت عليه فإن المصادر الكنسية المتخصصة فى تاريخ القديسين والشهداء لم تشر إلى حيثيات القدسية التى أسبغها البابا على أيثلبرت من قريب أو من بعيد.

لقد كانت تصرفات البابا منطلقة من نظرته العدائية للملك أوفا، إذ كان يعده عدو الكنيسة الرومانية اللدود، ويرى أنه قام بأعمال أدت إلى تقويض دعائم الإيمان، وهددت سلطان الكنيسة الرومانية وهددت بإخراجها من انجلترا. وما كان هذا الخطر سوى ما تردد عن إسلام الملك أوفا سرا واتصاله بالخلفاء العباسيين فى تلك الفترة. وبلغ الأمر ذروته حينما استبدل بالدينار الذى صكه فى أول أيام ملكه والذى كان نقشه الصليب من جهة وصورة الملك من جهة أخرى دينارا آخر هو الدينار الذى كان نقشه من عبارات التوحيد الخالص. وهذا الدينار من أهم العملات فى تاريخ أوروبا الوسيط، فبرغم الأخطاء الكثيرة التى تثبت جهل ضارب الدينار باللغة العربية نقرأ فى أحد وجهى القطعة عبارة "لا اله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله" بالعربية. ثم أضاف فى إطار هذا الوجه عبارة "أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله". أما فى وسط الوجه الثانى فنجد كتابة عربية أخرى هى "محمد رسول الله". وفى وسط هذه الجملة وضع اسمه بالحروف اللاتينية. أما فى حافة هذا الوجه فقد كتب باللغة العربية: "بسم الله. ضُرِب هذا الدينار سنة سبع وخمسين ومائة"، وهى توافق عام ٧٧٤م. ولا تزال صورة هذا الدينار فى المتحف البريطانى تحكى حقد الكافرين على دين الله والكيد لكل من اتبع هدى المرسلين. لقد قامت الكنيسة الإنجليزية بالقضاء على كل الوثائق العائدة لهذا الملك بسبب اعتناقه الإسلام (كما يرجح الكاتب ومعه جمع من المؤرخين). فأسقطت بذلك عمدا فترة من تاريخ هذه الأمة.

وقد مات الملك أوفا عام ٧٩٦م فى بلدة أوفلى. ولم يدفن، كالعادة المتبعة، مع أقرانه من الملوك فى كنيسة العاصمة أو كاتدرائيتها بل فى مصلى صغير خارج تلك البلدة بمبنى مجهول على حافة نهر

الأوسك، الذى اشتهر بفيضاناته المدمرة. وقد تم دفنه بهذه الصورة المشبوهة على أمل أن يدمر الفيضان المصلَّى بمن فيه، وهو ما تحقق فعلا. فالمقبرة قد أصابها التصدع حتى انهارت مع المبنى وغارت فى أعماق النهر بفعل الفيضانات المدمرة على مر السنين. ومضت سنوات بعد ذلك حتى كان عصر الملك جون، الذى حكم بين عامى ١١٩٩ و١٢١٦م، فحاول البحث عن مقبرة الملك أوفا لدفنه فى المكان اللائق به وإحياء ذكراه. وقد بعث هذا الملك إلى الخليفة الموحدى محمد الناصر لدين الله برسالة يعلن فيها استعداده لاعتناق الإسلام والدخول فى زمرة الموحدين وإدخال انجلترا تحت راية التوحيد. ولهذا اتهمته البابوية بالكفر وعدته من الهراطقة الخارجين عن الإيمان وسعت لعزله وإصدار قرارات الحرمان ضده

أما عن علاقة المسلمين بغير المسلمين فقد قال القمنى: "داخل الوحش عقل يرفض فكرة المواطنة والانتماء والتراب والطين ويبخسه ويكره العمل المنتج". كما زعم أن المسلم مكلف تكليفا ربانيا بكراهية غير المسلم، وأن الإسلام نسخ كل آيات السلم، مستشهدا بقول الله تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب"، كما زعم أن قتل غير المسلم عند المسلمين أهم من فريضة الصلاة.

وتعليقا على هذا الهراء نقول: كيف يقال إن الإسلام يكره فكرة المواطنة ويدعو إلى كراهية غير المسلمين داخل المجتمع وإنه يحض على القتل والقتال ويرفض السلم، وقد كان أول عمل عمله الرسول غداة هجرته إلى المدينة كتابة الصحيفة، التى سوى فيها بين طوائف سكانها من مسلمين ويهود ووثنيين وأرسى قواعد التعاون بينهم؟ ولقد ظل المسلمون يحترمون تلك الصحيفة وبنودها إلى أن تكررت الخيانات من جانب اليهود، فكان ما كان من إجلاء بنى النضير وبنى قينقاع والاكتفاء بذلك حتى وقعت الخيانة العظمى القاتلة من بنى قريظة، إذ خططوا للقضاء على النبى والإسلام والدولة الناشئة قضاء مبرما واشتركوا مع الأحزاب فى التآمر الشيطانى من أجل تحقيق هذا الغرض لولا لطف الله بالمسلمين وتقييضه لهم نعيم بن مسعود الغطفانى، الذى أسلم فى ذلك الوقت الحرج العصيب سرا، وقام بالإيقاع بين المكيين والقرظيين ففكك عرى المؤامرة الخسيسة

الإبليسية، وأفشل خطط يهود وجعلهم يلزمون حصونهم بعد أن شككهم فى نيات القرشيين الذين كانوا يحاصرون المدينة ويعملون بالتعاون معهم على تدمير الدولة الجديدة تدميرا نهائيا. ألم يقل الرسول عليه السلام: "من ظلم معاهَدًا أو انتقصه أو كلَّفه شيئا فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة"؟ ألم يقف القرآن مع اليهود الذين اتُّهموا ظلما بالسرقة ونزلت الآيات فى الدفاع عنهم وفضح متهِميهم من المنتسبين للإسلام وتنبيه الرسول إلى ما كاد يقع فيه من خطإ جراء المؤامرة المحبوكة من قِبَل اللصوص الحقيقيين؟ قال تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ولا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * ولا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يبَيِّتُونَ مَا لا يرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا فَمَنْ يجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يكُونُ عَلَيهِمْ وَكِيلا * وَمَنْ يعْمَلْ سُوءًا أَوْ يظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يسْتَغْفِرِ اللَّهَ يجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يضِلُّوكَ وَمَا يضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يضُرُّونَكَ مِنْ شَيءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكَ عَظِيمًا".

لقد أُنْزِلَتْ تلك الآيات فى شأن طُعْمَة بن أُبَيرِق، الذى سرق درعا واتهم به أحد اليهود، وهَمّ نبى الله صلى الله عليه وسلم بتبرئته ظنا منه أنه ليس اللص بناء على شهادة من حوله. لكن القرآن نزل ففضح طعمة بن أبيرق، ووعظ النبى صلى الله عليه وسلم وحذّره أن يكون مدافعا عن الخائنين. وتحكى الروايات أن طعمة رجل من الأنصار، فسرق درعا لعمه كانت وديعة عنده، ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم اسمه: زيد بن السمين. فجاء اليهودى إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم يهتف، فلما رأى ذلك قوم طعمة جاؤوا هم أيضا إلى النبى ليعذروا صاحبهم. وكان نبى الله

عليه الصلاة والسلام قد همّ بعُذْره انخداعا بهم وبحلفهم على براءة طعمة، حتى أنزل الله فى شأنه تلك الآيات الكاشفة الحاسمة.

وذات مرة وُجِدَتْ جثة أحد المسلمين عند أسوار خيبر، وقام فى نفس أخيه أن اليهود هم الذين قتلوه، وقصد النبى وأطلعه على ما يعترى قلبه من شكوك، منتظرا منه أن يعاقبهم على تلك الجريمة. لكن كان للرسول عليه السلام موقف آخر رغم العداوات التى كانت بينه وبين اليهود ورغم المؤامرات التى لم تكن تنقطع من قِبَلِهم تجاهه، فأصدر حكما مختلفا عما توقعه المسلم لم يدن فيه الخيبريين ما دام لم يحضر شاهدين بأنهم هم قتلته. جاء فى الحديث الشريف "أنَّ ابنَ مُحَيصَةَ أصبَح قتيلا على أبوابِ خيبر، فغَدا أخوه على النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، رأيتُ أخى أصبَح قتيلا على أبوابِ خيبر. فقال: شاهِداكَ على مَنْ قتَله، ويدْفَعُ إليكَ برُمَّتِه. قال: كيف لى بشاهدَينِ، وإنما أصبَح قتيلا على أبوابِهم؟ قال: فتُحَلِّفُ خمسينَ قَسامةً. قال: كيف نَسْتَحلِفُهم، وهم يهود؟ قال: فقضى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بديتِه، وأعانَهم بنِصْفِه".

ثم ألم يقف الرسول احتراما لجنازة يهودى مرت به وهو جالس، مما أثار استغراب الصحابة الذى كانوا معه فى ذلك الوقت، فكان تعقيبه الذى حفظه التاريخ عن جنازة اليهودى: "أليستْ نَفْسًا"؟ ففى "صحيح البخارى": "كان سهلُ بنُ حنيفٍ وقيسُ بنُ سعدٍ قاعدينَ بالقادسيةِ، فمَرُّوا عليهما بجنازةٍ، فقاما، فقيلَ لهما: إنَّها من أهلِ الأرضِ. أى من أهلِ الذِّمَّةِ. فقالا: إنَّ النبى صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ مرَّتْ بهِ جنازةٌ، فقام، فقيلَ لهُ: إنَّها جنازةُ يهودى. فقال: أليسَتْ نفسًا؟".

وهناك الرواية التالية أيضا، وهى ترينا كيف كان النبى عليه السلام يعامل اليهود الذين لم يقترفوا خيانة ولا انتهجوا غدرا. وصاحب الرواية هو عبد الله بن سلام، الذى كان حبرا من أحبار اليهود وأسلم: "إنَّ الله تبارَك وتعالى لما أراد هُدَى زيدِ بنِ سَعْنَةَ قال زيدُ بنُ سَعْنَةَ: إنَّه لم يبقَ مِن علاماتِ النُّبوَّةِ شىءٌ إلا وقد عرَفْتُه فى وجهِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ نظَرْتُ إليه إلا اثنين لم أخبُرْهما منه: يسبِقُ حِلْمُه جهلَه، ولا يزيدُه شدَّةُ الجهلِ عليه إلا حِلْمًا. فكُنْتُ أتلطَّفُ له لأنْ أُخالِطَه فأعرِفَ حِلْمَه وجهلَه. قال: فخرَج رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الحُجُراتِ، ومعه على بنُ أبى

طالبٍ، فأتاه رجلٌ على راحلتِه كالبدوى فقال: يا رسولَ اللهِ، قريةُ بنى فلانٍ قد أسلَموا ودخَلوا فى الإسلامِ كُنْتُ أخبرتهم أنَّهم إنْ أسلَموا أتاهم الرِّزقُ رغدًا، وقد أصابهم شدَّةٌ وقحطٌ مِن الغيثِ. وأنا أخشى يا رسولَ اللهِ أنْ يخرُجوا مِن الإسلامِ طمَعًا كما دخَلوا فيه طمَعًا. فإنْ رأَيتَ أنْ تُرسِلَ إليهم مَن يغيثُهم به فعَلْتَ. قال: فنظَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى رجلٍ إلى جانبِه أراه عمرَ فقال: ما بقى منه شىءٌ يا رسولَ اللهِ. قال زيدُ بنُ سَعْنَةَ: فدنَوْتُ إليه فقُلْتُ له: يا محمَّدُ، هل لك أنْ تبيعَنى تمرًا معلومًا مِن حائطِ بنى فلانٍ إلى أجلِ كذا وكذا؟ فقال: لا يا يهودى، ولكنْ أبيعُك تمرًا معلومًا إلى أجلِ كذا وكذا ولا أُسمِّى حائطَ بنى فلانٍ. قُلْتُ: نَعَمْ. فبايعَنى صلَّى الله عليه وسلَّم فأطلَقْتُ هِمْيانى فأعطَيْتُه ثمانينَ مثقالا مِن ذهبٍ فى تمرٍ معلومٍ إلى أجلِ كذا وكذا. قال: فأعطاها الرَّجلَ وقال: اعجَلْ عليهم وأغِثْهم بها. قال زيدُ بنُ سَعْنَةَ: فلمَّا كان قبْلَ محلِّ الأجلِ بيومينِ أو ثلاثةٍ خرَج رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فى جِنازةِ رجلٍ مِن الأنصارِ، ومعه أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ ونفرٌ مِن أصحابِه. فلمَّا صلَّى على الجِنازةِ دنا مِن جدارٍ فجلَس إليه، فأخَذْتُ بمجامعِ قميصِه ونظَرْتُ إليه بوجهٍ غليظٍ ثمَّ قُلْتُ: ألا تقضينى يا محمَّدُ حقِّى؟ فواللهِ ما عَلِمْتُكم، بنى عبدِ المطَّلبِ، لمُطْل. ولقد كان لى بمُخالَطتِكم عِلمٌ. قال: ونظَرْتُ إلى عمرَ بنِ الخطَّابِ وعيناه تدورانِ فى وجهِه كالفلَكِ المستديرِ، ثمَّ رمانى ببصرِه وقال: أى عدوَّ اللهِ، أتقولُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أسمَعُ وتفعَلُ به ما أرى؟ فوالَّذى بعَثه بالحقِّ لولا ما أُحاذِرُ فَوْتَه لضرَبْتُ بسيفى هذا عنقَك. ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ينظُرُ إلى عمرَ فى سكونٍ وتُؤدةٍ، ثمَّ قال: إنَّا كنَّا أحوجَ إلى غيرِ هذا منك يا عمرُ: أَنْ تأمُرَنى بحُسْنِ الأداءِ، وتأمُرَه بحُسْنِ التِّباعةِ. اذهَبْ به يا عمرُ فاقضِه حقَّه وزِدْه عشرينَ صاعًا مكانَ ما رُعْتَه. قال زيدٌ: فذهَب بى عمرُ فقضانى حقِّى وزادنى عشرينَ صاعًا مِن تمرٍ، فقُلْتُ: ما هذه الزِّيادةُ؟ قال: أمَرنى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أزيدَك مكانَ ما رُعْتُك. فقُلْتُ: أتعرِفُنى يا عمرُ؟ قال: لا، فمَن أنتَ؟ قُلْتُ: أنا زيدُ بنُ سَعْنَةَ قال: الحَبْرُ؟ قُلْتُ: نَعم، الحبرُ. قال: فما دعاك أنْ تقولَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما قُلْتَ وتفعَلَ به ما فعَلْتَ؟ فقُلْتُ: يا عمرُ، كلُّ علاماتِ النُّبوَّةِ قد عرَفْتُها فى وجهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ نظَرْتُ إليه إلا اثنتينِ لم

أختبِرْهما منه: يسبِقُ حِلْمُه جهلَه، ولا يزيدُه شدَّةُ الجهلِ عليه إلا حِلْمًا. فقد اختبَرْتُهما، فأُشهِدُك يا عمرُ أنِّى قد رضيتُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نبيا، وأُشهِدُك أنَّ شَطْرَ مالى، فإنِّى أكثرُها مالا، صدقةٌ على أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقال عمرُ: أو على بعضِهم، فإنَّك لا تسَعُهم كلَّهم. قُلْتُ: أو على بعضِهم. فرجَع عمرُ وزيدٌ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال زيدٌ: أشهَدُ ألا إلهَ إلا الله وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم".

ثم لو كان الإسلام يدعو إلى كراهية الآخرين دون أن يستوجبوا الكراهية فلم يا ترى حرص الإسلام على تكرير القول بأن الله فضل بنى إسرائيل على العالمين؟ ولا يقل أحد إن الرسول كان يطمع فى أن يؤمنوا به، فلذلك تملقهم بهذا الكلام، إذ كان القرآن قد قال من قبل فى خيانتهم وعبثهم بكتابهم المقدس وتمردهم وعصيانهم لأنبيائهم ما قال مما لا يجهله أى قارئ للقرآن. كذلك هناك أمر آخر من أعجب الأمور. فرغم كل الحملات القرآنية على اليهود لم ينكر الإسلام يوما معجزات موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل، الذين يمثلون العزة والكرامة اليهودية. ويزيد الأمر عجبا أن القرآن، منذ الفترة المكية ذاتها، كان كلما سأل المشركون محمدا عليه السلام أن يأتيهم بآية أجابهم بأن الآيات ليست فى يده بل هى من عند الله، وأن زمنها قد ولى لأنه قد ثبت أن الكفار لا يؤمنون من خلالها بل يزدادون عتوا وتصلب مخ. فلم يا ترى لم يغلق الرسول ذلك الباب من أساسه منذ البداية ويعلن أنه لم تكن هناك يوما معجزات وأن ما قيل فى كتب القوم عنها هو كذب وتدليس؟ وعلى من يجادل فى ذلك إثبات أنه كانت هناك معجزات فيما سبق. وبطبيعة الحال لا يمكن إثبات ذلك عمليا أبدا.

أما ما قاله القمنى عن كراهية الإسلام للسلم فها هى ذى آيات القرآن وأحاديث الرسول فى ذلك المجال. قال تعالى: "وقَاتِلُوا فى سبيلِ اللهِ الذين يقاتِلونكم، ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين"، "وإن جَنَحُوا للسَّلْم فَاجْنَحْ لها وتَوَكَّلْ عَلَى الله. إنه هو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"، "وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأَجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أَبْلِغْه مأمنَه"، "إلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثم لم ينْقُصُوكُمْ شَيئًا وَلَمْ يظَاهِرُوا عَلَيكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ. إن الله يحِبُّ الْمُتَّقِين"،

"إلا الذين عاهدْتم عند المسجدِ الحرامِ: فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم"، "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ. وَلَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللَّهِ. وَلا تَحْزَنْ عَلَيهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيقٍ مِمَّا يمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ".

ويقول صلى الله عليه وسلم: "لاتتمنَّوْا لقاء العدوّ. ولكن إذا لقِيتموهم فاثبتوا". وفى عام الحديبية انتهج الرسول بكل قواه سبيل السلام والتضحية من أجله والرضا بشروط قريش المجحفة حتى لقد نشز عليه أنصاره بعض الوقت، وقال عمر: كيف نُعْطَى الدنيةَ فى ديننا؟ وكان تعليقه أنه على استعداد لتنويل قريش ما يريدون من شروط ما دامت نتيجتها تعظيم حرمات البيت العتيق.

جاء فى "سنن أبى داود": "خرج النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه. فلما أتى ذا الحُلَيفة قَلَّد الهَدْى وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عينا له من خزاعة هو يسر بن سفيان. وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال: إن قريشا جمعوا لك جموعا، وقد جمعوا لك الأحابيش (أخلاط القبائل التى حول مكة)، وهم مقاتِلوك وصادّوك عن البيت ومانِعوك... وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التى يهْبَط عليهم منها بَرَكَتْ به راحِلته، فقال الناس: حل حل! خلأت القصواء (مرتين). فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ما خلأتْ، وما ذلك لها بخُلُقٍ. ولكنْ حَبَسَها حابسُ الفيل. ثم قال: والذى نفسى بيده لا يسألونى اليوم خطة يعظّمون بها حُرُمَات الله إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرها، فوثبتْ، فعَدَل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ قليل الماء. فجاءه بُدَيل بن ورقاء الخزاعى، ثم أتاه عروة بن مسعود فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم. فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على النبى صلى الله عليه وسلم، ومعه السيف وعليه المِغْفَر، فضرب يده بنَعْل السيف وقال: أَخِّرْ يدك عن لحيته. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أَى غُدَر، أولستُ أسعى فى غَدْرَتك؟ وكان المغيرة صَحِب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غَدْر لا حاجة لنا فيه. فذكر الحديث: لما كاتب رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو يوم الحديبية على قضية المدة،

وأبى سهيل أن يقاضى رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم إلا على ذلك، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا، فتكلموا فيه، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: اكتب "هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللهِ". وقص الخبر (وخلاصته أن سهيلا رفض كتابة عبارة "رسول الله" وأصر على ذكر اسم "محمد" فقط من غير الإشارة إلى رسالته، وهو ما وافق عليه النبى عليه السلام توخيا للسلام وتجنبا للخصومة والجدال)، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددتَه إلينا (وهو ما وافق النبى عليه حرصا على السلام وابتعادا عن أسباب الخصام والخلاف، مما أحزن الصحابة حزنا شديدا). فلما فرغ من قضية الكتاب قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا (وهنا لم يستجب الصحابة على الفور بل أخذ الأمر وقتا بسبب حزنهم وظنهم أنهم قد غُبِنوا فى هذا الصلح). فردَّ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أحدٌ من الرجال إلا رده فى تلك المدة، وإن كان مسلما. ثم جاء نسوة مؤمنات مهاجرات، فكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم وهى عاتق، فجاء أهلها يسألون رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم حتى أنزل الله تعالى فى المؤمنات ما أنزل: "يا أيها النبى، إذا جاءك المؤمنات... الآية"، فنهاهم الله أن يردوهن وأمرهم أن يردوا الصَّدَاق. ثم رجع إلى المدينة، فجاءه أبو بَصِير، رجل من قريش، فأرسلوا فى طلبه، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذ بلغا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا. فاستلَّه الآخر فقال: أجل. قد جربتُ به. فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَد، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: لقد رأى هذا ذعرا. فقال: قد قُتِل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: قد أوفى الله ذمتك، فقد رددتنى إليهم، ثم نجانى الله منهم. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر. وينفلت أبو جندل فلحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة...".

ولهذا الحديث صلة بالآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى يلوّح بها كثير من المستشرقين والمبشرين فى وجوه المسلمين زاعمين أن الإسلام دين قتل وعدوان وإرهاب. وهذه هى: "فإذا انسلخ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فاقتُلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحْصُرُوهم واقْعُدُوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ...". ذلك أنه "لما وادعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أهلَ مكةَ (فى صلح الحديبية)، وكانت خزاعةُ فى صلحِه، وبنو بكرٍ فى صلحِ قريشٍ، فكان بينهم قتالٌ، فأمدَّتْهم قريشٌ بسلاحٍ وطعامٍ، فظهروا على خزاعةَ وقتلوا منهم... وجاء وفدُ خزاعةَ إلى النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فدعاهُ إلى النصرِ"، فـ"بعث رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى قريشٍ: أما بعدُ، فإنكُم إن تَبَرَّأُوا من حلفِ بنى بكرٍ أو تَدُوا خُزَاعَة ، وإلا أُوذِنْكُم بحربٍ. فقال قَرَظَةُ بن عبد عمرُو بن نوفلِ بن عبد منافٍ صهرُ معاوية: إنّ بنى بكرٍ قومٌ مشائيم، فلا نَدِى ما قتلوا ألا يبقَى لنا سَبَدٌ ولا لَبَدٌ، ولا نبرَأُ من حِلْفِهِم، فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهُم. ولكِنّا نُؤْذِنهُ بحربٍ".

وفى تفسير الطبرى للآيات الأولى من سورة "التوبة" نراه يشير إلى ما وقع من المشركين من غدر وخيانة للمعاهدات التى كانت بينهم وبين المسلمين، إذ يقول: "وأَوْلَى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين وأَذِنَ لهم بالسياحة فيه بقوله: "فَسِيحُوا فِى الأرْضِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ" إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته. فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه فإن الله جلّ ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: "إلا الذين عاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيئًا ولَمْ يظاهِرُوا عَلَيكُمْ أحَدًا فَأَتِمُّوا إلَيهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ. إنَّ الله يحِبُّ المُتَّقِينَ". فإن ظنّ ظانّ أن قول الله تعالى ذكره: "فإذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المُشْرِكينَ حَيثُ وَجَدْتُمُوهُم" يدلّ على خلاف ما قلنا فى ذلك، إذ كان ذلك ينبئ عن أن الفرض على المؤمنين كان، بعد انقضاء الأشهر الحرم، قتل كل مشرك، فإن الأمر فى ذلك بخلاف ما ظن. وذلك أن الآية التى تتلو ذلك تنبىء عن صحة ما قلنا وفساد ما ظنه مَنْ ظَنّ أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك: كان له عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يكن له منه عهد، وذلك

قوله: "كَيفَ يكُونُ للْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ؟ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فاسْتَقِيمُوا لَهُمْ. إنَّ اللَّهَ يحِبُّ المُتَّقِينَ". فهؤلاء مشركون، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستقامة لهم فى عهدهم ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم وتَرْك مظاهرة عدوّهم عليهم".

ويقول رشيد رضا فى تفسير تلك الآية: "قد عاهد صلى الله عليه وسلم المشركين فى الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط تساهل معهم فيها منتهى التساهل عن قوة وعزة لا عن ضعف وذلة، ولكنْ حُبًّا للسلم ونَشْر دينه بالإقناع والحجة. ودخلت خزاعة فى عهده صلى الله عليه وسلم كما دخلت بنو بكر فى عهد قريش. ثم عدا هؤلاء على أولئك، وأعانتهم قريش بالسلاح فنقضوا عهدهم، فكان ذلك سبب عودة حال الحرب العامة معهم وفَتْحِه صلى الله عليه وسلم لمكة، الذى خضد شوكة الشرك وأذلَّ أهله. ولكنهم ما زالوا يحاربونه حيث قدروا، وثبت بالتجربة لهم فى حالى قوتهم وضعفهم أنهم لا عهود لهم ولا يؤْمَن نَقْضُهم وانتقاضهم كما يأتى قريبا فى قوله تعالى من هذه السورة: "كَيفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ؟" (التوبة/ ٧) إلى قوله فى آخر آية: " فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ ينتَهُونَ" (التوبة/ ١٢)، أى لا عهود لهم يرْعَوْنَها ويفُون بها. والمراد أنه لا يمكن أن يعيش المسلمون معهم بحكم المعاهدات المرعية فيأمن كل منهم شر الآخر وعدوانه مع بقائهم على شركهم الذى ليس له شرع يدَان به، فيجب الوفاء بالعهد بإيجابه. كيف وقد سبقهم إلى الغدر ونقض الميثاق من كانوا أجدر بالوفاء، وهم أهل الكتاب؟ هذا هو الأصل الشرعى الذى بُنِى عليه ما جاءت به هذه السورة من نبذ عهودهم المطلقة وإتمام مدة عهدهم المؤقتة لمن استقام منهم عليها"

ومرة أخرى هذه هى الآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى يتخذها أعداء الإسلام دليلا على أن الإسلام دين القتل والإرهاب وإكراه الناس بالسيف على اعتناقه: "فإذا انسلخ الأشهُرُ الحُرُمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كُلَّ مَرْصَد". والمتأمل فيها وفى ألفاظها وأسباب نزولها وسياقها من الآيات التى حولها ومن القرآن كله سوف يتحقق أن ما

يقوله أعداء ديننا ليس إلا أباطيل وتدليسات متهافتة. كيف؟ أولا المشركون فى الآية ليسوا كل المشركين بإطلاق بل طائفة منهم فحسب، إذ إن "أل" فى الكلمة هى للعهد وليست للجنس ولا للماهية. أى أن المشركين المأمور بقتلهم هم مشركون معينون لا يستغرقون المشركين كلهم جميعا. فأى طائفة من المشركين إذن هؤلاء؟ إنهم هم المشركون الذين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة فلم يحترموها وغدروا بهم واعتدَوْا عليهم وقتلوا فريقا منهم خيانةً وغِيلَةً. والدليل على ذلك قوله تعالى عقب هذا: "كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؟ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظْهَروا عليكم لا يرْقُبوا فيكم إِلًا ولا ذمةً؟ يرْضُونكم بأفواههم، وتَأْبَى قلوبُهم، وأكثرُهم فاسقون * اشْتَرَوْا بآيات الله ثمنًا قليلا فصَدُّوا عن سبيله. إنهم ساءَ ما كانوا يعملون". فالمشركون الذين أمر القرآن المسلمين بقتلهم إنما هم المشركون الخائنون الغادرون الذين أخذوا فريقا من حلفاء المسلمين غيلة فقتلوهم رغم ما كان بين الطائفتين من اتفاقيات مغلظة. لقد كان الأمر أمر علاقة بين دولتين لا أمر أشخاص من هنا وأشخاص من هناك. ولا يصلح أن تترك الدول حقها وكرامتها فى هذه الظروف دون أن تعاقب الغادرين الخائنين، وإلا انتقض أمرها وطمع فيها كل من هب ودب. ومع هذا فلم يحدث فى الواقع أنْ وضع المسلمون هذا الأمر موضع التنفيذ، إذ قد آتى ثمرته بمجرد إعلانه على الملإ، فكف المشركون شرهم عن المسلمين وأخذوا يدخلون فى الإسلام تباعا. ليس ذلك فقط، بل إن القرآن قد أعطى المشركين المعتدين فترةَ سماحٍ أربعةَ أشهرٍ قبل أن تدخل الآية حيز التطبيق يستطيع فيها كل مشرك أن يسيح فى البلاد خلالها دون أن يتعرض له المسلمون بأى أذى. بل إن أى مشرك لو استجار بالمسلمين حينئذ لوجب على المسلمين أن يجيروه إلى أن يسمع كلام الله ثم يبلغوه مأمنه فى طمأنينة وسلام دون أن يرَوِّعوه مجرد ترويع، فضلا عن أن ينْزِلوا به أى ضرر.

على أنْ ليس هذا كل شىء، إذ القرآن يوجب على المسلم أن يعامِل، بمنتهى البر والإقساط، غير المسلم ما دام لم يقاتله فى الدين ولم يعتد عليه أو يخرجه ظلما من وطنه. ثم إن الإسلام يحرّم على المسلمين الاعتداء على أىّ أحد لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، اللّٰهم إلا إذا بُدِئوا

بالعدوان الغشوم، فعندئذ من حقهم رد العدوان بمثله. وهذا مما لا يمكن أن يشاحّ فيه عاقل منصف.

فهذا هو تفسير الآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى جعل أعداء الإسلام هِجِّيراهم التشنيعَ بها على الإسلام واتهامَه تدليسًا وافتراءً بأنه دين عدوان وإكراه. وهو تفسير يرتكز، كما رأينا، على التحليل اللغوى والسياق القرآنى والمناسبة التاريخية التى ظهر فيها النص. ولولا هذا التحليل والتفسير لَظَنَّ مَنْ لا عِلْم لهم أن ما يردده أعداء الإسلام فى هذا المضمار جَرَّاءَ امتلاخِ الآية من سياقها هو كلام صحيح.

وفى ضوء هذا التحليل ينبغى أن نقرأ صدر سورة "التوبة" بآياته الخمس عشرة كلها لا الآية الخامسة وحدها بعيدا عن سياقها. يقول تعالى: "بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ ينْقُصُوكُمْ شَيئًا وَلَمْ يظَاهِرُوا عَلَيكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يعْلَمُونَ * كَيفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيفَ وَإِنْ يظْهَرُوا عَلَيكُمْ لا يرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ * لا يرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآَيَاتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيمَانَ لَهُمْ

لَعَلَّهُمْ ينْتَهُونَ * أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيدِيكُمْ وَيخْزِهِمْ وَينْصُرْكُمْ عَلَيهِمْ وَيشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيذْهِبْ غَيظَ قُلُوبِهِمْ وَيتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

وأما قوله تعالى فى ذات السورة: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيوْمِ الْآخِرِ وَلا يحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يعْطُوا الْجِزْيةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"، وهى الآية التى يطنطن بها القمنى وأمثاله اتباعا لما يقوله المبشرون والمستشرقون، فهى خاصة بالروم حين فكروا أن يغزوا بلاد العرب رغبة منهم فى الإطاحة بالرسول ودولته. ومن هنا كان قراره صلى الله عليه وسلم بالتوجه شمالا لاستطلاع طِلْع الروم. لكنه عليه السلام لم يعثر للروم على أثر فعاد أدراجه ولم تقم الحرب، وعقد عليه السلام بينه وبين بعض القبائل ورؤسائها هناك اتفاقات صلح. أى أنه قد ترتب على تلك الغزوة الصلح لا الحرب.

تقول "الموسوعة العربية العالمية" فى مادة "غزوة تبوك": "غزوة تبوك دارت وقائعها فى رمضان من العام التاسع الهجرى بين المسلمين بقيادة الرسول محمد والروم بالشام. ذُكِر من أسبابها أن هرقل ملك الروم جمع جموعا من الروم وقبائل العرب الموالية له لحرب المسلمين، فعلم بهم رسول الله فخرج إليهم فى نحو ثلاثين ألفا فى سنة مجدبة وحرّ شديد... وعندما وصل النبى إلى تبوك هابه الروم فتفرقوا، فلم يتوغل الرسول فى أرض الروم، ورجع بعد أن صالح يحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة، وأُكَيدِر دومة الجندل، وقذف الرعب فى قلوب الروم. وكان رجوعه منها فى رمضان. وكان لهذه الغزوة أعظم أثر فى بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأى قوة من القوات أن تعيش فى بلاد العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا آمال كانت تتحرك فى قلوب بقايا الوثنيين والمنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالروم، ولكنهم استكانوا بعد هذه الغزوة... وتتابع قدوم الوفود على الرسول وتكاثر إلى أن بلغ القمة بعد هذه الغزوة لتجديد البيعة أو إعلان إسلام أقوامهم. وصالح الرسول فى هذه الغزوة

القبائل وسكان مناطق الحدود الشمالية بين الحجاز وأرض الشام، فَأَمَّنُوا بذلك قاعدة متقدمة أمامية لعملياتهم المقبلة باتجاه الروم فى أرض الشام".

ولكى يعرف القارئ أبعاد الموقف آنذاك نسوق له هذا الحديث الذى يتكلم عن توقع المسلمين فى ذلك الوقت غزو غسان لهم. ومعروف أن غسان كانت ولاية عربية تقوم فى شمال غرب بلاد العرب، وتَتْبَع دولةَ الروم، ومن مهامها صد هجمات الأعراب على دولة هرقل. فتفكير غسان فى الهجوم على المدينة معناه بالتبعية أن الروم هم الذين يحرضونهم للقيام بهذا الهجوم لحسابهم. يقول عمر بن الخطاب مصورا شعور الناس فى ذلك الوقت: "كان لى صاحبٌ من الأنصارِ . إذا غبتُ (أى إذا غبتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) أتانى بالخبرِ، وإذا غاب كنتُ أنا آتيهِ بالخبرِ. ونحن حينئذٍ نتخوَّفُ مَلِكًا من ملوكِ غسانَ ذُكِر لنا أنه يريدُ أن يسيرَ إلينا، فقد امتلأت صدورُنا منه. فأتى صاحبى الأنصارى يدقُّ البابَ وقال: افتح، افتح. فقلتُ: جاء الغسانى؟ فقال: أشدُّ من ذلك. اعتزل رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ أزواجَه".

وفى تفسير قوله عز شأنه فى آخر الآية: "حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون" يقول محمد رشيد رضا فى "تفسير المنار": "هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا. أى قاتِلوا مَنْ ذُكِر عند وجود ما يقتضى وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان سببا لغزوة تبوك، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالين اللذين قيدت بهما: فالقيد الأول لهم، وهو أن تكون صادرة عن يد أى قدرة وسعة، فلا يظْلَمون ويرْهَقون. والثانى لكم، وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم". وقد نقل رشيد رضا فى أول تفسيره للآية المذكورة عن الشيخ محمد عبده الكلام التالى: "واعلم أن هذه الآية فى قتال أهل الكتاب وما قبلها فى قتال مشركى العرب ليس أول ما نزل فى التشريع الحربى، وإنما هو فى غايته. وأما أول ما نزل فى ذلك فقد بينا مرارا أنه آيات سورة الحج: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا..." (الحج/ ٣٩) ثم قوله تعالى من سورة البقرة: "وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا..." (البقرة/ ١٩٠). وفى تفسيرها

ما اختاره شيخنا من أن القتال الواجب فى الإسلام إنما شُرِع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها. ولذلك اشْتُرِط فيه أن يقَدَّم عليه الدعوة إلى الإسلام. وقال إن غزوات النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها دفاعا، وكذلك حروب الصحابة فى الصدر الأول. ثم كان القتال بعد ذلك من ضرورة الملك، وكان فى الإسلام مثال الرحمة والعدل".

والعجيب بعد ذلك أن يدعو القمنى الدول الاستعمارية إلى المجىء لمصر وبلاد المسلمين لاحتلالها واستعمارها. وهى خيانة وطنية سافرة مجرمة. أى أنه يهاجم كذبا وزورا الإسلام الذى لا يعتدى على أحد، وفى ذات الوقت يهلل للاستعمار الغربى لبلاد المسلمين ويتمنى عودته ويحرض عليه: "وزعم القمنى: بلدنا لم تعرف الحداثة إلا بعد أن دخلت فرنسا مصر. مصر لم تعرف يعنى إيه سياسة وقانون ووطن إلا فى وجود الاستعمار الأوروبى الإنجليزى فى بلادنا. فالحل هو انغراس الحضارة الغربية فى المنطقة". كما حذر القمنى العالم من الإسلام قائلا: إما أن يقف العالم المتحضر أمام هذا الوحش لتحجيمه وفرض العلمانية فرضا أمميا على هذه البلاد مع مراقبين دوليين، وإلا فستخرج منها عليكم شرور تقضى على الإنسانية. وأكد القمنى أنه يتمنى احتلال مصر من جانب الغرب قائلا: نفسى فى استعمار يجى مصر، بس مفيش". وهذا طبعا كلام تنتشى له نفوس الغربيين ويجرى ريقهم بسببه ويتمنَّوْن لو تعود الأيام الخوالى، أيام الاستعمار الأوربى السافر المباشر لبلادنا وما فيه من إذلال واحتقار لنا وسرقة لثرواتنا وتقتيل لأبطالنا واعتداء على أعراض نسائنا وزيادة لتخلفنا.

ثم إنه لا يكتفى بهذه الخيانة الساطعة بل يحرض النصارى فى مصر على إخوانهم المسلمين تحريضا إجراميا غايته إثارة البغضاء والكراهية بين الفريقين زاعما أن النصارى هم أصحاب البلاد. طيب، والمسلمون؟ هل نقتلهم؟ هل نغرقهم فى البحر؟ هل نطردهم ونبعثرهم فى الصحراء حتى يهلكوا جوعا وعطشا؟ أليسوا هم أهل البلاد كالنصارى، ويزيدون عليهم بأن لهم الغلبة العددية، التى لم تدفعهم يوما إلى التفكير فى التخلص من إخوانهم النصارى أبدا، فمن باب الأولى لا تصح أن تكون سببا فى تفكير إخوانهم النصارى فى التخلص منهم لو استطاعوا؟ ذلك أن الغالبية الساحقة

الماحقة من المسلمين المصريين هى مصرية الهوية أبا عن جد عن سلف، إذ العرب الذين جاؤوا واستوطنوا مصر فى الفترات المختلفة كلها لا يزيدون عن بعض عشرات من الآلاف فى مقابل الملايين التى كانت تسكن مصر فى ذلك الحين. فهل يعقل أن تتكاثر آلاف العرب المحدودة مع الأيام حتى تصير خمسة وثمانين مليونا، وتتناقص الملايين التى كانت تسكن مصر أوانذاك حتى تصير حوالى خمسة بالمائة من أهل مصر حاليا؟ التفسير هو أن الإلبية الساحقة من نصارى مصر قد أسلموا. فهل تنتفى عنهم مصريتهم لمجرد أنهم أَضْحَوْا مسلمين؟ ألا إنه لأمر غريب! وعلى أية حال هل كانت مصر طَوَال عمرها نصرانية؟ أبدا. كما أن المصريين، حين دخلوا النصرانية، لم يتنصروا جميعا، بل ظل هناك كثير جدا من الوثنيين. وقبل ذلك كانت مصر وثنية طوال تاريخها تقريبا. فهل يصح أن يأتى الوثنيون الآن وينادوا بالتخلص من النصارى بدورهم بحجة أن الوثنية سابقة عليهم فى مصر، وكانت تستوطنها لأدهار طوال مثلما ينادى مثير الفتن والأحقاد الآن بالتخلص من المسلمين بحجة أن دخول النصرانية لمصر سابق على دخول الإسلام إليها؟ إن ما يقوله هذا المأفون إنما هو إثارة للأحقاد والطائفية الكريهة وإشعال للحروب بين المسلمين والنصارى. فلماذا؟ ولحساب من؟ ولم هذا الإصرار الآن على تفجير تلك المواضيع فى ظل هذه الظروف التى تمر بها بلادنا الحبيبة؟ ثم أليس النصارى يؤمنون بإله هم أيضا؟ فلم لا يتهمهم بالتخلف كما اتهم المسلمين لنفس السبب؟ أم إن قلة الأدب والجلافة والبذاءة وسفالة اللسان ونتانته ينبغى أن توجَّه للمسلمين وحدهم؟

ونأتى إلى صراخه حول ما نزل ببنى قريظة الخونة المجرمين من عقاب جراء غدرهم بمواطنيهم المسلمين أيام حصار الأحزاب للمدينة بدلا من أن ينهضوا فيقفوا إلى جانبهم كما تقتضى المواطنة وبنود الصحيفة التى كتبت بينهم وبين المسلمين وغير المسلمين غب هجرة النبى عليه السلام إلى يثرب. لقد انتهزوا كل فرصة للغدر بالإسلام، فذهبوا إلى مكة يؤلبون القرشيين على النبى وأتباعه، وكذبوا بوقاحة منقطعة النظير مؤكدين لهم أن وثنيتهم خير من دين محمد. أى أن عبادة الأوثان، التى يجرّمها كتابهم المقدس ذاته، خير من التوحيد النقى الصافى الكريم الذى دعا

إليه محمد. ثم أنبأوهم أنهم، متى ما أَتَوْا لمهاجمة المسلمين فى المدينة، سوف يؤازرونهم حتى يقضوا عليهم القضاء الأبدى. وهو ما صنعوه فعلا لولا أن الله قد ساق فى تلك الظروف المتناهية فى الصعوبة نُعَيم بن مسعود الغطفانى، فأسلم دون أن يعلم بإسلامه أحد، وذهب فأوقع بين اليهود الغدارين وبين سائر الأحزاب، مما ألقى فى قلوب القرظيين الخوف من انصراف قريش وحلفائها ومعهم رهائن من قريظة وتَرْكهم إياهم وحدهم يواجهون المسلمين بلا أى نصير حسبما أوقع الغطفانى فى وهمهم.

ولما انقشع الحصار بفضل الله وصمود المسلمين وتحملهم الأهوال أثناءه اتجه المسلمون إلى بنى قريظة وحاصروهم حتى استسلموا كالنعاج. وهنا طلبوا من الرسول أن يكون القاضى الذى ينظر هذه المسألة هو سعد بن معاذ لما كان بينهم وبينه فى الجاهلية من حلف ومودة. لكن سعدا حكم عليهم بقتل المحاربين وسبى الذرية. وهنا يصرخ القمنى قائلا: كيف يعدم محمد تسعمائة يهودى فى ليلة واحدة يا خلق هوه؟ وطبعا لو كان اليهود قد نجحوا فى خطتهم الشيطانية الإجرامية وقَضَوْا على المسلمين على بكرة أبيهم لفرك يديه حبورا وابتهاجا.

وفى القرآن الكريم أن الله أنزل القرظيين الذين ظاهروا المشركين من حصونهم، فقتل المسلمون منهم فريقا، وأسروا فريقا. أى أن المقتولين هم الخونة فقط. ولا أحد عاقل منصف يمكن أن يعترض على معاقبة مرتكبى الخيانة العظمى. ولكن كم كان عدد المقتولين؟ فى البداية لا بد من توضيح أنه لا يهم عدد المقتولين ما داموا قد اجترحوا الخيانة العظمى قولا واحدا، وبخاصة أننا لو جعلنا ضخامة العدد سببا فى تخفيف الحكم لأدى هذا إلى إغراء المجرمين بالتعاون الواسع النطاق فى اجتراح الخيانة العظمى مطمئنين إلى أن العقوبة سوف تكون خفيفة. وإنى لأسال المعترضين أصحاب القلوب المتراهفة الكاذبة عما يكون موقفهم لو اشترك مئات الأشخاص فى قتل ابن لهم مثلا؟ وهناك اختلاف بين الكتاب المعنيين بالأمر من مسلمين وغربيين حول هذا العدد: فبعضهم يصل به إلى تسعمائة، وبعضهم يقف عند مائتين، وبعضهم ينبهنا إلى ما تقوله الروايات من أن بنى قريظة كلهم، وهم عدة آلاف، وفى رواية أخرى: كل الرجال منهم، قد باتوا ليلة استسلامهم فى أحد

بيوت المدينة. فهل يتسع بيت واحد ولو لمبيت مائة أو حتى خمسين؟ وفى رأى سراج على أنهم لا يمكن أن يبلغوا المائتين. قال ذلك فى كتابه: "A Critical Exposition of the Popular Jihad".

كما ينبه د. بركات أحمد فى كتابه: "Muhammad and the Jews- A ReExamination" إلى جوانب أخرى فى الأمر منها أن أحدا من المشركين أو المنافقين آنذاك لم يتخذ من عقوبة بنى قريظة فرصة لتشويه صورة الرسول عليه السلام، وهم الذين كانوا يتعلقون بأية ذريعة من أجل هذه الغاية. فما معنى هذا؟ معناه، كما يشير، هو أن عدد المقتولين من يهود لم يك من صغره يلفت الأنظار. كما أن عليا والزبير مثلا ممن قالت الروايات إنهما اشتركا فى قتل بعض زعماء قريظة لم ينبسا ببنت شفة فى هذا الموضوع طوال حياتهما. فهل يعقل أن يصمتا صمت القبور على مدار عشرات السنين عن واقعة ضخمة كهذه؟ كذلك نراه يلفت النظر إلى أن المدينة لم تتعرض غب ذلك لأى وباءٍ جراء كثرة الجثث والدماء مع الذباب والطيور الجارحة التى تنقل العدوى. وهو ينزل بعدد المقتولين من خونة اليهود إلى بضعة عشر لأن هذا هو أقصى ما يمكن أن يبلغه عدد قادة القرظيين الذين يستحقون عقوبة الخيانة العظمى، إذ لا يمكن أن يجور محمد عليه السلام فيقتل من لم يشترك فى الجرم الفاحش لأنه لا يصح فى الإسلام أن تزر وازرة وزر أخرى. وهو يتريث أمام سكوت البخارى ومسلم عن وصف تنفيذ العقوبة وعن عدد المعاقبين قائلا إن هذا الصمت ذو مغزى. وبالمثل يستغرب أن يكون عدد قتلى بنى قريظة بهذه الضخامة المفتراة فى الوقت الذى لم يبلغ فيه عدد قتلى المسلمين وأعدائهم فى جميع الغزوات والسرايا طوال حياة الرسول كلها الرقم خمسمائة. وأيا ما يكن عدد المقتولين فلم يكن بينهم طفل واحد عكس ما يدعيه الكذاب الأشر. ثم إن حكم سعد بن معاذ على قريظة لأخف كثيرا جدا جدا من حكم العهد القديم فى هذه الحالة، إذ يقضى كِتَابُ اليهود حينئذ بقتل كل الأعداء المهزومين رجالا ونساء، صبيانا وبنات، وحيوانات أيضا، لا يبقى ولا يذر على أى شخص أو أى شىء.

وهذا بعض ما يجده القارئ عن هذا الموضوع فى سفر "التثنية" وحده من العهد القديم. و"التحريم" الموجود فى النصوص المقتبسة هو القتل والاستئصال: "مَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى

الأَرْضِ الَّتِى أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيهَا لِتَمْتَلِكَهَا، وَطَرَدَ شُعُوبًا كَثِيرَةً مِنْ أَمَامِكَ: الْحِثِّيينَ وَالْجِرْجَاشِيينَ وَالأَمُورِيينَ وَالْكَنْعَانِيينَ وَالْفِرِزِّيينَ وَالْحِوِّيينَ وَالْيبُوسِيينَ، سَبْعَ شُعُوبٍ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ، وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ أَمَامَكَ، وَضَرَبْتَهُمْ، فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ. لاَ تَقْطَعْ لَهُمْ عَهْدًا، وَلاَ تُشْفِقْ عَلَيهِمْ، وَلاَ تُصَاهِرْهُمْ"، "إِنْ سَمِعْتَ عَنْ إِحْدَى مُدُنِكَ الَّتِى يعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَسْكُنَ فِيهَا قَوْلًا: قَدْ خَرَجَ أُنَاسٌ بَنُو لَئِيمٍ مِنْ وَسَطِكَ وَطَوَّحُوا سُكَّانَ مَدِينَتِهِمْ قَائِلِينَ: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا. وَفَحَصْتَ وَفَتَّشْتَ وَسَأَلْتَ جيدًا وَإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ وَأَكِيدٌ، قَدْ عُمِلَ ذلِكَ الرِّجْسُ فِى وَسَطِكَ، فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيفِ. تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلًّا إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ"، "وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِى يعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيينَ وَالأَمُورِيينَ وَالْكَنْعَانِيينَ وَالْفِرِزِّيينَ وَالْحِوِّيينَ وَالْيبُوسِيينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، لِكَى لاَ يعَلِّمُوكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا حَسَبَ جَمِيعِ أَرْجَاسِهِمِ الَّتِى عَمِلُوا لآلِهَتِهِمْ، فَتُخْطِئُوا".

ثم لماذا يعود القمنى إلى الخلف كل هذه القرون المتطاولة ليثير قضية انتهى أمرها بإنزال العقاب المستحق بمن ارتكبها من المجرمين ويذرف الدموع الكاذبة على شياطين لا يستأهلونها؟ لو كان ذا قلب رهيف حقا لذرف بدل الدموع دما على الفلسطينيين المظلومين الذين أُخِذَت منهم بلادهم وقُتِلوا وشُرِّدوا فى الآفاق وأعطيت ديارهم، من قِبَل القوى الكبرى المجرمة، لشُذّاذ الدنيا الذين جمعوهم من هنا ومن هناك، وبالذات من البلاد الغربية التى كانوا يسْتَذَلُّون فيها ويرَوْن الهوان كألمانيا وروسيا مثلا. وحتى اليوم لا يزال الصهاينة ماضين فى مجازرهم المبيرة فى فلسطين وابتلاعهم أراضيها وحقولها وقتلهم أبطالها المغاوير المدافعين عن الأرض والعِرْض وهدمهم بيوتها بالقنابل والألغام على مرأى ومسمع من عيون العالم كله وآذانه دون أن يحرك العالم المنافق ساكنا. وهو امتداد لما سجله العهد القديم عليهم من المجازر المتوحشة التى قاموا بها فى التاريخ البعيد وقيدوها فى كتابهم المقدس افتخارا بها ومباهاة، وأوردنا عينة منها آنفا. وهم، حين يفعلون ذلك، لا يفعلونه عن

حق بل عن غصب وعدوان ووحشية لا مبرر لها على الإطلاق لأن الأرض ليست أرضهم ولا هم ينتمون إلى البلاد بحال. ومع ذلك يسكت القمنى عن هذا كله.

بل يسكت ويسكت جمهوره اللندنى عما سجلته الأناجيل من أنهم قتلوا السيد المسيح وصلبوه. أنا لا أتكلم هنا عن عقيدة المسلمين بطبيعة الحال، فنحن لا نؤمن بأنه صُلِب أو قُتِل. إنما أتكلم انطلاقا من عقيدة جمهور القمنى فى لندن، هذا الجمهور الذى لا يبالى بما حدث لإلهه على أيدى اليهود حسب اعتقاده، ويشغل نفسه ويريد أن يشغلنا معه بجريمة شيطانية ذهبت فى الزمان الأول ونال المجرمين ما يستحقونه من عقاب. وبالمثل سكت القمنى وسكت جمهوره اللندنى عن عشرات الآلاف من الجنود المصريين الذين قُتِلوا بدم بارد فى صحراء سيناء فى مقابر جماعية أثناء حرب يونيه ٦٧، ولا داعى لأن نثير غيرها من المجازر الصهيونية التى اقترفها اليهود فى حق جنودنا دون وجه حق. ولكن ما وجه العجب، وهو يدعو إلى عودة الاحتلال والاستعمار الغربى لمصر وسائر بلاد العرب؟

كما سكت القمنى وسكت معه جمهوره اللندنى عن مئات الآلاف من ضحايا الغزو الأمريكى والغربى لبلاد الرافدين وما تم على أيدى رسل الحضارة الهمجية الشيطانية من تدمير للعراق وحضارته وحاضره ومستقبله، وما تم كذلك على أيدى أولئك الشياطين عتاة الإجرام والشر فى أفغانستان وسوريا وليبيا وغيرها من بلاد المسلمين. ودعنا مما ينزل على رؤوس إخواننا فى بورما والصين والهند وبوروندى ومالاوى ومالى... من بلايا ورزايا يشيب من هولها الغراب. ثم يعيب علينا بعد ذلك الغربيون وأراجوزاتهم ودُمَاهم إرهابنا المزعوم وينفخون فيه ويهولون مَينًا وزورًا لشغلنا عن جرائمهم وخطاياهم فى حقنا وإشعارنا دوما بالذنب والحاجة إلى الدفاع عن أنفسنا فلا نصنع بعد ذلك شيئا.

وبقى من كلام القمنى ما يهرف به عما يجيزه الإسلام من الممارسات الجنسية فى نهار رمضان، الذى من الواضح أنه لم يصمه قط، وإلا لم يقل ما قال: "وزعم القمنى أن الإسلام يبيح للمسلم فى نهار رمضان أن يقضى شهوته الجنسية عن طريق الإيلاج فى القرد أو نحوه، ولا يجوز فى أنثى القرد،

كما يجوز له أن يقضى شهوته بيد طفلة صغيرة أقل من ٤ سنوات". ولا أدرى من أين له بهذه الهلاوس. وهل الصيام فى الإسلام إلا عن الجنس والأكل والشرب؟ لكن ماذا نقول فى الجمهور البريطانى الذى يستمتع بهذا الكلام ويصدقه رغم معرفته أنه كذب فى كذب فى كذب؟ إن كراهية الإسلام لتدفع إلى ما هو أفظع من هذا وأبشع. نعم، فالحقد يعْمِى ويصِمّ فلا يرى صاحبه ولا يسمع ولا يشمّ ولا يحسّ!

أما حكاية البنت ذات الأعوام الأقل من الأربعة فإلى القارئ الكريم السطور التالية التى من الواضح أن القمنى قد قلبها وألصقها بالمسلمين. وهى منقولة عن مقال منشور فى "منتدى أتباع المرسلين": "استثنى الحاخامات لأنفسهم الوطء للبنات من الأمم دون سن الثلاث سنوات. فقد أتى لنا التلمود على لسان الحاخامات بأن الكتاب قد أحل للكهنة الوطء لمن هى دون الثلاث سنوات. واستشهدوا بنصوص سفر "العدد"/٣١: ١٧– ١٨، وفسروها كذلك (وهذا هو نص سفر "العدد" الحادى والثلاثين: "فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِى لَمْ يعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَياتٍ"). وعلى الرغم من أن نص سفر "العدد" يتكلم عن البنات المسبيات فإن الحاخامات أباحوا لأنفسهم بنات الأمم المتحولات لليهودية بشكل عام حتى وإن لم يكنَّ من سبايا الحروب. فنقرأ فى التلمود يفاموت/ الصحيفة ٦٠ العمود ب: "قال الرابای شمعون بن يوحای: المهتدية دون سن الثلاث سنوات ويوم واحد حلال للكهنوت (للكاهن). كما قيل: "وكل طفلة من النساء اللاتى لم يعرفن مضاجعة رجل أبقوهن حيات لكم". وبالتأكيد كان فنحاس معهم".

وما دمنا فى هذا الموضوع فمن المناسب الإشارة إلى ما قالته مؤخرا وزيرة الخارجية الصهيونية السابقة تسيبى ليفنى من أنها استفتت الحاخام الإسرائيلى فأفتاها بصحة ما تقوم به من معاشرة الساسة العرب الذين تقابلهم وتتباحث معهم وتصويرهم وهم يمارسون الزنا معها كى تكون تلك الصور والأشرطة المسجلة سيفا مصلتا على رقابهم يهددهم اليهود به ويبتزونهم ويحصلون منهم على ما يريدون من تنازلات وتفريطات فى الحقوق العربية والإسلامية فى فلسطين. كل هذا، وهى وزيرة

خارجية إسرائيل، فما بالنا بالنساء الاعتياديات اللاتى لسن وزيرات خارجية ولا يحزنون؟ وسؤالنا هو: لماذا يا ترى خرس القمنى فلم يتطرق إلى هذا الأمر، وهو لا يزال حيا ينبض بل ينتفض، لا واقعة ماتت منذ أدهار ونال المجرمين فيها ما يستأهلون من عقاب؟ إن القمنى لا يبحث عن حقائق بل يريد التعمية على المصائب المتلتلة التى يقترفها الصهاينة فى حق العرب من خلال اتهام العرب أنفسهم بجرائم كاذبة كما نرى. إنه يسْمِع الغربيين النغمات التى تشجيهم وتطربهم وتسرّهم، وفى ذات الوقت تشوه العرب والمسلمين وتصورهم بصورة الهمج غير المتحضرين.

وفى نهاية هذا المطاف يستطيع القارئ بكل سهولة أن يقيم مدى صدق منظمة أدهوك فى زعمها أنها قد تأسست من أجل مواجهة التطرف والإرهاب، ونشر ثقافة الحرية والعقل والاختلاف. ترى هل هذه هى ثقافة العقل والحرية والاختلاف؟ أم هل هى ثقافة التعصب والبذاءة والكذب والهوس والبغض والانصياع للفكرة الواحدة وترديد المقولة الواحدة وتحقير الشعوب المسلمة والتحريض عليها وتهديدها بالاستعمار والاحتلال؟

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض
من مواليد قرية كتامة الغابة ـ غربية فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م
تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م
حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م
أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس
البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين
المتنبى – دراسة جديدة لحياته وشخصيته
لغة المتنبى – دراسة تحليلية
المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
المستشرقون والقرآن
ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد
عنترة بن شداد – قضايا إنسانية وفنية
النابغة الجعدى وشعره
من ذخائر المكتبة العربية
السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
جمال الدين الأفغانى – مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
فصول من النقد القصصى
سورة طه – دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة
أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين – دراسة نقدية لرواية "العار"
مصدر القرآن – دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى
نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام – أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"
كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفى جمعة – قراءة فى فكره الإسلامى
إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية – خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد
فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق
سورة يوسف – دراسة أسلوبية فنية مقارنة
سورة المائدة – دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
المرايا المشوِّهة – دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
القصاص محمود طاهر لاشين – حياته وفنه
فى الشعر الجاهلى – تحليل وتذوق
فى الشعر الإسلامى والأموى– تحليل وتذوق
فى الشعر العباسى – تحليل وتذوق
فى الشعر العربى الحديث – تحليل وتذوق
موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم – دراسة تحليلية
منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها
أدباء سعوديون
شعر عبد الله الفيصل– دراسة فنية تحليلية
دراسات فى المسرح
دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
د.محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية – أضاليل وأباطيل
شعراء عباسيون
من الطبرى إلى سيد قطب – دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه
القرآن والحديث – مقارنة أسلوبية
اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
محمد لطفى جمعة وجيمس جويس
"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع – قراءة نقدية

لكن محمدا لا بواكى له – الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون
مناهج النقد العربى الحديث
دفاع عن النحو والفصحى – الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
الفرقان الحق– فضيحة العصر
لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
التذوق الأدبى
الروض البهيج فى دراسة "لامية الخليج"
المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية
سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب – فصول مترجمة ومؤلفة
"تاريخ الأدب العربى" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى)
الأسلوب هو الرجل – شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه
فنون الأدب فى لغة العرب
الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)
فى الأدب المقارن – مباحث واجتهادات
مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)
فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام
بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)
دراسات فى النثر العربى الحديث
"مدخل إلى الأدب العربى" لهاملتون جب – قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى)
مسير التفسير ـ الضوابط والمناهج والاتجاهات
"الأدب العربى – نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)
بشار بن بُرْد – الشخصية والفن
الحضارة الإسلامية – نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ
فى التصوف وأدب المتصوفة
النساء فى الإسلام – نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطى المدنى - الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)
محاضرات فى الأدب المقارن
من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة
ست روايات مصرية مثيرة للجدل
هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى
أفكار مارقة: قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب
موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين - مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل فى مكة" ليوتا
"القرآن والمرأة" لأمينة ودود - النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية
عبد الحليم محمود - صوفى من زماننا
د. ثروت عكاشة - إطلالة على عالمه الفكرى
ثروت عكاشة بين العلم والفن
إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات - قراءة فى كتابه: "النضال من أجل الاستسلام"
دراسات فى اللغة والأدب والدين
"مدخل إلى الأدب العربى" لروجر ألن - عرض وتقويم
على هامش كتاب جوزيف هل: "الحضارة العربية"
ابن رشد- نظرة مغايرة
تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى
من ينابيع الثقافة الإسلامية فى العصرين الإسلامى والأموى
كتاب لويس عوض: "مقدمة فى فقه اللغة العربية" تحت المجهر
"روبنسون كروسو"- دراسة فى الأدب المقارن
أبو نواس الحسن بن هانئ - دراسة فنية نفسية اجتماعية أخلاقية
"لو كان البحر مدادا" للصحفية الأمريكية كارلا باور (حوار مع الشيخ أكرم ندوى) - عرض وتحليل د. إبراهيم عوض
علاوة على الدراسات والكتب المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست